اليقين الكاذب



تأليف

د.حسني البشبيشي

دار حروف منثورة للنشر والتوزيع

مؤسس الدار
مروان محمد

الطبعة الأولى

الكتاب: اليقين الكاذب

المؤلف: د. حسني البشبيشي

تصنيف الكتاب: إسلاميات

تصميم الغلاف: أيمن محفوظ

تنسيق داخلي: راسلان أحمد السيد

مراجعة لغوية: بمعرفة الكاتب

رقم الإيداع: ١٦٨٤٧ / ٢٠٢٥ م

الترقيم الدولي: ٩٧٨٩٧٧٨٨٤٣٣٣٠

Website: https://horofbooks.com

Fan page: http://facebook.com/horofsbooks

Email: info@horofbooks.com

هاتف جوال: ٠٠٢٠١١١٣٠٠٦٢٩٦ – هاتف جوال: ٠٠٢٠١٠٦٤٠٥٤٩٩٥

اليقين الكاذب

تأليف

د. حسني البشبيشي

المقدمة

ـ بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد الأولين والآخرين، أما بعد:

ـ قد يكون الانسان موقنا بالخالق والآخرة لكنه في الحقيقة جاهل يرتدي ثوب اليقين، فما أكثر ما سمع كلاما عن الخالق والآخرة لكنه سماع كاذب، فيحسب أنه سمع وهو في الحقيقة لم يسمع شيئا، بل إنك مهما أسمعته كلاما عن الخالق والآخرة فلن يسمع سماعا حقيقيا وسيظل جاهلا بالله والآخرة، وذلك لأنه لم يتأثر قلبه وجوارحه بما يوقن به.

ـ هذا الكتاب يبين ما يحدث للإنسان الطبيعي عندما يعلم لأول مرة بوجود الخالق والآخرة، والهدف من ذلك أنك سوف تفاجئ أن ما يحدث هو تأثر هائل جدا على القلب والجوارح وتغير كامل في حياته.

ـ فالطبيعي أنه بمجرد أن يعرف الإنسان بوجود الخالق والآخرة ويوقن بذلك فإن حياته كلها من مشاعر وأهداف وطموحات وسلوك وتصرفات وانفعالات وفرح وحزن وغضب وأخلاق وكلام ونية وعمل سوف تتأثر تأثرا كبيرًا، وسوف تتغير حياته بزاوية مائة وثمانين درجة.

ـ كل هذا يحدث إذا تحققت المعرفة الحقيقية بوجود الخالق والآخرة، وذلك لأن كل لذات الدنيا وآلامها ليست بشيء أمام لذات وآلام الآخرة، وسنوات العمر الطويلة ليست بشيء أمام الخلود في الآخرة، وانتقال الإنسان إلى حياة أخرى من جديد هو أمر خطير ومثير، وكذلك فرؤية الخالق لنا وسمعه لنا في كل لحظة ووصول كلامه الينا ولقاءنا به ومحاسبته لنا هو أمر خطير ومثير، لكن لأننا نعيش في زمن الغفلة فالكثير من الناس لا يعلمون أن مجرد المعرفة الحقيقية بالخالق والآخرة هو أمر خطير جدًا ومؤثر جدًا إلى هذه الدرجة، وأصبحت الغفلة هي الوضع الطبيعي المألوف الذي اعتاد عليه الكثير، فإذا جاء أحد ليقول لهم

تعالوا نعرف من جديد معنى أن لنا خالقا ومعنى أننا ذاهبون الى الآخرة لقالوا إنه مجنون أو متخلف!، لكنهم سوف يعلمون ذلك عندما يجدون أنفسهم واقفين على أرض المحشر في الآخرة.

ـ فإذا لم تتأثر حياة الإنسان بالله والآخرة بهذا التأثر الكبير جدًا، أو كان تأثرها قليل جدًا أو شكليًا في بعض المظاهر فهذا يدل على أن اليقين كاذبا.

ـ أصل العبادة الخضوع، والخضوع معناه أن تنتقل من التعلق بالنفس إلى التعلق بالله والاخرة، وهذا معناه أن تتغير طبيعة نظرتك للأشياء ومشاعرك وهمومك وطريقة معيشتك، وتغيير هذه الأمور من أصعب ما يمكن، والطبيعي أن هذا التغيير يحدث بمجرد أن يتحقق اليقين، فيجب عليك أن تزيل المانع الذي منع من حدوث أثر هذا اليقين، لأنه بدون الخضوع أصبح اليقين والدين مجرد صورة لا معنى لها.

ـ القلب إما أن يتعلق بالله والاخرة أو بالنفس والدنيا، وهذا التعلق يمكن أن يتغير كل ساعة وكل يوم، فيمكن أن يزيد أو ينقص أو يزول أو يعود كل ساعة وكل يوم، وبالتالي يجب على الانسان كل يوم أن يبعد تعلقه عن النفس والدنيا ويجعله يتعلق بالله والاخرة ويحافظ على هذا التعلق ويزيده وينميه من خلال التفكر والتدبر والتذكر وما يعين على ذلك كالأذكار مثلا، ولذلك أنصح بقراءة هذا الكتاب مرات كثيرة والقراءة والسماع عن كل من يتحدث عن الله والآخرة باستمرار، ففي الحديث: ((لقلب ابن آدم أشد انقلابا من القدر إذا استجمعت غليانا))(١)، فقد يهتم الانسان بأن يزداد علما بأمور الدين أو يهتم بقيامه ببعض أعمال الدين في حين قلبه يسير في عكس الاتجاه، فقلبه يتراجع شيئا فشيئا عن تعلقه بالله والاخرة حتى يتعلق بالدنيا فيكون خاسرا وهو يحسب أنه يزداد التزاما بالدين!.

ـ هذا الكتاب هو بحث منهجي في إطار القرآن والسنة، والمادة العلمية في هذا الكتاب مستقاة من نصوص القرآن والسنة الصحيحة المحققة ومن

(١) تحقيق الألباني: صحيح (انظر حديث رقم : ٥١٤٧ في صحيح الجامع)

خلال كتب التفسير وأقوال العلماء والسلف الصالح وأمهات كتب التراث، وجميع ذلك محققا وفي شكل منهجي ذو عناصر محددة واضحة وفي إطار منهج أهل السنة والجماعة.

ـ ونظرًا لخطورة القضية التي يعرضها الكتاب فقد استخدمنا أسلوب الشرح المبسط الواضح بعناصر محددة وتكرار شرح المعنى الواحد بأكثر من صيغة لمزيد من الإيضاح، وكل قضية نذكرها في الكتاب نذكر الأدلة القاطعة عليها من القرآن والسنة الصحيحة وكتب التفسير وأقوال العلماء.

والله المستعان وعليه التكلان.

الفصل الأول
مفهوم اليقين الكاذب

ـ الهدف من اليقين بأي أمر هو تحقيق أثره وليس مجرد اليقين، فمثلا ما الفائدة من يقين الإنسان أن أمامه قنبلة يمكن أن تنفجر في أي وقت لكنه لم يتأثر ولم يخاف ويفر هاربا، فمعرفته بالأمر مثل عدم معرفته بالأمر.

ـ مفهوم اليقين الكاذب:

ـ اليقين الكاذب هو اليقين الذي ليس له أثر على القلب والجوارح.

ـ الطبيعي أن الانسان يتأثر بقلبه وجوارحه بما يوقن به بحسب مدى أهمية وخطورة ما يوقن به، فإذا كان أمرا شديد الأهمية والخطورة تعلق به (أي تأثر به تأثرا شديدا).

ـ فالإنسان يعرف الامر ثم يوقن به ثم يتأثر بالأمر ويعمل به، فاذا عرف ولم يوقن أو عرف وأيقن ولكنه لم يتأثر بالأمر ويعمل به فمعرفته كاذبة ويقينه كاذبا.

ـ فاليقين الكاذب معناه وجود اليقين مع عدم التأثر بما يوقن به.

ـ معنى وجود اليقين مع عدم التأثر بما يوقن به:

ـ اليقين معناه أن الإنسان يتعامل مع المعلومة مثل جهاز الكمبيوتر تعطي له معلومات ومعطيات فيعطي لك نتيجة سواء كانت النتيجة مكسب أو خسارة فهو لا يشعر بخطورة النتيجة فليس لديه شعور بالقيمة وليس عنده فرق بين أن يكون حجم النتيجة كبير جدًا أو صغير، وليس لديه فرق بين رقم مليون ورقم واحد، فكلاهما بالنسبة له مجرد أرقام، فليس لديه مشاعر ليفرح بالمكسب أو يحزن بالخسارة، فلا يوجد أي تفاعل سواء سلبًا أو إيجابًا، فالكمبيوتر يعطي نتيجة بأن هناك آخرة وغيبيات وأن ذلك حق فقط.

ـ فهو يتعامل مع المعلومة عن طريق الحسابات والنتائج فقط بغض النظر عن طبيعة المعطيات وطبيعة النتائج، فالأمر لا يهمه ولا يعنيه في شيء، ولا يتأثر بأهمية أو خطورة هذه المعطيات أو النتائج، فالمسألة لا تزيد عن كونها حسابات ونتائج لا أكثر، بغض النظر عن ما هي هذِه الحسابات وما هي هذِه النتائج، فمثلًا هو يصدق على أنه لو وضع عود كبريت مشتعل على البنزين فإنه يحدث حريقًا، لكن لا يهمه الأمر مطلقًا ولا يتصور مدى خطورته.

ـ أنت إذا وقفت أمام أسد حقيقي ولم تتصور خطورة الأمر فلم تشعر بالخوف فهذا معناه أن هذا الأسد في حقيقته بالنسبة لك هو تمثال أو صنم، والفرق بين الأسد الحقيقي والأسد الصنم أن الأخير لا ينفع ولا يضر، وهما مشتركان فقط في الاسم، فالأول له اسم حقيقي والثاني له اسم مخترع.

ـ فالإنسان الذي لا يشعر إطلاقًا بألم الخوف من مهابة النار أو بلذة الشوق إلى الجنة هو في حقيقة أمره لا يعرف شيء اسمه النار ولا شيء اسمه الجنة، فهي في مشاعره أمور مثل الأمور التي لا تنفع ولا تضر فيقتنع بها ولكن لا يعرفها معرفة حقيقية، فهو بذلك قد سلب خاصية الألم من النار وخاصية اللذة من الجنة فأصبحت أمور نظرية لا قيمة لها، وكذلك إذا لم يشعر إطلاقًا بشيء من الخوف من مهابة الله أو شيء من الحب لله فهو لا يعرف ماذا تعني كلمة (الخالق)، وإن كانت كلمات (الخالق) و(النار) و(الجنة) موجودة في الاقتناع واليقين فهي غير موجودة في شعور الإنسان ولا تتأثر بها مشاعره وهمومه وأهدافه وأمانيه وعمله.

ـ إذا كان الإنسان يوقن بمدى قدرة الله على إيجاد كل هذا الكون ومدى علمه في تدبير كل شيء في الكون والمخلوقات ولم يؤدي ذلك إلى التهيب من مدى قدرته وعلمه وحب الإعجاب بمدى هذه القدرة والخوف من غضبه ورجاء نعمائه والعمل من أجل رضاه فهو لا يعرف الله.

ـ تصور أنه حدث زلزال في أحد المباني وكان بداخلة ثلاثة، الأول علم بحدوث الزلزال فخاف وفر هاربا، والثاني كان نائما فلم يعلم بشيء فسقط عليه المبنى والثالث أمره عجيب جدا فقد كان جالسا في مكتبه يأكل

الحلوى ويستمع الى الموسيقى وعلم بحدوث الزلزال ولكنه لم يخف ولم يتحرك وبقي في مكانه هادئا كما هو يأكل الحلوى ويستمع الى الموسيقى، فالأول كان لديه معرفة وكان لهذه المعرفة أثر هو أن دفعته الى الخوف والفرار، والثاني كان جاهلا وبالتالي لم يتأثر بشيء، والثالث كان لديه معرفة ولكن ليس لهذه المعرفة أي أثر فهذه المعرفة كاذبة لأنها لم يكن لها أي أثر وهو كالجاهل تماما ومصيره مثل مصير الجاهل في أن سقط عليه المبنى ولم تنفعه معرفته، بل إن النائم كان معذورا لأن النائم لا يدري بشيء أما الذي عرف فلم يخف ويتحرك فليس له عذر ومعرفته حجة عليه.

ـ قضية الغيبيات والرسل أخطر بكثير من الزلزال لكن المعرفة بها بلا أثر كالرجل الثالث الذي بقي في مكانه يأكل الحلوى ويستمع الى الموسيقى، فمعرفته كاذبة وهو كالجاهل بالغيبيات والرسل.

ـ الهدف من المعرفة واليقين وجود الفائدة منه، أي وجود أثره:

ـ الإنسان إذا علم أن أمامه قنبلة يمكن أن تنفجر في أي وقت فلم يتأثر ولم يخاف ويفر هاربا، فما الفائدة من إخباره، ومعرفته بالأمر مثل عدم معرفته بالأمر، فهذه المعرفة كاذبة لا قيمة لها لأنها لم ينشأ عنها أي أثر وليست معرفة حقيقية.

ـ الهدف من اليقين بأي أمر هو تحقيق أثره وليس مجرد اليقين.

ـ فاليقين الذي يؤثر في القلب والجوارح هو اليقين النافع، أما اليقين الذي لا يؤثر في القلب فهو مجرد كلام باللسان، قال الحسن البصري: ((العلم علمان: علم في القلب، وعلم على اللسان، فعلم القلب هو العلم النافع، وعلم اللسان هو حجة الله على عباده))[(١)].

ـ إذا كنت تمتلك سيارة ولكنك لا تقودها ولا تستفيد منها وتتركها في مكانها دون أن تتحرك فلا قيمة لهذه السيارة ووجودها كالعدم رغم أن

(١) طريقك إلى تقوية إيمانك (ص: ٤٠) الناشر: المكتب التعاوني للدعوة

السيارة سليمة وليس فيها أي مشكلة، ففي هذه الحالة فالذي لا يمتلك سيارة هو مثلك تماما بالنظر الى النتيجة.

ـ كذلك فالهدف من معرفة أي أمر واليقين به هو أنه يستفيد منه، فإذا كان شيئا نافعا أحبه وحرص عليه وإن كان شيئا ضارا خافه وابتعد عنه، فالمهم هو الأثر الذي ينتج من المعرفة واليقين، فإذا عرفت شيئا نافعا فلم تحبه وتحرص عليه فمعرفتك لا قيمة لها، والجاهل بذلك الشيء مثلك تماما فهذه المعرفة كاذبة لأنها لم تحقق الهدف منها.

ـ فتحقيق المعرفة واليقين بأي أمر ليس هو المقصود بذاته ولكن المقصود من المعرفة واليقين هو أن يؤدي الهدف منه.

ـ وكذلك فتحقيق المعرفة واليقين بالله والآخرة ليس هو المقصود بذاته ولكن المقصود من المعرفة واليقين هو أن يؤدي الهدف منه، والهدف منه هو أن يؤدي أثره، فإذا عرف الإنسان الخالق والآخرة تعلق بالله بقلبه وجوارحه، والتعلق بغير النفس هو الخضوع وهو أصل العبادة.

ـ ما هو أثر اليقين بأي أمر؟:

ـ يقين الانسان بأي أمر من الأمور يؤثر على قلبه وجوارحه بحسب مدى خطورة ذلك الامر، فإذا كان أمرا شديد الخطورة تعلق به بقلبه وجوارحه.

ـ تأثر القلب والجوارح عبارة عن أربعة وظائف هي نظرة الانسان الى قيمة الامر وتأثر مشاعره به وانشغال همه به وتأثر جوارحه به.

ـ فإذا كان أمرا شديد الخطورة كان أعظم ما يدهشه من مدى عظمته (شدة التأله) وتعلقت به مشاعره وكان شاغله الأكبر وتعلقت به جوارحه.

ـ فالتعلق هو أعلى درجة في التأثر بالأمر، ويكون للأمر شديد الأهمية والخطورة.

ـ أثر اليقين بالخالق والاخرة:

ـ أثر اليقين بالخالق هو وجود صلة بين الانسان والخالق وأن تصل هذه الصلة الى درجة التعلق به سبحانه وترك التعلق بما سواه.

ـ الطبيعي أن مجرد اليقين بالخالق والاخرة لا يؤدي فقط الى التأثر ولكن الى التأثر الشديد، والتأثر الشديد هو التعلق بالأمر، فالعجيب ان البعض لا يتأثر والأعجب منه أن يتعجب الانسان فيسأل ولماذا هذا التأثر الشديد؟، والاعجب منه أيضا أن يكون غير متأثر بالأمر ويجهل أنه لا يتأثر به.

ـ التعلق هو تعامل الانسان مع الامر بتفاعل وتأثر شديد، وهذا التعلق هو لسان الحال الذي يكشف حقيقة يقينه، فقد يوقن الانسان بالخالق والأخرة والجنة والنار لكنه يتعامل معها كأنها أمور غير حقيقية أو لا قيمة لها أو غير موجودة أو لم يسمع عنها فلا يتأثر بها.

ـ فأثر اليقين بالخالق والاخرة هو التعلق بالخالق والاخرة، وهذا التعلق يتمثل في أربعة عناصر تدل عليه هي شدة التأله وتعلق المشاعر والهم الأكبر وتعلق الجوارح (وتم شرح كل عنصر في فصل مستقل).

ـ اليقين الكاذب هو صورة من صور الجهل:

ـ اليقين الكاذب معناه أن يكون الانسان موقنا لكن في حقيقته هو كالجاهل تماما، فالجاهل بشيء لا يتأثر به ولا أثر له في قلبه ولا في جوارحه وكذلك فصاحب اليقين الكاذب لا يتأثر بما يوقن به ولا أثر له في قلبه ولا في جوارحه.

ـ ربما يحصل إنسانا ما على شهادة في الطب أو في الهندسة أو في مهنة معينة لكن عندما يقوم بمهنته تجد أنه لا يفقه شيء، فهو حصل على مجرد لقب أو اسم أو شهادة فقط، كذلك الذي حقق اليقين بأمر ما خطير ولكنه لا علاقة له بهذا الامر ولا يتأثر به ولا أثر له في حياته فهو فقط حصل على لقب أنه موقنا، فاليقين عنده مجرد اسم ولقب وحقيقة أمره أنه كالجاهل تماما بالأمر.

ـ فقد يوقن الانسان بالله والاخرة ويحسب أنه يعرف ما يوقن به، وفي الحقيقة هو جاهل بما يوقن به ولا يدري بأنه جاهل ويقينه كاذب.

ـ فاليقين الكاذب معناه أن المعرفة موجودة واليقين موجود ولكن تم إيقاف المعرفة عن القيام بوظيفتها فأصبح الانسان جاهلا بالأمر، وبالتالي أصبح اليقين كاذبا.

ـ فاليقين الكاذب هو صورة من صور الجهل يبدو فيها الانسان موقنا وهو في حقيقته جاهل يرتدي ثوب اليقين.

ـ اليقين الكاذب ليس معناه غياب اليقين أو أنه يقين مختلف ولكنه يقين مع معرفة كاذبة فعندئذ يصبح يقينا كاذبا لعدم وجود أثر اليقين، وهذا اليقين هو حجة على الانسان وليس له.

ـ إذا انتقل الانسان من الجهل إلى المعرفة واليقين وبقي حاله كما هو فوجود اليقين مثل عدم وجوده لأنه لم يؤثر فيه شيء، وهو عندئذ كأنه لا يدرك وكأنه لا ينتبه لخطورة ما يقول ويوقن، فإذا كان حال الانسان الموقن مثل حال الجاهل فيقينه كاذب.

ـ صاحب اليقين الكاذب مثل الجاهل تماما من ناحية الحال، فالجاهل لا علاقة له بالشيء الذي يجهله فلا يؤثر في مشاعره أو انفعالاته أو حياته فلا صلة له به، وقد يكون عمله مفتعلا أو عادة أو تقليدا أو مجرد مظاهر روتينية وليس ناشئا عن تأثره بالأمر، فكذلك صاحب اليقين الكاذب.

ـ وطالما أن عالم الغيب أمر خطير وأنت تعلم ذلك ولم تتأثر مشاعرك وحياتك به فسبب ذلك هو أنك لا تزال لا تعرفه معرفة حقيقية كأنك لم تسمع عنه أو كأنك لا تفهم معناه.

ـ الهدف من المعلومة تحقيق أثرها وليس مجرد المعرفة بها واليقين بها، فإذا لم يتحقق أثرها فلا يزال الانسان كالجاهل بها وإن سمعها آلاف المرات.

ـ الجهل نوعين هما:

١ـ جهل ظاهر:

ـ وهو جهل لعدم السماع أو الرؤية أو لعدم الفهم، وفي هذه الحالة فالإنسان معذور بجهله.

٢ـ جهل خفي:

ـ الجهل الخفي معناه أن الانسان يعرف الامر في الظاهر ويحسب أنه يعرفه وهو في الحقيقة جاهل به.

ـ وهو جهل بسبب التجاهل والمعرفة الكاذبة (السماع والرؤية والفهم الكاذب)

ـ والجهل الخفي قد يكون معه يقين وقد لا يكون، وفي الحالة وجود اليقين يكون يقينا كاذبا.

ـ أسباب غياب أثر اليقين:

ـ أي إنسان عاقل إذا عرف أمرا ما وعرف أدلته فإنه يوقن به، وينشأ عن هذا اليقين أنه يتأثر به بقلبه وجوارحه بقدر ما فيه من أهمية وخطورة.

ـ فاذا عرف ولم يوقن أو عرف وأيقن ولكنه لم يتأثر بالأمر ويعمل به فهناك حلل في وظائفه الطبيعية.

ـ وظائف الانسان عبارة عن جانب معرفي وجانب عملي، الجانب المعرفي هو المعرفة واليقين بالأمر، والجانب العملي هو أثر المعرفة واليقين على القلب والجوارح.

ـ المعرفة واليقين بأي أمر خطير لابد أن تؤثر على قلب الانسان وجوارحه، بحسب مقدار ما فيها من الأهمية والخطورة، فإذا لم يحدث هذا التأثر فهذا معناه وجود خلل في وظائف الانسان الطبيعية وهو حدوث انفصال بين الجانب المعرفي والجانب العملي.

ـ المعرفة بالخالق والاخرة لابد أن تؤثر على قلب الانسان وجوارحه، فإذا حدث انفصال بين المعرفة وأثرها فهذا معناه وجود خلل في وظائف الانسان الطبيعية، وهذا معناه وجود انفصال بين العلم والعمل.

ـ فالدين عبارة عن علم وعمل، والعلم يؤدي تلقائيا الى العمل، فإذا تحقق العلم ولم يتحقق العمل فهذا يدل على وجود انفصال بين العلم والعمل، والعلم يقصد به المعرفة واليقين والعمل يقصد به عمل القلب والجوارح.

ـ فقد يحدث تناقض بين العلم والعمل، فالعلم يسير في اتجاه والعمل في اتجاه العكس، فهو يعرف شيئا خطيرا لكنه يتعامل معه مثلما يتعامل مع الشيء التافه أو الشيء الذي يجهله أو الشيء الذي نسيه فهو يهمله ولا يتأثر به ولا ينشغل همه به ولا تتأثر به مشاعره ولا جوارحه، فهو يعرف الطريق الصحيح لكن لا يسير فيه ويعرف ما يفيده ويختار ما يضره، ويعرف الهداية لكن لا يهتدي.

ـ والسبب هو وجود حاجز بين العلم والعمل، فإذا أرشدت إنسان لشيء فيه مصلحته فلم يستجب فهذا معناه أن هذا الرجل غير طبيعي لأن لديه خلل ما أو مانع ما منعه من الاستجابة.

ـ موانع أثر اليقين نوعان هما:

ـ الذي يمنع من تأثر الانسان بدعوة الرسل والغيبيات بعد أن عرفها هو إما موانع يتعمدها الانسان أو مانع هو عقاب من الله تعالى كالتالي:

١ـ موانع يتعمدها الانسان (تعطيل العقل):

ـ الانسان بمجرد أن يعرف أمرا ما عليه دليل فإنه يتأثر به تلقائيا بحسب مقدار خطورته، فلا يستطيع الانسان أن يجعل نفسه جاهلا بأمر ما عليه دليل بعدما عرفه ولم ينساه، وبالتالي لا يستطيع الانسان أن يمنع نفسه من التأثر بأمر ما مؤثر عليه دليل لأنه تلقائيا يقتنع به ويتأثر به، ولكن يستطيع ذلك بأحد أمرين هما:

أـ تعطيل العقل فلا يوقن بأمر عليه دليل:

ـ عقل الانسان مصمم بحيث أنه يقتنع بالشيء إذا عرف أدلته ولا يقتنع بشيء لا يعرف أدلته، ولكن يستطيع الانسان أن يخالف الفطرة فلا يقتنع بأمر عليه دليل، وذلك بأن يعطل عقله ويمنع نفسه من التفكير السليم في الأمر ويوقف تفكيره عند شبهة معينة أو تقليدا أو يعطل عقله عن النظر في الأدلة، ومهما أسمعته الأدلة فإنه يوقف تفكيره عند ظاهر أمر ما.

ـ والذي لا يوقن بأمر عليه دليل يكون مهزوما أمام نفسه، لذلك يلجأ الى التجاهل ليهرب من مواجهة نفسه بالأدلة الواضحة لأن تذكر الأمر قد

يجعله يوقن به: ((فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ (٦٤) ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ))(١).

ب ـ تعطيل العقل بالتجاهل (تعطيل المعرفة):

ـ أي يجعل نفسه كالجاهل بها، فيبطل معرفته بتجاهله للأمر

ـ والتجاهل معناه أنه يتوهم ويتصور لنفسه كأنه لم يسمع عن الأمر أو لا يفهمه، ويتعامل مع الأمر كأنه لعب ولهو وهزل ومزاح وليس جدًا، ويبتعد عن التذكر والتدبر والتفكر في الامر كأن الامر لا قيمة له أو لا يستحق التفكير فيه، ويتعامى عن النظر في الآيات الكونية ويمنع نفسه من كل ما يذكره بالله والآخرة ويهرب من سماع ما يذكر بالله والاخرة وقد لا يرد على المتحدث إذا تكلم في ذلك ولا يتكلم في الأمر مع أي أحد، ويتلهى بشغل الهم بقضايا الدنيا على حساب تذكر الآخرة وشغل الوقت والجوارح بالأعمال التي تذكر بالدنيا على حساب الاعمال التي تذكر بالله والآخرة حتى لا يفكر في شيء غيرها، ويترك أي عمل يتعلق بالغيبيات بطريقة الهروب والتجاهل وعدم الحديث في الأمر.

ـ وإذا استمر في التجاهل طبع الله على قلبه فيظل دائما كالجاهل فمهما ذكرته فلن يتذكر أبدا.

ـ والتجاهل قد يكون مع وجود أو غياب اليقين.

٢ـ مانع هو عقاب من الله للإنسان (المعرفة الكاذبة):

ـ هناك وظيفة طبيعية في الانسان هي أن الجانب المعرفي (المعرفة واليقين) يؤدي الى الجانب العملي (تأثر القلب واليقين بحسب مقدار خطورة الجانب المعرفي)، فالله سبحانه يوقف هذه الوظيفة الطبيعية وهو ما يسمى بالمعرفة الكاذبة (السماع والرؤية والفهم الكاذب).

ـ المعرفة الكاذبة معناها أنك أذا أخبرته بأمر ما فلن يعرفه مهما أخبرته وكررت له المعلومة فلن يعرفها لأن الله عطل هذه المعرفة، فمهما سمع

(١) الأنبياء: ٦٤، ٦٥

عن الخالق والاخرة فسيظل جاهلا، ولو رأى المعجزات أمام عينه فسيظل كأن لم يراها، ومهما أفهمته الأمر فسيظل كأن لا يفهم.

ـ المعرفة الكاذبة هي عقاب من الله للإنسان بسبب الوقوع في أي صورة من صور الشرك بالله أو بسبب الران وهو التمادي في المعاصي حتى يسود القلب وبخاصة معاصي القلوب، وبالتالي فالإنسان هو المسئول عنها أيضا.

ـ فالله يطبع على قلب الإنسان فيجعل معرفته كالجهل ويمنع عنه أثر هذه المعرفة فلن يهتدي أبدا مهما علم إلا إذا أراد الله أن ينفك هذا الطبع.

ـ والفصل الثالث هو بيان لمفهوم المعرفة الكاذبة.

ـ أسباب اليقين الكاذب:

ـ هناك أمور لا تنقض اليقين ولكن تجعله كاذبا، وهي الأمور التي تمنع من حدوث أثر اليقين وهي سببان هما التجاهل والمعرفة الكاذبة.

ـ وهي أمور قد يحسب الانسان أنه أبعد ما يكون عنها والحقيقة عكس ذلك.

ـ فالآخرة ولقاء الله تعالى من أخطر ما يمكن ولكن لماذا لا يؤثر فينا ونتأثر به؟ ذلك لأننا نعيش في غيبوبة لا ندري ما الله وما الآخرة في حقيقة الأمر.

ـ فالمعرفة موجودة ولكن تم إيقاف المعرفة عن القيام بوظيفتها فأصبح الانسان جاهلا بالأمر، وسبب إيقاف المعرفة أحد أمرين هما التجاهل والمعرفة الكاذبة (السماع والرؤية والفهم الكاذب).

ـ فكما أن النسيان يجعل الانسان يعود بعد المعرفة بالأمر الى الجهل به، فكذلك التجاهل والمعرفة الكاذبة يجعلان الانسان يعود بعد المعرفة بالأمر الى الجهل به، ولكنه عندئذ يكون جهلا خفيا حيث يحسب الانسان أنه يعرف الامر وهو في حقيقته لا يعرفه لأن المعرفة تعطلت، فهو في الظاهر عرف الامر لكنه في الحقيقة جاهل به، ولو أخبرته بالأمر ألف مرة فسيظل جاهل به.

ـ فإذا طبع الله على قلب انسان أو تجاهل ما عرفه عاد الى الجهل وهو لا يدري، وإذا كان موقنا بالأمر فيقينه عندئذ كاذب لأن حقيقة أمره أنه جاهل بالأمر، وهذا ليس معناه غياب اليقين، فاليقين موجود لكنه كالعدم.

الفصل الثاني
اليقين الكاذب بوجود خطر هائل

ـ الانسان الغافل يعيش في هدوء تام وعزلة تامة وسط مخاطر هائلة تحيط به، ولا يوجد له أي تأثر بها رغم أنه يوقن بوجود هذه المخاطر، فهو يتعامل معها كأنه لا مشكلة ولا يوجد شيء يدعو للانزعاج ويحسب أن حياته الهادئة هي الوضع الطبيعي.

ـ وجود الخالق والاخرة هي أمور من أخطر ما يكون ولكننا غافلون:

ـ بعض الناس ليس لديهم أي تأثر أو انفعال أو تفاعل أو رد فعل تجاه الغيبيات فحالهم يقول بأنهم لم يسمعوا عن الغيبيات رغم أنهم يوقنون بالغيبيات ورغم أنهم يعلمون أن الغيبيات مسألة من أخطر ما يمكن في حياة الانسان، فكيف يحدث هذا التناقض العجيب؟

ـ كل الناس يعلمون أن لهم خالقا وأنهم ذاهبون الى الآخرة وأن الله أرسل لهم الرسل وأن الدنيا ضئيلة وزائلة ولا قيمة لها وأن الحياة الحقيقية الأبدية في الآخرة ورغم ذلك فإن بعضهم لا تتعلق مشاعرهم ولا همومهم ولا أهدافهم إلا بالدنيا التي يوقنون بأنها ضئيلة وزائلة، فحال هؤلاء يقول أنهم لا يعلمون شيئا عن الخالق والآخرة والرسل، فهذه المعلومة البسيطة التي تقول بوجود الخالق والآخرة وإرسال الرسل مات معناها وتحولت لمجرد مظاهر روتينية، فهؤلاء الناس كأنهم مخدرين غافلين كأنهم لم يسمعوا عن ذلك تماما.

ـ نحن نتعامل مع مسألة وجود الخالق والاخرة بدون تأثر أو تأثر قليل لا يتناسب مع خطورة الأمر ونكتفي بوجود اليقين والقيام ببعض أعمال الجوارح.

ـ أثر المعرفة بالخالق والآخرة هو أمر خطير جدا، فالطبيعي أنه بمجرد أن يعرف الإنسان بوجود الخالق والآخرة ويوقن بذلك فإن نظرة الانسان

للأشياء تتغير فيرى الأشياء على حقيقتها وبالتالي يرى عظمة الخالق وخطورة الآخرة ويرى ضعف نفسه وضآلة الدنيا وبالتالي تتغير همومه وأهدافه التي يعيش لها ، وتتغير نظرته للحياة، فتتغير مشاعره فيصبح يحب شيئا غير الذي كان يحب ويرجو شيئا غير الذي كان يرجو يخاف من شيء آخر غير الذي كان يخاف، فتتغير انفعالاته وفرحه وحزنه وغضبه، وبالتالي تغيير طبيعة تصرفاته وسلوكه وأخلاقه وكلامه ونيته، فتتعلق مشاعره وهمومه وأهدافه بالله والآخرة ولا تتعلق بالدنيا وتتغير حياته كلها من مشاعر وأهداف وطموحات وسلوك وتصرفات وانفعالات وفرح وحزن وغضب وأخلاق وكلام ونية وعمل بزاوية مائة وثمانين درجة.

ـ كل هذا يحدث إذا تحققت المعرفة الحقيقية بوجود الخالق والآخرة، لكن لأننا نعيش في زمن الغفلة فالكثير من الناس لا يعلمون أن مجرد المعرفة الحقيقية بالخالق والآخرة هو أمر خطير جدًا ومؤثر جدًا إلى هذه الدرجة، فهي معلومة بسيطة جدا لكن مات معناها، وأصبحت الغفلة هي الوضع الطبيعي المألوف الذي اعتاد عليه الكثير فإذا جاء أحد ليقول لهم تعالوا نعرف من جديد معنى أن لنا خالقا ومعنى أننا ذاهبون الى الآخرة لقالوا إنه مجنون أو متخلف!، لكنهم سوف يعلمون ذلك عندما يجدون أنفسهم واقفين على أرض المحشر في الآخرة.

ـ وكذلك فالطبيعي أن رؤية الشمس والسماء والآيات الكونية هو أمر مؤثر جدا لكن الكثير يتعاملون معها على أنها أمور عادية جدا لا تدعو للتأثر.

ـ فنحن لا نتكلم في هذا الكتاب عن معلومات عويصة في الدين ولكننا فقط نتكلم عن أبسط معلومة في الدين وهي أن لنا خالقا وأن هناك آخرة.

ـ فإذا لم تتأثر حياة الإنسان بالله والآخرة بهذا التأثر الكبير جدًا، أو كان تأثرها قليل جدًا أو شكليًا في بعض المظاهر فهذا يدل على أن المعرفة كاذبة واليقين كاذبا وحقيقة الانسان عندئذ أنه كالجاهل تماما.

ـ إن مجرد العلم بأن لنا خالقًا فهذه ليست معلومة سهلة؛ لأن معناها أننا نعيش حياتنا خاضعين للخالق، وكذلك مجرد العلم بأن هناك آخرة فهذه ليست معلومة سهلة؛ لأن معناها أننا نعيش حياتنا مترقبين ليوم الميعاد، ولكن لا يزال البعض يعيش في غيبوبة أو في غفلة وسكر لم يفق بعد إلى حجم الخطر الذي ينتظره ولا يدري بما هو صائر إليه بعد لحظات من الخطر العظيم، فنحن مقبلون على خطر عظيم وحدث هام جدًا، والعد التنازلي مستمر الآن، ويوشك أن نلحق بالآخرة، لكننا لا نشعر بذلك، ونظن أن الأيام طويلة والعمر مديد، وإذا كان هناك أحد عنده شيء من الشعور بقدر الآخرة فتكون درجة شعوره ودرجة إفاقته لا تتناسب أبدًا مع خطورة الحدث، فلابد أن تشعر بمدى الفرق الهائل بين الدنيا والآخرة، فعندئذ تشعر بمدى خطورة الآخرة ومدى ضآلة الدنيا فتشعر بالمهابة من ذلك الخطر العظيم (الآخرة).

ـ فالآخرة ولقاء الله تعالى من أخطر ما يمكن ولكن لماذا لا يؤثر فينا ونتأثر به؟ ذلك لأننا نعيش في غيبوبة لا ندري ما الله وما الآخرة في حقيقة الأمر، أي أن المعرفة الموجودة كاذبة والمعرفة الحقيقية غائبة.

ـ والآخرة هي الحقيقة الكبرى المرعبة: ((يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ))(١)، ((قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ (٦٧) أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ))(٢)، وقد سبقنا إليها الكثير والدور علينا، ورغم ذلك فإن مشاعر الناس تجاه الآخرة وأمور الدين فاترة باردة، في حين تتفاعل مشاعرهم وانفعالاتهم تجاه أمور الدنيا الفانية، فالآخرة أمر جاد جدًا وخطير جدًا ولا يحتمل التراخي، ونحن نتعامل معه بلا مبالاة وفتور شديد بغير جدية وإدراك لخطورته، هذا معناه أن هناك غفلة تامة عن الخطر العظيم الذي نحن مقبلون عليه بعد وقت ضئيل جدًا يمر سريعًا دون أن ندري.

---

(١) الحج: ٢
(٢) ص: ٦٧، ٦٨

ـ التناقض بين تعامل الانسان مع الدنيا والاخرة يدل على التناسي للغيبيات:

ـ لو أن رجلًا عاش في الآخرة ثم جاء إلى أهل الدنيا ماذا يمكن أن يقول لهم؟ إنه سوف يجد أهل الدنيا يعيشون في حالة من السكر في غياب تام عن الانتباه لما في الآخرة من خطر، فينادي عليهم: أفيقوا من الغيبوبة!، ورغم أنه سوف يجد الناس على يقين واقتناع تام بالله واليوم الآخر وكل ثوابت الدين، وربما عندهم تفاصيل قد أيقنوا بها أكثر منه هو نفسه، ورغم ذلك فالله والآخرة ليس لهما وجود في شعور البعض ومشاعرهم وهمومهم وأهدافهم، إنه سوف يَعجب من هذا الانفصام التام الذي يتمثل في وجود مسلمين يقرون بالغيبيات ولكن الغيبيات غائبة تمامًا من شعور بعضهم ومشاعرهم وهمومهم وأهدافهم، فكيف يوقن الإنسان بالآخرة التي هي المستقبل والمصير ثم لا يشعر بالمهابة وخوف العقاب وكيف لا يشعر بالغربة وهو مسافر إليها؟! وكيف يوقن الإنسان بالله الذي صنع بقدرته كل البشر والكون وهم مقهورون تحت قدرته ثم لا يشعر بالمهابة والحب إعجابًا بقدرته وخوف العقاب ورجاء الثواب؟! ذلك لأن المعرفة بخطورة الأمر لم تتحقق بعد.

ـ كل الناس يعلمون أن لهم خالقا وأنهم ذاهبون الى الآخرة وأن الله أرسل لهم الرسل وأن الدنيا ضئيلة وزائلة ولا قيمة لها وأن الحياة الحقيقية الأبدية في الآخرة ورغم ذلك فإن بعضهم لا تتعلق مشاعرهم ولا همومهم ولا أهدافهم إلا بالدنيا التي يوقنون بأنها ضئيلة وزائلة، فحال هؤلاء يقول أنهم لا يعلمون شيئا عن الخالق والاخرة والرسل، فهذه المعلومة البسيطة التي تقول بوجود الخالق والاخرة وإرسال الرسل مات معناها وتحولت لمجرد مظاهر روتينية، فهؤلاء الناس كأنهم مخدرين غافلين كأنهم لم يسمعوا عن ذلك تماما.

ـ إن الآخرة التي في مشاعر البعض تختلف عن الآخرة الحقيقية، فإن الآخرة التي في مشاعر بعض الناس اليوم هي آخرة أليفة ودودة لا مشكلة فيها ولا خطر فيها، وإن شعورهم بالآخرة مثل شعورهم بأي شيء عادي! إنك لو قارنت بين خطر الآخرة وبين أي أخطار أو مخاوف في

الدنيا فسوف تجد أن الآخرة لا تمثل في مشاعرك خطرًا حقيقيًا أو أهمية حقيقية مثل أي خطر تواجهه أو تتعرض له في الدنيا فتجد المشاعر متفاعلة به والبال مشغول، وذلك رغم الفارق العظيم بين كل أخطار ومخاوف الدنيا وبين خطر الآخرة، إن الذي لا يتأثر بشيء مؤثر جدًا فإنه غافل عنه كأنه لم يسمع عنه، فهو لا عقل له، إن الآخرة أمر مؤثر جدًا وخطير جدًا ولكن لا يوجد تأثر بها!!، فلا يزال الانسان كالذي لا يعرف الآخرة حتى تكون الآخرة حقيقة واقعة في ذهنه يشعر بخطورتها وبالتالي تؤثر على مشاعره وهمومه وتفكيره وأمانيه؛ لأنها الخطر المرتقب والحياة المنتظرة.

ـ فكلمة (الآخرة) عند من لم يشعر بخطورتها تختلف عن كلمة (الآخرة) عند من يشعر بخطورتها، فالأول يراها أمرًا عاديًا ومجيئها لا يمثل خطورة، والثاني خائف منها: ((يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا))[١]، والأول سوف يُفاجأ المفاجأة الرهيبة بيوم القيامة كأنها مفاجأة لم يكن يسمع عنها لأنه لم يكن يشعر بخطورة الآخرة، ففي تفسير التيسير: (({وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ} أي تصيبهم الحيرة والذهول، لأنهم لم يكونوا يتوقعون قيام الساعة أبدا، يقال: (أبلس الرجل) إذا سكت وانقطعت حجته ولم يؤمل أن تكون له حجة))[٢]، أما الثاني فكان يعيش وعنده تهيئة نفسية فلا يفاجأ بالآخرة وإنما هو منتظر مجيئها ومنتظر تحقيق وعد الله تعالى.

ـ عدم الانتباه لخطورة الآخرة جعل كلمة (الآخرة) اسمًا فقط بلا مسمى حيث تم إفراغ الكلمة من المعنى والقيمة، فأصبحت الآخرة مجرد شكل فقط تم تفريغه من قيمته وتم حجب جميع أثره حيث حدث إفراغ لكلمة (الآخرة) من محتواها الحقيقي فأصبحت كأنها عديمة الأهمية، فهو يتعامل مع كلمة (الآخرة) كأنها تتحدث عن بشر غير موجودين على الأرض وأن هؤلاء البشر سوف يذهبون لعالم آخر غير الأرض، إذن فالقضية لا تخصه هو ولا تعنيه ولا تضره ولا تنفعه فلا يشعر بقيمتها،

(١) الشورى: ١٨
(٢) التيسير في أحاديث التفسير (٥/ ٢٦)

ولا مانع من أن يوافق عليها ولكن لا يستشعر خطورتها لأنها لا تخصه، فهو يتعامل مع المعلومة كأنها تخاطب بشرًا آخرين في كوكب آخر ليسوا على الأرض فلا يخصه الأمر، كأن الكلام ليس موجهًا له، أو كأن هذا الكلام باللغة الإنجليزية وهو لا يعرف غير العربية فبالنسبة له كأنه طلاسم.

ـ الإنسان في حياته قد يواجهه مشاكل حياتية كثيرة، عند كل مشكلة قد يغضب ويثور ويتضايق وينفعل، أما الآخرة عنده فليست بمشكلة رغم أنها الخطر المرتقب والامتحان العصيب والحياة الأبدية، ورغم أن الدنيا أيام قليلة تفنى بمشاكلها، أما الذي يشعر بحجم الخطر في مشكلة الآخرة أمام ضآلة مشاكل الدنيا فتهون عليه مشاكل الدنيا وتنفعل مشاعره ويقلق ويغضب ويضطرب أمام مشكلة الآخرة.

ـ الله سبحانه له قدرات هائلة جدًا فوق كل التصورات ولو اجتمع البشر جميعًا لن يستطيعوا أن يصنعوا شيئًا ولو بسيطًا مما يصنعه الخالق كأن يخلقوا ذبابة مثلًا، وعلم الله بكل شيء حتى ما سيكون ومقدرته على كل شيء فوق كل التصورات، ولكن الإنسان لا يشعر بالخوف من مهابة هذه القدرات، ولا يشعر بالانبهار والإعجاب والحب لهذه الصفات الخارقة التي تصل إلى الكمال، ولا يشعر بالحب لإنعام الله له بكل هذه النعم والتي بدونها لا يستطيع أن يعيش، ولا يشعر بالشوق والرجاء في الجنة بما فيها من المتع والحور العين والخمور والملذات التي تفوق كل التصورات، ولا يشعر بالخوف والرعب والفزع من آلام النار المحرقة.

ـ وجميع آلام الدنيا وملذاتها ليست بشيء أمام الآخرة ورغم ذلك تتفاعل معها مشاعر الإنسان وانفعالاته في حين لا تتفاعل وتتأثر بالغيبيات، فذلك يدل على حماقة الإنسان وعدم وجود المعرفة الحقيقية بالغيبيات.

ـ الغيبيات أمر خطير جدا ومؤثر لكن إذا لم يتأثر بها الانسان فهذا معناه أن الإنسان لا يزال لا يعرف ما هي الغيبيات وكأنه لم يسمع عنها، فالغيبيات من أخطر ما يمكن ولكن لماذا لا تؤثر فينا ونتأثر بها؟ ذلك لأننا غافلون نعيش في غيبوبة لا ندري ما الله وما الآخرة في حقيقة الأمر.

ـ ظاهر الأمور على عكس حقيقتها:

ـ الدنيا لها ظاهر وباطن، والآخرة كذلك، والظاهر عكس الباطن تمامًا، فظاهر الآخرة أننا لا نراها، وظاهر الدنيا زينة هائلة توحي بأن الدنيا عظيمة في متعها وآلامها، والعاقل هو الذي لا ينخدع بالظاهر ويفكر في الباطن ليعرف حقيقة الشيء.

ـ فمثلًا لو كان في يدك ظرف فارغ لا شيء فيه ومكتوب عليه مليون جنيه، فالذي ينظر إلى المكتوب على ظاهر الظرف ولا ينظر إلى حقيقة ما بداخله هو أحمق لا عقل له، فالمكتوب على الظرف هو زينة الدنيا، وما بداخل الظرف هو حقيقة الدنيا، والعكس لو كان في يدك ظرف مكتوب عليه صفر ولكن بداخله مليون جنيه فالعاقل هو الذي ينظر إلى داخل هذا الظرف ليعرف حقيقته، فالدنيا والآخرة كاذبتان تقولان عكس ما بداخليهما تمامًا.

ـ العاقل هو الذي لا ينخدع بهدوء الدنيا كأنه لا خطر يتعرض له أو يوشك أن يلحق به، ويسارع بالفرار قبل الكارثة والطامة الكبرى.

ـ الدنيا هادئة تمامًا ومعزولة عن خطر الآخرة الهائل، وهي تافهة ولا قيمة لها بالمقارنة بالآخرة، ولكن الدنيا نراها ونعيش فيها والاخرة لا نراها، ولكن عدم رؤية الخطر لا يمنع وقوعه، فعدم رؤية الملائكة والجن من حولنا، وعدم رؤية الله، وعدم رؤية الجنة والنار الموجودتين الآن كل هذا لا يغير من حقيقة الأمر شيئًا، فكل هذا واقع سواء رضينا أم أبينا، سواء تجاهلنا الأمر أم انتبهنا له، ونحن بعد وقت وشيك من الآن سوف نجد أنفسنا في الآخرة ونجد أنفسنا واقفين أمام الله ونرى الملائكة والجنة والنار أمامنا، سواء رضينا أم أبينا، سواء تجاهلنا ذلك أم انتبهنا له.

ـ فنحن نعيش في عزلة تامة عن الخطر الهائل في حياة هادئة تمامًا مناقضة تمامًا للحياة الحقيقية، ونحن معزولون تمامًا عن رؤية الخالق ورؤية الملائكة والجن، ومعزولون تمامًا عن رؤية ما يحدث في القبر ورؤية أهوال الحساب ورؤية الجنة والنار، وعلى العكس تمامًا نعيش

في حياة خادعة تمامًا في ظاهرها، فتبدو كأنها حياة الإقامة والخلود وكأنه لا حياة بعدها.

ـ فظاهر الأمور في الدنيا على عكس حقيقتها، وهذه خدعة كبيرة جدًا لا يفطن إليها إلا الذي يتأمل ويتدبر الحقيقة دون أن ينخدع بالظاهر، وفي تفسير ابن كثير: (({وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيا إِلَّا مَتاعُ الْغُرُورِ} أَيْ هِيَ مَتَاعٌ فَانٍ غَارٌّ لِمَنْ رَكَنَ إِلَيْهِ، فَإِنَّهُ يَغْتَرُّ بِهَا وَتُعْجِبُهُ حَتَّى يَعْتَقِدَ أَنَّهُ لَا دَارَ سِوَاهَا وَلَا مَعَادَ وَرَاءَهَا، وَهِيَ حقيرة قليلة بالنسبة إلى دار الآخرة))(١)، فتبدو الحياة حلوة خضرة بما فيها من شهوات تبدو عظيمة القيمة في حين أن الحقيقة عكس ذلك تمامًا، فالمتع التي نعيشها ليست هي المتع، والآلام التي نعايشها ليست بآلام، وإنما المتع هي متع الجنة والآلام هي آلام النار ونحن نوقن بذلك ولكننا نتناسى ونتغافل.

ـ وبالتالي يعيش الإنسان في هدوءٍ تامٍ جدًا ومحاطٍ بسورٍ هائلٍ جدًا يعزله تمامًا عن الخطر الذي يحيط به من كل جانب، وبالتالي كلما نظر الإنسان إلى ما وراء الحائط تذكر ثم إذا نظر داخل الحائط نسي، والعاقل هو الذي لا يغفل نظره عن الواقع الحقيقي الذي هو الخطر المحيط به وليس الواقع المزيف الذي هو مجرد سور يعزله عن الخطر.

ـ العجيب أن الإنسان يوقن بهذه المخاطر ولكن يعيش في هدوء تام وغفلة تامة عن هذه المخاطر الهائلة ولا يشعر بخطرها مطلقًا.

ـ وأراد الله أن تكون الدنيا معزولة تمامًا عن هذه المخاطر وهادئة تمامًا ليختبر الإنسان، والرسل جاءت تحذر من هذه المخاطر ولكن لا حياة لمن تنادي، ولكن بعد لحظات من الآن نجد أنفسنا واقفين على أرض المحشر لنتذكر تحذير الرسل ولكن ذلك لا ينفع.

---

(١) تفسير ابن كثير ط العلمية (٨/ ٥٧)

ـ عندما تصبح الغفلة هي الوضع الطبيعي يرى الناس الغيبيات غير مؤثرة:

ـ من الناس مَنْ ليس عنده أي هم بالآخرة رغم ما بها من أهوال وأنها المصير، لدرجة أنك قد تجد المرء يستغرب ولماذا الهم بالآخرة؟! وكأنه لا يوجد أي شيء يدعو للهم بالآخرة! فهو في غفلة تامة عن الآخرة فلا يوجد أي تأثر بالآخرة سواء سلبًا أو إيجابًا فلا يخاف الآخرة ولا يكرهها ولا يحبها؛ لأنه لا يشعر بها أصلًا وكذلك كل الغيبيات.

ـ إذا كان امامك خطر كبير ولكنك تتعامل معه كأنك لا تعرفه أو كأنه أمر عادي لا يدعو للانزعاج والقلق فهذا معناه أنك رجل غير طبيعي، فإذا جاء رجل فأخذ يصور لك مدى هذا الخطر وأنه مثير للقلق والانزعاج وأنت تحسب أن هذا الرجل غريب وغير طبيعي ولا تتأثر بكلامه لأنه في نظرك رجل غير طبيعي، فأصبحت الأمور معكوسة

ـ فكذلك عندما أحدثك عن مدى خطورة الغيبيات وأنها مؤثرة غاية التأثير على كل المشاعر والهموم والحياة فأنت قد تستغرب الكلام لأنك تعودت على أن الطبيعي أن الغيبيات لا تؤثر فيك شيئا.

ـ فرغم أن كل الناس يعلمون أن لهم خالقا وأنهم ذاهبون الى الآخرة وأن الله أرسل لهم الرسل لكن حال البعض يقول أنهم لا يعلمون شيئا من ذلك فهذه المعلومة البسيطة مات معناها، وأصبحت الغفلة هي الوضع الطبيعي المألوف الذي اعتاد عليه الكثير فإذا جاء أحد ليقول لهم تعالوا نعرف من جديد معنى أن لنا خالقا ومعنى أننا ذاهبون الى الآخرة لقالوا إنه مجنون أو متخلف!

ـ إذن هناك خلل ومشكلة ومانع جعلك لا تتأثر بالغيبيات وتنفعل بها وتتفاعل معها كأنها غير موجودة أو كأنك لا تعرفها أو كأنها شيء عادي غير مؤثر كالحواديت أو كأنك نسيتها، هذا المانع جعل الغيبيات مجرد كلام ومعرفة ويقين بلا أي تأثر، وأصبح الطبيعي أن الغيبيات في نظرك ليست شيئا يدعو للانزعاج والقلق والتأثر، وهذا المانع أمران هما التجاهل والمعرفة الكاذبة (السماع والرؤية والفهم الكاذب)، ومعناها أنه

أصبح لا يتأثر بالغيبيات كأنه لا يفقه معناها أو كأنه لم يسمع عنها أو كأنه نسيها أو كأنها غير موجودة أصلا لأنها أصبحت غير مؤثرة على قلبه.

****

ـ أمثلة توضح مفهوم اليقين الكاذب بوجود خطر هائل:

ـ مثال (١):

ـ كان أحد الناس يجلس على مكتبه داخل أحد المباني الكبيرة يؤدي عمله في هدوء، ثم فجأة دق جرس الإنذار، لكنه لم ينزعج وبقي هادئًا في مكانه جالسًا على مكتبه، رغم أنه كان يعلم أن جرس الإنذار يعني أن هناك حريق بالمبنى وأنه سوف يسقط ويوقن بذلك تمامًا، وأسرع الناس في المبنى يلوذون بالفرار وهم ينادون على هذا الرجل الجالس على مكتبه: احذر النار احذر النار! ألا تعلم أن هناك حريق كبير بالمبنى؟ فيقول لهم في برود أعلم ذلك، وبقي في هدوءه منشغلًا بأعماله، وظل الناس ينادون عليه حتى نبح صوتهم من كثرة النداء، لكن لا حياة لمن تنادي، فكأنما ينادون رجلًا لا عقل له أو ينادون أصمًا لا يسمع أو ينادون جمادًا من الجمادات أو ينادون رجلًا ميتًا ليس لديه أي إحساس أو عقل أو وعي، إنه فعلًا ميت وليس بحي، وكما يقول الشاعر: لقد أسمعت إذ ناديت حيًا، ولكن لا حياة لمَنْ تنادي، فمهما أنذرته فلن يستجيب إلا إذا كان حيًا: ((لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ))(١)، ((إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ))(٢)، {إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ))(٣).

ـ فهذا الرجل كان عليه أن يتصور خطورة الأمر فيشعر بالمهابة، ويخاف من الضرر إذا لحقته النار، ثم يسرع للهرب.

---

(١) يس: ٧٠
(٢) النمل: ٨٠
(٣) الأنعام: ٣٦

ـ فكذلك الذي يقول بأنه يوقن بالآخرة وبسقوط الدنيا وبأنه راحل إلى الآخرة ثم هو لا يتصور هذا الخطر ولا يخافه ولا يسرع بالاستعداد لذلك ويعيش في الدنيا هادئًا منشغلًا بأمور الدنيا التي سوف تسقط حالًا يسمع الموسيقى ويأكل الحلوى!

ـ فهو يتجاهل كل الأخطار التي حوله من رؤية الله له وما ينتظره من أهوال القيامة ويعيش في الحياة هادئًا مطمئنًا كأن حياته إنما هي على ظهر هذه الأرض، فهو مطمئن وراضٍ بالحياة الدنيا رغم أن وجود الإنسان على الأرض ليس حياة يقيم فيها ويسكن ولكنها مجرد طريق وسفر واختبار وليست معدة للمعيشة، والحياة التي يعيشها الناس ويقيمون فيها إنما هي في الآخرة: ((إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ (٧) أُولَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ))(١).

ـ إن الرسل جاءت لتنذر الناس بوجود الآخرة والجنة والنار، وهذا الإنذار أشد من الإنذار بوجود حريق أو خطر ما، ورغم ذلك هناك من لا ينزعج للأمر ولا يتصور خطورته ويدعي أنه يخاف الآخرة.

ـ مثال (٢):

ـ الدنيا عبارة عن حجرة هادئة تمامًا وساكنة، وداخل هذه الحجرة يوجد رجل يلهو ويلعب وسط هذا الجو الهادئ، وخارج الحجرة توجد نار هائلة تقترب وتوشك أن تشتعل بالحجرة، والرسل جاءت تدق الباب بشدة وتنادي بصوت عالٍ: احذروا النار احذروا النار! وتنادي على من في الحجرة أن ينظر إلى الشباك ليرى النار، وتدله على ممر للنجاة وسط النار يؤدي إلى حدائق وقصور فيها الأمان والمتع والملذات (الجنة)، فسمع الرجل النداء ورأى النار من الشباك، ولكنه تجاهل الأمر وتغافل عنه كأنه لم يسمع النداء وكأنه لم يرى النار من الشباك وكأنه لم يفهم ما قالته الرسل، واستمر في لعبه ولهوه وسط الجو الهادئ داخل الحجرة، ولم تتأثر مشاعره ولم يتحرك للهرب، فكأن هذا الرجل لا سمع له ولا

(١) يونس: ٧، ٨

بصر له ولا عقل له ولا مشاعر له وكأن جوارحه لا تعمل فكأنه ميت، فرغم أن هذا الرجل يلعب ويلهو لكنه في الحقيقة ميت! فمهما أخذت تنادي فيه: احذر النار! فكأنما تكلم ميتًا لا روح فيه: ((إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ))(١)، فهذا الرجل كالأنعام يأكل ويشرب ويتناسل وينام، والبهائم لا تفقه خطاب البشر مهما ناديتها: ((وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ))(٢)، فما زالت الرسل تدق الباب وتنادي وهو يستمع إليهم وهو يلعب مثلما يستمع إلى أمر تافه أو لا قيمة له: {اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ (١) مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ (٢) لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ}(٣).

ـ مثال (٣):

ـ يمكن تشبيه دعوة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأن رجلا جاء إلى الناس ليحذرهم من أن هناك خطر عظيم سوف يجتاحهم، هذا الخطر هو جيش جرار جاء ليقضي عليهم، فكان طائفة منهم لم يتأثروا ولم ينتبهوا لخطورة الأمر ولم يشعروا بالخوف والرعب، ومن أثر ذلك أنهم لم يتحركوا من مكانهم ولم يهربوا، وكأن شيئًا لم يكن، وكأنهم لم يسمعوا، وكأنهم كالحائط الذي لا يحس، وبقوا مكانهم منشغلين بحياتهم وطعامهم وشرابهم، فهؤلاء جاء الجيش إليهم فقضى عليهم، وطائفة أخرى تحركت مشاعرهم وشعروا بالخوف ولاذوا بالفرار فنجو من الجيش، وهذا المثل هو ما أوضحه الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ففي الحديث: ((إنما مَثَلي ومثل ما بعثني الله به كمثل رجل أتى قومًا فقال يا قوم إني رأيت الجيش بعيني وإني أنا النذير العريان فالنجاء النجاء، فأطاعه طائفة من قومه فأدلجوا فانطلقوا على مهلهم فنجوا، وكذبت طائفة منهم فأصبحوا مكانهم فصبحهم الجيش فأهلكهم واجتاحهم، فذلك مثل من أطاعني فاتبع ما جئت

(١) النمل: ٨٠
(٢) الأعراف: ١٧٩
(٣) الأنبياء: ١ ـ ٣

به ومثل من عصاني وكذب بما جئت به من الحق))[١]، ومعنى (النذير العريان) أن الرجل إِذا كَانَ على مَكَان عَال فَبَصر بالعدو نزع ثَوْبه فألاح بِهِ لينذر القوم، فَيبقى عُريَانا، وعري النذير أبلغ فِي الْإِنْذَار؛ لِأَن القوم إِذا رَأَوْهُ عُريَانًا علمُوا أَن الأمر عَظِيم، وقيل معناه: أنَا النَّذِير الَّذِي أَدْرَكَنِي جَيْشُ الْعَدُوّ فَأَخَذَ ثِيَابِي، فانفلت منهم، فَأَنَا أُنْذِركُمْ عُرْيَانًا، وفي حديث آخر: ((مثلي كمثل رجل استوقد نارًا فلما أضاءت ما حولها جعل الفراش وهذه الدواب التي يقعن في النار يقعن فيها وجعل يحجزهن ويغلبنه فيقتحمن فيها، فذلك مثلي ومثلكم أنا آخذ بحجزكم عن النار هلم عن النار هلم عن النار فتغلبوني فتقتحمون فيها))[٢].

ـ لذلك فتبليغ دعوة الرسل يسمى (إنذار) أي تحذير من أمر خطير وليس مجرد تعريف بالأمر، فالخطر قادم وعليك أن تتقيه بأن تخاف وتهرب وليس مجرد أن تعرفه وتوقن به.

ـ مثال (٤):

ـ الإنسان يعرف أن القنبلة شيء خطير جدًا ويعرف أن الكرة شيء تافه رغم أن كلاهما متشابه في الشكل، لكن إذا تعامل مع القنبلة مثلما يتعامل مع الكرة دل ذلك على أنه لا يزال لا يعرف معنى كلمة (قنبلة) معرفة حقيقية، فمعرفته لكلمة (قنبلة) لا تكون معرفة حقيقية حتى يشعر بالخوف منها ويحتاط عند التعامل معها، فعندئذ فقط يكون قد عرف معنى كلمة (قنبلة).

ـ فإذا كنت أحدثك عن قنبلة موجودة الآن أمامك وأنت تشرب كأسًا من الخمر، فأنت عندئذ قد علمت نظريا أن الشيء الذي أمامك هو قنبلة لكن لم تنتبه لخطورة الأمر، فلم تخف ولم تجرِي هربًا؛ وذلك لأنك سكران، فحقيقة الأمر أنك لا تعرف ماذا تعني كلمة قنبلة.

ـ نفس الشيء فالآخرة عبارة عن قنبلة أمامك لأنها أمر خطير جدًا فهي مستقبلك وحياتك وتوشك أن تبلغ وفيها الأهوال، فعندما أخبرك بالآخرة

---

(١) تحقيق الألباني: صحيح (انظر حديث رقم: ٥٨٦٠ في صحيح الجامع)
(٢) تحقيق الألباني: صحيح (انظر حديث رقم: ٥٨٥٨ في صحيح الجامع)

فلا تنتبه لخطورتها وتتعامل مع الآخرة كأنها كلمة عادية ولا تهابها ولا تستعد لها وتترقب مجيئها فهذا معناه أنك كالذي في غيبوبة تامة كالسكران الذي لا يدري بشيء، فعندئذ أنت لا تعرف ماذا تعني كلمة (الآخرة) معرفة حقيقية.

ـ الإنسان قد يتجاهل الآخرة فتصبح كأنها لا قيمة لها، فهي عندئذ غير موجودة في شعوره، وهو بذلك قد أفرغ الكلمة من محتواها، مثل الطفل الذي في يده أسد مصنوع من البلاستيك فهو يلعب به رغم أنه يوقن تمامًا أنه أسد لكنه مسلوب القوة، فكلمة (الآخرة) تعني الأهوال والمصير والمستقبل، لكن كلمة (الآخرة) عند الغافل هي كلمة ودودة أليفة لا مشكلة فيها وليس لها تأثير على المشاعر والهموم والأهداف، فإذا سلبت من النار خاصية الاحراق فلم تطهي الطعام فهي نار بالاسم فقط لكن فعليا ليست بنار، كذلك الاخرة إذا لم تؤثر على مشاعر الانسان وانفعالاته وأهدافه وسلوكه وتصرفاته فهي مجرد اسم فقط والمعرفة بها كاذبة.

ـ ونفس الشيء فمعنى وجود الخالق أي وجود من له القدرة الهائلة المسيطرة القاهرة على كل شيء وأنت لا تنتبه لخطورة ذلك ولا تتأثر مشاعرك بذلك، فأنت كالذي في غيبوبة لا تدري ماذا يعني أن لك خالقًا، رغم أنك تعرف في اللغة والشرع ماذا يعني (الخالق) وما هي صفاته لكن غير منتبه، لذلك فأنت لا تعرف الخالق معرفة حقيقية.

ـ مثال (٥):

ـ لو أن إنسانًا سكرانًا يقف في ميدان المعركة، والقنابل والرصاص يدور من حوله في كل اتجاه، ولكنه هادئ جدًا غير مضطرب لأنه سكران، فعندما تحدثه بالخطر الهائل من حوله ليفيق تجده يتعجب من قولك ولا يلقي له بالًا، فقدرة الله الهائلة تحيط بنا وفي أقل من لحظة نرحل إلى حياة كل ما فيها هائل وعجيب لكننا هادئين تمامًا!

ـ مثال (٦):

ـ المتغافل عن حقيقة وجوده وحكمة خلقه هو مثل رجل دخل مغارة مظلمة في مكان موحش، فوجد عند مدخلها بقايا لجثة إنسان، فما كان

منه إلا أن وضع رأسه وأسلم جفنيه للنوم، غير آبه بما يحتمل أن يكون في جوف هذه المغارة من وحوش ضارية، وهو يمنّي نفسه بالفرار إذا استيقظ، مع أن الموت قد يفاجئه في أي لحظة، ولذلك ففي الحديث: ((ما رأيت مثل النار نام هاربها ولا مثل الجنة نام طالبها))[١].

ـ فهذا الرجل على يقين تام بأن هذه المغارة فيها مخاطر كبيرة ورغم ذلك فهو يتجاهل هذه المخاطر وينام كأنه لا شيء، فهذا الرجل ليس لديه شعور بخطورة الأمر.

ـ مثال (٦):

ـ تصور لو أن رجلًا عاد من الآخرة إلى الناس ماذا يمكن أن يقول لهم؟ إنه سوف يقول للناس: ليس أمامكم إلا ثواني معدودة والعد التنازلي مستمر، فأنتم مقبلون على خطر هائل جدًا من أشد ما يمكن ويوشك أن تلحقوا بالآخرة فأدركوا أنفسكم، لكنه سوف يجد الناس هادئين تمامًا ويعتبرون أن هذه الحياة التي يعيشونها سنوات طويلة وعمر مديد وليست ثواني معدودة، ويعتبرون الذهاب إلى الآخرة مثلما يتسلى الإنسان بلعبة مملة قد مل منها، إنه سوف يجد الناس يعيشون في هروب وتجاهل للموت، وهروب وتجاهل للآخرة، وهروب وتجاهل وتغافل عن الله، رغم أن هذا الهروب وهذا التجاهل والتغافل لن يغير من حقائق الأمور شيئًا، فالخطر قائم وهم مقبلون عليه، رضوا أم لم يرضوا والأمر خطير وعظيم: ((قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ (٦٧) أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ))[٢]، فهم يعيشون في غيبوبة مثل السُّكْران الذي لا يدري ما الذي ينتظره، وإذا كان هناك أحد عنده شيء من الشعور بقدر الآخرة فتكون درجة شعوره ودرجة إفاقته لا تتناسب أبدًا مع خطورة الحدث، فينظر إلى الآخرة بفتور شديد ومشاعر باردة، رغم أن الآخرة هي الحقيقة الكبرى المرعبة: ((يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا

(١) تحقيق الألباني: حسن (الصحيحة: ٩٥١).
(٢) ص: ٦٧، ٦٨.

وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ))(١) وقد سبقنا إليها الكثير والدور علينا.

ـ فالآخرة ولقاء الله تعالى من أخطر ما يمكن ولكن لماذا لا يؤثر فينا ونتأثر به؟ ذلك لأننا نعيش في غيبوبة لا ندري ما الله وما الآخرة في حقيقة الأمر، أي أن المعرفة الموجودة كاذبة والمعرفة الحقيقية غائبة.

ـ مثال (٧):

ـ أنت إذا رأيت ساحرًا يقوم بأعمال سحر فأنت تعجب به وتنبهر بما يعمله، فإن قدرة الله أكبر مما يعمله الساحر في أنها قدرة كبيرة على عمل أي شيء، وفي أنها قدرة حقيقية وليست سحرًا وخيالًا، فلماذا لا تتعجب وتنبهر وتتعلق بقدرة الله تعالى.

ـ الساحر يسحر لك أشياءً تدعو للدهشة والعجب فيحدث خوف من مهابة الأمر، أما شهوات الجنة فهي فوق مستوى الخيال وأعجب من السحر، فكيف لإنسان أن يعيش بلا موت ولا مرض ولا شيخوخة وفي متع لا تحصى، فلماذا لا يحدث خوف من مهابة الأمر؟، ذلك لأن الجنة غير موجودة في المشاعر، ولماذا يلهث الانسان وراء شهوات النساء ولا يلهثون وراء شهوات الحور العين، ذلك لأن الحور العين في مشاعر البعض هي خيال أو وهم أو شيء مصنوع من البلاستيك.

ـ والنار هي أغرب من الخيال والسحر، وأشد رعبا من كابوس مرعب، وأشد رعبًا من رؤية أشباح، لكن النار في مشاعر البعض هي أمر عادي جدًا لا خطورة منه ولا مشكلة فيه.

ـ فالذي يتعامل مع الآخرة في برود تام هو في حقيقة أمره مغيب عن الوعي.

ـ مثال (٨):

ـ لو افترضنا أن إنسانا يسير في الشارع وأمامه نار هائلة وكان يعرف ويوقن بأن أمامه نار هائلة ولكن كانت معرفته ويقينه بذلك كاذبا فهذا

---

(١) الحج: ٢

معناه أنه لن يخاف ولن يندهش من غرابة الأمر وسوف يظل يسير حتى يدخل النار، وذلك لأن اليقين معطل عن العمل، ولسان حاله يقول بأنه لم يعرف بوجود هذه النار أمامه أو عرف ولكن لا يوقن بوجودها.

الفصل الثالث
مفهوم المعرفة الكاذبة (السماع والرؤية والفهم الكاذب)

ـ أثر المعرفة بالخالق والآخرة هو أمر خطير جدا، فالطبيعي أنه بمجرد أن يعرف الإنسان بوجود الخالق والآخرة فإن حياته كلها من مشاعر وأهداف وطموحات وسلوك وتصرفات وانفعالات وفرح وحزن وغضب وأخلاق وكلام ونية وعمل سوف تتأثر تأثرا كبيرًا، وسوف تتغير حياته بزاوية مائة وثمانين درجة.

ـ لكن المشكلة أن الكثير من الناس لا يعلمون أن مجرد المعرفة الحقيقية بالخالق والآخرة هو أمر خطير جدًا ومؤثر جدًا إلى هذه الدرجة، لكنهم سوف يعلمون ذلك عندما يجدون أنفسهم واقفين على أرض المحشر في الآخرة.

ـ فإذا لم تتأثر حياة الإنسان بالله والآخرة بهذا التأثر الكبير جدًا، أو كان تأثرها قليل جدًا أو شكليًا في بعض المظاهر فهذا يدل على أن المعرفة كاذبة واليقين كاذبا وحقيقة الانسان عندئذ أنه كالجاهل تماما.

ـ فالآخرة ولقاء الله تعالى من أخطر ما يمكن ولكن لماذا لا يؤثر فينا ونتأثر به؟ ذلك لأننا نعيش في غيبوبة لا ندري ما الله وما الآخرة في حقيقة الأمر، أي أن المعرفة الموجودة كاذبة والمعرفة الحقيقية غائبة.

ـ المعرفة الكاذبة هي صورة من صور الجهل:

ـ الهدف من المعرفة هو حدوث الأثر، فاذا عرف ولم يحدث الأثر فكأنه لم يعرف، فشرط المعرفة الحقيقية وجود أثرها، فالمعرفة بلا أثر كالجهل تماما وهي معرفة كاذبة.

ـ المعرفة الكاذبة هي نوع من الجهل، فهي في الظاهر معرفة وفي الحقيقة جهل، فهي جهل خفي.

ـ فالجهل نوعين هما:

١ـ الجهل الظاهر:

ـ وهو جهل لعدم السماع أو لعدم الفهم أو لعدم الرؤية.

ـ فهو لم يسمع عن الامر ولم يراه أو لا يفهم معناه أو عرفه ثم نسيه، وهذا الجهل يعذر الانسان به، وفي هذه الحالة فاليقين غير موجود.

٢ـ الجهل الخفي:

ـ الجهل هنا بسبب المعرفة الكاذبة أو التجاهل

ـ وفي هذه الحالة قد يكون اليقين موجودا وهو عندئذ يقين كاذب.

ـ الفرق بين المعرفة الكاذبة والجهل:

ـ إذا لم تصل دعوة الرسل للإنسان فالمعرفة هنا غائبة وهو غير مكلف، أما إذا بلغته دعوة الرسل وكانت معرفته كاذبة فليس ذلك عذر له.

ـ مفهوم المعرفة الكاذبة:

ـ مجرد أن يسمع الانسان عن أمر ما ويفهم معناه فهذا ليس معناه أنه عرف الامر، فقد يسمع عن الامر كثيرا ويفهم معناه ولكن لا يزال جاهلا به تماما، وذلك إذا أصيب الانسان بمرض المعرفة الكاذبة (السماع والرؤية والفهم الكاذب)، فمهما سمع عن الله ومهما رأى من الآيات الكونية فلا يزال كأنه لم يسمع وكأنه لم يرى رغم أنه سمع وفهم الامر تماما وفي الحقيقة هو كالجاهل الذي لم يسمع عنه مطلقا.

ـ مجرد المعرفة بالخالق والآخرة هو أمر خطير جدا يؤثر على حياة الانسان كلها لكن الكثير لا يعلمون ذلك، وطالما أن هذا الأثر لا يزال لم يتحقق فالمعرفة الحقيقية بالخالق والاخرة لا تزال لم تتحقق.

ـ المعرفة الحقيقية ليست مجرد معلومات ولكنها المعرفة التي تؤدي أثرها.

ـ الطبيعي أنك إذا أخبرت انسانا بأمر ما فإنه يعرفه، ولكن المعرفة الكاذبة معناها أنك أذا أخبرته بأمر ما فلن يعرفه مهما أخبرته وكررت له المعلومة فلن يعرفها لأن الله عطل هذه المعرفة.

ـ المعرفة الكاذبة هي عقاب من الله تعالى للإنسان بسبب وقوعه في الشرك أو استمراره في المعاصي حتى يتكون الران على قلبه، فيطبع الله على قلبه، أي يحرمه من معرفة الله والاخرة، فالله سبحانه يستطيع أن يعطل وظيفة السمع، فيسمع الانسان عن الامر ويحسب أنه قد سمع لكنه في الحقيقة لم يسمع، وكذلك يعطل وظيفة العين فلا يرى ووظيفة العقل فلا يفهم، فهذا هو المعرفة الكاذبة (السماع والرؤية والفهم الكاذب)، ومعناه أن الله يمنع المعرفة عن الانسان فمهما سمع عن الله والاخرة فكأنه لم يسمع عن الله ولا عن الآخرة مطلقا رغم أنه يحسب أنه سمع وعرف.

ـ المعرفة الكاذبة هي عقاب من الله تعالى للإنسان بإيقاف المعرفة ولا نعرف كيف؟، فهي عقاب من الله للإنسان حيث يقول للأذن لا تسمعي وللعين لا تنظري وللعقل لا تفهم، رغم أنه في الظاهر سمع ورأى وفهم ولم ينسى الامر، وذلك مثلما قال للنار: ((كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ))(١)، فكانت النار لا تحرق، فهي في ظاهرها نار وفي حقيقتها ليست بنار، فالأذن تسمع ولكنه سماع كاذب لا أثر له فكأنها لم تسمع والعين ترى ولكنها رؤية كاذبة فكأنها لا ترى والقلب يفهم ولكنه فهم كاذب فكأنه لا يفهم، وبالتالي فالإنسان يعرف الامر لكنها معرفة كاذبة.

ـ فالله سبحانه جعل معرفته بالله والاخرة معرفة كاذبة فأصبح كأنه لم يسمع عن الخالق والاخرة رغم أنه سمع ولكن الله جعل سماعه كاذبا، ورغم أنه فهم المعنى ولكن الله جعل فهمه كاذبا.

ـ أسباب العقاب بالمعرفة الكاذبة:

ـ أسباب العقاب بالمعرفة الكاذبة هي الوقوع في أي صورة من صور الشرك بالله أو بسبب الران وهو التمادي في المعاصي حتى يسود القلب

(١) الأنبياء: ٦٩

وبخاصة معاصي القلوب لأنها أشد من معاصي الجوارح مثل حب المال والشهوات والدنيا وانشغال الهم بها والنظر اليها نظرة تعظيم.

ـ وفي الحديث: " إِنِ الْمُؤْمِنَ إِذَا أَذْنَبَ كَانَتْ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ فِي قَلْبِهِ فَإِنْ تَابَ وَاسْتَغْفَرَ صُقِلَ قَلْبُهُ وَإِنْ زَادَ زَادَتْ حَتَّى تَعْلُوَ قَلْبَهُ فَذَلِكُمُ الرَّانُ الَّذِي ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى {كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يكسِبونَ}[١]، وقال الحسن: هو الذنب على الذنب حتى يعمي القلب))[٢].

ـ وقد يفتح للإنسان بابا للمعاصي كالكسب الحرام او الشهوات أو بدعة في الدين فيعجبه ذلك فيقع في الحرام ويتمادى فيه حتى يعمى قلبه، لذلك ففي الحديث: ((تُعْرَضُ الفِتَنُ علَى القُلُوبِ كالْحَصِيرِ عُودًا عُودًا، فأيُّ قَلْبٍ أُشْرِبَها، نُكِتَ فيه نُكْتَةٌ سَوْداءُ، وأَيُّ قَلْبٍ أنْكَرَها ، نُكِتَ فيه نُكْتَةٌ بَيْضاءُ، حتَّى تَصِيرَ علَى قَلْبَيْنِ، علَى أبْيَضَ مِثْلِ الصَّفا فلا تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ ما دامَتِ السَّمَواتُ والأرْضُ، والآخَرُ أسْوَدُ مُرْبادًّا كالْكُوزِ، مُجَخِّيًا لا يَعْرِفُ مَعْرُوفًا، ولا يُنْكِرُ مُنْكَرًا، إلَّا ما أُشْرِبَ مِن هَواه))[٣].

ـ خطورة المعرفة الكاذبة:

ـ أخطر قضية في الدين هي أن يعيش الإنسان في غيبوبة ثم يفيق بعد أن يموت ويكتشف أن هذه الحياة التي كان يعيشها في الدنيا هي حياة كاذبة لأن الحياة الحقيقية في الآخرة، ويكتشف أنه كان غافلًا، ويكتشف أن الناس نيام فلما ماتوا انتبهوا، ففي هذا الكتاب نبين حقيقة الغفلة التي يعيشها أهل الدنيا ونبين خطرها وكيفية النجاة منها.

ـ فلو أن رجلًا عاش في الآخرة ثم جاء إلى أهل الدنيا ماذا يمكن أن يقول لهم؟ إن هذا الكتاب هو تصور لما يمكن أن يقوله هذا الرجل.

ـ أعجب شيء أن يسمع الانسان عن شيء ويفهمه ويوقن به ولكن يتعامل معه كالجاهل فلا يتأثر بمدى خطورته، والأعجب منه أن يكون ذلك الأمر الذي يجهله هو من أبسط المعلومات التي يعرفها البشر وهو وجود

(١) رَوَاهُ أَحْمَدُ وَالتِّرْمِذِيُّ وَابْنُ مَاجَهْ وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيح
(٢) تهذيب الداء والدواء (ص: ٦٣)
(٣) تحقيق الألباني: صحيح (انظر حديث رقم: ٢٩٦٠ في صحيح الجامع)

الخالق والآخرة، والأعجب من كل ذلك أن الانسان قد يكون من العلماء المتخصصين في الدين ولديه معلومات كثيرة عن الخالق والآخرة لكنه لا يزال رغم كل ذلك كالذي لم يسمع مطلقا عن الخالق والآخرة فلا يتأثر بشيء.

ـ الجهل المركب معناه أن يكون الانسان جاهلا بالأمر وهو يحسب أنه أعلم الناس به، فكذلك المعرفة الكاذبة بالله والآخرة حيث يحسب الانسان أنه يعرف الله والآخرة وفي الحقيقة هي معرفة كاذبة رغم يقينه التام بالله والاخرة، وهو يحسب أنه من المهتدين: ((وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ (٣٦) وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُون))[1].

ـ الانسان الجاهل إذا أخبرته بالأمر عرفه، أما الذي لديه معرفة كاذبة إذا أخبرته بالأمر فلن يعرف المعرفة الحقيقية لأنه يحسب أنه يعرف الأمر.

ـ المعرفة الكاذبة تشمل ثلاثة أمور هي:

ـ المعرفة الكاذبة تشمل ثلاثة أمور هي السماع الكاذب والرؤية الكاذبة (عمى القلب) والفهم الكاذب، وهي كالتالي:

ـ أولا: مفهوم السماع الكاذب:

ـ السماع الكاذب معناه أن لسان حال الانسان يقول بأنه لم يسمع عن الامر.

ـ ما أكثر ما سمع الانسان كلاما عن الخالق والآخرة لكنه قد يكون سماعا كاذبا فيحسب أنه سمع وهو في الحقيقة لم يسمع شيئا، بل إنك مهما أسمعته كلاما عن الخالق والآخرة فلن يسمع سماعا حقيقيا وسيظل جاهلا بالله والآخرة، فلا يزال الانسان لا يعرف معنى الخالق والاخرة ولا يزال لا يوقن حتى يتأثر قلبه وجوارحه بالله والاخرة لأنه لا يمكن لإنسان عاقل يعرف مدى قدرة الخالق ومدى علمه ومدى ملكه ومدى خضوع

---

(١) الزخرف: ٣٦، ٣٧

الانسان كونيا تحت أمره ومدى خطورة الحياة في الاخرة ويوقن بذلك ثم لا يتعلق بذلك بقلبه وجوارحه، فإذا كان عاقلا وموقنا ولم يتأثر فذلك لأن الله طبع على قلبه فأبطل معرفته أو أنه تجاهل الخالق والاخرة وحصر عقله وسعيه وراء دنيا فانية.

ـ إذا أخبرت إنسانا بأن هناك أسدا يجري خلفه لكنه لم يخف ولم يهتم ولم ينظر خلفه ولم يفر هاربا رغم أنه يوقن بما أخبرته، فهذا الرجل سمع ما أخبرته به لكنه في حقيقة الامر كأنه لا يسمع وكأنه ممنوع من السماع، فهل يمكن أن تخبر إنسان بمعلومة لكنه لا يزال لم يسمع ويعرف ما تقول؟، وهو يحسب أنه سمع وعرف لكنه لا زال جاهلا بالأمر.

ـ لو جاء أحد من الآخرة إلى الدنيا لأقسم أن الكثير من الناس لا زالوا لم يسمعوا عن وجود الخالق والآخرة، وعندما يخبرهم بذلك يقسم بأنهم صم لا يسمعوا؛ فهذه المعلومة لا تصل إليهم مهما كررها لهم مئات المرات، والأعجب أنهم يحسبون أنهم سمعوا وعرفوا بوجود الخالق والآخرة والحقيقة أنهم لا زالوا لم يسمعوا شيئا من ذلك، فهل هؤلاء ممنوعون من السماع والمعرفة؟ بل إنهم يحسبون أن هذا الرجل الذي جاء إليهم من الآخرة هو المجنون وأنهم هم العقلاء!

ـ أغرب شيء أن يكون هناك شيئا تسمعه كثيرا وتحسب أنك تعرفه تماما ورغم ذلك لا تعرفه ومهما سمعته لا تزال لا تعرفه فأنت ممنوع من معرفته، والأغرب منه أن يكون ذلك الشيء هو أبسط شيء يعرفه الاطفال والكبار وهو معرفة الانسان بالخالق والاخرة.

ـ السماع الكاذب هو السماع الذي لا أثر له:

ـ أي إنسان عاقل بمجرد أن يسمع الامر فإنه يعرفه ويوقن به ويتحقق فيه أثر هذه المعرفة، فإذا لم يتحقق هذا الأثر فسماعه كاذب وكأنه لم يسمع.

ـ طالما أن الانسان لا يزال لم يتأثر بخطورة ما سمع فهو لا يزال لم يسمع، ((إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ))[١]، ((فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ))[٢].

ـ السماع الكاذب هو عقاب من الله:

ـ السماع الكاذب هو عقاب من الله حيث يجعل السماع كاذبا، فيسمع الانسان لكن يكون حاله كأنه لم يسمع، ومهما أسمعته يظل كأنه لم يسمع.

ـ فهم يسمعون السماع الذي تقوم به الحجة عليهم لكن هذا السماع معطل عن العمل فلا أثر له.

ـ تعبيرات القرآن عن السماع الكاذب:

ـ ((إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ))[٣]، ((وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ))[٤]، ((أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أو يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إلا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا))[٥]، ((مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ))[٦]، ((إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إليه يُرْجَعُونَ))[٧]، ((إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ))[٨]، ((وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ))[٩]، ((خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ))[١٠]، ((أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أو يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إلا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا))[١١]، ((فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ))[١٢].

---

(١) الأنعام: ٣٦.
(٢) فصلت: ٤.
(٣) النمل: ٨٠.
(٤) يونس: ٤٢.
(٥) الفرقان: ٤٤.
(٦) هود: ٢٠.
(٧) الأنعام: ٣٦.
(٨) النمل: ٨٠.
(٩) يونس: ٤٢.
(١٠) البقرة: ٧.
(١١) الفرقان: ٤٤.
(١٢) فصلت: ٤.

ـ وفي تفسير الدرر في تناسب الآيات والسور: (({وفي آذانهم وقرًا} أي ثقلًا يمنع من سمعه حق السمع، لأنه يمنع من وعيه الذي هو غاية السماع))(١)، ((وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ))(٢).

ـ وفي أيسر التفاسير: (({وما أنت بمسمع من في القبور} أي فكذلك لا تسمع الكفار فإنهم كالأموات))(٣)، وفي تفسير القرطبي: (({فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتى} أَيْ وَضَحَتِ الْحُجَجُ يَا مُحَمَّدُ، لَكِنَّهُمْ لِإِلْفِهِمْ تَقْلِيدَ الْأَسْلَافِ فِي الْكُفْرِ مَاتَتْ عُقُولُهُمْ وَعَمِيَتْ بَصَائِرُهُمْ، فَلَا يَتَهَيَّأُ لَكَ إِسْمَاعُهُمْ وَهِدَايَتُهُمْ))(٤)، وفي تفسير الزمخشري: (({مَنْ كانَ حَيًّا} أي عاقلًا متأملًا، لأن الغافل كالميت))(٥)، وكما يقول الشاعر: لقد أسمعت إذ ناديت حيًا، ولكن لا حياة لمَنْ تنادي، فمهما أنذرته فلن يستجيب إلا إذا كان حيًا.

ـ آيات تبين أنه لا فائدة من إخبار من لا يسمع سماعا حقيقيا:

ـ أي إنسان عاقل بمجرد أن يسمع الامر فإنه يعرفه ويوقن به ويتحقق فيه أثر هذه المعرفة كالخشية والانابة، فإذا لم يتحقق هذا الأثر فسماعه كاذب وكأنه لم يسمع، وبالتالي فلا فائدة من إخبارك له بالأمر لأنه لا يسمع سماعا حقيقيا، فكأنك لم تخبره.

ـ فهو لا يسمع ما تنذره به الرسل: ((إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ))(٦)، ((وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ))(٧)، ((إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا))(٨)، ((سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَى))(٩)،

(١) تفسير الدرر في تناسب الآيات والسور (٧/ ٨٤).
(٢) لقمان: ٧.
(٣) أيسر التفاسير للجزائري مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، السعودية (٤/ ٣٤٩).
(٤) تفسير القرطبي (١٤/ ٤٦).
(٥) تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (٤/ ٢٧).
(٦) يس:١١.
(٧) الأنعام: ٥١.
(٨) النازعات: ٤٥.
(٩) الأعلى:١٠.

((فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ))[١]، ((وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ))[٢]، ((إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ))[٣].

٢ـ الرؤية الكاذبة:

ـ أي إنسان له عين بمجرد أن يرى آيات الله في كل شيء فإنه يعرف الخالق ويوقن به ويتحقق فيه أثر هذا اليقين، فإذا لم يتحقق هذا الأثر فرؤيته كاذبة وكأنه لا يرى:

ـ ((أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أو تَهْدِي الْعُمْيَ))[٤]، ((أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ))[٥]، ((صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَعْقِلُونَ))[٦]، ((قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا))[٧]، ((أنهم كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ))[٨]، ((أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ))[٩]، ((أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أعمى))[١٠]، ((وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أعمى فَهُوَ فِي الآخرة أعمى وَأَضَلُّ سَبِيلًا))[١١]، ((أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أو آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فإنها لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ))[١٢]، ((وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا))[١٣]، ((وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ))[١٤]، ((وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ))[١٥].

---

(١) ق: ٤٥.
(٢) غافر: ١٣.
(٣) فاطر: ٢٨.
(٤) الزخرف: ٤٠.
(٥) محمد: ٢٣.
(٦) البقرة: من الآية ١٧١.
(٧) الأنعام: ١٠٤.
(٨) الأعراف: ٦٤.
(٩) يونس: ٤٣.
(١٠) الرعد: ١٩.
(١١) الإسراء: ٧٢.
(١٢) الحج: ٤٦.
(١٣) الأعراف: ١٧٩.
(١٤) الأعراف: ١٩٨.
(١٥) يونس: ٤٣.

ـ وفي تفسير الدر المصون: (({وَمَن يَعْشُ...} أي: يتعامى ويتجاهل))[1]، وفي تفسير السمعاني: ((عشا يعشو إِذا ضعف بَصَره، وعشى يعشي إِذا عمى بَصَره، {يَعش عَن ذكر الرَّحْمَن} أَي: يذهب عَن ذكره؛ فيسير فِي ظلمَة وخبط عَن جَهَالَة))[2].

٣ـ الفهم الكاذب:

ـ الفهم الكاذب هو عقاب من الله حيث يجعل الفهم كاذبا، فيفهم الانسان معنى الخالق والاخرة لكن يكون حاله كأنه لا يفهم المعنى، ومهما أفهمته يظل كأنه لا يفهم.

ـ ففي تفسير الهداية إلى بلوغ النهاية: (({وَمَثَلُ الذين كَفَرُواْ كَمَثَلِ الذي يَنْعِقُ بِمَا لاَ يَسْمَعُ} أي: مثل الكافر في قلة فهمه لما يتلى عليه من عند الله عز وجل وما يدعى إليه ويوعظ به، مثل البهيمة التي تسمع الصوت إذا نعق بها، ولا تعقل ما يقال لها، قال عكرمة: "معناه: مثلهم كمثل البعير أو الحمار تدعوه فيسمع الصوت، ولا يفقه ما تقول له"، قال ابن عباس: "معناه: مثل الكافر كمثل البعير أو الحمار أو الشاة، إذا قلت لبعضها: كُلْ، لم تعلم ما تقول، غير أنها تسمع الصوت، كذلك الكافر إن أمرته بخير أو نهيته عن شر أو وعظته لم يعقل ما تقول غير أنه يسمع صوتك"))[3].

ـ وفي تفسير الجلالين: (({والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر} ثقل فلا يسمعونه {وهو عليهم عمى} فلا يفهمونه {أولئك ينادون من مكان بعيد} أي هم كالمنادى من مكان بعيد لا يسمع ولا يفهم ما ينادى به))[4].

---

(١) الدر المصون في علوم الكتاب المكنون (٩/ ٥٨٦).
(٢) تفسير السمعاني (٥/ ١٠٢).
(٣) الهداية إلى بلوغ النهاية -الناشر: مجموعة بحوث الكتاب والسنة - كلية الشريعة والدراسات الإسلامية- جامعة الشارقة (١/ ٥٤٤).
(٤) تفسير الجلالين (ص: ٦٣٦).

ـ وفي تفسير عبد الرزاق: (({كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا}[1] قَالَ: «مَثَلُ الْحِمَارِ يَحْمِلُ كُتُبًا لَا يَدْرِي مَا عَلَى ظَهْرِهِ»))[2]، وفي تفسير مجاهد: ((كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ كُتُبًا لَا يَدْرِي مَا فِيهَا، وَلَا يَعْقِلُهَا))[3].

ـ ((أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أو يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إلا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا))[4]، ((أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ))[5].

ـ وفي تفسير ابن جزي: (({كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ} شبههم بالخشب في قلة أفهامهم، فكان لهم منظر بلا مخبر))[6]، وفي تفسير اللباب: ((شبههم بخشب مسندة إلى الحائطِ لا يسمعون ولا يعقلون أشباحٌ بلا أرواحٍ، وأجسامٌ بلا أحلامٍ))[7]، وفي التفسير الحديث: ((كأنهم خشب مسندة: تعبير تنديدي يراد به وصفهم بفقد العقل والروح رغم ما هم عليه من الجسامة والوسامة اللتين تعجب الناظر فكأنهم أخشاب مسندة بالدعائم))[8].

ـ وفي تفسير روح المعاني: ((فهم لا يعقلون: أي لا يدركون شيئًا لفقدان الحواس الثلاثة وقد قيل من فقد حسًا فقد فقد علمًا، وليس المراد نفي العقل الغريزي باعتبار انتفاء ثمرته))[9].

ـ في تفسير ابن كثير: (({إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ} أَيْ: قُلُوبِ هَؤُلَاءِ {أَكِنَّةً} أَيْ: أَغْطِيَةً وَغِشَاوَةً، {أَنْ يَفْقَهُوهُ} أَيْ: لِئَلَّا يَفْهَمُوا))[10]، وفي تفسير زاد المسير: (({وَقالُوا قُلُوبُنا فِي أَكِنَّةٍ} أي: في أغطية فلا تفقه قولك))[11].

ـ جاء في تفسير القرطبي: (({خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ} فالختم على القلوب عدم الوعي عن الحق سبحانه

---

(١) الجمعة: ٥
(٢) تفسير عبد الرزاق (٣/ ٣٠٩).
(٣) تفسير مجاهد (ص: ٦٥٩).
(٤) الفرقان: ٤٤.
(٥) الأعراف: ١٧٩.
(٦) تفسير التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي -شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم- بيروت (ج: ٢، ص: ٣٧٧).
(٧) اللباب في علوم الكتاب -دار الكتب العلمية- بيروت (ج: ١٩، ص ١٠٧).
(٨) التفسير الحديث -دار إحياء الكتب العربية- القاهرة (٨ / ٤٥٨).
(٩) تفسير الألوسي [روح المعاني} -دار الكتب العلمية- بيروت (ج: ١، ص: ٤٣٩).
(١٠) تفسير ابن كثير ت سلامة (٥/ ١٧٣).
(١١) زاد المسير في علم التفسير (٤/ ٤٥).

مفهوم مخاطباته والكفر في آياته، وعلى السمع عدم فهمهم للقرآن إذا تلي عليهم أو دعوا إلى وحدانيته، وعلى الأبصار عدم هدايتها للنظر في مخلوقاته وعجائب مصنوعاته هذا معنى قول ابن عباس وابن مسعود وقتادة وغيرهم))[١].

ـ وفي التفسير المظهري: ((خَتَمَ اللَّهُ عَلى قُلُوبِهِمْ ـ فلا تعي خيرًا ـ والقلب هو المضغة وقد يطلق على المعرفة والعقل قال الله تعالى: {إِنَّ فِي ذلِكَ لَذِكْرى لِمَنْ كانَ لَهُ قَلْبٌ}))[٢].

ـ وفي تفسير القرطبي: ((أولئك الذين طبع الله على قلوبهم أي عن فهم المواعظ وسمعهم عن كلام الله تعالى وأبصارهم عن النظر في الآيات وأولئك هم الغافلون عما يراد بهم لا جرم أنهم في الآخرة هم الخاسرون))[٣].

وفي التفسير المنير: (({وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ} نحول قلوبهم عن الحق فلا يفهمونه وَأَبْصارَهُمْ عنه فلا يبصرونه))[٤].

ـ وفي أيسر التفاسير: ((والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر: أي ثقل فهم لا يسمعونه وهو عليهم عمى فلا يفهمونه، [أولئك ينادون من مكان بعيد]: والمنادى من مكان بعيد لا يسمع ولا يفهم ما ينادى له))[٥].

ـ لاحظ أن مكان الفهم موجود في القلب وليس في المخ لقوله تعالى: ((لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا))، فيعبر القرآن عن عدم الفهم بوجود خلل في القلب، ومن هذه التعبيرات: الختم والطبع على القلب والأكنة على القلب والقفل على القلب وتقليب الأفئدة والأبصار والحيلولة بين المرء وقلبه وقسوة القلب والصرف وضيق الصدر.

---

(١) تفسير القرطبي ـدار الكتب المصرية- القاهرة (ج: ١، ص: ١٣٦).
(٢) التفسير المظهري ـمكتبة الرشدية- الباكستان (١ / ٢٣).
(٣) تفسير القرطبي ـدار الكتب المصرية- القاهرة (ج: ١٠، ص: ١٩٢).
(٤) تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر (١١/ ١١١).
(٥) أيسر التفاسير للجزائري (٤/ ٥٨٤)

ـ الفهم الكاذب لما يقوله الانسان ويوقن به:

ـ قد يتكلم الانسان بكلام لكن هو في حقيقته لم يتكلم لأنه لا يفهم معنى ما يقوله فهما حقيقيا: ((إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ))(١)، ((صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَعْقِلُونَ))(٢).

ـ ففي التفسير الوسيط: (({وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ}(٣) (فأنى يؤفكون) أي: فكيف ينقلبون وينصرفون عن عبادته تعالى؟!))(٤) أي إذا كان الله هو الخالق وجب أن يكون هو المعبود، فهو يوقن بالخالق ويفهم معنى ما يقوله ولكنه يقين كاذب وفهم كاذب لأنه لو كان يقينا حقيقيا وفهما حقيقيا لأدى ذلك إلى أمرين هما الإسلام والخضوع للخالق (والخضوع هو أصل العبادة)، فإن انتسب للإسلام ولم يخضع للخالق فهو لم يحقق العبادة ويقينه وفهمه لا يزال كاذبا.

ـ فقد يوقن الانسان بأن الدين هو الحق لكنه يجعل إِلَهَهُ هواه؛ ففي تفسير البحر المحيط: (({أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ}(٥) (وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ) أَيْ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى سَابِقٍ، أَوْ عَلَى عِلْمٍ مِنْ هَذَا الضَّالِّ بِأَنَّ الْحَقَّ هُوَ الدِّينُ، وَيُعْرِضُ عَنْهُ عِنَادًا، فَيَكُونُ كَقَوْلِهِ: [وَجَحَدُوا بِها وَاسْتَيْقَنَتْها أَنْفُسُهُمْ]))(٦).

ـ فقد يتكلم الانسان عن الله والاخرة والدين مع الفهم واليقين لكنه فهم كاذب ويقين كاذب فلا يتأثر قلبه ولا جوارحه بما يقوله.

(١) الأنفال: ٢٢.
(٢) البقرة: من الآية ١٧١.
(٣) العنكبوت: ٦١
(٤) التفسير الوسيط ـ مجمع البحوث (٩/ ٨٣٨)
(٥) الجاثية: ٢٣
(٦) تفسير البحر المحيط في التفسير (٩/ ٤٢٢)

الفصل الرابع
مفهوم التعلق وعناصره

ـ المعيشة نوعين هما معيشة مبنية على أساس الغيبيات، فهي معيشة ناشئة من التأثر بالغيبيات، ومعيشة مبنية على أساس الدنيا ومعناها أن الانسان دنيوي وليس أخروي.

ـ إذا لم يكن هناك غيبيات فالناس يعيشون حياتهم على أساس الدنيا لأنهم لا يعرفون غيرها، وجود الغيبيات جعل الناس يعيشون حياتهم على أساس الغيبيات لأن الدنيا وما عليها ليست بشيء أمام الغيبيات.

ـ وجود اليقين والانتساب للدين معناه أن معيشة الانسان مبنية على أساس الغيبيات، فإذا كانت معيشته دنيوية فهذا معناه أن اليقين والانتساب للدين مجرد صورة ليس لها معنى.

ـ والمعيشة المبنية على أساس الغيبيات ليس معناها مجرد القيام ببعض أعمال الدين ولكن معناها التعلق بالغيبيات، وسوف نبين مفهوم التعلق.

ـ مفهوم التعلق:

ـ التعلق هو التأثر الشديد بقضية خطيرة جدا، فيعيش حياته متأثرا بها، والتعلق بشيء ما معناه أن يكون هو أكبر شيء يدهشك من عظمته وأكبر شيء تحبه وتخافه وترجوه في حياتك وأكبر شيء يشغل همك وأكبر شيء تعمل له، وهذه هي العناصر الأربعة للتعلق.

ـ فالإنسان يتعلق بقلبه وجوارحه بأمر ما من شدة تأثره به، أي إذا تأثر بشيء بشدة تعلق به، ومعنى أنه تعلق به أي رآه مدهشا جدا وتعلق به بهمه ومشاعره وجوارحه.

ـ الفرق بين مجرد التأثر بالأمر والتعلق به (شدة التأثر به):

ـ مجرد التأثر بأمر ما يجعل الانسان يراه ذا قيمة ويحبه أو يخافه أو يرجوه أو جميعهم ويشغل ذلك الامر همه ويطيعه في عمل أو قليل من الاعمال فلا تكون كل أعماله متجهة اليه.

ـ أما إذا كان المؤثر قويا جدا فإنه يجعل الانسان بكل قلبه وجوارحه يسير في اتجاه ذلك المؤثر، فينظر اليه نظرة تعظيم واكبار ويحبه بكمال الحب ويخافه ويرجوه بكمال الخوف والرجاء ويكون الشاغل الأكبر الدائم لهمه ويسخر جوارحه للعمل له.

ـ فكل انسان يتأثر بما يوقن به بحسب مدى أهمية وخطورة ما يوقن به، فإذا كان أمرا فائق الخطورة تعلق به، فالتعلق هو التأثر الشديد.

ـ فالتعلق يكون بالأمر الخطير جدا وليس بالأمر التافه أو الامر غير فائق الخطورة.

ـ صفات الخالق ووجود الاخرة هو أمر في غاية الأهمية والخطورة وبالتالي يتأثر به الانسان تأثرا شديدا وهو التعلق به.

ـ تعلق القلب والجوارح هو أثر اليقين بالأمر الخطير جدا، ويشمل أربعة أمور هي شدة التأله وتعلق المشاعر والهم الأكبر وتعلق الجوارح.

ـ فالإنسان يتأثر بالأمر بحسب مدى خطورته، فإذا كان الأمر لا خطر فيه فلا تأثر به، وإذا كانت خطورته ضئيلة فالتأثر به يكون ضئيلا، وإذا كان الأمر خطيرا فلابد أن يكون التأثر كبيرا، وإذا كانت خطورته هائلة جدا كان التأثر به شديدا جدا.

ـ فإذا كان الامر خطيرا جدا ولم يتأثر به الانسان فهذا معناه أنه لا يعرفه أو معرفته به كاذبة، وحيث أن قدرة الله وصفاته تصل الى الكمال فالإنسان يتأثر به ويتعلق به لدرجة أنه يعيش له تعظيما له، فإذا لم يتأثر به ويتعلق به لدرجة أنه يعيش له تعظيما له فهو لا يعرفه أو معرفته به كاذبة.

ـ اليقين بأمر خطير يؤدي إلى التأثر به بحسب درجة خطورته:

ـ هناك فرق بين الشيء التافه والشيء المؤثر، فالشيء المؤثر هو شيء مختلف عن المألوف فهو شيء عجيب وغريب ومدهش، وبالتالي يلفت الانتباه فيتأثر به الذهن ويراه الانسان عظيما وتتأثر مشاعره وهمه وجوارحه بقدر ما فيه من أهمية وخطورة، أما الشيء التافه الغير مهم فلا يتأثر به الانسان؛ فيراه تافها حقيرا ولا تتأثر به المشاعر ولا ينشغل به الهم ولا تتفاعل معه الجوارح سواء سلبا أو إيجابا.

ـ هناك قاعدة فطرية هي أن الإنسان إذا عرف أمرًا ما مؤثرًا وأيقن به فإنه يتأثر به، فإذا كان أمرًا مخيفا فإنه يخافه، وإذا عرف أمرًا ممتعا فإنه يشتاق إليه وهكذا، فمثلًا إذا عرف وأيقن أن أمامه قنبلة يمكن أن تنفجر في أي وقت فإنه يشعر بالخوف ويفر هاربًا.

ـ الطبيعي أن الشيء العظيم الخطير المعجز الخارق للأسباب العجيب المدهش المبهر الرهيب المهيب المخيف الغريب المحير المزعج المذهل المؤثر هو شيء يدعو إلى التعجب والدهشة والانبهار والرهبة والمهابة والاستغراب والتحير والانزعاج والذهول والتهيب وتأثر المشاعر به وانشغال الهم به والعمل للوصول لنفعه او تجنب ضرره، وذلك من مدى روعة وهول وغرابة الأمر المثير.

ـ فالتأثر يتمثل في أربعة أمور هي الدهشة من غرابة الامر (التأله) وتأثر المشاعر به وانشغال الهم به وعمل الجوارح للوصول لنفعه أو تجنب ضرره.

ـ والتأثر الشديد (التعلق) عبارة عن أربعة أمور هي دهشة شديدة من خطورة الامر وتعلق الهم والمشاعر والجوارح به، وهذه هي عناصر التعلق الأربعة.

ـ الدافع الى التأثر الشديد (التعلق) هو الخطورة الشديدة للأمر:

ـ وظائف الانسان الطبيعية مصممة بحيث يتأثر بالشيء الهام الخطير ولا يتأثر بالأمر التافه، ويتأثر أكثر بأخطر شيء ثم الأقل في الخطورة

والأهمية وهكذا، فيكون مقدار التأثر بحسب مقدار ما فيه من خطورة وأهمية.

ـ فالأمر الذي تصل خطورته الى درجة الكمال لابد أن يصل التأثر به الى درجة الكمال (التعلق).

ـ فالتعامل مع المعلومات يتناسب بحسب قيمة ومقدار المعلومة، فالمعلومة فائقة القيمة يكون معها تفاعل شديد جدًا وانفعال كبير، فمثلًا يكاد الإنسان يصعق ويموت عندما يسمع بخبر وفاة أهله واحتراق بيته، أو إذا سمع بأنه تم اختياره لينال جائزة هائلة، والإنسان العاقل يحترق من داخله ويسرع بالفرار عندما يعلم بوجود الجنة والنار والحساب في الآخرة واقتراب أجله، فإذا لم يحترق من داخله أو يتأثر خوفًا ورهبة وترقب فهذا معناه أنه لا عقل له وكأنه غير واع لما هو مقبل عليه أو أنه كالميت، وهذا حال الغافلين عن الآخرة، وهكذا.

ـ اليقين بالخالق والاخرة يؤدي الى شدة التأثر (التعلق) وليس مجرد التأثر:

ـ كلما زادت أهمية وخطورة الأمر كلما زاد التأثر به واشتد التعلق به، فالشيء الهام جدا والخطير جدا والمؤثر جدا والذي يصل الى الكمال في العجب والغرابة والدهشة سواء في صفاته الحميدة أو الذميمة أو نفعه أو ضرره يؤدي الى التعلق به.

ـ اليقين بأن أمرا ما هام وخطير ومثير ومذهل ومعجز وخارق للعادة لابد أن يؤدي تلقائيا الى تعلق القلب والجوارح به بقدر مدى ما فيه من الخطورة والأهمية.

ـ أثر اليقين بخطورة صفات الخالق وخطورة الحياة في الاخرة هو تعلق القلب والجوارح بالخالق والآخرة.

ـ فاذا لم يؤدي هذا اليقين الى تعلق القلب والجوارح فهو يقين كاذب وحقيقة لسان حال الانسان عندئذ أنه جاهل بهذا الأمر أو جاهل بخطورته.

ـ فقد يكون التأثر بقضية الغيبيات موجودا لكن مقدار هذا التأثر لا يتناسب أبدا مع مدى خطورة الغيبيات وهذا معناه أنه يقول بلسان الحال أن الغيبيات لها قيمة ولكن قيمة ضئيلة.

ـ فالمشكلة أن رد فعل الإنسان وانفعالاته ومشاعره لا تتناسب مع حجم الألم أو اللذة الشديدة جدًا فوق كل التصورات، فالجنة فيها متع ونفع كبير جدًا فوق كل التصورات لكن الإنسان لا يشعر بلذة الشوق تجاهها، وإذا كان عنده شعور بلذة الشوق لها فلا يتناسب أبدًا مع حجم المتع والملذات الهائل جدًا الذي يفوق كل التصورات.

ـ والنار فيها ضرر كبير جدًا فوق كل التصورات لكن الإنسان لا يشعر بألم الخوف من مهابتها وألم الخوف من دخولها، وإذا كان عنده شعور بألم الخوف من مهابتها فلا يتناسب أبدًا مع حجم الضرر والألم الهائل جدًا الذي يفوق كل التصورات.

ـ فمثلا عندما يعلم الانسان بوجود حريق ما أو وجود خطر يهدد حياته أو عثر على مبلغ هائل لم يكن يتوقعه مثلا فهنا تتأثر مشاعره وتتفاعل بالأمر بشدة.

ـ قضية الغيبيات والرسل هي من النوع الخطير جدا وبالتالي لا يكفي مجرد وجود التأثر ولكن لابد من التأثر الشديد.

ـ استمرارية التعلق:

ـ طالما أن الخطر ما زال قائما فلابد من استمرارية التأثر به، فطالما أن قدرة الله دائمة فالتأثر بخطورتها يكون دائما، وطالما أن الآخرة لم تأتي بعد فالتأثر بخطورة مجيئها يكون مستمرا.

ـ عناصر التعلق الأربعة:

ـ التعلق يشمل أربعة أمور هي شدة التأله (يراه مدهشا جدا) وتعلق المشاعر والهم الأكبر وتعلق الجوارح، وقمنا بشرح كل عنصر من هذه العناصر الأربعة في فصل مستقل.

ـ العناصر الأربعة للتعلق تعبر عن معيشة الانسان وحياته:

ـ حياة الانسان ومعيشته عبارة عن أعمال باطنة وأعمال ظاهرة، الاعمال الباطنة هي في الأساس عبارة عن ثلاثة أمور هي طبيعة نظرته للحياة وللأمور من حوله ومشاعره وانشغال همه.

ـ تعلق الانسان بأمر ما معناه أن أعماله الباطنة والظاهرة متعلقة بهذا الامر أو أن أعماله الباطنة والظاهرة هي في جملتها متعلقة بهذا الامر.

ـ فتعلق الانسان بأمر ما معناه أنه متجه بكليته اليه، أي حياته ومعيشته متعلقة به، أي أعماله الباطنة والظاهرة في جملتها متعلقة به، أي عناصر التعلق الأربعة في جملتها متعلقة به، أي هو متعلق بالأمر بقلبه وجوارحه.

ـ فالتعلق بأمر ما ليس معناه القيام بأعمال معينة تجاهه، ولكن معناه أن أعمال القلب والجوارح متعلقة بهذا الامر أو مجموع أعمال القلب والجوارح يعطي معنى أنها متعلقة به.

ـ أي أن التعلق بأمر معناه أن طبيعة نظرته للأمور وانشغال همه ومشاعره وفرحه وحزنه وأمانيه وطموحاته وتطلعاته ونيته وتصرفاته وردود افعاله وأقواله ونقاشاته وأعمال جوارحه وانفعالاته وسلوكه متعلقة بهذا الامر أو أنها في جملتها تعطي معنى التعلق به.

ـ ارتباط عناصر التعلق ببعضها البعض:

ـ عناصر التعلق الأربعة مرتبطة ببعضها البعض، فتعلق أحد عناصرها بالنفس والدنيا يدل على تعلق باقي العناصر بالنفس والدنيا على سبيل الاحتمال الأكيد، والعكس صحيح فتعلق أحد عناصرها بالله والاخرة يدل على تعلق باقي العناصر بالله والآخرة على سبيل الاحتمال الأكيد.

ـ معاني التعلق بالله والاخرة والتعلق بالدنيا في آيات القرآن:

ـ أولا: ما جاء في القرآن عن التعلق بالله والاخرة:

ـ ((قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ))(١)، ((وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ))(٢)، ((فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ))(٣)، ((فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ))(٤)، ((وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ))(٥)، ((فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ))(٦)، ((إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ))(٧).

ـ ثانيا: ما جاء في القرآن والسنة وأقوال العلماء عن التعلق بالنفس والدنيا:

ـ يقول تعالى: ((أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً))(٨)، ((أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ))(٩)، ((فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدىً مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ))(١٠)، ((فَلا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَنْ لا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى))(١١)، ((وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ))(١٢).

ـ وفي التفسير الوسيط: (({مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا .... }: والمعنى: من كان كل همه ومقصده من وجوده الدنيوى التمتع بلذات الدنيا وما يتزين به فيها فيعمل للتمتع بملذاته فيها، دون أن يهتم بلقاءِ الله تعالى والعمل للآخرة بالبر والإحسان وتزكية النفس بالإيمان والتقوى،

(١) الأنعام: ١٦٢، ١٦٣
(٢) لقمان : ٢٢
(٣) الزمر : ٢
(٤) آل عمران : ٢٠
(٥) يونس : ١٠٥
(٦) الروم : ٤٣
(٧) الأنعام: ٧٩
(٨) الفرقان : ٤٣
(٩) الجاثية : من الآية ٢٣
(١٠) القصص: ٥٠
(١١) طـه: ١٦
(١٢) الكهف: من الآية ٢٨

{نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ}: أَي نعطهم جزاء أعمالهم وافيًا في الدنيا، من الصحة والرياسة وسعة الرزق وكثرة الأولاد وغير ذلك، وهم فيها لا ينقصون شيئًا من أجورهم الدنيوية {وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا} ثم بين الله تعالى عاقبة أمر هؤلاءِ في الآخرة فقال: {أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}: أَي أُولئك الذين لا يريدون إلا زينة الحياة الدنيا وبهجتها وإشباع غرائزهم فيها ولم تمتد أَبصارهم وأَعمالهم وآمالهم إلى ما وراءَ هذه الحياة - أُولئك - ليس لهم في الآخرة مثوى إلا النار))[١].

- قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((الدنيا حلوة خضرة فمن أخذها بحقها بارك الله له فيها ورب متخوض فيما اشتهت نفسه ليس له يوم القيامة إلا النار))[٢].

- يقول ابن القيم: ((القلب الميت الذي لا حياة به فهو لا يعرف ربه ولا يعبده بأمره وما يحبه ويرضاه، بل هو واقف مع شهواته ولذاته ولو كان فيها سخط ربه وغضبه ، فهو لا يبالي إذا فاز بشهوته وحظه رضى ربه أم سخط، فهو متعبد لغير الله حبا وخوفا ورجاء ورضا وسخطا وتعظيما وذلا ، إن أحب أحب لهواه، وإن أبغض أبغض لهواه، وإن أعطى أعطى لهواه، وإن منع منع لهواه، فهواه آثر عنده وأحب إليه من رضا مولاه، فالهوى إمامه والشهوة قائده والجهل سائقه والغفلة مركبه، فهو بالفكر في تحصيل أغراضه الدنيوية مغمور، وبسكرة الهوى وحب العاجلة مخمور))[٣].

- ثالثا: آيات تبين أن الانسان عليه الاختيار بين التعلق بالدنيا أو التعلق بالله والاخرة:

- ((مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا (١٨) وَمَنْ أَرَادَ الآخرة وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا

(١) التفسير الوسيط - مجمع البحوث (٤/ ١٧٤).
(٢) التخريج: صحيح (صحيح الترغيب والترغيب ج: ٣ ، برقم : ٣٢١٩)
(٣) إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان - مكتبة المعارف، الرياض (ج :١ ، ص : ٩)

وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا))(١)، ((مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخرة نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخرة مِنْ نَصِيبٍ))(٢)، ((فَأَمَّا مَنْ طَغَى (٣٧) وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٣٨) فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى (٣٩) وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى (٤٠) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى))(٣) ((وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ (٢) الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الآخرة))(٤)، ((فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنا وَلَمْ يُرِدْ إِلاَّ الْحَياةَ الدُّنْيا))(٥)، ((كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ))(٦)، ((إِنَّ هَؤُلاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْماً ثَقِيلاً))(٧)، ((ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الآخرة))(٨)، ((بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا))(٩)، ((كَلَّا بَلْ لَا يَخَافُونَ الآخرة))(١٠).

ـ تعلق القلب والجوارح هو لسان الحال:

ـ لسان الحال يقصد به حال القلب والجوارح وليس الجوارح فقط، بل إن حال القلب هو الأساس والأهم، فالتعلق هو لسان الحال.

ـ فالإنسان قد يقول بلسانه أنه يوقن بالله والآخرة ولكن ذهنه ومشاعره وجوارحه تقول بأنه لم يسمع عن الخالق والآخرة، فهذا هو لسان حاله، فحاله يكذب يقينه.

---

(١) الإسراء: ١٨، ١٩
(٢) الشورى: ٢٠
(٣) النازعات: ٣٧ - ٤١
(٤) ابراهيم : ٢ ، ٣
(٥) النجم:٢٩
(٦) القيامة: ٢٠
(٧) الإنسان: ٢٧
(٨) النحل: ١٠٧
(٩) الأعلى: ١٦
(١٠) المدثر: ٥٣

ـ هل المشكلة في التعلق بالدنيا أم في عدم التعلق بالخالق والاخرة؟:

ـ هناك أمران لا ثالث لهما هما إما التعلق بالدنيا وعدم التعلق بالخالق والاخرة أو العكس.

ـ أساس ما هو مطلوب من الانسان هو التعلق بالخالق والاخرة.

ـ التعلق بالدنيا ليس هو أصل المشكلة ولكن المشكلة أن التعلق بالدنيا يدل على عدم التعلق بالخالق والاخرة.

ـ فالله يريد منك أن تعظمه فتجعله أعظم شيء في حياتك، فإذا جعلت المال والدنيا هي أعظم شيء في حياتك فأنت بذلك لا تعظمه.

ـ وبتعبير آخر فلابد أن يكون الله هو المحبوب الأعظم، أي يكون أعظم ما تحبه في حياتك فإذا جعلت المال والدنيا هي هو المحبوب الأعظم (أي يكون أعظم ما تحبه في حياتك) فأنت بذلك لا تحبه.

ـ فمعنى توحيد الربوبية (لا رب إلا الله) أي هو أعظم من كل شيء ولا عظيم غيره، فإذا كان توحيد الربوبية صادق فأنت تعظمه فتجعله أعظم من كل شيء.

ـ فكون الانسان يرى المال والدنيا عظيمة وانشغال همه بالدنيا وتعلق مشاعره وجوارحه بالدنيا ليس هو أصل المشكلة ولكن المشكلة في أنه لا يرى الله عظيما ولا ينشغل همه به ولا يتعلق بمشاعره وجوارحه به لأن ذلك معناه أنه لا يعظم الله ويتعامل معه بإهمال، أي أن ارتباط عناصر التعلق الأربعة بالدنيا ليس هو أصل المشكلة ولكن أصل المشكلة في عدم ارتباط عناصر التعلق الأربعة بالخالق والاخرة.

ـ مفهوم عدم التعلق بالخالق والاخرة:

ـ عدم التعلق بالخالق والاخرة معناه أن يكون حال الانسان أحد الأصناف التالية:

١ـ يكون حاله مثال حال الجاهل بالأمر، فهو يعيش كأنه لم يسمع عن الخالق وكأنه لم يسمع عن شيء اسمه الآخرة، أو كأنه لا يفهم معنى الغيبيات، كأن الغيبيات طلاسم وأمور مبهمة لا يفهمها، أو كأنه لا يفهم ما معنى الخالق وما معنى الآخرة فيعيش للدنيا.

٢ـ يكون حاله مثل حال الانسان الذي يتعامل مع أمر تافه فهو يتعامل مع الاخرة كأنها ودودة أليفة لا مشكلة منها ولا خطر فيها، كأنها غير مؤثرة وليست لها قيمة وكأن صفات الخالق ليست عظيمة وخارقة.

٣ـ يكون حاله فيه تأثر بالأمر ولكن تأثره ضعيف لا يتناسب أبدا مع مدى خطورة الامر.

ـ فهو يتعامل مع الغيبيات بغير اهتمام ولا ينشغل بها همه ولا تتأثر بها مشاعره كأنها أمر غير مهم أو قليل الأهمية أو كأنها مجرد اساطير ووهم أو كأنها أمر لا يعرفه ولم يسمع عنه أو أمر نسيه.

الفصل الخامس
التعلق يكشف حقيقة الهدف وحقيقة اليقين

ـ التعلق يكشف حقيقة الهدف، فاذا كان تعلق الانسان بالآخرة فهدفه الاخرة وإذا كان تعلقه بالدنيا فهدفه الدنيا.

ـ فهدف الانسان هو ما يتعلق به وليس ما هو مقتنع بأنه هدفه، فقد يحسب ان هدفه رضا الله والجنة وهو متعلق بالدنيا، فحقيقة هدفه عندئذ هو الدنيا وإذا كان يدعي أن هدفه الاخرة فهو مجرد ادعاء ووهم يكذب به على نفسه، فقد يخدع الانسان نفسه ويكذب على نفسه ويدعي أن هدفه الذي يعيش له هو رضا الله والجنة وليس الدنيا والحقيقة عكس ذلك تماما.

ـ تعلق القلب والجوارح هو لسان الحال الذي يكشف حقيقة اليقين هل هو صادق أم كاذب وحقيقة هدف الانسان هل هو الدنيا أم الاخرة؟

ـ التعلق بالدنيا يكشف ادعاء الانسان بأن هدفه رضا الله والجنة، فطبيعة نظرة الانسان للأشياء وهَمّهُ ومشاعره وسلوكه وانفعالاته وكلامه وعمله يكشف حقيقة هدفه، فتجده لا يرجو ولا يشتاق إلا الى المال والدنيا، ولا يخاف إلا من فوات المال والدنيا، ولا يحب غير المال والدنيا، وينظر الى المال على أنه أعظم شيء في الوجود، ولا هم له غير المال وكيفية الحصول عليه، ويلهث وراء جمع المال ليلا ونهارا، وقلبه يتقطع على المال حزنًا وفرحًا وغضبًا، وتتأثر مشاعره بالمال حبًا ورجاءً وخوفًا من ضياعه، وخلقه السيء يرتبط بالمال حسدًا لغيره وحقدًا وطمعًا في المال، وأكثر كلامه عن المال وكيفية الحصول عليه، وكل عمله للحصول على المال، وربما يقع في السرقة والرشوة للحصول على المال وغير ذلك، ورغم ذلك تجده على اقتناع تام بأنه لا يعيش من أجل المال ويحسب أنه يعيش من أجل الله والآخرة رغم أنه لا يعرف الله الذي يدعي أنه يعيش من أجله ولا يعرف الآخرة التي يدعي أنه يعيش من أجلها!؛ لأنه لو عرف الله والآخرة لعاش لله وليس للمال.

ـ والذي يقول أن هدفي الجنة ولا يسعى لها فهو كذاب، وفي الحديث: ((ما رأيت مثل النار نام هاربها ولا مثل الجنة نام طالبها))(١)، والذي يقول بأن هدفه الاخرة ولا يسعى اليها فهو كذاب: ((مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا (١٨) وَمَنْ أَرَادَ الآخرة وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا))(٢)، والسعي يكون بحسب خطورة ما يسعى اليه، فإذا كان أمرا عظيما كان السعي بتعلق القلب والجوارح، أي يسخر حياته للوصول إليه، وسعْيُ الاخرة من هذا النوع لخطورتها.

ـ تعلق القلب والجوارح يكشف حقيقة يقين الانسان:

ـ التعلق بالله والاخرة هو تصديق لليقين وبرهان على صدق اليقين، فالطبيعي أن تكون مشاعر الانسان وتصرفاته وردود أفعاله موافقة لليقين ومصدقة لليقين وليست مناقضة لليقين، فإذا أيقن الإنسان بأن الجنة فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر فلابد أن يتعلق بها أشد التعلق ويسارع اليها فإذا تلهى عنها وتعلق بالدنيا فيقينه كاذب.

ـ أصل العبادة وأصل الدين هو تعلق القلب والجوارح بالله:

ـ الدين معناه أن الانسان يبني حياته على أساس الغيبيات، فإذا بنى الانسان حياته على أساس الدنيا فكان ماديا دنيويا فهذا معناه أنه لا يريد الدين.

ـ الانسان إما أن يتعلق بنفسه وبالدنيا أو يتعلق بالله والاخرة، التعلق بالله والاخرة معناه أنه يتعلق بغير نفسه، والتعلق بالغير معناه الخضوع، فالتعلق بالله معناه الخضوع لله، والخضوع هو أصل العبادة.

ـ أصل العبادة معناه أن الانسان تعلق بأحد تعلقا شديدا بقلبه ومن شدة تعلقه به أنه عاش حياته ذليلا له تعظيما له، فهو بذلك يعبده.

---

(١) حديث حسن (صحيح الترغيب والترهيب برقم ٣٦٦٢)
(٢) الإسراء : ١٨، ١٩

ـ التناقض بين اليقين وبين تعلق القلب والجوارح:

ـ قد يوقن الانسان بالله والاخرة وينتسب للدين ويدعي أنه يعيش لله والاخرة وبأنه يريد الدين وبأن هدفه رضا الله والاخرة.

ـ لكن قلبه وجوارحه متعلقة بالدنيا وغير متعلقة بالله والاخرة، فقلبه وجوارحه يقولان بأنه يعيش للدنيا وبأنه لا يريد الدين وبأنه مادي دنيوي وبأن هدفه الدنيا.

ـ التعلق يكشف حقيقة قيام الانسان ببعض أعمال الدين:

ـ قد يقوم الانسان ببعض اعمال الدين فيبدو أن هدفه الاخرة وأن يقينه صادقا، لكن تعلقه بالدنيا يكشف أن هدفه الدنيا وأن يقينه كاذب، فهو يتأله الدنيا ويتعلق بها بمشاعره وهي أكبر همه وتتعلق جوارحه بها فهذا يدل على أن هدفه الدنيا رغم قيامه ببعض أعمال الدين.

ـ الذين يعيشون للدنيا (هدفهم الدنيا) صنفين:

١ـ الصنف الأول لم يدخلوا في الإسلام، وهذا طبيعي لأن حقيقة أمرهم أنهم يريدون أن يعيشوا للدنيا.

٢ـ الصنف الثاني ولدوا من أب وأم مسلمين فهم يقولون الشهادتين ويعملون ببعض أعمال الدين تكلفا أو رياءً أو تعودا أو يريدون بها ثواب الله لهم في الدنيا فقط أو من تأثرهم الضعيف الذي لا يصل الى التعلق بالآخرة، وهؤلاء صنفين:

أ ـ الصنف الأول ليس لديهم يقين وهؤلاء هم المنافقين.

ب ـ الصنف الثاني لديهم يقين وهو يقين كاذب.

ـ الذين يعيشون للدنيا كلهم واحد من ناحية الحال (تعلق القلب والجوارح) ويختلفون في اليقين (وهو يقين كاذب) والقيام ببعض أعمال الدين.

الفصل السادس
شدة التأله (أكبر ما يدهشك)

ـ أول عنصر من عناصر التعلق القلبي هو شدة التأله.

ـ شدة التأله بأمر ما أي يراه مدهشا جدا، أي هو أكبر ما يدهشك من مدى عظمته وغرابته.

ـ والتأله هو أول وأهم أعمال الانسان الباطنة.

ـ كلمة (التأله) في اللغة معناها التحير والدهشة من غرابة الامر.

ـ وكلمة (إله) في اللغة أي ما يدهشك من عظمته وغرابته، فتتحير من مدى عظمته وغرابته.

ـ أصل لفظ الجلالة "الله" هو " إله " فحذفوا الهمزة وأدخلوا بدلها الألف واللام، مثل كلمة (الناس) أصلها (أُناس) فحذفوا الهمزة وأدخلوا بدلها الألف واللام، ولذلك يقال في النداء يا أَلله، ففي كتاب عقيدة التوحيد في القرآن الكريم: ((أصل لفظ الجلالة "الله" هو " إله " قال به الخليل والكسائي والفراء، حيث قالوا بأن أصل لفظ الجلالة "الله" هو " إله " مثل فِعال فحذفوا الهمزة وأدخلوا بدلها الألف واللام، قال سيبويه: ونظيره (الناس) أصله (أُناس)، ولذلك قيل في النداء يا أَلله))[١].

ـ معنى كلمة (إله) في اللغة: أي الذي تتحير وتندهش وتتعجب وتعجب وتنبهر من مدى عظمة صفاته والتي تتمثل في خرق الأسباب فتخاف من هيبته وتحبه إعجابًا بمدى قدرته الهائلة ومدى أهمية وخطورة نعمه للإنسان ، ففي كتاب النهاية في غريب الأثر: ((أَلِهَ يأْلَهُ إذا تَحَيَّر، يُريد إذا وقع العبد في عظمة الله تعالى وجلاله وغير ذلك من صفات الربوبية وصرف وهمه إليها أبْغَض الناس حتى لا يميل قلبه إلى أحد))[٢]، وفي

(١) عقيدة التوحيد في القرآن الكريم (ص: ٧٣) محمد أحمد محمد عبد القادر خليل ملكاوي ــ الناشر: مكتبة دار الزمان ـ الطبعة: الأولى ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر (١/ ٦٢)

كتاب غريب الحديث لابن قتيبة: ((أَلِهَ يَأْلَه إذا تحيَّر كأَنَّ القُلوب تأْلَهُ عند التفكّر في عَظَمة الله... إذا وَقَع العَبْد في هذه الدَّرجَة لم يُعْجِبهُ أَحد ولم يُحبّ إلا الله عز وجلّ ّ))[1].

ـ ومعنى عبارة (لا إله الا الله) من ناحية اللغة أي لا أحد تتحير وتندهش من مدى عظمته إلا الله، فكل الأمور المدهشة العجيبة غير الله ليست بشيء بالمقارنة بصفات عظمة الله المدهشة، أي هو فقط من يدهشك من عظمته وغرابته، وهو فقط من تتحير من مدى عظمته وغرابته.

ـ فالمطلوب من الانسان ليس مجرد التأله ولكن شدة التأله، أي ليس المطلوب مجرد الدهشة ولكن أن تكون صفات الله هي أكبر شيء يدهشك من عظمته وغرابته، أي أكبر شيء تتحير من مدى عظمته وغرابته.

ـ ومعنى عبارة (لا إله الا الله) في الشرع أي لا أعبد إلا الله، والعبادة تشمل أعمال باطنة وظاهرة، وجميع أعمال الانسان الباطنة والظاهرة سواء كانت متعلقة بالآخرة أو بالدنيا تنشأ من التأله، فالحب ينشأ من تأله الصفات الحميدة والكراهية تنشأ من تأله الصفات الذميمة، والخوف والرجاء ينشأ من تأله صفات الثواب والعقاب، وانشغال الهم ينشأ من تأله الصفات الحميدة أو الذميمة بحسب مدى خطورته، وجميع أعمال الجوارح تنشأ من التأله.

ـ فالتأله هو واحد من الاعمال الباطنة وجميع الاعمال الباطنة الأخرى وجميع أعمال الجوارح من المستحيل أن تنشأ إلا من التأله، فالتأله هو القائد الذي يأمر القلب والجوارح وليس العقل أو ما يوقن به الانسان.

ـ وتأله الخالق معناه الاجلال والتعظيم القلبي للخالق، أي ينظر الى الخالق نظرة تعظيم فيراه عظيما وهو أهم عمل من أعمال العبادة، وجميع أعمال العبادة الأخرى تنشأ من تأله الخالق، فلا يمكن أن تتحقق العبادة إلا من تأله الخالق بحسب مدى درجة التأله.

---

(١) غريب الحديث لابن قتيبة (٣/ ٧٢٩)

ـ مفهوم التأله (الدهشة):

ـ التأله هو الدهشة، والدهشة هي شعور وانفعال معروف لا يحتاج الى شرح.

ـ الدهشة تكون من عظمة الأمر وخطورته، وهي تعبير عن شعور الانسان بقيمة الامر ومدى خطورته كأن يرى أمرا عجيبا لكونه مختلفا عن المألوف أو يرى أمرا مفاجئا لم يكن يتوقعه.

ـ التأله معناه الدهشة والتعجب والتحير والاستغراب والذهول والتهيب والرهبة والوجل والانزعاج والقلق والاضطراب والاهتمام وخوف المهابة وشعور بالفزع والذعر والقشعريرة والتوتر والاضطراب والتوجس وشعور بالمفاجأة من مدى روعة وهول وغرابة وخطورة الأمر سواء كان فيه نفع أو ضرر أو لم يكن فيه نفع أو ضرر.

ـ الطبيعي أن الشيء العظيم الخطير المعجز الخارق للأسباب العجيب المدهش المبهر الرهيب المهيب المخيف الغريب المحير المزعج المذهل المؤثر هو شيء يدعو إلى التعجب والدهشة والانبهار والرهبة والمهابة والاستغراب والتحير والانزعاج والذهول والتهيب

ـ درجة التأله:

ـ كلما زادت أهمية وخطورة الشيء كلما زاد انفعاله ودهشته وتعجبه وتحيره واستغرابه وذهوله بالأمر.

ـ يزداد الانتباه والدهشة بحسب مقدار ما في الشيء من أهمية وخطر، فكلما كان الخطر أكبر كانت الدهشة أشد، وإذا كان تافهًا لا خطر فيه فلا دهشة منه ولا عجب ولا يلتفت له ولا يلقي له بالًا ولا يوجد أي انفعال ذهني تجاه ذلك الأمر.

ـ الإنسان يتأثر بالأمر ويعمل له على قدر شعوره بخطورته (التأله)، فإذا كان شديد التأله لهواه ورغباته فقد جعل إلهه هواه: ((أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً))[1].

ـ فالتعامل مع المعلومات يتناسب بحسب قيمة ومقدار المعلومة، فالمعلومة فائقة القيمة يكون معها تفاعل شديد جدًا وانفعال ذهني كبير، فمثلًا يكاد الإنسان يصعق ويموت عندما يسمع بخبر وفاة أهله واحتراق بيته، أو إذا سمع بأنه تم اختياره لينال جائزة هائلة، والإنسان العاقل يحترق من داخله ويسرع بالفرار عندما يعلم بوجود الجنة والنار والحساب في الآخرة واقتراب أجله، فإذا لم يحترق من داخله أو يتأثر خوفًا ورهبة وترقب فهذا معناه أنه لا عقل له وكأنه غير واع لما يحدث حوله أو أنه كالميت، وهذا حال الغافلين عن الآخرة، وهكذا.

ـ مفهوم شدة التأله (الدهشة الشديدة):

ـ هو ما يشعر به الانسان عندما يرى أمرا خارقا للأسباب عجيبا جدا، فيرى أنه أعظم شيء في نظره أو أعجب شيء في نظره وذلك من شدة عظمته أو غرابته، وكل أمر عجيب دونه ليس بعجيب بالمقارنة به.

ـ استمرارية التأله:

ـ طالما أن الخطر ما زال قائما لابد من استمرارية الدهشة منه، فطالما أن قدرة الله دائمة فالدهشة من خطورتها تكون دائما، وطالما أن الآخرة لم تأتي بعد فالدهشة من خطورة مجيئها يكون مستمرا.

ـ التأله يعبر عن نظرة التعظيم لخطورة الامر:

ـ الشيء المثير هو شيء خارق للعادة وهو شيء غريب غير مألوف وبالتالي يلفت الانتباه فيتأثر به الذهن ويراه الانسان عظيما، والشيء الغير مثير هو شيء معتاد ويراه الانسان تافها حقيرا.

ـ نظرة الانسان الى الشيء نوعين هما:

(١) الفرقان: ٤٣

١ـ التأله: أي ينظر إلى الامر نظرة تعظيم وتوقير واحترام وإجلال، أي التحير والدهشة والتعجب من مدى عظمة الشيء، وهو يعبر عن تعظيم القلب لله أو للدنيا.

٢ـ عدم التأله: أي ينظر إلى الأمر نظرة اهمال ولا مبالاة وعدم اهتمام وعدم اعتبار وتجاهل للأمر فيراه تافها ولا يستحق الالتفات إليه.

ـ عدم التأله يكون لأمرين هما:

أـ إذا كان الأمر تافه غير مؤثر ولا يضر ولا ينفع وليس فيه خروج عن المألوف، فلا يندهش له ولا تتأثر به المشاعر لا سلبا ولا إيجابا فلا يحبه ولا يكرهه ولا تتأثر به الجوارح.

ب ـ إذا كان الامر خطيرا وهاما ولكن اليقين به كاذب لكونه يتجاهله أو أصيب بمرض المعرفة الكاذبة فعندئذ يتعامل معه كأنه لا يعرفه أو كأنه أمر تافه لا قيمة له، وهذا حال الغافل عن الاخرة ولقاء الله تعالى.

ـ التأله يعبر عن شعور الانسان بقيمة الشيء:

ـ شعور الانسان بقيمة الشيء يتم من خلال الدهشة من مدى عظمته.

ـ مجرد أن يسمع الانسان عن شيء ما ويفهم معناه لا يكفي، فلابد أن يشعر ويحس بمدى قيمته وبالتالي يتأثر به إذا كان مؤثرا.

ـ التأله هو خوف المهابة:

ـ إذا طلب منك ملك من ملوك الدنيا أن تحضر عنده ليعطيك هدية أو مكافأة فأنت تخاف من هيبة الموقف ولست تخاف من العقاب لأنه أمر عجيب غريب مدهش.

ـ من عرف الخالق معرفة حقيقية خاف من مهابة قدرته سبحانه، ففي تفسير النيسابوري: (({وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أمر اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ}(١) ... الخشية نوعان: خشية الجلال كالعبد إذا حضر بين يدي السلطان ومن ذلك خشية الملائكة {يخافون ربهم من

(١) الرعد: ٢١

فوقهم}[١] وإلى هذا أشار بقوله: {ويخشون ربهم}، وخشية أن يقع في العبادة خلل أو نقص يوجب فسادها أو نقصان ثوابها. وإليه الإشارة بقوله: {ويخافون سوء الحساب}))[٢]، وفي تفسير الرازي: ((وقال أصحاب الحقائق: الخوف على قسمين: خوف العقاب، وخوف العظمة والجلال، أما خوف العقاب فهو للعصاة، وأما خوف الجلال والعظمة فهو لا يزول عن قلب أحد من المخلوقين، سواء كان ملكًا مقربًا أو نبيًا مرسلًا، وذلك لأنه تعالى غني لذاته عن كل الموجودات، وما سواه من الموجودات فمحتاجون إليه، والمحتاج إذا حضر عند الملك الغني يهابه ويخافه، وليست تلك الهيبة من العقاب، بل مجرد علمه بكونه غنيًا عنه، وكونه محتاجًا إليه يوجب تلك المهابة))[٣]، وفي تفسير الرازي أيضًا: ((قال العارفون: الخوف خوفان: خوف العقاب وخوف الجلال، والأول نصيب أهل الظاهر، والثاني نصيب أهل القلب، والأول يزول، والثاني لا يزول))[٤].

- عدم وجود خوف المهابة من البعث معناه أنه لا يبالي بأمر البعث وينظر إليه نظرة اهمال، ففي تفسير السراج المنير: (({وقال الذين لا يرجون لقاءنا} أي: لا يخافون البعث، قال الفراء: الرجاء بمعنى الخوف لغة تهامة، ومنه قوله تعالى: {ما لكم لا ترجون لله وقاراً}[٥] أي: لا تخافون لله عظمة))[٦]، وفي التفسير البسيط: ((قوله تعالى {وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ} قال المفسرون، وأهل المعاني: لا يخشون ولا يخافون البعث))[٧]، وفي تفسير تنوير المقباس: (({بَلْ كَانُواْ لاَ يَرْجُونَ نُشُوراً} لَا يخَافُونَ الْبَعْث بعد الْمَوْت))[٨].

---

(١) النحل: ٥٠
(٢) تفسير النيسابوري = غرائب القرآن ورغائب الفرقان (٤/ ١٥٣)
(٣) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (١٥/ ٤٥٠)
(٤) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (٣/ ٤٨٢)
(٥) نوح، ١٣
(٦) السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير (٢/ ٦٥٥)
(٧) التفسير البسيط (١٦/ ٤٤٩)
(٨) تفسير تنوير المقباس من تفسير ابن عباس (ص: ٣٠٣)

ـ وشدة التأله تعني الوجل والدهشة من هول الامر لدرجة أنه يقشعر منه جلده، ففي تفسير البحر المديد: (({إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ} خافت واقشعرت لذكره استعظامًا له وهيبة من جلاله))(١)، ((اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إلى ذِكْرِ اللَّهِ))(٢)، ((قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا (١٠٧) وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا (١٠٨) وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا))(٣).

ـ التأله يكون للأمر الخطير سواء كان فيه ثواب أو عقاب أو لا علاقة له بالثواب والعقاب:

ـ التأله يكون من الشيء الخطير سواء كان فيه نفع أو ضرر أو ليس فيه نفع أو ضرر، فالإنسان يندهش ويذهل ويتعجب من هول الجنة لما فيها من النفع ومن هول النار لما فيها من الضرر ومن مدى عظمة قدرة الله رغم أن ذلك ليس مسألة نفع وضرر ومن هول البعث ومن هول مشهد يوم القيامة وما فيه والوقوف أمام لما فيه من الخطورة وليس لضرره ومن رؤيته لفيلم رعب.

ـ أمثلة توضح معنى التأله (الدهشة):

ـ مثال (١):

ـ الإنسان إذا ذهب إلى قسم الحرائق بأي مستشفى ورأى ما فعلته النار بهؤلاء المرضى فإنه يشعر بالرهبة من مهابة الامر ويشعر بالحزن ويتألم رغم أنه لم يصب بأي أذى من النار، فهذا هو خوف المهابة، ويؤدي الى الخوف من أن يقترب من النار أو تدركه النار فيصاب مثلهم، وهذا هو خوف العقاب أي خوف الوصول للنار، فإذا لم يشعر الإنسان

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد (٢/ ٣٠٤)
(٢) الزمر: ٢٣
(٣) الاسراء: ١٠٩

بالرهبة والتألم لهؤلاء المرضى فهذا معناه أنه لا يعرف ماذا تعني كلمة نار معرفة حقيقية، وبالتالي فلن يخاف من العقاب.

ـ خوف المهابة من الجنة والنار ومن أهوال القيامة ليس خوف عقاب ولكنه خوف مهابة ودهشة تجعل الإنسان يقشعر بدنه ويجعله متحيرًا قلقًا من وجود حياة أخرى أبدية للإنسان فيها نار رهيبة وجنة رهيبة.

ـ تصور الآخرة كعالم آخر رهيب يدعو إلى الشعور بالمهابة من الآخرة، فلو افترضنا مثلًا أن الآخرة فيها جنة فقط، وكل الناس ينتقلون من حياة الدنيا إلى الحياة في الجنة، فهذا أمر رهيب يدعو إلى الشعور بالمهابة فهو انتقال من حياة إلى حياة مختلفة تمامًا وأعلى بكثير جدًا مما يدعو إلى الشعور بالمهابة، ولو افترضنا جدلًا أن كل الناس لن يدخلوا النار فوجود النار نفسها تدعو إلى الشعور بالمهابة من مدى ضخامتها وشدتها وعجبها رغم أنهم لن يدخلوها، وكذلك الوقوف على أرض المحشر وما يحدث على أرض المحشر من أمور الحساب هو أيضًا أمر رهيب يدعو إلى الشعور بالمهابة.

ـ مثال (٢):

ـ لو قالوا لك أن هناك رجلا يسير الآن في الشارع طوله ثلاثة أمتار وأنت قد سمعت وصدقت الأمر ولم يكن لديك أي انفعال أو رد فعل أو انتباه واستغراب ودهشة من الأمر وتحرُّك لرؤيته فهذا معناه أنك لا تزال لم تعرف الأمر بعد معرفة حقيقية.

ـ أنت إذا رأيت ساحرًا، فإنه يحدث لك خوف مهابة مما يصنع وحب إعجاب بما يصنع وتصفق له.

مثال (٣):

ـ انظر إلى حال رجل يذهب لمقابلة ملك من ملوك الدنيا، فإنه يستعد ويتهيأ نفسيًا لأنه أمر رهيب، إنه يكون في قلق واضطراب، وعندما يقف عند الملك قد يتلعثم من هيبة الموقف، إن الحالة النفسية التي عنده هي التي تسمي الشعور بالمهابة، فإذا كنت تدعي الشعور بالمهابة من الله فهل عندك هذه الحالة النفسية؟!

ـ مثال (٤):

ـ لو سمعت أن رجلًا خارقًا يستطيع أن ينقل الجبال أو يستطيع أن يبيد الناس في لحظة أو... إلخ، بماذا تشعر؟، إنك تشعر بالهيبة والرهبة، فإن الله يستطيع ما هو أعظم من ذلك ((وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا))[١]، ويستطيع أن يبيد كل البشرية في أقل من لحظة، فلماذا لا تشعر بنفس الشعور السابق؟، وإذا كنت تدعي أنك تشعر بالهيبة والرهبة من الله ففي الحالة الأولى كانت هناك حالة نفسية وانفعالات داخلية مميزة للشعور بالرهبة والهيبة، فهل عندك هذه الحالة النفسية أم أنه مجرد ادعاء بأن عندك الهيبة والرهبة والتعظيم لله؟!.

ـ التأله (الدهشة) له حالتين هما:

ـ هناك أمران لا ثالث لهما هما إما التأله من عظمة النفس والدنيا**!** وعدم التأله للخالق والاخرة، أو التأله من عظمة الخالق والاخرة وعدم التأله بالنفس والدنيا، ونوضح ذلك كالتالي:

١ـ التأله من عظمة النفس والدنيا!:

ـ النعم عظيمة جدا، وهي تدل على عظمة مالكها وهو الله سبحانه، وهي بالمقارنة بما عند الله تعالى ضئيلة جدا، فهذا يدل على مدى عظمة الله.

ـ الانسان يتجاهل أن النعم ملك لله وعطاء من الله عليه ويتعامل مع النعم على انها ملك للإنسان وبالتالي يرى نفسه عظيما بما عنده من النعم، كما أنه يتجاهل ما عند الله من نعم حتى لا يقارن بينها وبين ما عند الله ـ على افتراض ملكيتها للإنسان ـ حتى لا يرى ضآلتها بالمقارنة بما عند الله فلا لا يغتر بها.

ـ فهو يتجاهل أن هذه النعم ملكا لله ودليل على قوة الله تعالى فينسب ملكية النعم لنفسه حتى يتوهم أنه قوي بها رغم يقينه بأنها نعم من الله، ويتجاهل أن صفات الخالق أعظم من صفات الانسان ونعم الجنة أعظم من نعم

---

(١) طه: ١٠٥

الدنيا حتى يتوهم أنه قوي بها رغم يقينه بالخالق والاخرة، وهذا من الغباء لأنه لن يغير من حقيقة الامر شيئا.

ـ فالإنسان لا يفرح ولا يتعلق بما عند غيره من مال وممتلكات مهما كانت عظيمة لأنها ليست ملكا له، لكنه يتوهم أنها ملكه فيغتر بها، وهذا من الغباء لأنه لن يغير من حقيقة الامر شيئا.

ـ التأله من عظمة النفس معناه الغرور بالنفس والكبر والعجب والفخر بالنفس والاستكبار والعزة بالنفس، أي أنه يرى نفسه قويا ويشعر أن له قيمة ومكانة وقدر، والتأله من عظمة الدنيا معناه الغرور بالدنيا والغرور بالنعم ومعناه أنه يرى الدنيا والمال عظيما، وبالتالي تتعلق مشاعره وهمه وجوارحه بالدنيا والمال والشهوات.

ـ وتكون نظرة الإنسان للمال وأصحاب الثروات نظرة انبهار وإعجاب وتعظيم وتقدير لعظيم قيمته، وكذلك نظرته إلى حجم المتعة من الشهوات وهكذا، في حين نظرته إلى قدر الله مثل نظرته إلى أي شيء لا ينفع ولا يضر، فقدرة الله لا تلفت نظره أصلًا ولا يستشعر في ذلك أثر أو أهمية، فلا يرى لله عظمة في نفسه، وكذلك نظرته إلى الآخرة تكون مثل نظرته إلى الحواديت وهكذا.

ـ لماذا يرى الإنسان شهوات الدنيا كبيرة ولا يستطيع مقاومتها؟ ذلك لأنه لا يزال يتعامل مع النعم التي يتمتع بها على أنها ملكه ولم تأته من أحد غيره، ولا يزال لم يقارنها بشهوات الجنة أو بالعقاب على هذه الشهوات فلا وجه للمقارنة.

ـ وكذلك طالما أن الإنسان لا يزال يغضب وينفعل ويتأثر بآلام الدنيا ومشاكلها هو أنه يتوهم أنه فقد شيئا يملكه ولا يتعامل مع النعم على انها أمانة يستردها صاحبها وقتما يشاء، فيتعامل مع سلب النعم على أنها ظلما له.

ـ وطالما أن الإنسان لا يزال ينظر إلى الأموال والشهوات والمناصب نظرة انبهار على أنها ذات قيمة كبيرة فهذا يدل على أن معرفته بالله

والآخرة لم تتحقق، لأن من عرف حقيقة الخالق والآخرة فإنه بالضرورة ينظر إلى شهوات الدنيا والأموال نظرة اهمال.

٢ـ عدم التأله للخالق والاخرة:

ـ صفات الخالق وخطورة الاخرة وكل ما حول الانسان من الآيات الكونية كل ذلك يدعو الانسان للدهشة والتعجب والانبهار الشديد من خطورة الامر لكنه يعيش وسط كل هذه المخاطر كأنه لا شيء يدعو للقلق والانزعاج وكل شيء عادي.

٣ـ التأله من عظمة الخالق والاخرة:

ـ قيمة الشيء تعرف بالمقارنة بشيء آخر، فوجود الآخرة جعل الدنيا شيء تافه لا قيمة له، وإذا لم يكن هناك رب ولا آخرة لكانت الدنيا عظيمة جدًا؛ لأنه ليس أمام الإنسان شيء غيرها.

ـ معرفة الآخرة تؤدي إلى أن يعرف الإنسان حقيقة الدنيا فلا يتعلق بها قلبه ولا يعيش لها، فإذا تعلق قلبه بالدنيا فهذا دليل على أن الإنسان لا يزال لم يعرف حقيقة الدنيا وسبب ذلك أنه لا يزال لم يعرف الآخرة.

ـ فإذا انتبه الإنسان أولًا إلى حقيقة الآخرة رأى الدنيا على حقيقتها وبالتالي لم يحدث له انفعال ذهني أو تعجب أو دهشة أو انبهار أو رهبة أو مهابة أو استغراب أو تحير أو انزعاج أو ذهول أو تهيب أو إعجاب بقيمة المال أو الشهوات أو المناصب أو أي أمر من أمور الدنيا، وينظر إلى المال والشهوات والدنيا نظرة احتقار وليس نظرة تعظيم، وتتغير نظرته إلى ما حوله، فتكون نظرته للأشياء نظرة أخروية وليست نظرة دنيوية، فمثلًا لا ينظر إلى أصحاب الجاه والسلطان نظرة انبهار ولكن يتذكر أنهم صائرون إلى القبور ويتركون كل شيء، وكذلك ينظر إلى الظلمة على أنهم ضعفاء مساكين وهم في النار يعذبون فيشفق عليهم في الدنيا وهم يوردون أنفسهم موارد الهلاك: ((إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ))[1]، وهكذا.

---

(١) الشعراء: ١٣٥

٤ـ عدم التأله بالنفس والدنيا:

ـ معرفة الله تؤدي الى تغيير نظرة الإنسان لنفسه، فبدلا من أن يرى نفسه عظيما يرى نفسه ضئيلة، ومعرفة الآخرة تؤدي الى تغيير نظرة الإنسان للدنيا فبدلا من أن يرى الدنيا عظيمة يراها ضئيلة.

ـ مقدار ما يمتلكه الانسان هو صفر، ومقدار ما يمتلكه الخالق هو كل شيء حتى الانسان نفسه هو مما يمتلكه الخالق، فالله هو المالك لكل شيء والانسان لا يملك شيئا، فمن يعرف ذلك معرفة حقيقية لا يغتر بنفسه وبالدنيا.

ـ قدرة الانسان لا شيء أمام قدرة الخالق والانسان خاضع لله كونيا وهذا معناه التحقير من شأن النفس أي يرى نفسه ضئيلة لا حول لها ولا قوة، فهو يرى نفسه مهملة لا قيمة لها، فالشيء الغير مثير لا يدعو الى الدهشة ولا تتعلق به المشاعر فهو مهمل لا قيمة له.

ـ إذا قارنا الدنيا بالآخرة فالدنيا لعب ولهو مثل لعب ولهو الأطفال؛ لأنها حياة قصيرة جدًا وتافهة جدًا، بل إنها ليست بحياة أصلًا: ((وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إلا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الآخرة لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ))(١)، ((وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ))(٢)، ((إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ))(٣)، ((اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ))(٤)، واللعب واللهو هو الشيء الذي ليس له قيمة فلا ينفع ولا يضر وليس له أهمية ولا يهتم الإنسان به ولا يكترث به، وبالتالي لا يتأثر به الذهن ولا المشاعر.

ـ الدنيا وما بها من مال وشهوات ومتع لا تساوي شيئًا بالمقارنة بالآخرة، فمن يعرف الآخرة ويوقن بها تكون كل أموال الدنيا وشهواتها ومناصبها هي مثل الطين في نظره؛ لأنه يقارنها بالآخرة فلا تساوي شيئًا، وهو ينظر إلى من عنده قدر كبير من أموال الدنيا ومناصبها وشهواتها على

(١) العنكبوت: ٦٤
(٢) الأنعام: ٣٢
(٣) محمد: ٣٦
(٤) الحديد: ٢٠

أنه عنده قدر كبير من الطين، فلا ينظر له نظرة انبهار، وينظر إلى الفقير المعدوم على أنه عنده قدر قليل من الطين، وإذا ظلمه أحد فلا يتألم ويشتد حزنه؛ لأنه يعلم أن ذلك الظالم مسكين قد أتعب نفسه وأخذ منه قدرًا من الطين، وهذا لا يمنع من أن يطالب بحقه، أما الذي لا يعرف الآخرة إذا كان مظلومًا أو فقيرًا فإنه يكون دائم التسخط والتألم الشديد والحزن الشديد ودائم الشكوى، وإذا خسر في تجارة أو أصابه مصاب قد يصاب بسكتة قلبية أو اكتئاب شديد جدًا، وإذا كان ظالمًا أو غنيًا فإنه يكون دائم التهلل والفرح الشديد ويعجب بنفسه بشدة ويتكبر على غيره، والذي لا يعرف الآخرة يكون خائفًا خوفًا شديدًا جدًا على صحته وعلى عمره لدرجة الهلع كأنه لا يريد أن يموت، وكذلك فهو خائف بشدة على ألا يفوته أو ينقص منه شيء من متع الدنيا وحريص بشدة كبيرة جدًا على أن يفقد غيره من الناس متع الدنيا وألا يحصلوا على شيء من متعها حتى يكون هو الأعلى، وذلك لأن الدنيا ومناصبها وأموالها وشهواتها هي في نظره عظيمة وكبيرة جدًا ويوم القيامة يُفاجأ بأن كل ذلك كان مجرد طين وأنه كان حريصًا على جمع الطين!.

ـ فعندما يعرف الإنسان الآخرة تتغير نظرته تجاه صاحب الأموال الهائلة الذي يعيش من أجل جمع المال يراه مسكينًا غبيًا يُورد نفسه موارد الهلاك، وعلى العكس فإنه ينظر إلى الإنسان المتصل بالله نظرة إكبار وتعظيم ويحسده على ما عنده من إيمان، وينظر إلى الأعمال الهائلة التي يعملها الذين يعيشون للدنيا فيراها لهوًا ولعبًا رغم أنها عند أهل الدنيا أعمال عظيمة جدًا.

ـ فالناس أمامهم جبل من الذهب الحقيقي وجبل من الطين، وهم يتهافتون ويتنافسون على جبل الطين الذي هو أموال الدنيا وشهواتها ومناصبها، ويتركون جبل الذهب الذي هو رضا الله وجنات النعيم.

ـ فالتأثر الشديد بظلم الظالم هو من الغباء؛ لأن الدنيا ليست إلا طينًا، فالظالم أخذ كثيرًا من الطين والمظلوم عنده قليل من الطين.

ـ بداية الهداية هي الانتقال من تأله النفس والدنيا إلى تأله الخالق والآخرة:

ـ اللحظة التي يتحقق فيها التأله هي اللحظة التي يهتدي فيها الانسان.

ـ فمن الناس من يتعرض لموقف مثل موت قريب له أو يستمع لموعظة ذات مرة أو يرى آية كونية فتكون سببا في تحقيق التأله وإحياء المعرفة عنده وهدايته وتتغير بذلك حياته كلها ويكتشف كأنه يعرف الأمر لأول مرة.

ـ فالتأله هو شعور بالقلق والاضراب وشعور بالمفاجأة عندما يرى أو يسمع أمرًا غريبًا مفاجئًا لم يكن يتوقعه، وهي ما يشعر به الإنسان عندما يقوم من نومه فيجد نفسه في مكان موحش أو في قصر مثلًا، أو ما يشعر به الإنسان الذي أغمي عليه عندما يفيق من الإغماء، أو ما يشعر به الإنسان إذا رأى عفريتًا أو ما شابه ذلك، وهناك ما يعبر عن ذلك من قول شيخ الإسلام ابن القيم: ((فَأَوَّلُ مَنَازِلِ الْعُبُودِيَّةِ الْيَقَظَةُ وَهِيَ انْزِعَاجُ الْقَلْبِ لِرَوْعَةِ الِانْتِبَاهِ مِنْ رَقْدَةِ الْغَافِلِينَ، وَاللَّهِ مَا أَنْفَعَ هَذِهِ الرَّوْعَةَ، وَمَا أَعْظَمَ قَدْرَهَا وَخَطَرَهَا، وَمَا أَشَدَّ إِعَانَتَهَا عَلَى السُّلُوكِ! فَمَنْ أَحَسَّ بِهَا فَقَدْ أَحَسَّ وَاللَّهِ بِالْفَلَاحِ، وَإِلَّا فَهُوَ فِي سَكَرَاتِ الْغَفْلَةِ فَإِذَا انْتَبَهَ شَمَّرَ لِلَّهِ بِهِمَّتِهِ إِلَى السَّفَرِ إِلَى مَنَازِلِهِ الْأُولَى، وَأَوْطَانِهِ الَّتِي سُبِيَ مِنْهَا))(١).

ـ فبداية الهداية هي الانتقال من تأله النفس والدنيا الى تأله الخالق والاخرة، فيرى الدنيا على حقيقتها وبالتالي لم يحدث له انفعال ذهني أو تعجب أو دهشة أو انبهار أو رهبة أو مهابة أو استغراب أو تحير أو انزعاج أو ذهول أو تهيب أو إعجاب بقيمة المال أو الشهوات أو المناصب أو أي أمر من أمور الدنيا، وينظر إلى المال والشهوات والدنيا نظرة احتقار وليس نظرة تعظيم، وتتغير نظرته إلى ما حوله، فتكون نظرته للأشياء نظرة أخروية وليست نظرة دنيوية، فمثلًا لا ينظر إلى أصحاب الجاه والسلطان نظرة انبهار ولكن يتذكر أنهم صائرون إلى القبور ويتركون كل شيء، وكذلك ينظر إلى الظلمة على أنهم ضعفاء

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (١/ ١٤٢)

مساكين وهم في النار يعذبون فيشفق عليهم في الدنيا وهم يوردون أنفسهم موارد الهلاك: ((إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ))(١) وهكذا.

ـ وتتغير نظرة الإنسان لنفسه، فبدلا من أن يرى نفسه عظيما يرى نفسه ضئيلة، وتتغير نظرته للدنيا فبدلا من أن يرى الدنيا عظيمة يراها ضئيلة.

ـ يقول شيخ الإسلام ابن القيم: ((اعلم أن القلب إذا خلى من الاهتمام بالدنيا والتعلق بما فيها من مال أو رياسة أو صورة وتعلق بالآخرة والاهتمام بها من تحصيل العدة والتأهب للقدوم على الله عز وجل فذلك أول فتوحه وتباشير فجره))(٢).

ـ شدة التأله يؤدي الى باقي عناصر التعلق:

ـ كل مشاعر الانسان وهمومه وأعمال جوارحه تنشأ من شعوره بخطورة أمر ما (التأله)، فإذا كان أمرًا خطيرًا ولم يشعر بخطورته (عدم التأله) فلن يتأثر به ولن يعمل له، فعدم تأثر مشاعر الإنسان وحياته وعمله بالخالق والآخرة يرجع إلى عدم التأله.

ـ الإنسان يتأثر بالأمر ويعمل له على قدر شعوره بخطورته (التأله)، فإذا كان أمرا فائق الخطورة عاش حياته كلها بقلبه وجوارحه متأثرا بهذا الأمر من شدة التأله.

ـ جميع مشاعر الإنسان من الحب والكراهية والخوف والرجاء سواء لله أو للدنيا تنشأ من التأله، وبقدر التأله يكون قدر ذلك الشعور، وإذا استمر التأله استمرت المشاعر وإذا انقطع انقطعت المشاعر.

ـ فلكي يتحقق الخوف من النار لابد أولا من حدوث خوف المهابة والتعجب من خطورتها.

ـ فمثلا الانسان يرى المال عظيما وينبهر به (يتأله المال) فهذا يؤدي إلى حب المال وينشغل به همه وينشغل به عمله وتجده كثيرا ما يذكر المال، وكذلك فالإنسان يرى صفات الخالق وانعامه عظيما (يتأله الخالق) فهذا

(١) الحديد: ٢٠

(٢) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (٣/ ٣٥٢)

يؤدي إلى حب الخالق وينشغل به همه وينشغل به عمله وتجده كثيرا ما يذكر الله

ـ والعكس صحيح، فعدم وجود الدهشة والتعجب والتحير والاستغراب والذهول والتهيب والرهبة والانزعاج والقلق والاضطراب والتحير من مدى هول وغرابة وخطورة ما في الجنة والنار يؤدي الى غياب حب الجنة ورجاءها وكراهية النار والخوف منها وعدم شغل الهم بهما ولا يبني اعماله على أساس الوصول للجنة والنجاة من النار.

ـ وكذلك فعدم وجود الدهشة والتعجب والتحير والاستغراب والذهول والتهيب والرهبة والانزعاج والقلق والاضطراب والتحير من مدى قدرة الله ومدى انعامه يؤدي الى غياب الحب للخالق سبحانه.

ـ إذا كان الانسان شديد التأله بالمال (رآه عظيما جدا) تأثرت مشاعره بالمال حبًا وفرحًا به ورجاءً واشتياقا في الحصول عليه وخوفًا من ضياعه وحزنًا وغضبًا على فقده، وانشغل همه بقيمة المال وكيفية الحصول عليه، وخلقه السيء يرتبط بالمال حسدًا لغيره وحقدًا وطمعًا في المال، وأكثر كلامه عن المال وكيفية الحصول عليه، وكل عمله للحصول على المال وربما يقع في السرقة والرشوة للحصول على المال وغير ذلك، فهو يعيش للمال، كل ذلك ينشأ من كونه يرى المال عظيم القيمة جدًا.

ـ التناقض بين اليقين والتأله:

ـ الطبيعي أن اليقين بخطورة أمر ما يؤدي إلى التأله من هذا الامر وهو التحير والدهشة والتعجب من مدى خطورته فيراه عظيما في نظره فيؤدي ذلك الى تعلق مشاعره به وانشغال همه به، لكن إذا كان اليقين كاذبا فإنه لا يؤدي الى التأله.

ـ فقد يوقن الانسان بضعف نفسه وقوة الخالق لكنه على العكس من ذلك يكون مغرورا بنفسه، أي يرى نفسه قويا ويشعر أن له قيمة ومكانة وقدر وينظر لقدرة الله عليه ومراقبته له ولقاءه به يوم الحساب نظرة اهمال

وعدم اهتمام كأنه أمر لا قيمة له: ((قَالَ يَاقَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا))[١].

ـ فهو يوقن ويعترف بأنه ضعيف لكنه لا يحب أن يكون ضعيفا فيتجاهل أنه ضعيف ويتوهم أنه قوي فيرى نفسه قويا، وذلك من الغباء لأن التجاهل لن يغير من حقيقة الأمر شيء.

ـ وقد يوقن الانسان بخطورة الاخرة وضآلة الدنيا لكنه على العكس من ذلك ينظر الى الاخرة نظرة إهمال وينظر إلى الأموال والشهوات والمناصب نظرة انبهار على أنها ذات قيمة كبيرة ويعتبر المال أهم شيء في حياته، ويكون مغرورا بالدنيا، أي يرى الدنيا والمال عظيما، وينظر لأصحاب الثروات نظرة انبهار وإعجاب وتعظيم وتقدير.

ـ وقد يوقن الانسان بأن الأسباب لا تنفع ولا تضر لكن يراها عظيمة.

---

(١) هود: ٩٢

الفصل السابع
مفهوم تعلق المشاعر

ـ تعلق المشاعر هو العنصر الثاني من عناصر التعلق.

ـ تعلق المشاعر بأمر ما معناه أنه هو أكبر ما تحب وترجو وتخاف في حياتك.

ـ مشاعر الانسان إما أن تكون متعلقة بالله والاخرة أو متعلقة بالدنيا ولا يوجد شيء ثالث.

ـ تعلق المشاعر بالخالق والآخرة يشمل كمال الحب لله وكمال الحب للجنة وكمال الرجاء فيها وكمال الكراهية للنار وكمال الخوف منها.

ـ اليقين الحقيقي بالخالق يؤدي إلى الحب الشديد وليس مجرد الحب إعجابا بعظمة صفات الخالق وعظمة انعامه، كما يؤدي إلى الخوف والرجاء الشديد وليس مجرد الخوف والرجاء.

ـ مفهوم شدة الحب والخوف والرجاء:

ـ شدة الحب والخوف والرجاء معناها أن تصل درجة الحب أو الخوف أو الرجاء لأحد من الناس الى درجة أنك تسخر حياتك كلها في العمل بما يسره من مدى شدة حبك له أو من مدى شدة خوفك منه أو من مدى شدة رجاءك فيه

ـ شكر الانسان لغيره يكون على قدر ما أنعم به عليك، فإذا كان انعامه لا حد له فأنت تسخر حياتك كلها في العمل بما يسره شكرا له.

ـ فإنعام الله على الانسان لا حد له، فلو سلبت النعم من الانسان أصبح الانسان لا شيء لأن كل شيء هو نعم للإنسان وهذا يوجب عليه أن يعيش حياته خاضعا للمنعم شكرا على نعمه.

ـ صاحب الصفات الحميدة محبوب وبخاصة صفة الاحسان اليك والى الاخرين، وتعبيرا عن حبك له فأنت تعمل ما يسره في مرة أو عدة مرات، فإذا وصلت كل صفة من هذه الصفات الحميدة الى درجة الكمال فأنت تحبه لدرجة الكمال في الحب، وتعبيرا عن كمال حبك له فأنت تعمل ما يسره في ليس في مرة أو عدة مرات ولكن تعيش حياتك كلها للعمل بما يسره تاركا معيشتك لنفسك، فهذا هو أصل العبادة.

ـ اليقين بأن الله له الكمال في الصفات الحميدة يوجب أن تعيش حياتك له تعبيرا عن كمال حبك له، فإذا لم يؤدي اليقين الى شدة الحب لله تعالى فهو يقين كاذب.

ـ اليقين يؤدي الى شدة الحب لله تعالى وليس مجرد وجود الحب لله.

ـ هناك دوافع أخرى للعبادة وهي شدة الخوف والرجاء وتنشأ من اليقين بعظمة وشدة الثواب والعقاب، فأنت تعيش حياتك للعمل بما يسره من شدة خوفك أو من شدة رجاءك.

ـ فصفات الخالق مؤثرة جدا ولا يكفي مجرد التأثر بها ولابد من شدة التأثر، فما بالك بعدم تأثر الكثير بصفات الخالق سبحانه.

ـ وشدة التأثر تسمى بالتعلق، والتعلق عبارة عن أربعة عناصر هي شدة التأله (أكبر ما يدهشك) وتعلق المشاعر والهم الأكبر وتعلق الجوارح.

ـ أهمية تحقيق المشاعر:

ـ هل تصدق أن هناك شيء في الدين نحن مطالبين بتحقيقه عبارة عن مشاعر؟، وهل تصدق أن تحقيق هذه المشاعر أهم من الصلاة والصوم وجميع الأعمال.

ـ هذه المشاعر هي الشعور بالحب والخوف والرجاء.

ـ الكثير يعتبرون كلمة المشاعر تستخدم فقط في الغناء واللهو.

ـ والكثير إذا أرادوا أن يلتزموا بالدين اجتهدوا في الأعمال ولا يعلمون أن تحقيق هذه المشاعر هي الأصل، والمشكلة الأكبر أنهم يحسبون أنها

متحققة عندهم والحقيقة أنها على العكس تمامًا فلا حب لهم إلا للمال والشهوات ولا خوف ولا رجاء إلا في أمور الدنيا.

ـ والمشكلة الأخرى هي أن معاني الحب والخوف والرجاء ماتت فأصبحنا في حاجة إلى شرح ماذا تعني كلمة (حب) وكلمة (خوف) وهكذا، وأصبح الكثير يتوهمون أن حب الله والخوف منه ورجاءه تملأ قلوبهم.

ـ المشاعر عبارة عن أحاسيس وليست كلامًا أو اقتناعًا أو عملًا أو أمورًا هلامية، فحب الله والخوف منه ورجاؤه عبارة عن أحاسيس إذا لم يحس بها الإنسان فهذه المشاعر غير موجودة عنده.

ـ أسباب الحب وأسباب كمال الحب لله تعالى:

ـ حب الله يكون لصفاته الحميدة ولنعمائه، وكمال الحب يكون لمدى عظمة صفاته الحميدة ولمدى عظمة نعمائه.

ـ مفهوم الشعور بالحب:

ـ هو الاعجاب والانبهار والسرور والبهجة والسعادة والفرح والانشراح والرضا والارتياح والطمأنينة والسكينة والانبساط والشعور باللذة والاحساس بالراحة والأنس وراحة البال والمزاج والهوى والميل والانسجام بالشيء لما فيه من صفات جميلة.

ـ الحب هو أحلى وألذ ما يشعر به القلب، ونحن في زمان كثر فيه الكلام عن الحب، فلا تحتاج إلى أن أذكر لك فوائد ومزايا وجمال ولذة ومتعة الحب.

ـ حب الله عبارة عن متعة وسعادة يحس بها الإنسان عندما يعرف مدى جمال صفات الله وعندما يعلم معنى لذة النظر إلى جمال ذاته فيشتاق إلى لقائه والنظر إليه ويأنس به ويحب ذكره، وفي التفسير الوسيط:

(({وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ}[١] إذا سمعوا ذكر الله أحبوه، واستأنسوا به))[٢].

ـ حب الله لصفاته الحميدة:

ـ الصفات الحميدة مثل صفات القوة والسمع والبصر والصحة والغنى وامتلاك الأشياء والجمال، والإنعام والكرم والقدرة على النفع والضر.

ـ والصفات الضارة كالعجز والعمى والصمم والمرض والنوم والموت والتعب والفقر وعدم امتلاك الأشياء والقبح والأخلاق السيئة وعدم القدرة على الغير بالنفع أو الضر وعدم القدرة عن دفع البلاء عن نفسه، والبخل والظلم.

ـ الإنسان يحب الصفات الحميدة ويكره الصفات الذميمة، فمثلًا الإنسان لا يحب النظر إلى إنسان أعمى أو معوق أو أصابه حرق أو مريض، وكذلك لا يحب أن يصاحب إنسانًا غبيًا أو ضعيفَ البنية أو بخيلًا أو ليس بجميل المنظر أو ظالمًا... إلخ، وعلى العكس فالإنسان القوي الذكي الكريم حسن المنظر يحبه الناس.

ـ والحب ينشأ من التأله من الصفات الحميدة حيث يندهش ويتعجب من مدى نفعها (يراها عظيمة في نفعها) فينبهر بها ويحبها.

ـ ومن الصفات الحميدة الجمال، فالإنسان يحب الله لجمال ذاته، ولاحظ أنه لا يمكن تصور صفات الذات: ((لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ))[٣]، لأن جمال الله لا يقارن بأي جمال في العالم لمدى عظمته.

ـ فالإنسان يستطيع أن ينظر إلى جمال الطبيعة كالورود والأسماك والجبال فيرى الجمال الخلاب، لكنه لا يستطيع أن يتصور مدى جمال الخالق لأنه ليس له شبيه ولا نظير ولا يمكن قياسه على جمال الدنيا كلها لأنه جمال عالٍ جدًا جدًا، فهو جمال أمتع من كل متع الجنة نفسها.

---

(١) الرعد: ٢٨

(٢) التفسير الوسيط للواحدي (٣/ ١٥)

(٣) الشورى: ١١

ـ حب الله لنعمائه وعدم الكراهية لسلب النعم:

ـ حب الله للنفع الحاصل من كونه الرب والوكيل والرزاق والمنعم والمجيب والمغيث والشافي.

ـ الله سبحانه ينعم على الناس ولا يريد شيئًا منهم ويرحمهم ويغفر لهم ويحلم عليهم ويتصف بكل الصفات الحميدة الجميلة.

ـ ومن الصفات الحميدة الكرم والإنعام، فالإنسان يحب الكريم ولو لم يعطه شيئًا فالإنسان يحب الله لأنه الكريم المنعم.

ـ فالإنسان يحب الله لأنه الوكيل، فهو يتكفل بما يحتاجه العبد، فيتوكل العبد على الله وفي ذلك راحة وسعادة، ويحب الله لأنه تواب غفور رحيم ودود فيتوب على من أذنب ويغفر له ويتودد إلى عباده، فأنت إذا أخطأت في حق ملك من ملوك الدنيا وخالفت أمره فقد يبطش بك ولكن الله يظل يغفر لك طالما أنك تتوب مهما كثرت الذنوب، فذلك يؤدي تلقائيًا إلى محبته.

ـ والله يرشد الإنسان لطريق الهداية ويهديه ويعينه ويحب له الخير وأرسل إليه الرسل ليرشده إلى ما فيه نجاته وسعادته، والإنسان يحب من يرشده للخير ويحب من يهديه.

ـ والإنسان يحب الله لأنه يجيب الدعاء، فكلما احتجت إلى أي شيء دعوته في أي وقت، فالله عنده القوة التي تحميك وعنده كل ما تريد وتطلب في الدنيا والآخرة.

ـ والإنسان يحب الله لأنه يعطي الحسنة بعشر أمثالها ويضاعف لمن يشاء، والسيئة بمثلها فقط.

ـ وعدم الكراهية لسلب النعم، فالذي يشعر بأن الله هو المالك لكل النعم فإنه يصبر علي سلب النعمة لأنها ليست ملكا له وليست حقا له ويرضى بذلك، ففي تفسير ابن كثير: (({الَّذِينَ إِذا أَصابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا

إِلَيْهِ راجِعُونَ} (إنا لله) أَيْ تَسَلَّوْا بِقَوْلِهِمْ هَذَا عَمَّا أَصَابَهُمْ وَعَلِمُوا أَنَّهُمْ مِلْكٌ لِلَّهِ يَتَصَرَّفُ فِي عَبِيدِهِ بِمَا يَشَاءُ))[١].

ـ فالإنسان يحب الله لأن الله يريد للإنسان الخير، وما يحدث للإنسان من ابتلاءات هو خير له لكي يفيق من غفلته، كما أن الابتلاءات والمصائب فيها تكفير للذنوب، وفي الحديث: ((يَوَدُّ أَهْلُ الْعَافِيَةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِينَ يُعْطَى أَهْلُ الْبَلاَءِ الثَّوَابَ لَوْ أَنَّ جُلُودَهُمْ كَانَتْ قُرِضَتْ في الدُّنْيَا بِالْمَقَارِيضِ))[٢].

ـ إن الذي يشعر بأن حياته وكل شيء ملك لله وإنما هي نعم وعارية يستردها مالكها فعند الموت يكون راضيا لأن الله يأخذ ما يملكه ويكون شاكرا لله لأنه أعطاه هذه النعم طوال هذه المدة تنعم بها بغير استحقاق فتخرج الروح سهلة، لكن الإنسان الذي يشعر أنه هو الذي جلب النعمة لنفسه من عقله وكده وتعبه فعند الموت لا يريد أن يترك النعم فتخرج روحه بصعوبة لتعلقها بهذه النعم، ويكره مَنْ يقبض روحه، فعندما يأتيه الموت يكره هذا القدر.

ـ صفة القوة للخالق سبحانه تدعو لحبه:

ـ يجب أن نفهم أولا معنى العلاقة بين القوي والضعيف لأن البعض يخلط بينها وبين العلاقة بين الظالم والمظلوم لذلك تجدهم يقفون مع الضعيف ويحبونه ضد القوي ويكرهونه.

ـ الذي يظلم يفعل ذلك لأنه لديه احتياج لأمر ما يستمده من غيره، وهذه صفة ضعف ونقص، ولو أن إنسانًا اعتدى على غيره فأفقده قواه بغير حق أو أخذ منه ماله بغير حق فهو ظالم، والظلم صفة نقص وذم، والاحتياج إلى الغير صفة نقص وذم، أما القوي بحق ليس لديه احتياج أو نقص ليظلم غيره، بل إنه من صفات القوة أن يعين القوي الضعيف، فالقوي محمود ومحبوب دائما.

---

(١) تفسير ابن كثير ـ دار الكتب العلمية (١/ ٣٣٨)

(٢) تحقيق الألباني: حسن (الصحيحة: ٢٢٠٦)

ـ كما أن القوي بحق هو الذي لم يكتسب قوته من غيره فهي قوة في ذاته، والضعيف بحق هو الذي لم يأخذ منه أحد قوته فهو ضعيف في ذاته، والضعيف عليه ان ينقاد للقوي، وليس ذلك علاقة بين ظالم ومظلوم.

ـ إذا علمت أن هناك رجلا صنع بطولات أو استطاع أن يسجل رقما قياسيا في مسابقة ما فأنت تفتخر به وتشيد به وتعجب به وتعجب بما صنع وتحبه وتسعد بلقائه.

ـ فالإنسان يحب صفات القدرة والقوة لعظمتها ومكانتها أي إعجابا بعظمتها.

ـ صفة المتكبر للخالق سبحانه تدعو لحبه إعجابا بعظمته:

ـ الاعمى يلبس نظارة سوداء ليخفي صفة قبيحة، فاذا لبس المبصر نظارة سوداء مثل التي يلبسها الاعمى فهي صفة ذم.

ـ الانسان القوي يظهر قوته للناس لا لكي يظلمهم ولكن لأن إظهار القوة هو أيضا صفة قوة وإن أخفى قوته فهي صفة ضعف.

ـ معنى المتكبر أي الذي يظهر أن له السلطة والسيطرة والهيمنة والعلو على غيره ممن له صفات الضعف والنقص ليبين لغيره أنه ضعيف مقهور تحت أمره فهو يتكبر عليه.

الله لا يتكبر على الانسان لكي يظلمه ولكن ليعرفه حقيقة ضعفه.

ـ أما الانسان الذي يتكبر على غيره من الناس فهو يظهر أن له سلطة ومكانة على غيره والحقيقة أنه ضعيف وكل البشر ضعفاء والله وحده هو القوي فهو تكبر بغير حق فهو في البشر صفة ذم.

ـ حب الجنة:

ـ الحب عبارة عن متعة ولذة، فمن لم يجد في محبة الجنة متعة ولذة فهو لا يحب الجنة.

ـ كثير من الناس يدَّعون حب الجنة والشوق إلى الحور العين، فهل عندك نفس الحالة النفسية الموجودة عند محب يشتاق إلى محبوبته؟ إذن فالحور

العين لا وجود لها في مشاعرك، كأنها مصنوعة من البلاستيك وليست نساء جميلات.

ـ الدافع الى كمال الحب (المحبوب الأعظم):

١ـ إذا أنعم عليك أحد بعطاء فانت تطيعه حبا له وذلك بحسب مدى انعامه عليك، فان كان انعامه لا حد له توجهت بكل عملك له وتعلقت به بكل جوارحك.

ـ فضل الله على الانسان لا حد له ونعمه لا تحصى مع شدة الاحتياج إليها فيؤدي ذلك إلى كمال الطاعة حبا لله تعالى، فأنت تعيش مرهونا بعطائه فمن غيره تموت، ذليلا لعطائه محتاجا لعطائه، فبغير عطاءه ونعمه لا تستطيع أن تتنفس، فالنفس والهواء نعمة، فأنت عبد إحسانه خاضع لما يجود به عليك، وكما يقولون فالإنسان أسير الإحسان.

ـ فالإنسان يطيع الخالق حبا له، فتخيل أنك تعيش في مسكن أحد الناس وتأكل من طعامه وينفق عليك من ماله فبماذا تشعر وكيف يكون حالك؟ وكذلك الحال مع الله فالمسكن الذي تسكن فيه ليس ملكًا لك، إنما هو ملك لله.

٢ـ إذا كان هناك أحد أقوى منك ويقدر عليك ولكنه لا يريد أن يؤذيك ولا يرضى بأن يظلمك أبدا، فأنت تطيعه حبا له، وذلك بحسب مدى قدرته عليك، فإن كانت قدرته لا حد له توجهت بكل عملك له وتعلقت به بكل جوارحك.

٣ـ الانسان يحب الصفات الحميدة ويكره البغيضة، وذلك بحسب درجة قوة هذه الصفات.

ـ صفات الله سبحانه ليست مجرد صفات موجودة ولكنها تصل إلى حد الكمال من العظمة، فهي صفات خارقة فوق كل التصورات، فالله هو الخالق ولكنه لم يخلق واحدًا من البشر أو شيئًا واحدًا ولكن قدرته على الخلق هائلة فهو خلق كل هذه البشرية التي لا تعد ولا تحصى، وكل هذا الكون الهائل جدًا، والله هو العليم ولكن علمه ليس لما يحدث مع إنسان واحد أو اثنان ولكن علمه مع كل البشرية وكل الذرات والجزيئات وكل

ساكن وكل متحرك وفي نفس الوقت، والله يرى كل شيء والحواجز لا تمنعه من رؤية أي شيء حتى ما يكون في الظلام ويرى ما يحدث داخل الذرة، وكذلك يسمع كل من يتكلم وكل ما يصدر عنه صوت حتى ولو كان دبيب نملة على الأرض وكل ذلك في آن واحد، والله يستطيع أن يلغي الزمان والمكان ويلغي قوانين الأسباب ويفعل كل ما يريد في أقل من لحظة، وهكذا.

ـ وكذلك المقارنة بين الصفات الحميدة عند الخالق والمخلوق، فصفات الخالق ليست أكبر بقليل ولا بأضعاف ولكن الى ما لا نهاية، بل إن الصفات الحميدة عند المخلوق تساوي صفر لأنها مستمدة من الله تعالى.

ـ وأنت إذا رأيت ساحرًا يقوم بأعمال سحر فأنت تعجب به وتنبهر بما يعمله، فإن قدرة الله أكبر مما يعمله الساحر في أنها قدرة كبيرة على عمل أي شيء، وفي أنها قدرة حقيقية وليست سحرًا وخيالًا، فمثلًا عندما خرجت ناقة صالح من الصخرة لم تكن خيالًا حتى أنهم ذبحوها وأكلوها، وقدرة الله على خلق السماوات أعجب من السحر وهي حقيقة وليست سحرًا.

ـ فإذا وصلت الصفات الحميدة الى درجة الكمال فذلك يؤدي الى الكمال في الحب، وكذلك إذا وصلت صفات الانعام الى درجة الكمال فذلك يؤدي الى الكمال في الحب، فالإنسان يخضع لله تعظيما وإجلالا وتوقيرا بسبب كمال حبه في عظمة الله وكمال حبه لإنعامه.

ـ فالمطلوب من الانسان ليس فقط تحقيق حب الله ولكن المطلوب منه الحب الشديد لله تعالى، فالإنسان قد يحب أشياء كثيرة ولكن ما هو الشيء الذي يستحوذ على حبك كله فتحبه بكل قلبك فتتعلق به أشد التعلق؟

ـ من الناس من يكون محبوبه الأعظم هو المال أو الشهوات فلا يستطيع أن يبتعد عما يحب.

ـ كمال حب الله تعالى معناه كمال الإعجاب والانبهار من روعة وجمال وعظمة الصفات المبهرة الهائلة للخالق سبحانه وكذلك من مدى عظمة انعامه.

ـ الله فقط هو الذي يُحب لذاته لأنه يمتلك كل صفات النفع وما عند غيره هو عطاء من الله تعالى، فحب ما دون الله لما فيه من صفات حميدة هو حب في الله تعالى.

ـ وكذلك لا يجب أن يخاف الانسان إلا من الله ولا يرجوا إلا الله تعالى، فكل ما دون الله هو خوف في الله ورجاء في الله، لأنه لا أحد ينفع أو يضر إلا الله تعالى، فالخوف من النار ومن يوم القيامة هو في حقيقته خوف من الله تعالى، والخوف من أسد يهجم عليك هو في حقيقته خوف من الله في أن ينالك أذى من خلال هذا الأسد.

ـ ولاحظ أنه يستثني الحب الفطري الذي جبل الانسان عليه مثل حب الزوجة.

ـ مفهوم الشعور بالكراهية:

ـ هو الشعور بالألم والحزن والضيق والاحساس بعدم الارتياح والغضب والاشمئزاز والسخط والغم والاكتئاب والتوتر والضجر ولا يطيقه ويضيق منه.

ـ وتنشأ من التأله من صفات الضرر حيث يندهش ويتعجب من مدى ضرره فيكرهه ويشمئز منه.

ـ مفهوم كراهية النار:

ـ إذا ذهبت إلى قسم الحرائق بأحد المستشفيات ونظرت كيف تفعل النار في الجسم، بماذا تشعر؟، وهذا بعد أن حدث الحريق فما بالك لو رأيت حادثة ما فيها أحدًا يحترق، فلا يستطيع الانسان أن ينظر الى هذا الامر لأنه منظر فظيع وبشع يجعل الانسان يشعر بالتألم والكراهية والاشمئزاز.

ـ فإذا لم يتحقق عندك التأله من مهابة نار الآخرة ولم تشعر بالألم والضيق والحزن والضجر والكراهية لبشاعة منظرها وبداخلها أشخاص يُسمع لجلودهم أزيزًا من الاحتراق مثلما توضع الدجاجة في النار لتُشوَى فالنار في نظرك عندئذ لا تنفع ولا تضر مثل النار التي وضع فيها سيدنا إبراهيم

عليه السلام، فإن نار الآخرة في الاقتناع عذابها شديد، أما نار الآخرة في مشاعر البعض فإنها نار لا تحرق قد سلبت منها خاصية الإحراق، فنار الآخرة لا وجود لها في مشاعر البعض.

ـ مفهوم الشعور بالخوف:

ـ هو الشعور بالرهبة والخشية والاشفاق والنفور والقلق والتوتر والاضطراب والهلع والرعب وترتعد فرائصه.

ـ وتنشأ من التأله من صفات الضرر من حيث وصوله للإنسان حيث يندهش ويتعجب من مدى ضرره الذي يصل إلى الانسان فيخافه ويخشى وصوله إليه.

ـ انظر إلى طالب في الثانوية العامة، فإنه قد يأخذ حالة طوارئ ويتهيأ نفسيًا؛ لأنه أمر مصيري يتحدد عليه مستقبله، إنه يكون في قلق واضطراب وخوف وترقب حتى تظهر النتيجة، إن الحالة النفسية التي عنده هي التي تسمي خوف، فإذا كنت تدعي الخوف من الآخرة فهل عندك هذه الحالة النفسية؟ وانظر إلى حالته وهو في انتظار النتيجة، انظر إلى حالته المزاجية وانشغال باله بالنتيجة، فإن الشعور الحقيقي يظهر على الوجه ويؤثر في وجدانه وربما يأرق من النوم وتقل شهيته للطعام.

ـ انظر إلى إنسان مطلوب منه أن يقوم بعمل معين وإلا يتعرض مثلًا للفصل من العمل، انظر إلى حالته النفسية قبل وأثناء وبعد تأدية العمل فتجد حالة نفسية مميزة للخوف، وانظر إلى قوة هذه الحالة النفسية واستمراريتها والشعور بها، وحتى بعد العمل يظل خائفًا هل أداه على ما يجب أم أنهم لن يرضوا عن هذا العمل.

ـ هل خوفك من القيام بعمل يعاقب عليه القانون مثل خوفك من القيام بمعصية، فأين خوفك من عقاب الله، وهل ندمك وحزنك على الوقوع في معصية مثل حزنك على ضياع مائة جنيه مثلًا، وهل الحالة النفسية التي تشعر بها في هذا مثل هذا؟!

ـ مفهوم الخوف من النار:

ـ إذا قارنت بين الحالة النفسية المميزة للشعور بالخوف من أي أمر دنيوي وبين الحالة النفسية للخوف من الآخرة والنار تجد حالة خوف حقيقية هائلة في النفس من الأمر الدنيوي في حين لا تجد أي شعور نفسي حقيقي عند مَنْ يدعي الخوف من النار، وإذا افترضنا أنه وُجد فلا يساوي واحد على ألف من أقل شيء مخيف في الدنيا، إذن فالنار لا وجود لها في مشاعرك، إنما هي في الاقتناع وليست في الشعور، كأنها حدوتة تستخدم لتخويف الأطفال!

ـ مفهوم الخوف الشديد (كمال الخوف):

ـ مقدار الخوف من الشيء يكون بحسب مدى ما فيه من الضرر، فاذا كان ذلك الضرر يصل إلى الكمال في ضرره فيصل الخوف منه إلى كمال الخوف، فليس المطلوب مجرد الخوف من الله لكن الخوف الشديد (كمال الخوف) الذي هو أعظم شيء تخافه في حياتك، والذي قد يصل لدرجة أنه تقشعر منه الجلود ويقف له شعر الراس وتزداد فيه ضربات القلب بدليل قوله تعالى: ((اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ))(١).

ـ لماذا تخاف من النار طالما أنك تعبد الله؟ ولماذا تتأثر بالبعث ولقاء الله تعالى؟:

ـ نحن نفهم الأمر بصورة معكوسة، فأنت تخاف من النار وبالتالي تعبد الله خوفا من عقابها ولست تعبد الله وبالتالي لا تخاف من النار، وكلما زاد خوفك قويت عبادتك وكلما قل خوفك ضعفت عبادتك، ومجرد الخوف من النار لا يؤدي الى العبادة ولكن شدة الخوف من النار هي التي تجعلك تعيش حياتك عابدا لله خوفا من النار.

ـ ونحن نحسب ان العبادة مجرد أعمال معينة وبالتالي فهي أمرا سهلا، ولكن العبادة أمرا صعبا؛ لأن أصل العبادة أن تعيش خاضعا والخضوع

(١) الزمر: ٢٣

صعب جدا على النفس، لذلك فالذي يجعلك تحقق العبادة لابد أن يكون دافعا قويا جدا وهو شدة الحب والخوف والرجاء.

ـ الموت والبعث ولقاء الله أمر مؤثر يدعو الى الدهشة (التالة) وهو خوف من مهابة الامر وليس خوفا من العقاب، فتكون نظرتك الى الموت والبعث ولقاء الله نظرة اهتمام وليس نظرة اهمال.

ـ مفهوم الشعور بالرجاء:

ـ هو الاشتياق والتطلع والرغبة والأمل والتمني واللهفة والتطلع والترقب والشوق والاستبشار، وفيه فرح وانشغال الهم بالأمر الذي يتمناه ويحلم به ويرغبه ويأمله ويتوق إليه.

ـ وينشأ من التأله (الدهشة) من صفات النفع من حيث وصوله للإنسان حيث يندهش ويتعجب من مدى النفع الذي يصل إلى الانسان فيرجوه ويتعلق به.

ـ الإنسان الذي يعيش من أجل أمر دنيوي كلما مر عليه يوم يشعر بأنه اقترب من تحقيق طموحه الدنيوي فيزداد نشاطًا للدنيا، والذي يعيش مشتاقا للجنة كلما مر عليه يوم شعر بأنه اقترب منها، فالرجاء فيه شوق وحنين وفرح وحب وتطلع وانطلاق وشعور بالهدف الذي يسعى إليه، فإذا كنت تدعي أنك ترجو الله واليوم الآخر فهل عندك مثل الحالة النفسية التي تكون عند من يرجو ويهدف إلى القيام بعمل دنيوي كمشروع تجاري أو السعي لمنصب أو جاه أو شهوة؟

ـ إن متع الدنيا تجد المشتاقين إليها، فأين المشتاقون إلى الجنة؟ ذلك لأن الجنة غير موجودة في المشاعر، ومَنْ يدَّعي أنه يشتاق إلى الجنة وليس عنده نفس الحالة النفسية لشخص يشتاق إلى محبوبه فهو كذاب.

ـ مفهوم كمال الرجاء:

ـ مقدار الرجاء في الشيء يكون بحسب مدى ما فيه من النفع والخير، فإذا كان ذلك النفع يصل إلى الكمال في نفعه وما دونه بالنسبة له لا ينفع ولا يضر فيصل الرجاء فيه إلى كمال الرجاء، فليس المطلوب مجرد

الرجاء في الجنة ولقاء الله لكن الرجاء الشديد (كمال الرجاء) الذي هو أعظم شيء ترجوه في حياتك وتتلهف إليه بشدة ويسيطر على تفكيرك وهمك.

ـ فإذا كان أكبر ما يطمح إليه الإنسان ويرجوه ويتمناه ويحلم به ويرغبه ويأمله هو تجارة أو مال أو شهوات أو منصب وجاه، فهذا معناه أن هدفه الدنيا، وإذا كان أكبر ما يطمح إليه الإنسان ويرجوه ويتمناه ويحلم به ويرغبه ويأمله هو رضا الله والجنة، فهذا معناه أن هدفه رضا الله والجنة.

ـ الخوف والرجاء ينشأ من الحب والكره:

ـ الحب هو شعور بالإعجاب والانبهار والانبساط لمدى ما في الشيء من صفات حميدة ونافعة وإن لم يصل إليك نفع منه، وهو شعور فيه لذة وفرح وسرور وانشراح، ويؤدي الى شعور بالرجاء في وصول النفع منه.

ـ الكراهية هي شعور بالألم والحزن والضيق والكآبة والغضب لمدى ما في الشيء من صفات ذميمة وضارة وإن لم يصل إليك ضرر منه، ويؤدي الى شعور بالخوف من صول الضرر منه.

ـ ادعاء تأثر المشاعر بالله والاخرة:

ـ كل إنسان يدعي أنه يحب الله ويخضع له ويخافه ويرجوه، ولا يسأل نفسه هل هو يشعر في قلبه بحب الله حقًا؟ وهل يشعر بالذل والاستسلام لله حقًا؟ وهل هو يخاف من الآخرة ويحمل لها هما حقًا؟ وهل هو يشتاق ويتلهف إلى الجنة حقًا؟ ولا يتبين طبيعة وحقيقة هذه المشاعر، ولا يهتم كأن المسألة غير مهمة، ولكي يهرب من مواجهة نفسه أمام نفسه، وقد يدعي أن هذه الأمور موجودة بالفطرة عند كل الناس أو يدعي أن هذه الأمور هي عند المقربين وهي لمن يريد الدرجات العليا في الجنة وليست مسألة خلود في الجنة أو خلود في النار، أو يدعي أن هذه المشاعر موجودة بالفعل عنده في حين لا توجد عنده الحالة النفسية المميزة لكل شعور من هذه المشاعر، فهذه المشاعر غائبة تمامًا من قلبه وهو في

الحقيقة لا يحب إلا الدنيا ولا يخاف إلا منها ولا يرجو غيرها ولا يعيش إلا لها.

ـ مشاعر حب الله والخوف منه ورجائه والخوف من الآخرة تحولت عند بعض المسلمين إلى عبارات محفوظة مقدسة وليست مشاعر حقيقية يحس بها الإنسان في داخله، فليس لها وجود في قلوبهم رغم أنهم يدعون وجود هذه المشاعر في أنفسهم، وهي في الحقيقة أصبحت مفرغة من معناها.

ـ فرغم أن هذه المعاني بسيطة ويعرفها الصغار والكبار لكن مات معناها الحقيقي، لذلك أصبحنا نحتاج إلى توصيف وتعريف معنى شعور الإنسان بالخوف أو بالحب أو بالخضوع حتى يستطيع أن يعرف الإنسان في نفسه بدقة هل هذه المشاعر موجودة أم لا؟

ـ ورغم بساطة هذه المشاعر فهي من شروط الإيمان، ومع ذلك لا يهتم أحد بتوصيفها للتأكد من وجودها أم لا، وقد يعتبر توصيف هذه المشاعر نوعًا من الفلسفة رغم أهميتها.

ـ الذي يدعي الخوف من الله لابد أن يشعر بما يشعر به الإنسان الذي يخاف من أمر من أمور الدنيا بل أشد، والذي يدعي حب الله لابد أن يشعر بما يشعر به الإنسان الذي يحب أمرًا ما من أمور الدنيا بل أشد، فلابد من وجود الحالة النفسية والوجدانية والمزاجية والحالة الانفعالية المناسبة لكل شعور وما فيها من الشعور بالضيق أو الألم أو الشعور بالفرح والسرور، وإلا فإن هذا الشعور غير موجود وهو مجرد ادعاء، فالخوف فيه شعور بالقلق واضطراب داخلي، والحب فيه شعور بالفرح وهكذا.

ـ فحب الله والخوف منه ورجائه ليست أشياء هلامية غير مفهومة وإنما هي من نفس جنس المشاعر التي يعرفها الإنسان ويشعر بها في الدنيا، فإذا أردنا تعريف الحالة النفسية للخوف مثلًا فنقول هي الحالة النفسية التي تحدث للشخص عندما يتعرض لخطر ما (مثلًا طالب ينتظر نتيجة امتحان)، وتفسير هذه الحالة النفسية من داخل النفس واضح يشعر به كل

إنسان وإن صعب عليه التعبير عما يحس به، أو مثلًا الغضب تجد له انفعالًا عصبيًا داخليًا يشعر به الإنسان الغاضب كما يظهر على سلوكه وانطباعاته، أو مثلًا الطمأنينة هو حالة نفسية فيها شعور بالارتياح والسكينة... إلخ.

ـ ملاحظة:

ـ مهما وصفت لك الحالة النفسية لكل شعور من المشاعر فلن تكون مثل الحالة النفسية لإنسان حققها فعلًا، فمهما وصفت لك حال الطالب عند الامتحان وما ينتابه من قلق وخوف فلن يكون مثلما تعاين أنت هذا الأمر فتشعر بهذا الشعور، ففي الحديث: ((لَيْسَ الْخَبَرُ كَالْمُعَايَنَةِ))[1].

ـ ومهما وصفت لك عن طبيعة المشاعر التي ينبغي أن يشعر بها المسلم من حب الله والخوف منه ورجائه والخوف من الآخرة فهي أمور شعورية وليست أمور معرفية، والإنسان الذي يشعر بألم أو بلذة قد لا يستطيع أن يصف لك ما يشعر به، لأن الألم واللذة هو شيء له طعم يذوقه ويشعر به وقد لا يستطيع أن يعبر عنه.

ـ إذا لم تكن تشعر بشيء من الحالة النفسية للشعور بحب الخالق أو بشيء من الحالة النفسية للشعور بالخوف والرحاء فهذا معناه غياب هذه المشاعر.

ـ وقد يحسب البعض أن حب الله معناه طاعته، فحب الله هو شعور من المشاعر التي في القلب وليست عملا بالجوارح، والطاعة هي أثر لهذا الحب ودليل عليه، ومعنى الآية: ((قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي))[2]، أي إذا كنت فعلا صادقا محققا لحب الله في قلبك فلماذا لا تطيعه.

(١) تعليق الشيخ الألباني: صحيح (المشكاة: ٥٧٣٨)
(٢) آل عمران: ٣١

ـ الفرق بين تحقيق مشاعر الإيمان والاقتناع بالعمل على تحقيقها:

ـ إن العبرة بتحقيق مشاعر الإيمان، وليست العبرة بالاقتناع بها وتمني التحلي بها والدعوة إليها وتعليمها الناس ولا حتى السعي نحوها دون الوصول لتحقيقها، فَمَنْ هذا حاله فلا فائدة من عمله: ((أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلا تَعْقِلُونَ))(١)، وفي الحديث: ((مثل الذي يعلم الناس الخير وينسى نفسه مثل الفتيلة تضيء للناس وتحرق نفسها))(٢)، وحتى لو كان الإنسان عالمًا عاملًا بكل أمور الدين والدنيا من غير أن يحقق مشاعر الإيمان فلا يغني ذلك عنه شيئًا، ومن الناس مَنْ يظل طول عمره يقول أنا مقصر في هذه المشاعر وأريد تحقيقها: ((قَالُوا يَاوَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (١٤) فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ))(٣)، فهذه المشاعر من الثوابت التي يقرها الجميع وعلى اقتناع تام بأهميتها وأهمية تحقيقها، ولكن مَنْ يحققها فعلًا؟! ((يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ))(٤)، وإنك لتجد الكثير ممَنْ يدعي أنها متحققة في نفسه: ((فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ))(٥)، ((وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ))(٦).

ـ العلامات التي تدل على غياب تعلق المشاعر:

ـ العلامات التي تدل على غياب تعلق المشاعر هي غياب باقي عناصر التعلق.

ـ عناصر التعلق مرتبطة ببعضها البعض، فالذي يحب أحدا يكون ذكره دائما على لسانه وفي مجالسه ويحب الحديث عنه وينشغل به همه ويطيعه.

---

(١) البقرة: ٤٤
(٢) تحقيق الألباني: صحيح (انظر حديث رقم: ٥٨٣٧ في صحيح الجامع)
(٣) الأنبياء: ١٤، ١٥
(٤) الصف: ٢
(٥) العنكبوت: ٣
(٦) العنكبوت: ١١

ـ والذي يحب أحدا بكمال الحب فهو يتأله المحبوب ويظهر من سلوكه شدة التعلق بمحبوبه وانشغال همه به وذكره له وخضوعه لأمره: ((قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي))[1]، والذي يخاف من شيء يهرب منه وهكذا.

ـ تعلق المشاعر بالله معناه وجود باقي عناصر التعلق، والمشاعر لا يمكن أن يصنعها الانسان أبدا مهما حاول، والشيء الوحيد الذي يحقق المشاعر هو المعرفة واليقين الحقيقي بالله والاخرة، فمن عرف الله أحبه وخافه ورجاه، ومن شدة حبه وخوفه ورجاءه يختار أن يعيش حياته خاضعا لأوامر الله حبا وخوفا ورجاء.

ـ أساس التعلق الحب، وجميع عناصر التعلق مرتبطة بالحب، فالحب الشديد لأي أمر معناه شدة التعلق به ويظهر ذلك في سلوكه وكلامه وهمومه ونيته وعمله ويكون ذلك هدفه الذي يعيش له.

ـ وعدم وجود التعلق بالخالق والاخرة معناه عدم وجود حب الله ووجود حب الدنيا بدلا منه، فإذا كان الانسان متعلقا بالمال بقلبه ويلهث وراءه بجوارحه ولا هم له غيره وردود افعاله وانفعالاته لا تتأثر الا بالمال فهذا معناه أن حب الله غير موجود في قلبه أو أنه يؤثر حب الدنيا على حب الله تعالى.

ـ شدة حب الدنيا معناه غياب حب الله تعالى، والتعلق بالدنيا معناه غياب التعلق بالله والاخرة:

ـ مشاعر الإنسان إما أن تتجه للنفس والدنيا أو تتجه إلى الله والآخرة، وإذا كانت كثيرًا في جانب كانت قليلًا في الجانب الآخر، فكلما زاد ارتباط الإنسان بنفسه وبالدنيا وأمورها كلما نقص ارتباطه بالله والآخرة.

ـ وكلما نقص حب الدنيا زاد حب الله تعالى والعكس صحيح، وإذا لم يكن في القلب سوى حب المال والشهوات والدنيا فلا يوجد شيء اسمه حب الله مطلقًا.

(١) آل عمران: ٣١

ـ وكذلك فالإنسان لديه خوف وقلق بشأن وجود وظيفة ومسكن والتغلب على أعباء الحياة والتغلب على مشاكله الخاصة والحصول على النفقات التي تمكنه من الزواج وغير ذلك من أمور الدنيا ومخاوفها، وقد يكون خوفه وقلقه بشأن النجاة من النار وأهوال القيامة، وكلما زاد خوفه من مخاوف الدنيا قل خوفه من مخاوف الآخرة، والعكس صحيح.

ـ الإنسان يعيش حياته خائفًا وراجيًا، فإما أن يعيش خائفًا من ضياع الدنيا والمال ورجاءً في الحصول على الدنيا والمال، أو يعيش حياته خائفًا مترقبًا لقاء الله تعالى مشتاقًا إلى الجنة.

ـ فيقول شيخ الإسلام ابن تيمية: ((كُلَّمَا قَوِيَتْ مَحَبَّةُ الْعَبْدِ لِمَوْلَاهُ صَغُرَتْ عِنْدَهُ الْمَحْبُوبَاتُ وَقَلَّتْ، وَكُلَّمَا ضَعُفَتْ كَثُرَتْ مَحْبُوبَاتُهُ وَانْتَشَرَتْ، وَكَذَا الْخَوْفُ وَالرَّجَاءُ وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، فَإِنْ كَمُلَ خَوْفُ الْعَبْدِ مِنْ رَبِّهِ لَمْ يَخَفْ شيئًا سِوَاهُ قَالَ اللَّهُ تَعَالى {الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أحدًا إلا اللَّهَ}[(١)]، وَإِذَا نَقَصَ خَوْفُهُ خَافَ مِنْ الْمَخْلُوقِ وَعَلَى قَدْرِ نَقْصِ الْخَوْفِ وَزِيَادَتِهِ يَكُونُ الْخَوْفُ كَمَا ذَكَرْنَا فِي الْمَحَبَّةِ وَكَذَا الرَّجَاءُ وَغَيْرُهُ))[(٢)].

ـ فالإنسان إما أن يؤثر حب الدنيا على حب الله والاخرة فيجعل حبه كله للدنيا أو العكس:

ـ ((فَأَمَّا مَنْ طَغَى (٣٧) وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٣٨) فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى (٣٩) وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى (٤٠) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى))[(٣)] ((وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ (٢) الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الآخرة))[(٤)]، ((كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ))[(٥)]، ((إِنَّ هَؤُلاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْماً ثَقِيلاً))[(٦)]، ((ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا

(١) هود: ٩٢
(٢) مجموع الفتاوى (١/ ٩٤)
(٣) النازعات : ٣٧ ـ ٤١
(٤) ابراهيم : ٢ ، ٣
(٥) القيامة : ٢٠
(٦) الإنسان : ٢٧

الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الآخرة))[١]، ((بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا))[٢]، ((كَلَّا بَلْ لَا يَخَافُونَ الآخرة))[٣]، ((وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى (٤٠) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى))[٤].

ـ والانسان اذا ترك تعلقه بالدنيا تعلق بالله والاخرة، فيقول شيخ الإسلام ابن القيم: ((اعلم أن القلب إذا خلى من الاهتمام بالدنيا والتعلق بما فيها من مال أو رياسة أو صورة وتعلق بالآخرة والاهتمام بها من تحصيل العدة والتأهب للقدوم على الله عز وجل فذلك أول فتوحه وتباشير فجره))[٥].

ـ ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية: ((ومحبة الله هي أصل الإيمان الذي هو عمل القلب وبكمالها يكمل))[٦]، ويقول أيضا: ((فَالْإِيمَانُ فِي الْقَلْبِ لَا يَكُونُ إيمَانًا بِمُجَرَّدِ تَصْدِيقٍ لَيْسَ مَعَهُ عَمَلُ الْقَلْبِ وَمُوجِبُهُ مِنْ مَحَبَّةِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَنَحْوِ ذَلِكَ؛ كَمَا أَنَّهُ لَا يَكُونُ إيمَانًا بِمُجَرَّدِ ظَنٍّ وَهَوًى؛ بَلْ لَا بُدَّ فِي أَصْلِ الْإِيمَانِ مِنْ قَوْلِ الْقَلْبِ وَعَمَلِ الْقَلْبِ))[٧].

ـ ويقول شيخ الإسلام ابن القيم: ((فمن لا محبة له لا إسلام له البتة بل هي حقيقة شهادة أن لا إله إلا الله فإن الإله هو الذي يألهه العباد حبا وذلا وخوفا ورجاء وتعظيما وطاعة له بمعنى مألوه وهو الذي تألهه القلوب أي تحبه وتذل له))[٨].

---

(١) النحل : ١٠٧
(٢) الأعلى : ١٦
(٣) المدثر: ٥٣
(٤) النازعات : ٤٠، ٤١
(٥) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (٣/ ٣٥٢)
(٦) الاستقامة ـــ لشيخ الإسلام ابن تيمية ـــ الناشر: جامعة الإمام محمد بن سعود - المدينة المنورة (ج: ١، ص: ٢٦٠)
(٧) مجموع الفتاوى (٧/ ٥٢٩)
(٨) مدارج السالكين ـ دار الكتاب العربي - بيروت (ج ٣ ، ص : ٢٦)

ـ ارتباط عناصر التعلق بالدنيا دليل على عدم تعلقها بالله والاخرة:

١ـ رؤية المال والدنيا على أنها هائلة في عظمتها وقيمتها (تأله المال والدنيا) دليل على أنه ينظر الى الخالق والاخرة وأمور الدين كأنه لا قدر لهم، والعكس صحيح.

٢ـ شدة الحب للمال والدنيا دليل على أن شدة الحب لله وللجنة غير موجود، والعكس صحيح.

٣ـ إذا كان الشاغل الأكبر الذي يشغل الانسان هو المال والدنيا فهذا دليل على أن الخالق والاخرة ليسا هما الشاغل الذي يشغل همه.

٤ـ إذا كانت طريقة الانسان في عمله مبنية على مصالح الدنيا وأمورها فهذا دليل على أنه لا يبني أعماله على أساس الدين ولقاء الله والاخرة.

ـ وإذا كان يبدو من سلوكه وعمله شدة تعلقه بالدنيا على سبيل الاحتمال فهذا يدل على عدم تعلقه بالله والاخرة على سبيل الاحتمال.

ـ التناقض بين اليقين وتعلق المشاعر:

ـ قد يوقن الانسان بأن الاخرة ولقاء الله هو أخطر شيء في الوجود وبأنه أمر مؤثر جدا ويعرف تفاصيل اهوال القيامة والجنة والنار لكن كل هذا لا يؤثر على مشاعره ومهما تصور الامر مرات ومرات فلن يتأثر لأنه أصيب بمرض المعرفة الكاذب أو اعتاد التجاهل، فلو ذكرته بعقاب الآخرة لا يؤثر ذلك في نفسه شيئًا، في حين لو أخبرته بفقد شيء من ماله لطاش عقله وتأثرت مشاعره.

الفصل الثامن
الـهم الأكبر

ـ الهم الأكبر هو العنصر الثالث من عناصر التعلق.

ـ قد ينشغل هم الإنسان بأمور الدنيا والقضايا اليومية التي تشغل الناس، ولكن هل ينشغل الهم بالموت والآخرة ولقاء الله أم لا؟ وهل انشغاله بالموت والآخرة ولقاء الله أكبر من انشغاله بأمور الدنيا؟

ـ هم الإنسان دائما مشغول، فكلما ابتعد الهم عن الدنيا كلما انشغل بالآخرة، والعكس صحيح، فإذا كان كل انشغال همه بالدنيا فلا وجود لله والآخرة في همه.

ـ هل على الانسان أن ينشغل همه بالخالق والاخرة؟:

ـ ما هو أخطر شيء في حياة الإنسان على الإطلاق؟، هل هو الموت والآخرة ولقاء الله أم هو المال وجمعه أم هو التمتع بالدنيا وشهواتها أم هو المظاهر والمناصب وأمور السياسة أم الرياضة أم التسلية والسمر أم مشاكل وأعباء الحياة اليومية؟

ـ ما هي القضية التي يجب أن تشغل هم الإنسان ومشاعره ويعمل لها، هل الدنيا أم الآخرة؟، أيهما يستحق التفكير أكثر والتفاعل معها أكثر والعمل لها أكثر؟ العاقل يوجه تفكيره للشيء الخطير وينشغل تفكيره وهمه به ويتفاعل معه ويعمل له.

ـ وظيفة الهم الطبيعية مصممة بحيث ينشغل الهم بالشيء الهام الخطير ولا ينشغل بالأمر التافه، وينشغل أكثر بأخطر شيء ثم الأقل في الخطورة والأهمية وهكذا.

ـ فإذا علم الإنسان أمرا هاما وخطيرا فلابد أن ينشغل به الهم، فإذا لم يشغل به همه فهو بذلك يتعامل معه كأنه أمر تافه أو كأنه غير موجود.

ـ هل يوجد شيء أخطر من اقتراب الموت والسفر إلى الآخرة ولقاء الله؟، فهذا الأمر لا يمكن أن يفارق ذهن إنسان عاقل أبدا، فكيف ينسى الإنسان الله وهو يعيش في ملكه ويأكل من نعمه!

ـ مسألة السفر للآخرة هي أمر خطير يدعو إلى انشغال الهم وخوف المهابة وتأثر المشاعر وعمل الجوارح بإعداد العدة لما بعد هذا السفر.

ـ الذي يوقن بأنه مسافر إلى الآخرة فإن صورة الآخرة ومشهد اليوم الذي يموت فيه ومشهد وقوفه أمام الله ومحاسبته له لا يكاد يفارق ذهنه.

ـ فإذا لم ينشغل هم الانسان بالخالق والاخرة فبماذا يجب أن ينشغل إذن.

ـ لو نظرت في هم أكبر رجل سياسي في العالم أو أكبر لاعب كرة في العالم أو أكبر ممثل في العالم أو أكبر رجل أعمال في العالم أو أكبر عالم في الذرة وسألته ما هو أخطر شيء يشغل همك؟، قد يقول أن ما هو متخصص فيه هو أخطر شيء يشغل همه رغم أنه يعلم أن الموت والآخرة ولقاء الله هي أخطر من تخصصه ومن كل شيء وبالتالي كان يجب أن يكون ذلك هو أكبر همومه، بل إنه قد يعتبر أنك تسأله في أمر لا يخصه غير مبالي بالأمر.

ـ مفهوم الهم الأكبر:

ـ الهم الأكبر معناه أن هناك أمر مسيطر يشغل الانسان به همه باستمرار ويضعه نصب عينيه فهو يكاد لا يفارق ذهنه ولا يستطيع الانسان نسيانه لكونه قضية خطيرة جدا، فهي دائما امام عينه مثلما يرى الانسان شيئا مرعبا أو يتصور أمر خطيرا (كالنار في الاخرة مثلا)، فمن الناس من يجعل قضية الموت وما بعده هي الشاغل الأكبر، فلا هم له إلا الآخرة، ففي تفسير الطبري: ((عن مجاهد في قوله (إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ) قال: بذكر الآخرة فليس لهم همّ غيرها))[1]، ومن الناس من يجعل قضية المال وكسب المال والانفاق على الأبناء هي الشاغل الأكبر الذي لا يفارق ذهنه.

(١) تفسير الطبري ـ مؤسسة الرسالة (ج: ٢١، ص: ٢١٨).

ـ القضية الأساسية والقضايا الفرعية:

ـ كل إنسان له قضية تشغل تفكيره وتتعلق بها مشاعره وينبني عليها عمله فهو بذلك يعيش لهذه القضية، فإما أن تكون قضيته التي تشغل تفكيره وتتعلق بها مشاعره وينبني عليها عمله هي الاخرة والموت ولقاء الله، فهو يضع الموت والاخرة نصب عينيه دائما يفكر فيه ولا هم له غيره، وإما أن تكون الدنيا والمال وأعباء الحياة، فهو يضع المال والبنون نصب عينيه دائما يفكر فيه ولا هم له غيره.

ـ لا يمكن لإنسان أن يعيش بغير قضية أساسية تكون هي هدفه يحيا بها ويعيش لها ويتجه إليها بمشاعره وهمومه وجوارحه، فكل إنسان له قضية هي أهم شيء في حياته، وهذه القضية تكون محور حياته ومستقبله ومصيره.

ـ القضايا التي ينشغل بها الناس هي قضايا كثيرة جدا سواء كانت قضايا كبيرة أو صغيرة أو تافهة وفيها تفاوت كبير بين الناس.

ـ فمن هذه الأمور العمل لكسب لقمة العيش والقيام بواجبات الحياة كالتغلب على أعباء الدراسة والزواج وتربية الأولاد وتدبير نفقاتهم ونفقات تعليمهم وتوفير الطعام والشراب وما يحتاجه أولاده وأسرته، ومنها مشاغل الحياة اليومية والتغلب على متطلباتها.

ـ ومنها التوسع في مشاريع لزيادة الدخل كالقيام بعمل تجاري والأمور التي يمكن زيادة المال منها والتي قد تكون من حلال أو حرام.

ـ ومنها قضية المناصب والجاه والسلطان والمظاهر، ومنها الاهتمام بمظهر الإنسان أمام الناس، ومنها الحصول على شهادات أو مناصب، ومنها التطلع للترقي في العمل.

ـ ومنها قضية التمتع بشهوات النساء والتمتع بشهوة الطعام والشراب، ومنها عمارة الأرض وتوفير وسائل السعادة فيها، ومنها التوسع في رفاهيات الحياة والتطلع إلى الحياة المريحة ومنها التطلع لشراء مسكن أو سيارة.

ـ ومنها حل مشاكل تواجه الانسان كالفقر والمرض والمشاكل العائلية أو إنجاب الأطفال أو الظلم من أحد، ومنها حل مشاكل في العمل أو مشاكل البيت.

ـ ومنها مهنة أو هواية معينة أو أمور التسلية أو الترفيه التي تعَوَّد عليها كمشاهدة مباريات الكرة ومشاهدة التلفاز والجلوس على المقاهي والتواصل مع الاصحاب والاقارب لقضاء أوقات ترفيهية واصطحاب الاسرة خارج المنزل للتنزه أو للطعام أو لمتعة الشراء أو شغل الوقت بأي أمر بغرض استهلاك الوقت ولو بدون داعي والحديث عن أخبار الاصحاب والاقارب والكلام عن أحوال الناس وأخبار السياسة وأخبار الطقس وأسعار الطعام والشراب وطرق مضاعفة المال وغير ذلك.

ـ وقد تكون قضية الانسان الأساسية بعض من هذه الأمور وليس قضية واحدة.

ـ فهذه هي قضايا الدنيا، وهناك نوع آخر من القضايا هي قضية الوصول إلى ملذات الجنة والتمتع بالحور العين إلى ما لا نهاية من السنين والبعد عن العذاب داخل النار إلى ما لا نهاية من السنين، وقضية وجود الخالق فوقنا ووجوده معناه بقدرته ورؤيته لنا وقدرة الخالق التي تسيطر عليك في ليلك ونهارك وفي كل لحظة، وكل حركاتك تحت المراقبة التامة وكل أنفاسك معدودة، ذلك الأمر المرعب الواقع عليك في الدنيا وذلك الخطر الرهيب الذي أنت مقبل عليه بعد لحظات من الآن من أمر الموت والحياة بعد الموت والانتقال الى الآخرة حيث الحياة الأبدية واقترابها وخطورتها.

ـ هذه قضايا كثيرة، العاقل ينظر إليها ويقارنها ببعضها ليرى أيها أخطر وأيها يجب أن تشغل تفكيره وأيها يختارها لتكون قضيته وشغله الشاغل طوال حياته.

ـ كل القضايا المتعلقة بالدنيا ليست بشيء أمام قضية الموت والآخرة ومعرفة الخالق، لأن جميع القضايا المتعلقة بالدنيا تفنى سريعا مع فناء الدنيا، والذين كانت تشغلهم هذه القضايا الدنيوية فكانت شغلهم الشاغل

قد ماتوا الآن فأيها يفيدهم الآن، فالذين يعيشون وتنشغل عقولهم طوال حياتهم بقضية الموت والاستعداد له والآخرة وما بها ومعرفة الخالق هؤلاء هم العاقلين وغيرهم لا عقل لهم، وهؤلاء أيضا قد تنشغل عقولهم بمشاغل الحياة ولكنه انشغال عابر مؤقت قليل وهو أيضا انشغال كفرع من أصل، فعليه أن يتغلب على بعض أعباء الحياة ولكنه يتقلل من أعباء الحياة قدر ما يستطيع وينشغل عنها بما هو أخطر.

ـ فإذا كان الشاغل الأكبر هو هموم الدنيا فأنت جاهل لا عقل لك لأنك لم تتصور وتعي حقيقة السعادة وأين تكون، ولم تتصور وتعي حقيقة الخطر الذي أنت واقع فيه والخطر الذي أنت مقبل عليه بعد لحظات وبلا عودة، فأنت في غفلة تامة وغباء تام تضر بنفسك وتهلكها، فالدنيا لا قيمة لها أمام الآخرة مهما كانت آلامها ومهما كانت لذاتها وتزول سريعا في غمضة عين لمن يعقل كما أن متعها ضئيلة ومحدودة في حد ذاتها.

ـ الشرع يأمرنا بأن يكون الهم الأكبر الاخرة:

ـ من جعل همه الأكبر الاخرة أعانه الله على أمور الدنيا، ومن جعل همه الأكبر الدنيا هلك، ففي الحديث: ((من جعل الهم هما واحدا كفاه الله هم دنياه ومن تشعبته الهموم لم يبال الله في أي أودية الدنيا هلك))(١)، وفي حديث آخر: ((من جعل الهموم هما واحدا هم المعاد كفاه الله سائر همومه ومن تشعبت به الهموم من أحوال الدنيا لم يبال الله في أي أوديتها هلك))(٢)، وفي حديث آخر: ((من كانت الآخرةُ همَّه، جعل اللهُ غناه في قلبِه، وجمع له شملَه وأتتْه الدُّنيا وهي راغمةٌ، ومن كانت الدنيا همَّه جعل اللهُ فقرَه بين عينَيه وفرَّق عليه شملَه ولم يأتِه من الدنيا إلا ما قُدِّرَ له))(٣).

ـ ومعنى "جعل الله غناه في قلبه" أي يجعل الله في قلبه من القناعة والكفاف والكفاية ما يجعله يعرض عن إتعاب نفسه في طلب الزيادة من مُتَع هذه الحياة الدنيا، ومعنى" وأتته الدنيا وهي راغمة"، أي أن الله يسوق له من الرزق ما لا تعب معه، وإنما هو ببركة توكُّله على الله جل وعلا،

(١) حديث حسن (صحيح الترغيب والترهيب ج: ٣ ، برقم : ٣١٧٠)
(٢) تحقيق الألباني: حسن (انظر حديث رقم: ٦١٨٩ في صحيح الجامع)
(٣) صحيح لغيره (صحيح الترغيب ٣١٦٩)

كما دل عليه الحديث الصحيح: ((لو أنكم تتوكلون على الله حق توكُّله، لرزقكم كما يرزق الطير؛ تغدو خماصًا، وتعود بطانًا))(١)، أما من جعل همه الدنيا فلا يبالي الله عز وجل في أيِّ واد من أوديتها يهلك هذا العبد، فمنهم من هلك بالمال، ومنهم من هلك بالجاه، ومنهم من هلك بالنساء، وغير ذلك.

ـ ومن دعاء النبي صلى الله عليه وسلم: ((ولا تجعل الدنيا أكبر همنا ولا مبلغ علمنا)) (٢).

ـ وفي الحديث: ((خط لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم خطا مربعا، وخط في وسط الخط خطا، وخط خارجا من الخط خطا، وحول الذي في الوسط خطوطا، فقال هذا ابن آدم وهذا أجله محيط به، وهذا الذي في الوسط الإنسان وهذه الخطوط عروضه إن نجا من هذا ينهشه هذا، والخط الخارج الأمل))(٣)، أي يموت ولا يزال عنده تمني وآمال لم تتحقق، فيظل الشيطان يلهيه حتى يموت.

ـ الفرق بين الهم الأكبر (الدائم) والهم الأصغر (المؤقت):

ـ ترتيب القضايا في هم الإنسان الطبيعي تكون على حسب أهميتها وخطورتها، لأن الهم ينشغل بالأمر الخطير ولا ينشغل بالأمر التافه، ويكون انشغاله بالأمر الأخطر أكبر من انشغاله بالأمر الأقل خطورة، وحيث أن هناك قضية واحدة هي الخطر كله وباقي القضايا قيمتها بسيطة جدا بالمقارنة بهذه القضية الخطيرة فهناك قضية واحدة مسيطرة على الذهن مستمرة وقضايا أخرى عابرة هامشية، القضية المسيطرة هي الغيبيات، وجميع القضايا الأخرى لا قيمة لها مهما كانت أمام هذه القضية الخطيرة فهو منشغل بها عن باقي القضايا.

ـ فعند وجود أكثر من قضية هامة ينشغل الإنسان بالقضية الأخطر والأكبر ولا ينشغل بالقضايا الأقل في الأهمية أو يكون انشغاله بها ضئيلا

(١) تحقيق الألباني: صحيح (انظر حديث رقم : ٥٢٥٤ في صحيح الجامع)
(٢) تحقيق الألباني: حسن (الكلم الطيب: ٢٢٥ / ١٦٩)
(٣) قال الشيخ الألباني: صحيح (جامع الترمذي ج: ٤، ص: ٦٣٥، برقم ٢٤٥٤)

، ولتوضيح ذلك ففي الحديث: ((عن عائشة رضي الله عنها قالت سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول يحشر الناس حفاة عراة غرلا، قالت عائشة: فقلت الرجال والنساء جميعا ينظر بعضهم إلى بعض، قال: الأمر أشد من أن يهمهم ذلك))(١)، كذلك الإنسان في الدنيا أمامه مشكلة الفقر ومشكلة الزواج والسكن وتوفير الطعام والشراب ومشكلة الظلم ويريد عمل مشاريع تجارية مثلا وأمامه أيضا مشكلة الآخرة ولقاء الله تعالى، فبماذا ينشغل هم الإنسان الطبيعي؟، يكون الهم الأكبر المسيطر عليه هو صورة الآخرة لأن كل شيء يفنى وتبقى القضية الأكبر والأخطر .

ـ فنفس الأمر عند العاقل في الدنيا فهو منشغل بأمور الآخرة عن أمور الدنيا وشهواتها.

ـ فتصور أمر الآخرة يكدر على الإنسان حياته ويجعله لا ينعم بالحياة، ففي الحديث: ((كيف أنعم وصاحب القرن قد التقم القرن واستمع الإذن متى يؤمر بالنفخ فينفخ فكأن ذلك ثقل على أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فقال لهم قولوا حسبنا الله ونعم الوكيل على الله توكلنا))(٢).

ـ هناك أمور كثيرة تشغل ذهن الإنسان ولكن هناك هم دائم لا يكاد يفارق ذهنه ويسيطر على تفكيره كلما انشغل بغيره عاد إليه فهو منيب إليه، فلا يطيق الابتعاد عن محبوبه الأعظم فكلما انشغل بغيره عاد اليه، وفي الوقت الذي ينشغل فيه بغير محبوبه يكاد يذهب عقله لفقدانه محبوبه من شدة الحزن فهو يحن الى العودة اليه، وهذا معنى كلمة الوله المأخوذة من كلمة إله(٣)، قد يكون هذا الأمر هو حبه لامرأة أو مال وتجارة أو منصب أو .... الخ، وقد يكون هذا الشاغل المسيطر عليه هو صورة قدرة الله وصورة الآخرة.

---

(١) التخريج: صحيح (صحيح الترغيب والترهيب، ج: ٣، برقم: ٣٥٧٨)
(٢) قال الشيخ الألباني : صحيح (جامع الترمذي ، ج : ٤ ، ص : ٦٢٠ ، رقم : ٢٤٣١)
(٣) انظر لسان العرب: ج: ١٣، ص: ٥٦١

ـ أمثلة توضح الفرق بين الهم الأكبر (الدائم) والهم الأصغر (المؤقت):

ـ مثال (١):

ـ الإنسان قد ينشغل باله في اللحظة الواحدة بأكثر من شيء، فمثلا السائق الذي يقود سيارة ينشغل باله بالطريق لأنه لو غفل عن ذلك لوقعت حادثة، وفي نفس الوقت وأثناء قيادته للسيارة قد ينشغل باله بالحديث في الهاتف المحمول أو بالحديث مع راكب يجلس بجواره وقد يلتفت إليه مرات أثناء الحديث معه أو ينشغل باله بتناول طعام أو ينشغل باله بجمع الأجرة من الركاب وحسابات باقي الأجرة للركاب أو ينشغل باله طوال الطريق بسماع الكاسيت، إذن هناك هم دائم وهموم مؤقتة في نفس الوقت، فكذلك الإنسان المسافر إلى الآخرة باله منشغل بسفره إلى الآخرة لأن الدنيا كلها ليست إلا مسألة سفر إلى الآخرة وجميع الناس مسافرون، ولكن أثناء السفر قد ينشغل باله بالطعام أو الشراب أو أعمال الدنيا المختلفة وقد ينشغل باله بالوقوع في معصية لكن همه الدائم هو مسألة سفره، فهذا هو حال المؤمن مهما انشغل باله بأمور الدنيا ومهما عمل من المعاصي فهمه الدائم الذي لا يفارق ذهنه هو سفره إلى الآخرة لا تغيب عن عينه .

ـ لكن قد يزداد انشغال همه بأعمال الدنيا وبالمعاصي حتى ينسى مسألة السفر ويوقف السيارة التي يسافر فيها ويعتبر نفسه مقيما وليس مسافرا، فهو بذلك اطمئن بالدنيا ورضي بها على أنها دار إقامته: ((إِنَّ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ، أُولَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ))[١].

ـ وكلما زاد هم الإنسان بالدنيا وبالمعاصي كلما كان همه الدائم بالسفر إلى الآخرة ضعيف وكلما كان إيمانه ضعيفا.

ـ مثال (٢):

---

(١) يونس : ٧ ، ٨

ـ الإنسان الذي يسافر إلى مكان مجهول لا يعرفه، وهناك يتم عرضه على محكمة تحكم عليه إما بالخلود في العذاب أو النعيم، فهو خائف من هول الأمر الذي هو مقبل عليه لأنه يتوقف عليه مصيره وحياته كلها، ولكن هناك مخاوف أخرى مؤقتة بسيطة أثناء سفره إلى هذه المحكمة وهي هل يجد استراحات قريبة يستريح فيها أم لا؟، وهل ينفد ما عنده من ماء؟، وهل يجد مكانًا قريبًا فيه ماء؟، وهل يوجد شيء يعرضه للأذى أثناء سفره؟، كل هذه مخاوف يحمل لها هما ولكنها ليست بشيء أمام الخوف الأكبر الذي يسيطر عليه وهو ماذا يجد وماذا يكون مصيره عندما يصل إلى ذلك المكان الرهيب؟!.

ـ فكذلك الدنيا هناك بعض الأمور التي يخاف منها الإنسان والتي قد تعرضه للأذى لكنها مخاوف مؤقتة عابرة وخوفه الأكبر من يوم القيامة والحساب ومن لقاء الله تعالى وهو خوف دائم لا يفارقه.

ـ مثال (٣):

ـ الإنسان السجين همه الدائم هو متى يخرج من السجن، فهذا هو الهم الذي لا يمكن أن ينساه، لكن لا يكون ذلك همه الدائم في كل لحظة، ففي وقت ما يكون همه كيف يحصل على طعام وفي وقت آخر يكون همه كيف يحصل على ملابس وفي وقت ثالث يكون همه كيف يضيع وقته في تسلية وهكذا.

ـ والمؤمن همه بالآخرة دائم وهمه بالدنيا مؤقت، فهمه الدائم الذي يسيطر على عقله وتفكيره هو كيف يصل إلى لقاء الله وكيف يكون حاله في الآخرة ، فهو يرتب حساباته للقاء الله، فهذا هو الهم الذي لا يمكن أن ينساه، فهو كالسجين المهموم بيوم خروجه، لذلك ففي الحديث: ((الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر))[(١)]، لكن قد لا يكون ذلك همه في كل لحظة، ففي وقت ما يكون همه كيف يحصل على طعام وفي وقت آخر يكون همه كيف يتعامل مع مشاغل الحياة وهمومها، فالإنسان المسافر همه الدائم هو أن يصل إلى حيث يريد، فهذا هو الهم الذي لا يمكن أن ينساه،

---

(١) قال الشيخ الألباني: صحيح (جامع الترمذي ج: ٤، ص: ٥٦٢، برقم ٢٣٢٤)

ولكن لديه هموم أخرى، ففي وقت ما يكون همه كيف يحصل على طعام أو كيف يتوقف في استراحة يتناول فيها طعام أو كيف يقضي حاجته.

ـ والمؤمن لا يدع الدنيا تشغل همه كثيرا، ففي الحديث عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ: ((مر علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن نعالج خصا لنا فقال ما هذا؟، فقلنا: قد وَهَى فنحن نصلحه، قال: ما أرى الأمر إلا أعجل من ذلك))[١].

ـ لكن الإنسان الذي يكون همه الدائم هو كيف يحصل على المال أو المنصب أو الشهوات أو كيف ينتصر على مشاكل الحياة وينقطع همه عن الله والآخرة أو يكون همه بالله والآخرة مؤقتا فهو يقول بلسان حاله بأن الآخرة ولقاء الله هو أمر غير مهم لا يستحق أن يشغل به باله.

ـ استمرارية الهم الأكبر:

ـ الطبيعي أن يستمر انشغال الهم بالأمر طالما أن الخطر ما زال قائما، فقدرة الخالق خطر دائم وواقع عليك فيكون انشغال الهم به دائم، ومجيء الآخرة هو خطر دائم حتى تأتي الآخرة، أما أمور الطعام والشراب والأمور التي يحتاجها عابر السبيل في سفره إلى الآخرة فهي أمور ضئيلة القيمة ومتقطعة، فمثلا عابر السبيل يهتم بطعامه وشرابه حتى إذا شبع نسي ذلك ثم يعود فيجوع فيهتم بطعامه وإعداده مرة أخرى وهكذا، فعينه دائما على هدفه الذي هو ذاهب إليه وفي نفس الوقت هو يهتم قليلا بما يحتاج من طعام وضرورات، فكلا الهمين الدائم والمتقطع يحدثان معا.

ـ الهم الأكبر ينشأ من شدة التأله:

ـ الإنسان يشعر بالدهشة والتحير الشديد من الأمر فلا تغيب صورة الأمر عن عينه وكأنها محفورة في ذهنه وذلك من مدى غرابتها وعجبها.

ـ فالإنسان يشغل نفسه بالأمر الذي يراه هاما وخطيرا ولا يشغل همه بما يراه تافها ولا قيمة له، فاذا شغل همه الأكبر بالمال فهذا دليل على أنه

(١) قال الشيخ الألباني: صحيح (جامع الترمذي ج: ٤، ص: ٥٦٨، برقم: ٢٣٣٥)

يرى المال عظيما رغم أنه يوقن بأن المال إلى زوال، وعدم انشغال همه بعظمة الله وخطورة الاخرة دليل على أن الآخرة ولقاء الله لا قيمة لهما في نظره رغم أنه يوقن بأن لقاء الله والآخرة من أخطر ما يمكن.

ـ الهم الأكبر يدل على باقي عناصر التعلق الأربعة (شدة التأله وتعلق المشاعر والنية وتعلق الجوارح):

ـ إذا كان الهم الأكبر هو الدنيا وليس الخالق والاخرة فهذا دليل على التعلق بالدنيا وعدم التعلق بالخالق والاخرة، ولكنه ليس دليلا قاطعا وإنما على سبيل الاحتمال الأكيد.

ـ عناصر التعلق الأربعة مرتبطة ببعضها، فوجود أحد العناصر يدل على وجود باقي العناصر.

ـ فكل انسان له شاغل أكبر يشغل همه به، وقد يشغل همه بالدنيا أو المال او يشغل همه بعظمة الخالق وخطورة الاخرة، وهذا الامر يختاره الانسان لنفسه ويدل على أنه يرى المال عظيما وأن هدفه (الخوف والرجاء) المال وحبه للمال ونيته وسعيه للمال.

ـ والذي يريد المال ويحبه ويسعى إليه فإن صورة المال تكاد لا تفارق ذهنه، فذهنه منشغل بقيمة المال الهائلة في نظره، والذي ينتظر الحكم عليه في قضية أمام قاضي لا تكاد صورة هذا الخطر تفارق ذهنه، كذلك الذي يعيش للآخرة ويوقن بأنه مسافر إليها لا تكاد صورة الآخرة تفارق ذهنه.

ـ التناقض بين اليقين والهم الأكبر:

ـ قد يوقن الانسان بأن الدنيا وما بها من أموال وشهوات ومناصب ورفاهيات زائلة وفانية وضئيلة، وكذلك ما بها من مشاكل وأعباء ومسئوليات زائلة وضئيلة، لكن همه منشغل بها سواء بمتعها أو مشاكلها، فكل تفكيره وتفكره وتذكره دائما ليلا ونهارا في المال أو الشهوات أو لقمة العيش وأعباء الحياة أو غير ذلك فلا هم له غير ذلك، فهو بذلك يعتبرها هامة وخطيرة وليست زائلة وضئيلة، رغم أنه بعقله يعلم العكس

تماما، فما يقوله بهمه عكس ما يقوله بعقله، وحقيقة الإنسان هو ما يقوله بهمه وليس ما يقوله بعقله.

ـ وقد يوقن الانسان بأن الآخرة أخطر وأهم من الدنيا وأن الدنيا لعب ولهو في حين همه لا ينشغل بغير الدنيا كأن الآخرة ولقاء الله لا يستحق أن يشغل الهم، والدنيا في نظره هي الأهم والأخطر والتي لا ينشغل همه بغيرها، فلا هم له غير التغلب على أعباء الحياة ومشاكلها اليومية والتغلب على ما عنده من مشاكل وصراعات دنيوية والخروج من الفقر أو نقص المال وغير ذلك.

ـ كثرة مشاغل الحياة في حد ذاتها ليست هي المشكلة، ولكن المشكلة في أنها قد تكون على حساب تذكر قدرة الخالق والآخرة، فالفرق بيننا وبين السلف الصالح هو أن الآخرة ولقاء الله هو الذي كان يشغل عقولهم أما نحن فما يشغل عقولنا هو الدنيا وأمورها.

ـ عدم شغل الهم بأمر ما معناه أن الإنسان لا يقيم له وزنا ولا قيمة فلا يراه يستحق أن يشغل همه، فعدم انشغال الهم بالموت والآخرة ولقاء الله معناه أن الإنسان لا يقيم لذلك وزنا ولا قيمة فلا يرى أن ذلك يستحق أن يشغل همه.

ـ طالما أن هم الإنسان لا ينشغل بغير الشهوات والأموال والمظاهر والمناصب في حين لا يزال غير منشغل بمعرفة الله وعظمته وخطورة الآخرة فهذا معناه أن الإنسان لا يزال يرى قيمة الشهوات والأموال والدنيا أعظم من الجنة ومن الآخرة ولقاء الله.

الفصل التاسع
مفهوم تعلق الجوارح

ـ تعلق الجوارح هو العنصر الرابع من عناصر التعلق.

ـ تعلق الجوارح نوعين هما:

١ـ تعلق الجوارح بغير النفس:

ـ أي تعلق الجوارح بالله والاخرة ويسمى خضوع الجوارح لأنه تعلق بغير النفس لأحد آخر.

ـ تعلق الانسان بالغير هو الخضوع، وتعلق الجوارح بالغير هو جزء من الخضوع وهو خضوع الجوارح، ومعنى تعلق الجوارح بالغير (خضوع الجوارح).

ـ تعلق الجوارح بالله والاخرة (خضوع الجوارح) معناه أن يعيش الانسان معيشة العبيد، فيذل نفسه لغيره أي يعيش كأسير أو خادم يلبي أوامر سيده، فيلغي إرادته ورغباته وشخصيته المستقلة ويعيش تابعًا منهزمًا تحت إرادة قاهر له، ويعيش مقيدا بأوامر غيره عليه، ويعيش خاضعًا كالعبد الذي كان يباع ويشترى في الماضي، فلا يعيش حياته بناءً على ما يريده هو لنفسه وما يحبه ويهواه لنفسه وما يحقق رغباته، ولكن يعيش حياته بناءً على ما يريده ويحبه أحد آخر منه، كأنه إنسان آلي يسير بالريموت كنترول فيتحرك بناءً على أوامر تصدر له من الريموت كنترول، فالإنسان الآلي ليس له حياته الخاصة وليس له رغبات ولا يسير من تلقاء نفسه وإنما تبعًا لما يريده أحد غيره، فهو مستسلم ومنقاد ومقهور ومغلوب وخاضع تحت سيطرة أحدا غيره كما يعيش العبد لسيد يملكه ويملك التصرف فيه.

ـ فمعنى أن الانسان يعيش عبدًا لله هو أن يعيش حياته وفقًا لأوامر الله تعالى وأكثرها أوامر تخالف رغبات نفسه، وهذه المخالفة مقصودة من

الله تعالى حتى يتبين أن الإنسان خاضع لله وليس لما يريده هو لنفسه: ((لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ))(١)، وبتعبير آخر هو تغليب مراد الله والدين على مراد نفسك وما تحبه نفسك، فيلغي إرادته ورغباته وشخصيته المستقلة ويعيش تابعًا منهزمًا تحت إرادة قاهر له.

ـ فالمطلوب من الانسان تحقيق هذا المعنى وليس المطلوب منه مجرد القيام بأعمال، أي أن ما يظهر على جوارحه يكون تعبير عن شدة التعلق بالله والاخرة.

٢ـ تعلق الجوارح بالنفس والدنيا:

ـ أي يعيش في الدنيا حرا غير خاضع لأحد، ويعيش على أساس أن السعادة في الدنيا، ويختار شكلًا يعجبه من أشكال السعادة في الدنيا ويعيش لها، فيعيش للمال أو للشهوات أو للمظاهر أو أي شيء أو مجموعة من الأشياء من أمور الدنيا.

ـ فهناك طريقتين لتعلق الجوارح، والإنسان عليه أن يختار لنفسه الطريقة التي على أساسها يعيش، هل يبني حياته وفقًا لرغبات نفسه أم مخالفة نفسه ووفقا لمراد الله؟ فلمن يستجيب؟ ((فَأَمَّا مَنْ طَغَى (٣٧) وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٣٨) فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى (٣٩) وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى (٤٠) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى))(٢).

ـ ما يظهر على الجوارح يدل على نوع تعلق الجوارح:

١ـ نوع الاعمال وطول الانشغال بها تدل على تعلق الجوارح:

ـ أي هل هي اعمال دنيوية ام اعمال اخروية وهل هو يسارع في أي منهما؟

ـ إذا كان أكثر أعمال الانسان أو كلها مرتبطة بالمال والدنيا والناس، ووجود المعاصي والإصرار عليها والتكاسل عن الطاعات والهروب منها فهذا يدل على تعلق الجوارح بالدنيا.

---

(١) آل عمران: ٩٢
(٢) النازعات: ٣٧ ـ ٤١

ـ الطاعات والمسارعة في الخيرات، وبخاصة الاعمال التي هي غذاء للروح لأنها تذكر الانسان بالخالق والاخرة كقراءة القرآن والصلاة وقيام الليل والصيام والحج والذكر والاستغفار والتفكر والرقائق وسماع الخطب والمواعظ وغير ذلك، والمسارعة في أعمال الاخرة واللجوء الى الله بالدعاء والتقرب اليه والاستعانة بالله في أمور الدين والدنيا والدعاء والتضرع والاذكار والتقرب الى الله بالصلاة والمسارعة في الخيرات: ((إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ))(١)، كل ذلك يدل على تعلق الجوارح بالله والاخرة.

٢ـ طريقة سلوك الانسان وتصرفاته وأخلاقه وردود أفعاله تدل على نوع تعلق الجوارح:

ـ طريقة سلوك الانسان وتصرفاته وأخلاقه وردود أفعاله قد تدل على أنه يعيش لنفسه غير خاضع لأحد، وأنه يعيش لرغباته وشهواته وأن كل همه الدنيا وتحصيل المال والمكانة والتمتع بالدنيا، أو تدل على شدة تعلق الجوارح بالخالق والآخرة.

ـ قد يظهر في سلوكه في تحصيل الدنيا حبه الشديد للدنيا، فتجده يلهث وراء فتات الدنيا، فهذا يدل على تعلق الجوارح بالدنيا.

٣ـ انفعالات الانسان وردود أفعاله وعلامات الغضب والفرح والحزن على الوجه تدل على نوع تعلق الجوارح:

ـ علامات الغضب والفرح والحزن تظهر على الوجه والسلوك، وعلامات التأثر بالأمر تظهر على الوجه كالبكاء، فإذا كان غضبه وتأثره بأمور دنيوية وبصورة شديدة فتعلق جوارحه بالدنيا، والعكس صحيح.

٤ـ أقوال الانسان وكلامه ونقاشاته تدل على نوع تعلق الجوارح:

ـ فقد تجده يذكر المال دائما على لسانه وفي مجالسه ويحب الحديث في ذلك فهذا دليل على أن تعلقه قد يكون بالمال

---

(١) الأنبياء: ٩٠

ـ وإذا كان ذكر الله دائما على لسانه وفي مجالسه ويحب الحديث في ذلك فهذا دليل على أن تعلقه قد يكون بالله والاخرة.

ـ وإذا كان دائم الشكوى من قلة الرزق ومتأثر بذلك اشد التأثر فهذا من مظاهر عدم الرضا بالرزق كأنه يعترض على الله من قلة الرزق.

٥ـ شغل الوقت والجوارح بأعمال التجارة وما يأمر به الشرع من إعمار الأرض بنية الحصول على المال والدنيا وليس لكونه طاعة رغم أنه لا يخالف الشرع، فذلك يدل على تعلق جوارحه بالمال والدنيا.

ـ استغراق الإنسان في أعمال الدنيا وأمورها يؤدي إلى سرقة عمر الإنسان فيموت ولم يجد وقتًا يشغل فيه همه بمعرفة الله والآخرة، فينشغل بغذاء الجسد على حساب غذاء الروح

٦ـ مظاهر التجاهل (التصام ـ التعامي ـ التغابي) تدل على تعلق الجوارح بالدنيا:

ـ يظهر التجاهل من خلال سلوك الإنسان وانفعالاته وردود أفعاله وكلامه، فتجده يبتعد بسمعه وبصره وكلامه وهمه عن الغيبيات وكل ما يتعلق بها ويترك أي عمل يتعلق بالغيبيات بطريقة الهروب والتجاهل وعدم الحديث في الأمر والتعامل كأنه لم يسمع عن الغيبيات.

ـ الفرق بين عمل الجوارح وتعلق الجوارح:

ـ تعلق الجوارح ليس معناه مجرد القيام بأعمال، ولكن معناه أن ما يظهر على جوارح الانسان يكون تعبير عن شدة التعلق بالله والاخرة أو بالدنيا.

ـ عمل الجوارح يعني أي عمل يعمله الانسان بجوارحه، أما تعلق الجوارح فيعني اتجاه أعمال الانسان في جملتها وتعلقها؛ هل هي تتجه الى الدنيا ورغبات النفس (أي تتعلق بذلك وترتبط به)، أم أنها تتجه الى الله والاخرة (أي تتعلق بذلك وترتبط به).

ـ أي أن تعلق الجوارح هو المعنى الذي يُفهم من اعمال الجوارح في جملتها هل الانسان يعيش لنفسه أم يعيش لغيره (لله)، ومعنى يعيش لغيره

أنه يُفهم من أعمال جوارحه في جملتها أنه يعيش معيشة الخاضع لغيره الذي يلبي مرادات غيره بدلا من رغبات نفسه.

ـ كما أن تعلق الجوارح لا يشمل أعمال الجوارح فقط ولكن يشمل أيضا العلامات التي تظهر على الانسان من انفعالاته وردود افعاله وفرحه وحزنه وما تدل عليه وهي أهم وأخطر.

ـ الفرق بين تأثر الجوارح وتعلق الجوارح:

ـ عمل الجوارح يكون بحسب قوة الدافع، فإذا كان الدافع قويا جدا جعل الانسان كل اعماله تسير في اتجاه معين، فكمال الحب يؤدي الى أن يسخر جوارحه لإرضاء المحبوب، وكذلك كمال الخوف وكمال والرجاء.

ـ أما مجرد أن يحب الانسان أحدا أو يخافه أو يرجوه فإنه يطيعه في عمل أو قليل من الاعمال فلا تكون كل اعماله متجهة اليه.

ـ الدوافع الثلاثة لتعلق الجوارح بالله والاخرة:

ـ تعلق الجوارح بالله أو بالدنيا ينشأ من كمال الحب لله أو للدنيا، وكذلك ينشأ من كمال الخوف والرجاء من عقاب الله وثوابه أو من كمال الخوف والرجاء في الحصول على الدنيا والمال والشهوات.

١ـ تعلق الجوارح بالله والاخرة بسبب كمال الحب لعظمة صفات ولإنعامه:

ـ فأنت إذا وجدت أحدا يتصف بصفة أو صفات حميدة خارقة هائلة جدا فأنت تحبه بكل قلبك وبمنتهى الحب فمن شدة الحب أنت تطيعه اجلالا واحتراما ومهابة وفرحا به، وكذلك إذا وجدت أحدا يعطيك عطاء لا حد له فأنت تحبه بكل قلبك وبمنتهى الحب فمن شدة الحب أنت تطيعه اجلالا واحتراما ومهابة وفرحا به.

ـ لو افترضنا أن الانسان ضمن الله له دخول الجنة فإنه سوف يستمر في عبادة الله حبا له، فأصل العبادة هي عبادته حبا وليس خوفا ورجاء.

٢ـ تعلق الجوارح بالله والاخرة بسبب كمال الخوف:

ـ الثواب والعقاب بالجنة والنار شديد جدا فوق كل التصورات فهو يصل إلى الكمال، وطالما أن شدة الثواب والعقاب تصل إلى الكمال فكذلك الخوف والرجاء يصل الى الكمال، وعندما تصل شدة الخوف والرجاء الى درجة الكمال تتعلق جوارحه بالمسارعة للفوز بالجنة والنجاة من النار.

ـ ولو أن إنسانا يمسك بمسدس ويصوبه نحوك ويأمرك بأمر فهل يمكن أن تخالفه؟، إنك تطيعه وأنت تشعر بالخوف وترتعد فرائصك، فالألم في الآخرة شديد جدا ولن يقدر الإنسان على أن يتحمله لفظاعته ولكن من يعقل؟

ـ لو قيل لإنسان أنه إذا وقع في شهوة من الشهوات فإنه سوف يوضع في داخل الفرن الذي ينضج فيه الخبز بأحد الأفران مثلا حتى يشوى جلده ولحمه، فإنه لن يقع في شهوة أبدا، وكلما عرضت له شهوة تذكر " فرن الخبز "!

ـ فالأمر مرعب وخطير، فمن خاف لم يستطع أن ينام ولا يهدأ ولا يرتاح ويسارع في الخيرات وترك المعاصي، ففي الحديث: ((من خاف أدلج ومن أدلج بلغ المنزل ألا إن سلعة الله غالية ألا إن سلعة الله الجنة))[١].

٣ـ تعلق الجوارح بالله والآخرة بسبب كمال الرجاء:

ـ إذا سمع الإنسان عن وجود كنز وتأكد من وجوده في مكان ما، ستكون كل مشاعره متجهة بالشوق للوصول لهذا الكنز، وسوف يشغل ذلك الكنز باله وهمه وسوف يسعى ويلهث وراءه ويحلم بأن يجد فيه الذهب والياقوت والمرجان ويكون ذلك هدفه.

ـ تخيل أن العلم قد توصل إلى طريقة تجعل الإنسان يعود من الشيخوخة إلى الشباب ولا يمرض ولا يموت، فسوف تجد الناس يتسابقون إلى ذلك ويدفعون في ذلك كل ما يملكون ولكان ذلك كل همهم وكل هدفهم وكل مشاعرهم، فالإنسان في الجنة يعود من الشيخوخة إلى الشباب ولا

(١) تحقيق الألباني: صحيح (الصحيحة: ٩٥٤ ، ٢٣٣٥)

يمرض ولا يموت ويعيش في متع أبدية ولا يوجد ما يعكر مزاجه أو يشغل باله، وينال كل ما يشتهي ويتمنى ولا يتعب ولا يعمل، فمن يوقن بذلك يقينا صادقا فسوف يتعلق بكل قلبه وجوارحه بالله والاخرة من أجل الوصول إلى هذا الكنز.

ـ ومثال الخضوع رجاءً مثل الشحاذ الذي يسأل الناس أن يعطوه ويتوسل لهم ويتذلل لهم ويظهر ضعفه أمامهم ويخفض رأسه لهم طمعا في إحسانهم له.

ـ فيعيش معيشة الخاضع لله بسبب كمال حبه وخوفه ورجاء لله، أو يعيش للدنيا ويبني أعماله على أساس أنه مقيم وخالد في الدنيا.

ـ ولاحظ أن تعلق الجوارح لا ينشأ من مجرد الحب والخوف والرجاء ولكن من الحب الشديد والخوف الشديد والرجاء الشديد فذلك الذي يجعلك تخضع وتنقاد.

ـ تعلق الجوارح بالله والاخرة لابد أن تنشأ من الدوافع الثلاثة معا:

ـ طالما أن الله سبحانه له الكمال في عظمة صفاته وله الكمال في ثوابه لأن ثوابه لا حد له، وله الكمال في عقابه لأن عقابه لا حد له فهذا معناه أن الانسان يتعلق به حبا وخوفا ورجاء.

ـ ولابد من وجود الدوافع الثلاثة معا، فلو افترضنا أن الانسان ضمن الله له دخول الجنة فإنه سوف يستمر في طاعة الله حبا له، فأصل الطاعة هي بسبب الحب وليس خوفا ورجاء.

ـ الطاعة ليست مطلوبة لذاتها ولكن كدليل على الخضوع والتعظيم وتعبير عن الخضوع والتعظيم:

ـ الهدف من الطاعة ليس مجرد القيام بها فالله لا يحتاج الى عمل الانسان، ولكن الهدف من الطاعة هو التعظيم والخضوع.

ـ والدافع الى الطاعة تعظيما وخضوعا ثلاثة أمور هي حبا لعظمته لأنه المستحق للعبادة وخوفا ورجاء.

ـ فالهدف من الطاعة إظهار عظمة الخالق وضعف الانسان، فالأمر والنهي صفة قوة، وتنفيذ الأوامر صفة ضعف، فالآمر تكون له السلطة والسيادة والكبرياء، والمأمور يكون له الضعف والذل وليس له إلا تنفيذ الأوامر، الله وحده هو الذي له الأمر والنهي وكل ما سواه عليه التنفيذ مهما كان الأمر.

ـ الله لا يريد منا الطاعة لذاتها ولكن يريد منا الطاعة كتنفيذ أوامر ولو خالف العقل والهوى وما تحبه النفس، لأن مخالفة الهوى وعدم الرجوع للعقل في الأمر دليل على الخضوع: ((لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ))(١).

ـ فقد يؤدي الإنسان الطاعة لكن لا يريد أن يشعر أن أحدا يلزمها عليه إلزاما ويفرضها عليه فرضا، كأنه يوافق على الطاعة بمزاجه كأنه يقتنع أولا بالأوامر ثم يؤديها أو يؤدي الطاعة لمجرد موافقة العمل للشرع، ولكن يجب أن يؤدي الطاعة باعتبارها تنفيذا للأوامر على أساس أنها مسألة خضوع وعلاقة بين قوي وضعيف، وأن المقصود منها هو إذلالك وإخضاعك للأوامر وليس لك أن تناقش أو تسأل إلا لمعرفة الحكمة لتزداد إيمانا، وليس لذلك علاقة بتنفيذ الأمر سواء عرفت الحكمة أم لم تعرف والله سبحانه لا يسأل عما يفعل: ((لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ))(٢).

ـ طاعة الغير معناها أن يعمل الانسان ما يحبه الآخر منه وما يرضيه، وأقصى شيء يعمله الانسان ليرضي غيره هو أن يعيش حياته كلها له، فكمال الخضوع ليس معناه مجرد وجود طاعات وكن معناه أن يعيش حياته لله وليس لنفسه.

ـ العلاقة بين تعلق الجوارح وباقي عناصر التعلق:

ـ عناصر التعلق الأربعة مرتبطة ببعضها البعض، فتعلق أحد عناصرها بالنفس والدنيا يدل على تعلق باقي العناصر بالنفس والدنيا على سبيل

---

(١) آل عمران: ٩٢

(٢) الأنبياء: ٢٣

الاحتمال الأكيد، والعكس صحيح فتعلق أحد عناصرها بالله والاخرة يدل على تعلق باقي العناصر بالله والآخرة على سبيل الاحتمال الأكيد.

ـ تعلق الجوارح بالنفس والدنيا يعطي دلالة على أن تعلق الانسان هو بالنفس والدنيا، أي يعطي دلالة على أن هدف الانسان من حياته هو الدنيا، وذلك على سبيل الاحتمال الأكيد، والعكس صحيح.

ـ انغماس الانسان وانهماكه في أعمال الدنيا وكثرة تفكيره في قضايا الدنيا وذكره لها وكلامه عنها واستغراق معظم وقته في أعمال الدنيا قد تعطي معنى أنه متعلق بالدنيا بمشاعره وهمه وأنه يراها عظيمة الأهمية.

ـ فقد يبدو من عمل الانسان وطريقة سلوكه وتصرفاته وأخلاقه وكلامه وردود أفعاله أنه شديد التعلق بالدنيا، فالقضايا التي تشغل همه وتفكيره وكلامه ونقاشاته وطموحاته كلها أمور الدنيا ومشاغلها وليس فيها الآخرة، ويتجاهل أي شيء فيه تذكير بالله والآخرة كأنه لا يسمع، وقد تجده يبتعد بسمعه وبصره وكلامه وهمه عن كل ما يذكره بالغيبيات من سماع أو رؤية أو كلام أو أعمال كالحديث عن الموت والآيات الكونية والاذكار والقرآن أو يلجأ لتحوير الكلام والتحول الى الحديث في أمر آخر ويترك بعض أو كل الطاعات بطريقة الهروب.

ـ فالإنسان قد يدل عمله على أنه يعيش لرغباته وشهواته ويدل على أن كل همه الدنيا وتحصيل المال والمكانة والتمتع بالدنيا، فهذا يجعلنا نعرف على سبيل الظن والاحتمال هل أعمال الانسان في حياته لها تعلق شديد بالمال أو الدنيا أو بالله، ولكن ذلك الاحتمال لا يجعلنا نحكم على أحد بشيء لأن الظن لا يغني من الحق شيئا: ((إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ))[1]، فالله هو الذي يعلم حقيقة ما يفعله الانسان.

ـ عن أنس بن مالك قال: ((مَرُّوا بجَنازَةٍ، فأثْنَوْا عَلَيْها خَيْرًا، فَقالَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم: وجَبَتْ، ثُمَّ مَرُّوا بأُخْرى فأثْنَوْا عَلَيْها شَرًّا، فَقالَ: وجَبَتْ، فَقالَ عُمَرُ بنُ الخَطّابِ رَضِيَ اللَّهُ عنْه: ما وجَبَتْ؟ قالَ: هذا أثْنَيْتُمْ

(١) يونس: ٣٦

عليه خَيْرًا فَوَجَبَتْ له الجَنَّةُ، وهذا أَثْنَيْتُمْ عليه شَرًّا فَوَجَبَتْ له النّارُ، أنتُمْ شُهَداءُ اللَّهِ في الأرْضِ))[1].

ـ وفي حديث آخر: ((أهل الجنة من ملأ الله أذنيه من ثناء الناس خيرا، وهو يسمع، وأهل النار من ملأ أذنيه من ثناء الناس شرا، وهو يسمع))[2].

ـ تعلق الجوارح هو تعبير عن كمال الحب والخوف والرجاء:

ـ الانسان يعبر عن حبه واعجابه بأحد من الناس بأن يفعل ما يسره، فإذا زاد حبه له فعل كثيرا مما يسره، فإذا وصل حبه لدرجة الكمال وحبه لنفسه وصل الى الصفر فهو عندئذ يعيش حياته كلها بالطريقة التي تسر محبوبه تعبير ا عن كمال حبه له.

ـ فإذا وصل حب الانسان لله الى درجة الكمال عاش حياته كلها لله تعظيما له ليعبر بذلك عن كمال حبه له.

ـ وكذلك فالإنسان يعبر عن خوفه من أحد من الناس بأن يفعل ما يسره حتى يتجنب عقابه، فإذا زاد خوفه منه فعل كثيرا مما يسره حتى يتجنب عقابه، فإذا وصل خوفه لدرجة الكمال فهو عندئذ يعيش حياته كلها بالطريقة التي تسر ه تعبير ا عن كمال الخوف منه.

ـ فإذا وصل خوف الانسان من الله الى درجة الكمال عاش حياته كلها لله تعظيما له ليعبر بذلك عن كمال خوفه منه.

ـ وهكذا في الرجاء.

ـ الخالق هو المستحق للعبادة:

ـ الله هو المستحق لكمال الحب والمستحق للتعبير عن كمال الحب بتعلق الجوارح، فحق الله على العباد العبادة ، والعباد ليس لهم حق على الله الا ما أخذه الله على نفسه، ففي الحديث عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: ((كُنْتُ رِدْفَ النبيِّ صَلّى اللهُ عليه وسلَّمَ على حِمارٍ يُقالُ له عُفَيْرٌ،

---

(١) صحيح البخاري (١٣٦٧)

(٢) السلسلة الصحيحة: ٤ / ٣٢٠

فقالَ: يا مُعاذُ، هلْ تَدْرِي حَقَّ اللَّهِ على عِبادِهِ، وما حَقُّ العِبادِ على اللَّهِ؟، قُلتُ: اللَّهُ ورَسولُهُ أعْلَمُ، قالَ: فإنَّ حَقَّ اللَّهِ على العِبادِ أنْ يَعْبُدُوهُ ولا يُشْرِكُوا به شيئًا، وحَقَّ العِبادِ على اللَّهِ أنْ لا يُعَذِّبَ مَن لا يُشْرِكُ به شيئًا))[1].

ـ الطاعة لله بنية ثواب الله في الدنيا دليل على تعلق الانسان بالدنيا:

ـ قد يعمل الانسان الطاعات يبتغي بها وجه الله لكنه يريد بها ثواب الدنيا، فقد ذكر الإمام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى أنواع العمل للدنيا كالتالي: ((النوع الأول: العمل الصالح الذي يفعله كثير من الناس ابتغاء وجه الله تعالى: من صدقةٍ، وصلاةٍ، وإحسانٍ إلى الناس، وردِّ ظلم، ونحو ذلك مما يفعله الإنسان، أو يتركه خالصًا لله تعالى؛ لكنه لا يريد ثوابه في الآخرة، وإنما يريد أن يجازيه الله بحفظ ماله، وتنميته، أو حفظه أهله وعياله، أو إدامة النعم عليه وعليهم، ولا همّةَ له في طلب الجنة والهرب من النار، فهذا يُعطى ثواب عمله في الدنيا، وليس له في الآخرة من نصيب، وهذا مروي عن ابن عباس رضي الله عنهما))[2].

ـ وقد سئل الشيخ محمد بن عبد الوهاب عن معنى قوله تعالى: {مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لاَ يُبْخَسُونَ} فأجاب: ((ذكر عن السلف فيها أنواع مما يفعله الناس اليوم ولا يعرفون معناه، فمن ذلك العمل الصالح الذين يفعله كثير من الناس ابتغاء وجه الله من صدقة وصلاة وصلة واحسان إلى الناس وترك ظلم ونحو ذلك مما يفعله الإنسان أو يتركه خالصًا لله، لكنه لا يريد ثوابه في الآخرة، إنما يريد أن يجازيه الله بحفظ ماله وتنميته، أو حفظ أهله وعياله، أو إدامة النعمة عليهم، ولا همّة له في طلب الجنة والهرب من النار، فهذا يعطَى ثواب عمله في الدنيا وليس له في الآخرة من نصيب))[3].

---

(١) صحيح البخاري (٢٨٥٦)
(٢) نور الإخلاص وظلمات إرادة الدنيا بعمل الآخرة ـ الناشر: مطبعة سفير، الرياض (ص: ١٧)
(٣) توجيهات ومواقف علمية للحميدي (ص: ١٣)

ـ ملحوظة:

ـ قد يتعلق الانسان بالمال رغم أنه يكسبه من حلال وقد يتعلق بالمال ويكسبه من حرام فهنا جمع بين مصيبتين معا.

ـ التناقض بين اليقين وتعلق الجوارح:

ـ قد يوقن الانسان بأن المال إلى زوال ولا قيمة له وبأن الرزق مقدر له ومضمون لكن تجده يلهث وراء المال من حلال ومن حرام، ومعظم وقته مشغول بأمور المال، وطريقة سلوكه وتصرفاته وأخلاقه وانفعالاته وردود أفعاله وعلامات الغضب والفرح والحزن على الوجه لا تتأثر إلا بالمال وأقواله وكلامه ونقاشاته معظمها عن المال والتجارة والبيع والشراء وتجد الحسد والحقد على من يملك المال ثم هو يقول بأن الاخرة خير وأبقى وبأن الكفن ليس له جيوب!

ـ وقد يوقن الانسان بأن الاخرة ولقاء الله من أخطر ما يمكن لكن يكون حاله مثال حال الجاهل بالأمر، فهو يعيش كأنه لم يسمع عن الخالق وكأنه لم يسمع عن شيء اسمه الآخرة، أو كأنه لا يفهم معنى الغيبيات، كأن الغيبيات طلاسم وأمور مبهمة لا يفهمها فيعيش للدنيا.

ـ أو يكون حاله مثل حال الانسان الذي يتعامل مع أمر تافه فهو يتعامل مع الاخرة كأنها ودودة أليفة لا مشكلة منها ولا خطر فيها، كأنها غير مؤثرة وليست لها قيمة وكأن صفات الخالق ليست عظيمة وخارقة، فهو يتعامل مع الغيبيات بغير اهتمام.

ـ وقد يظهر التجاهل من خلال سلوكه وانفعالاته وردود أفعاله وكلامه، فتجده يبتعد بسمعه وبصره وكلامه وهمه عن الغيبيات وكل ما يتعلق بها ويترك أي عمل يتعلق بالغيبيات بطريقة الهروب والتجاهل وعدم الحديث في الأمر والتعامل كأنه لم يسمع عن الغيبيات، فلا هو مع الدين ولا ضد الدين ولا يوالي ولا يعادي ولا يتأثر به، ويتجاهل أي شيء فيه تذكير بالله والآخرة كأنه لم يسمع، فلا يحب أن يذكره أحد بالله والآخرة والموت والآيات الكونية والحلال والحرام ولا يرد على المتحدث إذا تكلم في ذلك، ويهرب من سماع ذلك، ولا يتكلم عن ذلك مع أي أحد، ويبتعد عن

كل ما يذكره بالله والآخرة كالأذكار والقرآن وغير ذلك، فالآخرة ليست في همه ولا على باله ولا في حساباته ولا في مشاعره وليست هدفه.

الفصل العاشر
مفهوم التعلق بالدنيا

ـ التعلق بالدنيا هو كمال التأثر بأي أمر من أمور الدنيا سواء كان شيئا ماديا أو معنويا أو عملا أو أمرا يخترعه الانسان لنفسه.

ـ شرط وجود التعلق هو وجود كمال التأثر، فإذا كنت تتعامل مع أي أمر من أمور الدنيا بدون تأثر به أو تأثرك به قليلا أو تأثرك به كبيرا ولكن لا يصل الى الكمال في التأثر فليس هذا تعلقا.

ـ مجرد القيام بأعمال الدنيا وشغل أكثر الوقت بها ليس هذا دليل على التعلق بالدنيا، ومجرد أداء العبادات ليس هذا دليل على التعلق بالله والاخرة، والدليل الوحيد هو وجود كمال التأثر بالله والاخرة أو كمال التأثر بالدنيا وأمورها.

ـ مفهوم كمال التأثر (مفهوم التعلق):

ـ كمال التأثر (التعلق) معناه وجود أربعة عناصر معا هي شدة التأله (أعظم ما يدهشك) وتعلق المشاعر (المحبوب الأعظم وأكبر ما ترجو وتخاف) وتعلق الهم (الهم الأكبر) وتعلق الجوارح (طريقة سلوكه وتصرفاته وأخلاقه وانفعالاته وردود أفعاله وعلامات الغضب والفرح والحزن وكلامه ونقاشاته).

ـ فمعنى تعلق الانسان بأمور الدنيا هو أنه يراها أعظم شيء في حياته (شدة التأله) في حين ينظر الى ما في الاخرة من ملذات ونعيم وعذاب كما ينظر الى شيء ضئيل لا قيمة له، وتكون أمور الدنيا هي محبوبه الأعظم وأكبر ما يرجو وأكبر ما يخاف في حين لا يشعر بشيء تجاه ما في الاخرة من ملذات ونعيم وعذاب، وتكون صورة عظمة أمور الدنيا لا تفارق ذهنه (الشاغل الاكبر) في حين لا ينشغل همه بشيء مما في الآخرة من ملذات ونعيم وعذاب، وتتعلق جوارحه بأمور الدنيا فهو يعيش معيشة دنيوية وليس معيشة أخروية.

ـ ولاحظ أن هناك فرق بين عمل الجوارح وتعلق الجوارح (انظر الفصل التاسع).

ـ وإذا وضعت مقارنه بين نظرته لأمور الدنيا وتأثر مشاعره وهمه وجوارحه بها وبين نظرته لخطورة الاخرة ولقاء الله وتأثر مشاعره وهمه وجوارحه بذلك تجد الفارق بينهما كالفارق بين السماء والأرض.

ـ ملحوظة:

ـ التعلق يشمل أربعة أمور هي دهشة شديدة من خطورة الامر وتعلق الهم والمشاعر والجوارح به، فالأمر الذي تراه عظيما (تنظر اليه بدهشة شديدة لعظمة قيمته في نظرك) ويكون همك الأكبر وتتعلق به مشاعرك وجوارحك فهذا هو قضيتك الأساسية التي تعيش لها وهذا هو هدفك من الحياة، وإن كنت تحسب أن قضيتك الاخرة وهدفك الاخرة وأنت متعلق بالدنيا فأنت تكذب على نفسك.

ـ كل إنسان له تعلق بأمر ما:

ـ لا يمكن لإنسان أن يعيش بغير قضية أساسية تكون هي هدفه يحيا بها ويعيش لها ويتجه إليها بمشاعره وهمومه وجوارحه، فكل إنسان له قضية هي أهم شيء في حياته، وهذه القضية تكون محور حياته ومستقبله ومصيره.

ـ كل إنسان له قضية أساسية تشغل تفكيره وتتعلق بها مشاعره وينبني عليها عمله فهو بذلك يعيش لهذه القضية، فإما أن تكون قضيته الأساسية التي تشغل تفكيره وتتعلق بها مشاعره وينبني عليها عمله هي الاخرة والموت ولقاء الله، فهو يضع الموت والاخرة نصب عينيه دائما يفكر فيه ولا هم له غيره، وإما أن تكون الدنيا والمال وأعباء الحياة، فهو يضع المال والبنون نصب عينيه دائما يفكر فيه ولا هم له غيره.

ـ ما هي القضايا التي ينشغل بها الناس؟:

ـ القضايا التي ينشغل بها الناس هي قضايا كثيرة جدا سواء كانت قضايا كبيرة أو صغيرة أو تافهة وفيها تفاوت كبير بين الناس.

ـ فمن هذه الأمور العمل لكسب لقمة العيش والقيام بواجبات الحياة كالتغلب على أعباء الدراسة والزواج وتربية الأولاد وتدبير نفقات الأولاد ونفقات تعليمهم وتوفير الطعام والشراب وما يحتاجه أولاده وأسرته، ومنها مشاغل الحياة اليومية والتغلب على متطلباتها.

ـ ومنها التوسع في مشاريع لزيادة الدخل كالقيام بعمل تجاري والأمور التي يمكن زيادة المال منها والتي قد تكون من حلال أو حرام.

ـ ومنها قضية المناصب والجاه والسلطان والمظاهر، ومنها الاهتمام بمظهر الإنسان أمام الناس، ومنها الحصول على شهادات أو مناصب، ومنها التطلع للترقي في العمل.

ـ ومنها قضية التمتع بشهوات النساء والتمتع بشهوة الطعام والشراب، ومنها عمارة الأرض وتوفير وسائل السعادة فيها، ومنها التوسع في رفاهيات الحياة والتطلع إلى الحياة المريحة ومنها التطلع لشراء مسكن أو سيارة.

ـ ومنها حل مشاكل تواجه الانسان كالفقر والمرض والمشاكل العائلية أو إنجاب الأطفال أو الظلم من أحد، ومنها حل مشاكل في العمل أو مشاكل البيت.

ـ ومنها مهنة أو هواية معينة أو أمور التسلية أو الترفيه التي تعَوَّد عليها كمشاهدة مباريات الكرة ومشاهدة التلفاز والجلوس على المقاهي والتواصل مع الاصحاب والاقارب لقضاء أوقات ترفيهية واصطحاب الاسرة خارج المنزل للتنزه أو للطعام أو لمتعة الشراء وشغل الوقت بأي أمر بغرض استهلاك الوقت ولو بدون داعي والحديث عن أخبار الاصحاب والاقارب والكلام عن أحوال الناس وأخبار السياسة وأخبار الطقس وأسعار الطعام والشراب وطرق مضاعفة المال وغير ذلك.

ـ وقد تكون قضية الانسان الأساسية بعض من هذه الأمور وليس قضية واحدة.

ـ فهذه هي قضايا الدنيا، وهناك نوع آخر من القضايا هي قضية الوصول إلى ملذات الجنة والتمتع بالحور العين إلى ما لا نهاية من السنين والبعد

عن العذاب داخل النار إلى ما لا نهاية من السنين، وقضية وجود الخالق فوقنا ووجوده معناه بقدرته ورؤيته لنا وقدرة الخالق التي تسيطر عليك في ليلك ونهارك وفي كل لحظة، وكل حركاتك تحت المراقبة التامة وكل أنفاسك معدودة، ذلك الأمر المرعب الواقع عليك في الدنيا وذلك الخطر الرهيب الذي أنت مقبل عليه بعد لحظات من الآن من أمر الموت والحياة بعد الموت والانتقال الى الآخرة حيث الحياة الأبدية واقترابها وخطورتها.

ـ ترتيب القضايا التي ينشغل بها الناس:

ـ إذا أردنا ترتيب هذه القضايا التي ينشغل بها الناس فهي كالتالي:

ـ هذه قضايا كثيرة، العاقل ينظر إليها ويقارنها ببعضها ليرى أيها أخطر وأيها يجب أن تشغل تفكيره لتكون قضيته وشغله الشاغل طوال حياته ويتعلق بها بقلبه وجوارحه.

ـ هناك قضايا تختص بعمارة الأرض واتقان العمل والتعليم وتربية الأولاد والعيش في سعادة وسلام وتسمى بغذاء الجسد وهي أمور يأمر بها الشرع.

ـ وهناك قضايا تختص بالتمتع بملذات الدنيا وشهوات النساء والطعام والشراب، ومنها ما هو حلال وحرام.

ـ وهناك أمور للتسلية وقضاء الوقت، ومنها ما هو حلال وحرام.

ـ وهناك أمور تختص بالدين هي العبادات والروحانيات، وتسمى بغذاء الروح.

ـ ـ هذه القضايا تنقسم الى ثلاثة أنواع من القضايا هي قضايا أخروية وتختص بصلة الانسان بالله والآخرة، وقضايا دنيوية وتختص بصلة الانسان بالدنيا والناس، ومنها ما هو حلال يأمر به الشرع ومنها ما هو حرام.

ـ فهناك نوعان من النصوص الشرعية هي نصوص تتعلق بالقضايا الأخروية وصلة الانسان بالله، ونصوص تتعلق بالقضايا الدنيوية الحلال.

ـ النصوص التي تتعلق بالقضايا الدنيوية الحلال تشمل صلة الانسان بأمور الدنيا وصلة الناس ببعضها، والمقصد من هذه النصوص هو أن يعيش الانسان في صحة وفي أمان ويتوفر له طعام ليعينه مثلما يحتاج المسافر أثناء سفره، ورغم أن هذه النصوص عليها ثواب وعقاب لكنها ليست المقصد الأساسي من خلق الانسان وإنما هي هدف مرحلي لتوفير ما يحتاجه الانسان أثناء سفره الى الآخرة وهي أن يعيش الانسان في صحة وفي أمان فلا يظلم أحدٌ أحدا ويتوفر له طعام ليعينه أثناء سفره.

ـ الشيطان قد يصور للإنسان أن الدين عبارة عن النصوص التي تتعلق بصلة الانسان بأمور الدنيا وصلة الناس ببعضها وأن هذا هو الهدف من الخلق ويريد من الناس أن تنسى الله والاخرة وبالتالي لا تتحقق النصوص التي تتعلق بالله والاخرة فلا يتحقق المقصد الأساسي من الخلق.

ـ الاهتمام بالنصوص التي تتعلق بصلة الانسان بأمور الدنيا هو أمر جيد لكن الأهم منه الاهتمام بتحقيق النصوص التي تتعلق بصلة الانسان بالله والآخرة، والفارق بينهما كالفارق بين السماء والأرض.

ـ كل القضايا المتعلقة بالدنيا ليست بشيء أمام قضية الموت والآخرة ومعرفة الخالق، لأن جميع القضايا المتعلقة بالدنيا تفنى سريعا مع فناء الدنيا، والذين كانت تشغلهم هذه القضايا الدنيوية فكانت شغلهم الشاغل قد ماتوا الآن فأيها يفيدهم الآن، فالذين يعيشون وتنشغل عقولهم طوال حياتهم بقضية الموت والاستعداد له والآخرة وما بها ومعرفة الخالق هؤلاء هم العاقلين وغيرهم لا عقل لهم، وهؤلاء أيضا قد تنشغل عقولهم بمشاغل الحياة ولكنه انشغال عابر مؤقت قليل وهو أيضا انشغال كفرع من أصل، فعليه أن يتغلب على بعض أعباء الحياة ولكنه يتقلل من أعباء الحياة قدر ما يستطيع وينشغل عنها بما هو أخطر.

ـ فإذا كان الشاغل الأكبر هو هموم الدنيا فأنت جاهل لا عقل لك لأنك لم تتصور وتعي حقيقة السعادة وأين تكون، ولم تتصور وتعي حقيقة الخطر الذي أنت واقع فيه والخطر الذي أنت مقبل عليه بعد لحظات وبلا عودة، فأنت في غفلة تامة وغباء تام تضر بنفسك وتهلكها، فالدنيا لا قيمة لها

أمام الآخرة مهما كانت آلامها ومهما كانت لذاتها وتزول سريعا في غمضة عين لمن يعقل كما أن متعها ضئيلة ومحدودة في حد ذاتها.

ـ فالفارق بين القضايا الدنيوية والقضايا الاخروية كالفارق بين السماء والأرض لأنها جميعا بالمقارنة بالآخرة فهي تساوي صفر، وفي الحديث: ((ما الدنيا في الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم أصبعه في اليم فلينظر بم يرجع))[١]، وفي حديث آخر: ((إن مطعم ابن آدم قد ضرب مثلا للدنيا وإن قزحه وملحه فانظر إلى ما يصير))[٢].

ـ وهذا معناه أن التعلق الأساسي للإنسان يجب أن يكون بالآخرة فقط، أما قيامه بأمور الدنيا الحلال على أنه وسيلة ضرورية تعين الانسان أثناء سفره للآخرة.

ـ والعجيب أن الانسان يعلم أن أمور الدنيا لا تستحق أن يعيش لها لكنه يتعلق بها فيكون كالتائه الذي ضل الطريق.

ـ ولاحظ أن قضايا الدنيا الحلال كعمارة الأرض واتقان العمل للكسب والتقدم العلمي والتكنولوجي والأخلاق والمعاملات الحسنة والعمل من أجل سعادة البشر هو أمر مشترك بين جميع الناس سواء كانوا مسلمين أو غير مسلمين لأنه مطلوب للجميع ليعيش الناس في سعادة وهناء، لذلك ينادي به الجميع، ولكن المشكلة أن البعض يتعمدون حصر الدين في هذه الأمور فينشغلوا بذلك عن أصل الدين.

ـ فأصل الدين هو التعلق بالغيبيات، فإذا رفعنا التعلق بالغيبيات أصبح الدين شكلا لا معنى له، ولا فارق بين المسلمين عندئذ وغيرهم إلا في الانتساب للدين والقيام ببعض أعمال الدين، وقد يكونوا مشتركين في اليقين بالخالق والاخرة ولكنه عندئذ يقين كاذب، والقيام ببعض أعمال الدين قد يكون تكلفا أو رياءً أو تعودا أو يريد بها ثواب الله له في الدنيا فقط أو من تأثره الضعيف الذي لا يصل الى التعلق بالآخرة.

---

(١) قال الشيخ الألباني: صحيح (سنن ابن ماجة ج: ٢، ص: ١٣٧٦، برقم: ٤١٠٨)

(٢) تحقيق الألباني: حسن (صحيح الجامع برقم ٢١٩٥)

ـ ويمكن تقسيم الناس من ناحية تعلق القلب والجوارح إلى ستة أصناف كالتالي:

ـ يمكن تقسيم الناس حسب أودية الدنيا الواردة في الحديث: ((من جعل الهم هما واحدا كفاه الله هم دنياه ومن تشعبته الهموم لم يبال الله في أي أودية الدنيا هلك))(١)، فكل واحد يسير في واد من أودية الدنيا تكون همه وقضيته بينما المؤمن همه وقضيته الآخرة، وهذه الأصناف كالتالي :

١ـ صنف من الناس عقولهم مبنية على المال والحصول عليه فلا يفكرون إلا في ذلك ولا ينشغل همهم إلا بذلك ولا يسعون إلا لذلك ولا يرغبون إلا في ذلك.

٢ـ صنف من الناس عقولهم مبنية على شهوات النساء فلا يفكرون إلا في ذلك ولا ينشغل همهم إلا بذلك ولا يسعون إلا لذلك ولا يرغبون إلا في ذلك.

٣ـ صنف من الناس عقولهم مبنية على المظاهر والمناصب والألقاب والشهادات العلمية والحصول على ذلك، فلا يفكرون إلا في ذلك ولا ينشغل همهم إلا بذلك ولا يسعون إلا لذلك ولا يرغبون إلا في ذلك.

٤ـ صنف من الناس عقولهم مبنية على مشاغل الحياة وهمومها وأعمالها مثل تدبير ما يحتاجه الأولاد والزوجة لتصبح قضيتهم، فلا يفكرون إلا في ذلك ولا ينشغل همهم إلا بذلك ولا يسعون إلا لذلك ولا يرغبون إلا في ذلك.

٥ـ صنف من الناس عقولهم مبنية على كل شهوات الدنيا ومشاغلها أو بعضا من ذلك، فلا يفكرون إلا فيها ولا ينشغل همهم إلا بها ولا يسعون إلا لها ولا يرغبون إلا فيها مع التفاوت، فمنهم من يكون أكبر تفكيره في المال ثم المظاهر ثم شهوات النساء مثلا وغير ذلك، فإن مجموع المحاب أكبر من حب الله، ومجموع المخاوف أكبر من الخوف من الله، ومجموع الهموم أكبر من انشغاله بلقاء الله والآخرة، فمثل هذا الرجل هو يعيش

---

(١) حديث حسن (صحيح الترغيب والترهيب ج: ٣، برقم: ٣١٧٠)

من أجل الدنيا وغايته الدنيا رغم أنه قد يكون مقتنعا تماما بأنه يعيش لله وغايته الله!

٦ـ صنف من الناس عقولهم مبنية على الآخرة ولقاء الله ومعرفته، ليست الدنيا كل همهم فرغم انشغال همهم بالدنيا إلا أن همهم الأكبر الدائم منشغل بالله والآخرة، فتعلق مشاعرهم وجوارحهم هو بالحالق والآخرة، وهؤلاء هم أهل جنات النعيم وغيرهم يعبدون أهواءهم: ((أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ))(١).

ـ التعلق بأمور الدنيا الحلال والتي يأمر بها الشرع هو تعلق بالدنيا:

ـ أصل معنى الدين أن هناك صلة بين البشر والخالق، ونحن خلقنا من أجل تحقيق هذه الصلة، وأن تكون تعلقا وليس مجرد صلة، وإذا لم تكن هذه الصلة موجودة فلا معنى لشيء اسمه دين، أما صلة الانسان بأمور الدنيا وصلة الناس ببعضها فليست هي الأصل الذي خلقنا من أجله، وهي أمور عليها ثواب وعقاب لكونها وسيلة لابد منها تعين الانسان أثناء سفره إلى الآخرة.

ـ هناك هدف مشترك بين جميع الناس سواء كانوا أهل دين أو أهل دنيا وهو أنهم يريدون أن يعيشوا في سعادة وسلام وصحة وأمان وحرية ولا يظلم أحدٌ أحدا ويتوفر لهم طعام ومسكن ووسائل معينة لهم على المعيشة، لذلك فأهل الدنيا وأهل الدين يطالبان بنفس هذه الاعمال.

ـ والفارق هو أن هذا الهدف عند أهل الدنيا هو هدفهم الأساسي الذي لا هدف لهم غيره، أما أهل الدين فهذا هو مجرد هدف مرحلي ليستعينوا به أثناء سفرهم الى الآخرة، أما هدفهم الأساسي هو تحقيق الصلة بينهم وبين الخالق سبحانه.

(١) الجاثية: ٢٣

ـ الفرق بين التعلق بأسباب الرزق وأسباب السعادة في الدنيا والاخذ بالأسباب:

ـ الشرع أمرنا بأعمال الدنيا الحلال لكي نعملها وليس لكي نتعلق بها، فيجب عليك أن تسعى للرزق وتربي أولادك وتعمر الأرض وليس أن تتعلق بأسباب الرزق أو تربية الأولاد او تعمير الأرض، فمن تعلق بذلك فهو يتعلق بالدنيا وبالتالي لا يتعلق بالله والاخرة.

ـ التعلق بأسباب الرزق معناه أنه يتأله أسباب الرزق (ينظر إليها نظرة تعظيم فيعتبرها أهم شيء في حياته) وتتعلق بها مشاعره فتكون محبوبه الأعظم ورجاءه وخوفه الأكبر، وتكون همه الأكبر الدائم الذي لا يفارق ذهنه، ويلهث بجوارحه ليلا ونهارا للأخذ بالأسباب، وهو بذلك يجعل هدفه الذي يعيش له هو التغلب على أعباء الحياة ومشاكلها اليومية والتغلب على ما عنده من مشاكل وصراعات دنيوية والخروج من الفقر أو نقص المال وغير ذلك، فيجعل قضيته في الحياة توفير لقمة العيش كأن الله خلقه لذلك: ((وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (٥٦) مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ (٥٧) إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ))(١).

ـ وهناك فرق بين تعلق الجوارح وعمل الجوارح، فتعلق الجوارح بأسباب الرزق معناه أن سلوكه وتصرفاته وانفعالاته وعمله وأكثر وقته دائما منشغل بتحصيل لقمة العيش وتوفير متطلبات المعيشة، من طعام وشراب وأن يعيش بصحة ويجد مكان آمن يعيش فيه والانفاق على أسرته وغير ذلك مما يريده من أمر الدنيا للمعيشة.

ـ أما الاخذ بأسباب الرزق فمعناه أن يمشي بجوارحه في طلب الرزق وليس يلهث وراءه ليلا ونهارا، فلا ينظر إليه نظرة تعظيم ولا ينشغل همه به ولا تتأثر مشاعره به ولا تتعلق جوارحه به فلا يكون ذلك هدفه من حياته وإنما أخذه بالأسباب هو لمجرد أنه مطالب بذلك.

---

(١) الذاريات: ٥٦ ـ ٥٨

ـ وإذا وضعت مقارنه بين نظرته لأسباب الرزق وتأثر مشاعره وهمه وجوارحه به وبين نظرته لخطورة الاخرة ولقاء الله وتأثر مشاعره وهمه وجوارحه بذلك تجد الفارق بينهما كالفارق بين السماء والأرض.

ـ الفرق بين التعلق بالمعصية والوقوع في المعصية:

ـ التعلق بالمعصية معناه أنه يراها أعظم ما يكون وتتعلق بها مشاعره وهمومه وجوارحه، وبالتالي فهو لا يتعلق بالله والاخرة.

ـ فالارتباط بالمعصية يزيد حتى تصبح من الكبائر، ثم يزيد الارتباط حتى يصبح تعلقا، حيث تصبح ران يحيط بالقلب، ففي الحديث: ((إِنِ الْمُؤْمِنَ إِذَا أَذْنَبَ كَانَتْ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ فِي قَلْبِهِ فَإِنْ تَابَ وَاسْتَغْفَرَ صُقِلَ قَلْبُهُ وَإِنْ زَادَ زَادَتْ حَتَّى تَعْلُوَ قَلْبَهُ فَذَلِكُمُ الرَّانُ الَّذِي ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى {كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يكسِبونَ})) [١]، وقال الحسن: ((هو الذنب على الذنب حتى يعمي القلب)) [٢].

(١) رَوَاهُ أَحْمَدُ وَالتِّرْمِذِيُّ وَابْنُ مَاجَهْ وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيح
(٢) تهذيب الداء والدواء (ص: ٦٣)

الفصل الحادي عشر
الحياة من أجل المال والدنيا من الغباء

الناس صنفين عاقلين وأغبياء، العاقلين هم الذين اختاروا رضا ربهم وجنته، والأغبياء هم الذين تجاهلوا الخالق والاخرة واختاروا أن يعيشوا للدنيا وتعلقوا بها فخسروا سعادة أنفسهم في الدنيا والاخرة: ((وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ))[١].

ـ هدف الانسان هو ما يتعلق به وليس ما هو مقتنع بأنه هدفه، فقد يحسب أن هدفه رضا الله والجنة وهو متعلق بالدنيا، فحقيقة هدفه عندئذ هو الدنيا.

ـ فإذا كان هدف الانسان هو المال والدنيا فهذا من الغباء لأنه يضر نفسه ويحسب أن ذلك خيرا له، ونوضح ذلك كالتالي:

ـ الحياة من أجل الدنيا جهد ضائع وعمر ضائع:

ـ الانسان إما أن يكون هدفه الذي يعيش له هو رضا الله والجنة أو هدفه المال أو الشهوات أو التغلب على عقبات الحياة وغير ذلك، وفي الحالتين هو يبذل مجهودا كبيرا ليحقق هدفه بنجاح.

ـ الذي يعمل للدنيا يتعب ويكد طول عمره ثم هو في النهاية يكون تعبه وكده هباءً منثورًا.

ـ فحال الذي يعيش من أجل أمور الدنيا مثل حال الطالب الذي يذاكر مادة الكيمياء مثلًا رغم أن الامتحان الذي سوف يمتحنه في مادة التاريخ (مثلًا) فهل ينفعه ما اجتهد؟

ـ حقيقة لذات الدنيا أنها تساوي صفرا ولكن الناس تراها على غير حقيقتها وسوف يعلمون حقيقتها عندما يقفون على أرض المحشر، وبالتالي

---

(١) يونس: ١٠٠

فالسعي لتحصيلها تعب ونصب بدون مقابل، وفي الحديث: ((كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بذي الحليفة فإذا هو بشاة ميتة شائلة برجلها، فقال: أترون هذه هينة على صاحبها، فوالذي نفسي بيده للدنيا أهون على الله من هذه على صاحبها، ولو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ما سقى كافرًا منها قطرة أبدًا))(١).

ـ الحياة من أجل التغلب على أعباء الحياة جهد ضائع وعمر ضائع:

ـ لأن الرزق مضمون، وفي الحديث: ((إن الرزق ليطلب العبد أكثر مما يطلبه أجله))(٢)، وقَالَ ابْنُ عَطَاءٍ: ((اجْتِهَادُك فِيمَا ضُمِنَ لَك وَتَقْصِيرُك فِيمَا طُلِبَ مِنْك دَلِيلٌ عَلَى انْطِمَاسِ بَصِيرَتِك))(٣)، وقيل لحاتم الأصم: «عَلَامَ بنَيْتَ أمْرَك؟»، فقال: ((على التوكل، ثم قال: بنَيْتُ أمري على أربع خصال: علمتُ أن رزقي لا يأكلُه غيري؛ فاطمأنَّتْ نفسي، وعلمتُ أنّ عملي لا يعملُه غيري؛ فلم أشتغل لغيره، وعلمتُ أنّ الموت يأتيني بغتةً؛ فأنا أبادِرُه، وعلِمْتُ أني لا أخلو من عين الله ـ عز وجل ـ حيث ما كنت؛ فأنا مُستحْيِي منه))(٤).

ـ النظر الى الدنيا نظرة تعظيم والتعلق بها من الغباء:

ـ حقيقة الدنيا أنها طين، فالظالم الذي اخذ مالا من المظلوم إنما هو جاهل وغبي لأنه أضر بنفسه وانما هو أخذ طينا الى زوال وأضر بنفسه يوم الحساب، والمظلوم الحزين على ضياع حقه هو أيضا جاهل وغبي لأنه ما ضاع منه غير قدر من الطين الى زوال.

ـ وكذلك فالنظر الى الغني نظرة تعظيم فهو جاهل وغبي لأن ما معه انما هو طين، والذي ينظر الى الفقير نظرة احتقار فهو جاهل وغبي لأن ما ليس معه إنما هو طين.

---

(١) تحقيق الألباني: صحيح (الصحيحة: ٦٨٦ ، ٢٤٨٢)
(٢) تحقيق الألباني (حسن) انظر حديث رقم: ١٦٣٠ في صحيح الجامع
(٣) بريقة محمودية في شرح طريقة محمدية وشريعة نبوية في سيرة أحمدية (٣/ ٨٧)
(٤) دليل الواعظ إلى أدلة المواعظ (٢/ ٦٠٥) الناشر: دار الخلفاء الراشدين (الإسكندرية)

ـ لذلك فالذي يتعلق بالدنيا للحصول عليها انما هو جاهل وغبي لأنه يسعى للخصول على طين كما أنه يضر نفسه لأنه يورد نفسه موارد الهلاك، فهو لا يعرف مصلحة نفسه ففي تفسير تذكرة الأريب في تفسير الغريب: (({فأنساهم أنفسهم} أي حظوظ أنفسهم))[١].

ـ من كان يعيش للمال لينال متع الدنيا الفانية أضاع على نفسه متع الجنة الهائلة:

ـ كل الناس يريدون الشهوات واللذات وتحقيق السعادة وتجنب المضار والآلام، وهم في ذلك صنفين هما:

ـ الصنف الأول يرى السعادة في شهوات الدنيا ولذاتها وتجنب مشاكل الدنيا وآلامها فيكون تفكيره في شهوات الدنيا وهمه في الحصول عليها، وهؤلاء كل خوفهم ورجائهم في الدنيا رغم أنهم قد يوقنون بأن السعادة ليست في المال وإنما في رضا الله ودخول الجنة!!!

ـ الصنف الثاني يرى السعادة في شهوات الجنة ولذاتها وتجنب عذاب النار وآلامها فيكون تفكيره في شهوات الجنة والحور العين وهمه في الحصول عليها، وهؤلاء هم المؤمنون، وهؤلاء هم العاقلين الذين يصبرون أنفسهم عن شهوات الدنيا القليلة ليتمتعوا بالنعيم الأبدي في الآخرة، والدنيا في نظرهم ما هي إلا صبر ساعة، وهؤلاء خوفهم ورجاؤهم في الله تعالى.

ـ فكل الناس يحبون الشهوات ويحبون النظر إلى العورات، فمنهم من يرى ذلك في الدنيا فيحبون شهوات الدنيا ويحبون النظر إلى نساء الطين وذلك لأنهم لا يعرفون الجنة معرفة حقيقية، ومنهم من يرى ذلك في الجنة فيحبون شهوات الجنة ويتصورون في عقولهم الحور العين وجمالهن ويشتاقون لهن ويعدون المهر الذي يصلون به إلى الحور العين بالإيمان والتقوى، وهؤلاء هم العقلاء الذين يعرفون الجنة معرفة حقيقية.

---

(١) تفسير الغريب (ص: ٣٩٨)

ـ وكذلك فالإنسان يحب متع النساء والخمور والقصور ويعيش لذلك، فمن الناس من يرى أن هذه المتع في الدنيا فيعيش لها، ومنهم مَن يرى أن هذه المتع في الجنة فيعيش لها وقلبه يشتاق إلى نساء الحور العين وجمالهن ولذة الخمور وفخامة القصور.

ـ فالذي يبحث عن شهوة النساء الفاتنات لا يجب أن يبحث عنها في الدنيا وإنما يبحث عنها في الجنة، والذي يتطلع إلى مسكن فاره أو قصر مشيد يتطلع إلى ذلك في الجنة، والذي يتطلع إلى أن يشرب الخمور ويرقص مع النساء يتطلع إلى ذلك في الجنة، وهكذا.

ـ لماذا تؤمل في متع من الدنيا ضئيلة وتنتظرها وتفكر فيها في حين أنك قريبا جدًا تصل إلى متع بلا نهاية بلا حدود، فالجنة بعد لحظات ولكنك لا تدري، فما سنوات العمر إلا لحظات، فابقَ كما أنت تؤمل في متع وملذات ولكن في متع وملذات الجنة، وفي الحديث عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ: ((مَرَّ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم وَنَحْنُ نُعَالِجُ خُصًّا لَنَا فَقَالَ: مَا هَذَا؟، فَقُلْتُ خُصٌّ لَنَا وَهَى نَحْنُ نُصْلِحُهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: مَا أُرَى الأمر إلا أَعْجَلَ مِنْ ذَلِكَ))(١).

ـ تضييع الوقت وشغله بالتسلية وأمور الدنيا من الغباء لأنه يسرق عمر الانسان:

ـ قد تكون قضية الانسان هي كيف يمر الوقت وبماذا يشغله؟، وقد يظل منشغلًا بالمال والأولاد وجمع الدنيا، وتظل الدنيا تسرق منه عمره وهمه ومشاعره وأهدافه ثم يُفاجأ بلحظة يذهب فيها للقاء الله تعالى لم يكن قد حمل لها همًا أو تفكر فيها واستعدت لها نفسه، وفي تفسير البحر المديد: (({ألهاكم التكاثر} بالأموال والأولاد، حتى متُّم وقُبرتم مضيعين أعماركم في طلب الدنيا، معرضين عما يهمكم من السعي للآخرة، فيكون زيارة القبور عبارة عن الموت، قال عبد الله بن الشِّخِّير: قرأ النبي صلى الله عليه وسلم {ألهاكم التكاثر} فقال: " يقول ابن آدم: مالي، وليس له من

(١) أبو داود في الأدب (٥٢٣٦) والترمذي في الزهد (٢٣٣٦)، وقال الترمذي: حديث حسن صحيح

ماله إلا ثلاث، ما أكل فأفنى، أو لبس فأبلى، أو تَصَدَّق فأبقى " وما سوى ذلك فهو ذاهب وتاركه للناس))[١].

ـ التعلق بالدنيا من الغباء لأن ما يحتاجه الانسان من الدنيا ضئيل:

ـ الفرق بين الغني والفقير هو في حقيقته فرق بسيط؛ فالغني لا ينتفع إلا بالقليل من ماله، وهو ما يسد حاجته، وما زاد عن ذلك فليس له وإن كان يملكه، فلو نظرنا إلى أغنى رجل في العالم نجد أنه لا يستطيع أن يأكل من الطعام أكثر مما يأكل متوسط الحال أو الفقير؛ بل ربما كان الفقير أكثر منه!!

ـ وبعبارة أخرى هل يستطيع الغني أن يشتري مائة وجبة فيأكلها في آن واحد، أو مائة ثوب فيلبسها في آن واحد؛ أو ألف مركبة فيركبها في آن واحد؛ أو مائة دار فيسكنها في وقت واحد؟! كلا؛ بل له من الطعام في اليوم ثلاث وجبات تزيد قليلًا أو تنقص، وله من اللباس ثلاث قطع تزيد قليلًا أو تنقص، ولا يستهلك من الأرض في وقت واحد إلا مترا في مترين سواء كان قائما أم قاعدا أم مضطجعًا، فعلامَ يحسد وهو سيحاسب على كل ما يملك؟!

ـ والجاهل لا يفكر إلا في قيمة المال في الدنيا ولا يفكر في ضآلة المدة التي ينتفع بها بالمال وزواله سريعًا وعدم نفعه في الآخرة وأن ما يزيد عن طعام يسد جوفه وملبس يستره ومكان ينام فيه لا يحتاج إليه، فالسعادة المادية في الدنيا ضئيلة وتتحقق بثلاثة أشياء هي ما جاء في الحديث : ((من أصبح منكم آمنا في سربه معافى في جسده عنده قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها))[٢]، فالإنسان لا يحتاج من الدنيا سوى إلى ثلاثة أمور هي: مكان ينام فيه ولقمة يأكلها وأن يكون غير مصاب بالأمراض التي تعيقه عن أن يعيش سويا، وفي الحديث: ((إنما يكفي أحدكم ما كان في الدنيا مثل زاد الراكب))[٣]، وعن لقمان بن عامر أن

---

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد (٧/ ٣٤٧)
(٢) تحقيق الألباني: حسن (انظر حديث رقم: ٦٠٤٢ في صحيح الجامع)
(٣) تحقيق الألباني: صحيح (انظر حديث رقم: ٢٣٨٤ في صحيح الجامع)

أبا الدرداء قال: ((أهل الأموال يأكلون ونأكل ويشربون ونشرب ويلبسون ونلبس ويركبون ونركب لهم فضول أموال ينظرون إليها[١] وننظر اليها معهم عليهم حسابها ونحن منها براء))[٢].

ـ وقد يظل الإنسان منشغلًا بالمال والأولاد وجمع الدنيا، وتظل الدنيا تسرق منه عمره وهمه ومشاعره وأهدافه ثم يُفاجأ بلحظة يذهب فيها للقاء الله تعالى لم يكن قد حمل لها همًا أو تفكر فيها واستعدت لها نفسه، وفي الحديث: ((عن مطرف عن أبيه قال: أتيت النبي صلى الله عليه وسلم وهو يقرأ (ألهاكم التكاثر) قال: يقول ابن آدم مالي مالي، قال: وهل لك يا ابن آدم إلا ما أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت، أو تصدقت فأمضيت؟))[٣].

ـ أمران يشغلان الناس طوال حياتهم إلى أن يموتوا هما المال والأولاد، وقد يؤدي ذلك إلى درجة التعلق بهما وبالتالي عدم التعلق بالله والاخرة، وفي التفسير الوسيط: (({أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ} في الأموال والأولاد عن الطاعة {حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ} أي: حَتَّى يَأْتِيكُمُ المَوتُ))[٤]، ((يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ))[٥].

ـ ومتعة الطعام والشراب محدودة ومتعة النساء محدودة، كما أن المتعة بين النساء متشابهة ففي الحديث: ((إن المرأة إذا أقبلت أقبلت في صورة شيطان فإذا رأى أحدكم امرأة فأعجبته فليأت أهله فإن الذي معها مثل الذي معها))[٦]، إذن فمحل الوطء والإصابة متساوٍ بين النساء كلِّهن لذلك فالعاقل لا ينخدع بظاهر المرأة.

ـ ومما يساعد على تذكر حقيقة الدنيا تأمل أصحاب الثروات بعد أن ماتوا ماذا أخذوا معهم؟

---

(١) يريد أنهم لا ينتفعون بها وإنما يقتصرون على النظر إليها، وليس في النظر نفع على الحقيقة
(٢) تقريب كتاب الزهد والرقائق (ص: ٩٥)
(٣) التخريج: صحيح (مشكاة المصابيح ج: ٣، برقم: ٥١٦٩).
(٤) التفسير الوسيط ـ مجمع البحوث (١٠/ ٢٠٠٦)
(٥) المنافقون: ٩.
(٦) تحقيق الألباني: صحيح (انظر حديث رقم: ١٩٣٩ في صحيح الجامع)

ـ الدنيا عبارة عن لعب ولهو والانسان إما أن يختار الخالق والاخرة أو اللعب واللهو:

ـ إذا قارنا الدنيا بالآخرة فالدنيا لعب ولهو مثل لعب ولهو الأطفال؛ لأنها حياة قصيرة جدًا وتافهة جدًا، بل إنها ليست بحياة أصلًا: ((وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إلا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الآخرة لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ))(١)، ((وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ))(٢)، ((إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ))(٣)، ((اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ))(٤)، واللعب واللهو هو الشيء الذي ليس له قيمة فلا ينفع ولا يضر وليس له أهمية ولا يهتم الإنسان به ولا يكترث به، وبالتالي لا يتأثر به الذهن ولا المشاعر.

ـ لو كانت قيمة الدنيا أكبر من صفر ولو بذرة واحدة لمنع الله الكافر من الحصول على أي شيء من الدنيا ولو حتى شربة ماء لن يأخذها، ولكن لأن الدنيا لا تساوي شيئًا فالذي معه من الدنيا مثل الذي ليس معه شيء، فإن الله يعطي للجميع، ففي الحديث: ((كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بذي الحليفة فإذا هو بشاة ميتة شائلة برجلها، فقال: أترون هذه هينة على صاحبها، فوالذي نفسي بيده للدنيا أهون على الله من هذه على صاحبها، ولو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ما سقى كافرًا منها قطرة أبدًا))(٥).

ـ فالدنيا أشبه بحلم في المنام ثم يفيق منه الإنسان، ففي إحياء علوم الدين ((عن يونس بن عبيد، قال: ما شبهت الدنيا إلا كرجل نام فرأى في منامه ما يكره وما يحب، فبينما هو كذلك إذ انتبه... قيل لبعض الحكماء: أي شيء أشبه بالدنيا؟ قال: «أحلام النائم»))(٦)، وفي إحياء علوم الدين

(١) العنكبوت: ٦٤
(٢) الأنعام: ٣٢
(٣) محمد: ٣٦
(٤) الحديد: ٢٠
(٥) تحقيق الألباني: صحيح (الصحيحة: ٦٨٦ ، ٢٤٨٢)
(٦) إحياء علوم الدين (٣/ ٢١٤)

أيضًا: ((وكتب رجل إلى أخ له: أما بعد، فإن الدنيا حلم والآخرة يقظة والمتوسط بينهما الموت ونحن في أضغاث أحلام والسلام))[١].

ـ تقليد الناس والتعلق بهم من الغباء:

ـ عندما يرى الانسان أن كثيرا ممن حوله من الناس يتنافسون على المال سواء من حلال أو حرام فيبرر لنفسه أنه طالما ان الناس يتنافسون على المال فذلك هو الصواب، ويبرر لنفسه أن المال يستحق أن تعيش له.فيتعلق بالمال: ((وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ))[٢]، فالمال هو أهم اختبار للإنسان خاصة في هذا الزمان هل يرى فيه السعادة فيجعله هدفه الذي يعيش له أم يرى السعادة في الجنة فيجعلها هدفه، ففي الحديث: ((لكل أمة فتنة وإن فتنة أمتي المال))[٣].

ـ الفائز هو من عاش لله، والخاسر من عاش لنفسه، وأخسر منه من عاش لغيره، فمثلا قد يعيش الانسان من أجل أولاده ويشقي نفسه من أجلهم، فهو يحرم نفسه من الدنيا ويخسر الاخرة، فهو يعيش كل حياته من أجل أن يمد زوجته وأولاده بكل ما يحتاجونه فيكون موردًا ماليًا فقط، ويكون ذلك أكبر سعادة له ثم يكتشف في النهاية أنه كان يحصد الهواء، ويموت ويترك أولاده يتنعمون بما ترك لهم وهم لا يقيمون له وزنًا في أنفسهم سواء في حياته أو بعد موته.

ـ ولاحظ أن هناك فرق بين الاهتمام بالزوجة والأولاد وبين التعلق بهم، فالتعلق بهم معناه أنه جعلهم قضيته التي يعيش لها فلا هم له غيرهم (انظر بالفصل العاشر).

ـ وقد يجعل الانسان قضيته في الحياة أن يعمل مثلما يعمل الناس، ويبتعد عما يغضبهم خشية كلام الناس، وفي الحديث: ((من أرضى الناس بسخط

(١) إحياء علوم الدين (٤/ ٤٥٥)
(٢) الزخرف: ٢٣
(٣) قال الشيخ الالباني: صحيح – السلسلة الصحيحة (٢٢١٦)

الله وكله الله إلى الناس ومن أسخط الناس برضا الله كفاه الله مؤنة الناس))[١].

ـ وأبو طالب رفض أن يقول الشهادتين خشية أن تعيره قريش فقال للنبي صلى الله عليه وسلم: ((لولا أن تعيرني قريش - يقولون: إن ما حمله على ذلك الجزع - لأقررت بها عينك!))[٢].

ـ تعلق الناس بالدنيا من الغباء لأنهم بذلك يضرون أنفسهم بأنفسهم:

ـ إذا تنافس الناس على الدنيا وكان كل واحد حريص على الدنيا ولو على حساب الاخرين، فهذا يؤدي إلى أن يعم الضرر على الجميع.

ـ وعلى عكس ما يتصور البعض فلن يعيش الناس حياتهم في سعادة حتى تتغير نظرة الناس إلى الدنيا فيرونها على حقيقتها الضئيلة فيتعلقون بالآخرة ولا يتعلقون بالدنيا، فهم عندئذ ينظرون إلى حقيقة المال والدنيا والشهوات وحقيقة مشاكل الدنيا بالمقارنة بمشكلة الآخرة، وعندئذ لن تكون هناك سرقات ومشاكل... إلخ، بل إن مفهوم المشكلة سوف يتغير فلن تكون مشاكل الحياة هي المشاكل التي يعاني منها الناس وإنما سوف تكون مشكلة الناس الوحيدة هي النجاة من النار ودخول الجنة، ولن تمثل مشاكل الحياة شيء؛ لأنها في نظرهم عابرة وهم عابري سبيل، بل إن عدم انشغال الهم بالمشاكل الدنيوية وأعباءها وعدم التعلق بها هو في حد ذاته راحة وسعادة نفسية، كما أن كل مخاوف الدنيا لن تؤثر عليه وتحزنه عندئذ لأنه لا يخاف إلا من الله تعالى، والرضا بجميع ما يحدث له لكونه قضاء الله وقدره فيه راحة وسعادة.

ـ والأصل أن الإنسان لا يملك شيئًا والله هو المالك لكل شيء، والأصل أن الانسان ليس له حق على الله فلا يستحق شيئًا، وبالتالي إذا لم يجد غير لقمة صغيرة لا تسد جوفه فإنه يكون سعيدًا مسرورًا بها؛ لأن الأصل أنه لا يمتلك شيئًا، فما عنده من عين وأنف وما عنده من مال وزوجة

---

(١) التخريج: صحيح (شرح الطحاوية ٢٧٨، الصحيحة ٢٣١١)
(٢) أحكام الجنائز (١/ ٩٥) - الناشر: المكتب الإسلامي

وأولاد وكل شيء هو ملك لله وهو عطاء من الله للإنسان، وبالتالي يشعر الإنسان بالسعادة والراحة ولو كان في أشد الأزمات والمحن لأنه أصلًا لم يكن مالكًا لأي شيء افتقده.

ـ فالمشكلة الحقيقية ليست اقتصادية ولا اجتماعية ولا سياسية ولا غير ذلك وإنما المشكلة هي في عقول وقلوب الناس وهي أن يعيش الإنسان لله بهمومه ومشاعره وأهدافه، أما مشاكل الدنيا فهينة وزائلة بزوال الدنيا، وما الدنيا إلا أيام قليلة نعيشها كيفما اتفق، فلن تزول مشاكل المجتمع إلا إذا تغيرت العقول والقلوب: ((إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ))[١]، ((أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ))[٢]، ((وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ))[٣]، فحب الدنيا وتعلق المشاعر والهموم بها إذا خرج من العقول والقلوب فسوف يختفي التنافس على الدنيا وبالتالي تختفي المشاكل؛ لأن كل المشاكل تأتي من التنافس على الدنيا، كما يكون عند الناس عندئذ الرضا والقناعة؛ لأنهم علموا أن أقل شيء عندهم هو نعمة عظيمة من الله عليهم فيحمدوا الله تعالى، كما أن مفهوم السعادة سوف يتغير فلا تكون السعادة عندهم في المال والدنيا وإنما تكون السعادة عندهم في رضا الله ودخول الجنة، أما إذا لم تكن الآخرة لها وجود حقيقي في هم الإنسان ومشاعره فإنه لن يسامح أحدًا؛ لأنه لا يشعر بأن هناك جزاءً على ما يفعل، وسيعيش حياته يحصل أكبر ما يستطيع من المتع والمال ولو من غيره من الناس، ويكون حريصًا على عمره؛ لأن ما في حقيقة مشاعره أنه إذا مات فلن يجد شيئًا وأن الحياة هنا فقط ولا حياة أخرى فيجتهد أن يحصل كل ما يستطيع قبل أن ينتهي كل شيء فتكون السرقات وكل أنواع الظلم ويعيش الناس كالوحوش في الغابة؛ القوي يأكل الضعيف، والناس عندئذ هم في الحقيقة يتعبون أنفسهم بأنفسهم، وهم في الحقيقة يسرقون أموال بعضهم بعضًا ويرتشي بعضهم من بعض ويصنعون المتاعب لأنفسهم ويستمدون

---

(١) الرعد: ١١
(٢) آل عمران: ١٦٥
(٣) الأعراف: ٩٦

السعادة من أمور يخترعونها ويصنعون تعقيدات للحياة بدون داعٍ وهكذا، ويتكون مجتمع من المنافقين يتحدثون فيما بينهم بمعسول الكلام وقلوبهم حاقدة بعضهم على بعض، والقضية أنه لن ينصلح حال المجتمع إلا إذا انصلحت ضمائر الناس فيكون الوازع الداخلي الذي يجعلهم يتركون الشر والفساد هو من خشية الله، فإذا لم يتحقق ذلك فمهما صنعت من القوانين فلن يجدي، ومهما وضعت من الأجهزة الرقابية فستأخذ الرشاوى وستحتاج إلى أجهزة أخرى تراقب عليها وهي بدورها ستحتاج إلى من يراقبها وهكذا، فلابد أن يكون الأصل أن الناس تترك الشر والفساد خوفًا من الله وليس خوفًا من القانون وهذا هو الذي ينفعهم في الدنيا والآخرة.

ـ فإذا كان الإنسان مغرورًا بالدنيا فهو لا يريد أن يفرط فيها؛ لأنها كبيرة عنده فيريد أن يأخذ ما عند الناس ويظلمهم ويأخذ حقوقهم ويكره الخير لهم، أما عندما يعقل الإنسان حقيقة الدنيا وضآلتها فإنه لا يبالي بها فيعطي مما عنده من الدنيا والمال للفقراء؛ لأنهم مثله ضعفاء فقراء أمام الله وما يعطيهم من مال ليس ماله وإنما يعطيهم من مال الله.

ـ فلابد أن يتغير مفهوم المشكلة، فالسعادة ليست في حل المشاكل الدنيوية ولكن السعادة هي في الجنة، ولو أن جميع مشاكل المجتمع الدنيوية تم حلها فلن يصل الناس إلى تحقيق السعادة الحقيقية؛ لأن الدنيا ليست مؤهلة لتكون دارًا للسعادة، فالله حكم أنها دار شقاء وتعب وليست دار سعادة: ((لَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان فِي كَبَدٍ))[١]، ولكن هناك من لا يزال يتسابق في جمع الدنيا من الأموال والأولاد والمناصب والشهوات، فهو كمن يخبط رأسه في الحائط؛ لأنه لن يجني شيء، كما أنه كلما تم حل مشاكل تستجد مشاكل أخرى، وكلما حقق الإنسان طموحًا يستجد طموحًا آخر ويموت الإنسان وعنده طول أمل ولم يحقق السعادة!!.

ـ فعدم الشعور بالغيبيات عند أفراد المجتمع أو أكثرهم يؤدي إلى توجه المجتمع تجاه الدنيا والمادة والشهوات، وتصبح القضايا العامة التي تهم

(١) البلد: ٤

الناس هي كيف يعيشوا حياتهم الدنيوية ويتمتعوا بها من التنافس على المال والشهوات والمظاهر والتلهي بهموم الحياة والطعام والشراب... إلخ، وتصبح المشاكل والهموم التي تشغل الناس كلها أمور دنيوية وكأن الآخرة ليست مشكلة ولا يحمل أحد لها همًا، وكأن الموت ليس بمشكلة، وكأنه ليس أحدًا مهيبًا في السماء يهيمن على كل شيء، وكأن الغيبيات لا تمثل أي مشكلة، وعندئذ يكون رأي الإنسان ومزاجه وهواه وما يشتهيه هو المقياس الذي تقوم عليه الحياة.

الفصل الثاني عشر
مفهوم التعلق بالله (تعظيم الله ـ الخضوع لله)

ـ التعلق بالله يسمى بالخضوع بالنظر الى الانسان لأنه ترك تعلقه بنفسه وتعلق بغيره، ويسمى بالتعظيم بالنظر الى الخالق لأنه تعلق به تاركا تعلقه بنفسه من أجل الله تعالى، فالتعلق بالله والخضوع والتعظيم كلها شيء واحد.

ـ كيف ينشأ التعلق بالله:

ـ الإنسان يتأثر بالأمر بحسب مدى خطورته، فإذا كان الأمر لا خطر فيه فلا تأثر به، وإذا كانت خطورته ضئيلة فالتأثر به يكون ضئيلا، وإذا كان الأمر خطيرا فلابد أن يكون التأثر كبيرا، وإذا كانت خطورته هائلة جدا كان التأثر به شديدا جدا.

ـ فإذا كان الامر خطيرا جدا ولم يتأثر به الانسان فهذا معناه أنه لا يعرفه أو معرفته به كاذبة، وحيث أن قدرة الله وصفاته تصل الى الكمال فالإنسان يتأثر به ويتعلق به بكمال التعلق لدرجة أنه يعيش له تعظيما له وهذا هو أصل العبادة.

ـ الضعيف ينبهر بعظمة القوي فيظهر اعجابه وحبه لعظمته ويخافه ويرجوه، فالإنسان إذا دخل على ملك من الملوك فإنه ينحني له تعظيما له، فإذا وصلت قوة القوي إلى الكمال لدرجة أن يكون الضعيف نفسه جزء من ممتلكات القوي وهو الذي صنعه وما عنده من نعم هي ملك للقوي وإنعام منه للضعيف فهذا معناه أن يتعلق به الضعيف بكمال التعلق فينبهر بعظمته بكمال الانبهار ويحبه بكمال الحب لعظمته ولإنعامه ولأن حياته لا تقوم الا به، ويتقرب له ويلجأ اليه، فهذا التعلق الشديد يجعله يعظمه بكمال التعظيم من خلال كمال الذل له فيعيش حياته كلها ذليلا له ليعبر عن تعظيمه له بكمال التعظيم، فهذا هو أصل العبادة، وهو كمال الذل تعبيرا عن كمال التعظيم.

ـ ولأن القوي له كمال الثواب والعقاب فيضاف سبب آخر للتعلق بالله، فيكون التعلق خوفا ورجاء.

ـ أصل الدين هو التعلق بالغيبيات:

ـ حياة الانسان تشمل أمران هما صلة الانسان بالغيبيات وصلة الانسان بالدنيا والناس، إذا كانت صلة الانسان بالغيبيات هي الأساس وهي الأكبر وصلة الانسان بالدنيا والناس تابعة لها فهذا هو أصل معنى الدين، وإذا كانت صلة الانسان بالدنيا والناس هي الأساس وهي الأكبر وصلة الانسان بالغيبيات تابعة لها أو لم تكن هناك صلة بالغيبيات فلا معنى لشيء اسمه دين.

ـ صلة الانسان بالشيء هي تأثره به، ومعنى أن تكون صلته به هي الأكبر وهي الأساس هو أن تصبح تعلقا، أي يكون شديد التأثر بها.

ـ التعلق بالله هو الخضوع وهو التعظيم:

ـ الانسان إما أن يتعلق بنفسه أو يترك تعلقه بنفسه ويتعلق بالله تعالى.

ـ التعلق بالله يسمى بالخضوع بالنظر الى الانسان لأنه ترك تعلقه بنفسه وتعلق بغيره، ويسمى بالتعظيم بالنظر الى الخالق لأنه تعلق به تاركا تعلقه بنفسه من أجل الله تعالى.

ـ فالخضوع لله هو تعظيم لله وهو التعلق به دون النفس.

ـ فالتعلق بالله والخضوع والتعظيم كلها شيء واحد، وهي أصل العبادة وهي أثر اليقين.

ـ فإذا لم يؤدي اليقين الى التعلق بالله (الخضوع ـ التعظيم) فهو يقين كاذب لأنه لم يؤدي أثره.

ـ مفهوم الخضوع (التعلق بالغير):

ـ الطبيعي أن يتعلق الانسان بنفسه ولا يتعلق بغيره ولكن في حالة أنه لا يوجد من هو أعلى وأعظم من الانسان، وهذا غير حاصل.

ـ أي إذا كان الإنسان هو الذي صنع نفسه بنفسه فأوجد لنفسه عينه وأنفه وأذنيه وأوجد لنفسه ما يمتلك من نعم وأموال وأولاد فهي ملكا له وليس لأحد سلطة عليه أو عطاء أو صنع له شيئا، ففي هذه الحالة فالإنسان له أن يعيش وفق مراد نفسه وما يشتهيه وهذا حقه فهو حر يفعل ما يشاء.

ـ ولكن الحاصل عكس ذلك فالإنسان هو نفسه عبارة عن مادة مصنوعة يمتلكها من صنعها، فالإنسان لا يملك شيئا ولا حتى نفسه فكل ما عنده من نعم وشهوات هو محض عطاء من الله، ففي هذه الحالة يجب على الإنسان أن يعيش وفقا لمراد من صنعه ويمتلكه خاضعا لله لأنه لا يملك شيئا ولا حتى عقله فكل ذلك من صناعة الخالق.

ـ الخضوع معناه أن الانسان بدلا من أن يتعلق بنفسه فإنه يترك تعلقه بنفسه ويتعلق بغير بنفسه، أي يتعلق بالله تعالى.

ـ ومعناه أن يعيش الانسان معيشة العبيد، فيذل نفسه لغيره أي يعيش كأسير أو خادم يلبي أوامر سيده، فيلغي إرادته ورغباته وشخصيته المستقلة ويعيش تابعًا منهزمًا تحت إرادة قاهر له، ويعيش مقيدا بأوامر غيره عليه، ويعيش خاضعًا كالعبد الذي كان يباع ويشترى في الماضي، فلا يعيش حياته بناءً على ما يريده هو لنفسه وما يحبه ويهواه لنفسه وما يحقق رغباته، ولكن يعيش حياته بناءً على ما يريده ويحبه أحد آخر منه.

ـ فهل تتصور لو أنك تعيش حياتك بناءً على ما يريده ويحبه شخص آخر، فلا تتحرك أو تقوم أو تقعد أو تفعل أي شيء إلا وفقا لأوامر سيدك وليس وفقا يمليه عليك عقلك، فكأنك إنسان آلي تسير بالريموت كنترول، والإنسان الآلي ليس له حياته الخاصة وليس له رغبات ولا يسير من تلقاء نفسه، فالذي يحركك هو سيدك الذي يملك أمرك، فكما ان الانسان خاضع لله كونيا فيكون أيضا خاضع لله شرعا فيسلم ارادته لسيده ليفعل به ما يشاء، فهو مستسلم ومنقاد ومقهور ومغلوب وخاضع تحت سيطرة أحد غيره كما يعيش العبد لسيد يملكه ويملك التصرف فيه.

ـ تصور أنه تم بيعك في سوق العبيد مثلما كان يحدث في الماضي فأصبحت عبدًا وخادمًا لسيدك، هل تقبل هذه الحال الآن وأنت في عصر

الحرية؟!، هل تقبل أن تضع نفسك تحت تصرف غيرك؟!، وهل تقبل أن يتحكم فيك غيرك؟!، وهل تتحمل هذه الحالة النفسية من الخضوع وطوال عمرك؟!، إنك مطالب بما هو أصعب من ذلك أن تكون عبدا لسيدك ومولاك رب العالمين، فلماذا لا تشعر أنك واقع تحت سيطرة مَنْ يتحكم فيك وأنت عليك أن تقبل الخضوع والذل؟،فأنت تخضع له خضوع مَنْ شعر بأنه القهار المهيمن، وخضوع المحتاج إلى نعماءه، وتحب الذل إليه ليعطيك، كما يفعل الشحاذ حين يسأل الناس فإنه يخفض رأسه ويمد يده للناس ليعطوه ، فهل تخفض رأسك وتمد يدك لله ليعطيك؟، إذن أين هذه الحالة النفسية المميزة للخضوع؟.

ـ وتعلق العناصر الأربعة بغير النفس خضوع؛ فنظر الانسان الى الغير على أنه أعظم منه خضوع (ترك الغرور بالنفس)، والحب الشديد للغير خضوع (ترك محبة النفس والدنيا) وانشغال الهم الأكبر بالغير خضوع (ترك انشغال الهم بالملذات) وتعلق الجوارح بالغير خضوع (الخضوع للأوامر).

ـ فالإنسان عليه أن يختار طريقة الحياة ونمط الحياة التي يريد أن يعيشها، أي إما أن يعيش حياته عبدا خاضعا لغيره أو يعيش لنفسه حرا غير ذليل أو خاضع لأحد.

ـ أي أن يعيش على أساس أنه عبد مثلما كان العبيد قديما يباعون ويشترون في سوق العبيد، فهو يعيش خادما لسيده يوجهه كيف يشاء ويفعل به ما يشاء وليس له حق في أي شيء، فيعيش معيشة العبد لسيده، والعبد ليس له هدف غير إرضاء سيده وقبول كل ما يفعل به سيده، أي يختار أن يعيش حياة الخضوع والذل لغيره (لله تعالى)، أي تصبح وظيفته في الحياة ومهمته التي يكرس حياته من أجلها هي أن يعمل عند الله عبدا كما يعمل الخادم عند سيده فيعيش عمره كله على هذا، فهذا اختار أن يكون عبدا لله ، أما غيره فاختار أن يعيش حرا كأنه لا أحدا يملكه ولا يتبع لأحد وكأنه هو الذي أوجد نفسه أو لا أحد أوجده.

ـ بمعنى أننا إذا استطعنا تلخيص حياتك بما فيها من مشاعر وهموم وأهداف وطموحات وأعمال فهل هي معيشة إنسان خاضع لغيره (لله تعالى) أم معيشة من أجل أمور الدنيا ومشاغلها المتنوعة؟

ـ فالإنسان أمامه أمران هما: إما أن تكون له حياته المستقلة به فيدير أموره بنفسه ويفعل ما يريد ويرغب، فيعيش حياته حرا يفعل ما يشاء، وإما أن يجعل حياته لأحد غير نفسه، فتصبح طموحاته ورغباته هي ما يريده غيره منه، فيعيش عبدا خاضعا لسيده ومولاه رب العالمين، فيضع نفسه وما يملك ورغباته وحياته تحت تصرف سيده.

ـ معنى الخضوع أي الاستسلام أي إسلام النفس وكل ما تملك إلى مالكها الحقيقي وهو الله سبحانه، أي التجرد من كل ما تملك لتنسبه إلى مالكه الحقيقي وهو الله سبحانه، فتكون كالميت بين يدي مغسله يفعل به ما يشاء، أي تكون كالميت بين يدي الله يفعل بك ما يشاء.

ـ هل يستطيع الإنسان أن يعيش لغيره أي لا يعيش من أجل نفسه هو ولكن من أجل أحدًا غيره، إن الخضوع معناه أن تعيش لغيرك، وتعيش تحت سلطة وسيطرة غيرك عليك وتقبل ذلك مستسلمًا ذليلًا خاضعًا، إن المسلم يعيش لله بل ويموت أيضًا لله: ((قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ))(١).

ـ فمعنى أن يعيش الإنسان عبدًا هو أن يعيش حياته وفقًا لأوامر الله تعالى وأكثرها أوامر تخالف رغبات نفسه، وهذه المخالفة مقصودة من الله تعالى حتى يتبين أن الإنسان خاضع لله وليس لما يريده هو لنفسه: ((لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ))(٢)، وبتعبير آخر هو تغليب مراد الله والدين على مراد نفسك وما تحبه نفسك، وأصعب شيء على الإنسان هو أن يتنازل عن إرادته.

---

(١) الأنعام: ١٦٢، ١٦٣

(٢) آل عمران: ٩٢

ـ والإنسان عليه أن يختار لنفسه الطريقة التي على أساسها يعيش، هل يبني حياته وفقًا لرغبات نفسه أم مخالفة نفسه ووفقا لمراد الله؟ فلمن تستجيب؟: ((فَأَمَّا مَنْ طَغَى (٣٧) وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٣٨) فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى (٣٩) وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى (٤٠) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى))[١].

ـ الإنسان مغرور بنفسه وبما يملك، فهو يريد ألا يعيش ذليلًا خاضعًا لأحد (لله) مقيدًا بالدين، فهو يريد ان يعيش في الدنيا حرا غير خاضع ويعيش على أساس أن السعادة في الدنيا، ويختار شكلًا يعجبه من أشكال السعادة في الدنيا ويعيش له، فيعيش للمال أو للشهوات أو للمظاهر أو أي شيء أو مجموعة من الأشياء من أمور الدنيا.

ـ الخضوع هو ابتعاد عناصر التعلق الأربعة عن النفس وارتباطها بالغير:

ـ الخضوع هو أن يرى نفسه ضئيلة ويرى غيره أعظم ما يكون، وبدلا من أن يحب نفسه يجعل الغير هو محبوبه الأعظم وأكبر ما يخافه وأكبر ما يرجوه، وبدلا من أن ينشغل همه بمراد نفسه يجعل الشاغل الأكبر لهمه هو تحقيق مراد غيره، وبدلا من أن تتعلق جوارحه لتحقيق رغبات نفسه تتعلق جوارحه بتحقيق مراد غيره.

ـ ولاحظ أن الخضوع ليس مجرد تأله الغير وحب الغير وانشغال الهم بالغير وطاعة الغير ولكن شدة التأله للغير وشدة الحب والخوف والرجاء بالغير وشدة انشغال الهم بالغير والمعيشة للغير، وهذه الأمور تتحقق معا والخضوع هو مجموع هذه الأمور معا.

ـ والشعور بالخضوع هو شعور بالهزيمة والاستسلام والانكسار والذلة والمسكنة، فمثلا أنظر إلى خادم يعمل في بيت من بيوت السادة، إنه ينظر الى نفسه نظرة اهمال وينظر إلى سيده نظرة تعظيم، ويشعر بالاستسلام،

(١) النازعات : ٣٧ ـ ٤١

فإذا كنت تدعي الخضوع لله فهل تشعر بما يشعر به الخادم تجاه نفسه وتجاه سيده.

ـ أنظر إلى الرجل الفقير المعدوم الذي يسأل الناس ليعطوه، بماذا يشعر؟، إنه يشعر بالخضوع والذل والحاجة إلى إنعام الناس عليه، إن الحالة النفسية التي عند هذا الرجل هي التي تسمي خضوع، فإذا كنت تدعي الخضوع لله فهل عندك هذه الحالة النفسية ؟!، كما أنك تجد هذا الرجل يظل يدعوا لمَنْ يعطيه محبة له، وإذا كان هذا الرجل فقير إلى إنعام الناس من أموال، ومحب لما يعطونه، فكيف بك وقد أنفق عليك الله فأعطاك عينا وأعطاك الهواء الذي تتنفسه ونعما لا تحصي (والمشكلة أننا لا نشعر بنعم الله).

ـ تصور أن أحدا ما رفع في وجهك سلاحا وطلب منك أن تستسلم، ماذا يكون شعورك عندئذ؟ هذا الشعور هو شعور بالهزيمة والاستسلام والانقياد، إن الحالة النفسية التي تشعر بها عندئذ هي التي تسمي خضوع واستسلام، فإذا كنت تدعي الخضوع لله، فهل عندك هذه الحالة النفسية؟ والله هو الجبار المنتقم ذو البطش المتكبر شديد العقاب سريع الحساب.

ـ أصل العبادة هو تحقيق معنى الخضوع (التعظيم ـ التعلق بالله تعالى):

ـ المعرفة تؤدي الى اليقين، واليقين يؤدي إلى الخضوع.

ـ المعرفة واليقين وسيلة، والخضوع هو الهدف وهو أصل العبادة وأصل الهداية.

ـ كل إنسان سمع من الرسل ولديه عقل لابد له أن يهتدي، فإذا لم يهتدي فهناك مانع منعه من الهداية، أي هناك مانع من أن يؤدي السماع الى الهداية، وهذا المانع هو عدم اليقين أو التجاهل أو المعرفة الكاذبة (السماع والرؤية والفهم الكاذب).

ـ ما الذي يريده ويطلبه القوي من الضعيف والخالق من المخلوق والملك من العبيد؟، هو لا يحتاج أي شيء، لذلك الذي يطلبه أنه يريد منهم أن

يعظموه، ويخضعوا له (التعلق بالله) من خلال كل ما يحبه الله ويرضاه من الاقوال والاعمال الظاهرة والباطنة.

ـ لا إله بغير خضوع، ووجود الخضوع معناه وجود إله ووجود عبد ووجود دين، وبغير الخضوع فلا معنى لأن يقول الإنسان أنه عبد وأن له إله، فإذا رفعنا الخضوع من كلمة " عبد " أصبحت كلمة مفرغة من المعنى، فالعبد هو الخاضع، والذي لا يشعر بأنه خاضع هو لا يريد أن يكون عبدا وهو مستكبر.

ـ كما أن المعنى اللغوي لكمة العبادة وكلمة الدين وكلمة الإسلام هو الخضوع والاستسلام، وأكثر المعاني اللغوية لكلمة (إله) تفيد شدة التعلق (والخضوع هو التعلق بغير النفس، أي التعلق بالله تعالى) والتي تتمثل في أن يفزع إِلَيْهِ ويتضرع ويلجأ إِلَيْهِ فِي الشدائد ويعتمد عليه في كل شئون حياته من شدة الاحتياج إليه مثل شعور الطفل بمن يكفله ويربيه ويرعاه وطاعته حبا له، ومن شدة التعلق به أنه يتفطر قلبه عنه إذا ابتعد عنه.

ـ الإنسان قد يحب أحدا ويعمل له من أثر حبه له ولا يقال بذلك أنه يعبده، ولكن إذا زاد حبه لدرجة الكمال زاد عمله له لدرجة أنه يعيش حياته كلها له فهو بذلك يعبده، فيقال للإنسان إذا تعلق بشيء ما بكل قلبه وجوارحه أنه يعبده من شدة التعلق، وكلمة (التَّيْمُ) تطلق على الحب الشديد جدا: ((التَّيْمُ: وهو أن يستعبده الحب، ومنه سمي: تَيْمُ الله، أي: عبد الله))[(١)].

ـ أصل العبادة معناه أن الانسان تعلق بأحد تعلقا شديدا بقلبه ومن شدة تعلقه به أنه عاش حياته ذليلا له تعظيما له، فهو بذلك يعبده.

ـ وبتعبير آخر فحب الانسان لغير نفسه وعمله لغير نفسه لا يسمى خضوع، أما كمال الحب لغير النفس وما ينشأ عنه من المعيشة لغير النفس هو خضوع وعبادة.

---

(١) فقه اللغة وسر العربية ط-أخرى (ص: ٢٠٧)

ـ أصل العبادة معناه أن الانسان تعلق بأحد تعلقا شديدا ومن شدة تعلقه به أنه عاش حياته ذليلا له تعظيما له، فهو بذلك يعبده.

ـ فالخضوع (أساس العبادة) عبارة عن معنى يتحقق من خلال أعمال الانسان الباطنة والظاهرة، فإذا لم يتحقق هذا المعنى لم تتحقق العبادة، أي تكون أعمال الانسان الباطنة والظاهرة متعلقة بالله والاخرة وليست متعلقة بالدنيا وأن تكون موافقة للشرع.

ـ فأصل العبادة هو الطريقة التي يعيش بها الانسان حياته كلها، فإذا كان يعيش حياته بطريقة تعطي معنى أن حياته متعلقة بالله مع موافقة أعماله للشرع فهو يعبد الله، وإذا كان يعيش حياته بطريقة تعطي معنى أن حياته متعلقة بالدنيا أو المال أو المظاهر أو أي شيء غير الله تعالى فهو يعبد غير الله، فأصل العبادة هو الاتجاه والقصد والهدف من الحياة: ((قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ))[١]، ((وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ))[٢]، {وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا }[٣]، ((بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ))[٤]، ((فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ))[٥]، ((إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ))[٦].

ـ إذن فأصل العبادة معناه أن جميع أعمال الانسان الباطنة والظاهرة هل هي متعلقة وخاضعة لله أم متعلقة بالدنيا؟: ((ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا))[٧]، ((بَلْ تُؤْثِرُونَ (٤)} الْحَيَاةَ الدُّنْيَا))[٨]، ((مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ

(١) الأنعام: ١٦٢، ١٦٣
(٢) لقمان : ٢٢
(٣) النساء: ١٢٥
(٤) البقرة: ١١٢
(٥) آل عمران : ٢٠
(٦) الأنعام: ٧٩
(٧) النحل:١٠٧
(٨) الأعلى:١٦

عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا (١٨) وَمَنْ أَرَادَ الآخرة وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا))[١] ((مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخرة نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخرة مِنْ نَصِيبٍ))[٢]، ((فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنا وَلَمْ يُرِدْ إِلاَّ الْحَياةَ الدُّنْيا))[٣].

ـ مفهوم العبادة:

ـ العبادة هي كل ما يحبه الله ويرضاه من الاقوال والاعمال الظاهرة والباطنة بشرط أن تحقق في مجموعها الهدف من العبادة وهو الخضوع (التعظيم ـ التعلق بالله تعالى)، أي تكون تعبير عن الخضوع (التعظيم - التعلق بالله تعالى)، فالعبادة ليست مجرد أعمال متناثرة ولكن عبارة عن معنى يتحقق من خلال الاقوال والاعمال الظاهرة والباطنة التي يحبها الله ورسوله، أي أن الاقوال والاعمال الظاهرة والباطنة المقصود منها تحقيق معنى الخضوع ويشترط أن تكون موافقة للشرع.

ـ لذلك فشيخ الإسلام ابن تيمية عندما عرف العبادة قال: ((وَالْعِبَادَة تَتَضَمَّن كَمَال الْحبّ ونهايته وَكَمَال الذل ونهايته))[٤] فوضع كلمة (كمال) لتعبر عن شدة التعلق (كمال الخضوع – كمال التعظيم)، وكمال الحب يمثل خضوع القلب وكمال الذل يقصد به خضوع الجوارح، أي أن تحقيق معنى الخضوع هو أساس العبادة.

ـ صعوبة العبادة (صعوبة الخضوع):

ـ الخضوع معناه أن الانسان يعيش حياته لغيره وليس لنفسه، والانسان لا يقبل أن يعيش حياته كلها لغيره إلا إذا زاد شعوره بعظمة غيره الى درجة الكمال فأحبه بكمال الحب وخافه ورجاه بكمال الخوف والرجاء.

---

(١) الإسراء : ١٨، ١٩
(٢) الشورى : ٢٠
(٣) النجم:٢٩
(٤) أمراض القلوب وشفاؤها (ص: ٦٣)

ـ فالعبادة التي خلقنا من أجلها هي مسألة صعبة وليست سهلة كما يظن البعض؛ فالبعض يحسب أن العبادة عبارة عن القيام ببعض أعمال الدين، لكن العبادة هي أمر صعب لأن أصل العبادة هو الخضوع، والخضوع كما أوضحناه هو أمر صعب جدا على النفس، كما الجنة عظيمة جدا فلابد أن يكون ثمنها غالي.

ـ فالإنسان لا يرضى بالخضوع لأن معيشة الخضوع أمر صعب جدا على النفس، والنفس تستكبر أن تعيش معيشة العبيد، والإنسان لا يريد أن يذل لأحد أو يعيش كأسير أو خادم يلبي أوامر سيده، ولا يريد أن يلغي إرادته ورغباته وشخصيته المستقلة ويعيش تابعًا منهزمًا تحت إرادة قاهر له، ولا يقبل أن يعيش خاضعًا ذليلًا لغيره طوال حياته، ويرفض أن يقيد نفسه بأوامر لأحد عليه، ولا يريد أن يتخلى عن حريته ليعيش خاضعًا كالعبد الذي كان يباع ويشترى في الماضي.

ـ وأصعب شيء على الإنسان هو أن يشعر بضعفه ونقصه وعجزه واستسلامه واحتياجه وانقياده لغيره، ويشعر بأنه مقهور ومغلوب وخاضع تحت سيطرة أحد غيره، والشعور بالذل وأن يعيش عيشة الذل وعيشة العبيد لسيد يملكه ويملك التصرف فيه، فالإنسان يعرف أن لله كل صفات العظمة والعلو، وأن الإنسان فيه كل صفات الضعف والعجز لكنه يأبى أن يشعر بذلك ويتعاظم الأمر في نفسه أن يكون كذلك.

ـ الإنسان يظن أنه قوي بما عنده من النعم ويتعامل مع النعم كأنه هو الذي أوجدها وأنها ملكا له، وبالتالي لا يريد الخضوع لمالك هذه النعم، رغم يقينه التام بأنها نعم من الله وأن الله هو الذي أوجدها وهي ملك له.

ـ فهو مغرور بما أعطاه الله من نعم كالعين والأنف والهواء وبما أعطاه من متع الدنيا كالمال وشهوات النساء والطعام والشراب، فلا يقبل أن ينظر إلى الملايين من الأموال على أنها تافهة، ولا يقبل أن ينظر على متع الشهوات على أنها تافهة، ولا يوافق على أن كل النعم مجرد عطاء من الله عليه، رغم أن كل ذلك هو مقتنع به، لكنه مغرور بنفسه وبالدنيا ولا يريد أن يشعر بأنه ضعيف.

ـ فالنفس فيها الكبر عن أن أحدا غيرها هو الذي يقوم على أمرها ورعايتها كأنها قاصرة أو عاجزة، فالنفس تريد أن يكون لها سلطة وزعامة وأن تكون هي التي تدير نفسها.

ـ فأصعب شيء على الإنسان هو أن يتجرد من كل ما يملك لينسبه إلى مالكه الحقيقي وهو الله سبحانه، فيتجرد من كل الصفات التي يعتز بها كالقوة والإرادة والسمع والبصر لينسب كل الأشياء إلى مالكها الحقيقي وهو الله سبحانه، ويتجرد من كل الممتلكات والأهل والمال والشهوات ويعترف بملكية هذه الأمور لصاحبها وهو الله، فيصبح عاري من كل شيء متجرد من كل شيء لا يملك شيئا ولا حتى يملك نفسه ، فيصبح ضعيفا والله هو القوي، فلا تتحقق العبادة حتى يزول تعظيم قيمة النفس والمال والممتلكات من قلب الإنسان، ولا يحدث هذا إلا إذا عرف الخالق والاخرة معرفة حقيقية.

ـ فلابد أن ينسب الإنسان لنفسه كل صفات النقص والعوز والعجز والحاجة والضعف، وينسب كل صفات الكمال لله، وهذا معناه النقص والضعف والاحتياج إلى الله، والنفس لا تريد أن تكون تابعة لغيرها، وتريد أن تكون مستقلة متحررة ذاتية معتمدة علي نفسها لا معتمدة علي غيرها (الله سبحانه) فلا تريد أن يكون فيها نقص أو عوز، كما تريد أن تكون مالكة تدير نفسها وترزق نفسها، والإنسان يظن أنه غير محتاج لغيره، والنفس لا تريد أن تخضع وتركع لمن يمن عليها ولمن له قدرة عليها كما ترفض أن تعترف بعجزها أمام من هو أقوى، فالنفس تريد أن تتصرف كما لو كانت هي التي أوجدت نفسها أو أنه لا أحد أوجدها، رغم أنه في الاقتناع النظري تعلم بأن لها خالق: ((أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ))[(١)].

ـ فالنفس تأبي أن تنكسر وتريد أن تكون هي المالكة ولا تريد أن يمن أحد عليها بعطاء أو يتكرم عليها بفضل، وأصعب شعور على النفس هو الذل فلا تريد أن تركع وتسجد.

---

(١) الطور: ٣٥

ـ لا يتحقق الخضوع حتى يزول غرور الإنسان بأنه يمتلك النعم كالعين والعقل والقدرة والحركة والإرادة والمال والشهوات، لأنه يحسب أنه قوي بامتلاكه لهذه النعم والقوي لا يخضع.

ـ لذلك رفض الناس دعوة الرسل وذلك لأن الانسان مستكبر مغرور بنفسه لا يريد أن يكون ضعيفا ولا يريد أن يعيش حياته ذليلا خاضعا لغيره لأن الشعور بضعفه ومعيشة الذل والخضوع فيها ألم له.

ـ فالخضوع صعب جدا ولكي يرضى الانسان بتحقيق الخضوع فلابد أن يكون الدافع الى ذلك قويا جدا وهو شدة الحب وشدة الخوف وشدة الرجاء لدرجة تجعله يعيش حياته تعظيما للخالق، ولكي يتحقق شدة الحب والخوف والرجاء لابد أن يوقن بأن وجود الخالق والاخرة هو أمر خطير جدا يدعو لشدة الحب والخوف والرجاء وأن يكون هذا اليقين صادقا.

ـ الانسان يتجاهل الخالق والاخرة حتى لا يخضع:

ـ المعرفة بضعف الانسان أمام قدرة الله تؤدي تلقائيا الى أن يخضع الانسان لله حبا وخوفا ورجاء، ولكن الانسان لا يريد الخضوع لأن معيشة الخضوع هي أمر صعب جدا على النفس فماذا يصنع؟، يتناسى ويتجاهل ويتغافل عن الله والآخرة فلا يرى غير نفسه وبالتالي يرى نفسه قويا بما عنده من النعم فيشعر بالمكانة والقدر بدلا من أن يشعر بالخضوع.

ـ الطبيعي أن الضعيف كامل الضعف يخضع للقوي كامل القوة فيجعله بذلك إله له، والقوي كامل القوة مستحق لأن يكون إله.

ـ لذلك فالإنسان يتجاهل ضعفه وقوة الله حتى لا يتحقق أثر اليقين فيعيش خاضعا، والخضوع فيه ألم كبير.

ـ وجود ظاهر الدين وغياب أصل الدين:

ـ المعيشة نوعين هما معيشة مبنية على أساس الغيبيات ومعيشة مبنية على أساس الدنيا.

ـ إذا لم يكن هناك غيبيات فالناس يعيشون حياتهم على أساس الدنيا لأنهم لا يعرفون غيرها، وجود الغيبيات جعل الناس يعيشون حياتهم على

أساس الغيبيات لأن الدنيا وما عليها ليست بشيء أمام الغيبيات، فالمعيشة على أساس الغيبيات هي أصل الدين، فهي معيشة ناشئة من التأثر بالغيبيات، أما المعيشة على أساس الدنيا فمعناها أن الانسان دنيوي وليس أخروي، لكن عند البعض انقطع التأثر بالغيبيات ومات معنى المعيشة على أساس الغيبيات فأصبحت المعيشة على أساس الغيبيات كالجسد بلا روح، فالدين موجود ومعناه ميت فأصبح الانسان كالذي لا يدري ما يفعل ولماذا يفعل ذلك؟.

ـ أصل الدين التعلق بالله (الخضوع) وظاهر الدين الانتساب للدين والقيام ببعض أعمال الدين، وتم استبدال أصل الدين من التعلق بالله الى التعلق بالدنيا وبقي الظاهر فأصبح الدين كأنه لعب ولهو.

ـ فالدنيا لعب ولهو والتعلق بها لعب ولهو: ((وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ))[١]، وأصل الدين هو أمر صعب وجاد وخطير ولكنهم بدلوا أصل دينهم باللعب واللهو: ((وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا))[٢]، ((الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنْسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا))[٣]، ((إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ (١٣) وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ))[٤].

ـ وفي تفسير إيجاز البيان: ((الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا: [اتخذوا أمر دينهم] كأمر دنياهم، والدنيا لهو وباطل))[٥]، وفي تفسير الحاوي: ((ثم إنه تعالى وصف هؤلاء الكفار بأنهم اتخذوا دينهم لهواً ولعباً ، وفيه وجهان: الوجه الأول: أن الذي اعتقدوا فيه أنه دينهم تلاعبوا به، وما كانوا فيه مجدين، والوجه الثاني: أنهم اتخذوا اللهو واللعب ديناً لأنفسهم))[٦]، وفي تفسير السعدي: (({لَهْوًا وَلَعِبًا} أي: لهت قلوبهم وأعرضت عنه، ولعبوا واتخذوه سخريًا، أو أنهم جعلوا بدل دينهم اللهو واللعب، واستعاضوا بذلك عن

(١) الأنعام: ٣٢.
(٢) الأنعام: ٧٠.
(٣) الأعراف: ٥١.
(٤) الطارق: ١٣، ١٤
(٥) إيجاز البيان عن معاني القرآن -دار الغرب الإسلامي- بيروت (١ / ٣٣٢).
(٦) الحاوى فى تفسير القرآن الكريم كاملا (٢٧٠/ ٢٠٦)

الدين القيم، {وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا} بزينتها وزخرفها وكثرة دعاتها، فاطمأنوا إليها ورضوا بها وفرحوا، وأعرضوا عن الآخرة ونسوها، {فَالْيَوْمَ نَنْسَاهُمْ} أي: نتركهم في العذاب {كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا} فكأنهم لم يخلقوا إلا للدنيا، وليس أمامهم عرض ولا جزاء))(١)، وفي تفسير السمعاني: ((قوله تعالى: {الذين اتخذوا دينهم لهوًا ولعبًا} معناه: أكلًا وشربًا، قاله عبد الله بن الحارث، وقيل: معناه: الذين كانت همتهم الدنيا، واشتغالهم بها؛ فهم الذين اتخذوا دينهم لهوًا ولعبًا، وغرتهم الحياة الدنيا))(٢).

ـ والبعض يتعاملون مع ما يتلى عليهم كأنه لهو وكأنه ليس أمرا جادا وهاما، ففي تفسير القرطبي: (({مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ }(٣) ومعنى {يلعبون} أي يلهون وقيل: يشتغلون فإن حمل تأويله على اللهو احتمل ما يلهو به وجهين: أحدهما: بلذاتهم، الثاني: بسماع ما يتلى عليهم، وإن حمل تأويله على الشغل احتمل ما يتشاغلون به وجهين: أحدهما: بالدنيا لأنها لعب كما قال الله تعالى: {إنما الحياة الدنيا لعب ولهو}(٤)، الثاني: يتشاغلون بالقدح فيه والاعتراض عليه قال الحسن: كلما جدد لهم الذكر استمروا على الجهل))(٥).

ـ ويتعاملون مع الاخرة كأنها هزل؛ ففي أيسر التفاسير: (({إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ (١٣) وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ }(٦) وما هو بالهزل: أي باللعب والباطل بل هو الجد كل الجد))(٧).

ـ فهو يتعامل مع الغيبيات بغير اهتمام كما يتعامل مع أمر تافه، فيتعامل مع الاخرة كأنها ودودة أليفة لا مشكلة منها ولا خطر فيها، ويتعامل مع

---

(١) تفسير السعدي ـ مؤسسة الرسالة (١ / ٢٩٠).
(٢) تفسير السمعاني دار الوطن ـ الرياض (٢ / ١٨٧).
(٣) الأنبياء: ٢
(٤) محمد: ٣٦
(٥) تفسير القرطبي -دار الكتب المصرية- القاهرة (ج: ١١، ص: ٢٣٧).
(٦) الطارق: ١٣، ١٤
(٧) أيسر التفاسير للجزائري (٥/ ٥٥٣)

صفات الخالق كأنها ليست عظيمة وخارقة وكأنها غير مؤثرة ولا ينشغل بها همه ولا تتأثر بها مشاعره.

ـ أصل الدين التعلق بالغيبيات، فإذا رفعنا التعلق بالغيبيات أصبح الدين مجرد شكل لا معنى له، فقد مات معنى الغيبيات والرسل في نفوس البعض وبقي اليقين بها فأصبح يقينا بلا معنى كالعدم، فعندئذ يكون صاحب الدين هو في حقيقته رجل دنيوي يرتدي ثوب الدين.

ـ بعض الناس نسي المغزى والهدف من العبادة وهو أنه يقوم بأعماله ويعيش من أجل تعظيم الله (الخضوع – التعلق بالله).

ـ فالعبادة ليست مجرد القيام بأعمال معينة بدون تحقيق المغزى منها، فالذي نسي المغزى من العبادة مثل رجل كان يبحث عن شيء ما، ثم بعد فترة نسي ما يبحث عنه، ولكنه استمر في البحث لأنه وجد آخرين مثله يبحثون وهم أيضا نسوا ما يبحثون عنه، فأصبحت عملية البحث نفسه هي الهدف، فهذا هو حال الغافل نسي المغزى والمعنى والهدف المقصود من العبادة، فالمعنى مات والروح ماتت والظاهر موجود.

ـ عدم التعلق بالله معناه عدم تحقيق العبادة:

ـ لا يمكن لإنسان أن يعيش بغير قضية أساسية تكون هي هدفه التي يحيا بها ويعيش لها ويتجه إليها بمشاعره وهمومه وجوارحه، فهذه القضية هي أكبر ما يدهشه من عظمتها (يراها أعظم ما يكون) وتكون أكبر ما يحبه ويخافه ويرجوه ويتمناه ويتطلع اليه ويحلم به وأكبر ما يشغل همه، وأكبر ما يرتبط به من خلال سلوكه وتصرفاته وردود أفعاله وكلامه وعمله وعلامات فرحه وحزنه، قد تكون تلك القضية التي يتعلق بها ويعيش لها هي المال أو المظاهر أو الشهوات، فإذا لم يكن الخالق والآخرة هي القضية التي يتعلق بها ويعيش لها فهذا معناه عدم وجود أصل العبادة وهو الخضوع (التعلق بغير النفس ورغباتها).

ـ فالإنسان إما أن يتعلق بنفسه أو يتعلق بالغير، والتعلق بالغير هو الخضوع، فالتعلق بالله هو الخضوع، ولا إله بغير خضوع، ووجود الخضوع معناه وجود إله ووجود عبد ووجود دين، وبغير الخضوع فلا

معنى لأن يقول الإنسان أنه عبد وأنّ له إله، فإذا رفعنا الخضوع من كلمة " عبد " أصبحت كلمة مفرغة من المعنى، كما أن المعنى اللغوي لكمة العبادة وكلمة الدين وكلمة الإسلام هو الخضوع والاستسلام، فالعبد هو الخاضع، والذي لا يشعر بأنه خاضع هو لا يريد أن يكون عبدا وهو مستكبر.

ـ أصل الدين التعلق بالله (الخضوع) وظاهر الدين الانتساب للدين والقيام ببعض أعمال الدين، فإذا تم استبدال أصل الدين من التعلق بالله الى التعلق بالدنيا وبقي الظاهر أصبح الدين كأنه لعب ولهو.

ـ طالما أن الانسان لا زال متعلقا بالدنيا بقلبه وجوارحه فهو لا يزال لم يحقق العبادة لأن أصل العبادة هو التعلق بالخالق والاخرة (الخضوع) رغم الصلاة والصيام، ولن يتحقق أصل العبادة حتى يتحقق اليقين الحقيقي، فلا يكفي مجرد وجود اليقين والانتساب الى الإسلام والقيام ببعض أعمال الدين لكي يدخل الانسان جنة نعيم، فلابد من وجود أثر هذا اليقين على القلب والجوارح وهو التعلق بالخالق والاخرة (الخضوع ـ التعظيم ـ أصل العبادة).

ـ فالخضوع (التعلق بالله) هو أصل العبادة، فإذا لم يتحقق الخضوع (التعلق بالله) لم تتحقق العبادة.

ـ ادعاء التعلق بالله وعبادته:

ـ قد يحسب الإنسان أنه يعرف الله ويحبه ويخافه ويرجوه ويحسب أن هدفه رضا الله والجنة، والحقيقة أنه لا يعرف غير الدنيا ولا يحب ولا يخاف ولا يرجو غيرها ولا هدف له غيرها، كما يحسب أنه يعبد الله وهو لم يحقق أصل العبادة وهو الخضوع لله، فهو لا يقبل أن يعيش خاضعًا ذليلًا لغيره طوال حياته، وتبقى بعض أعمال ظاهرة مفتعلة أو عادة أو تقليدا أو مجرد مظاهر روتينية، أو ناشئة من تأثره الضعيف بالخالق والاخرة الذي لا يصل الى درجة التعلق بالله والآخرة.

ـ وما يفعله الانسان من أمور العبادة وهو لا يعرف المعبود معرفة حقيقية لا معنى له وهو كالذي لا يدري ما يفعل.

ـ مجرد وجود التأثر فهذا ليس تعلقا، وشدة التأثر هو التعلق، والكمال في التأثر هو الكمال في التعلق.

ـ مجرد وجود حب لله أو صلة بالله لا يكفي فلابد من أن يزيد الحب وتزيد الصلة حتى تصبح تعلقا، أما الزيادة عن التعلق فهي من زيادة الايمان، والنقص في كمال التعلق من نقص الايمان.

ـ فالتعلق بالله هو أصل العبادة ولا ينبغي أن ينقص ليصبح مجرد تأثر وليس تعلقا ولكن يمكن أن يزيد فذلك من كمال الايمان.

ـ بمعنى أنه ينبغي أن يكون حب الله أكبر من حبك للمال والناس وكل شيء، وهذا أصل التعلق، والمطلوب من المسلم الكمال في الحب أي ألا يحب إلا الله تعالى فان نقص الحب لا يجب أن يقل عن كونه تعلقا أي حب الله حبا شديدا أكثر من حبك للمال والناس وكل شيء.

ـ فبدلا من أن يكون أهم شيء في حياة الانسان ومحبوبه الأعظم وهمه الأكبر وسعيه الأكبر هو المال والدنيا يكون الخالق والاخرة.

ـ فاحذر من عدم التأثر بالخالق والاخرة واحذر من أن يكون تأثرك بالخالق والاخرة ضعيف لأنه من شروط الايمان أن يكون الخالق هو أعظم ما تتأثر به مشاعرك، أي يكون أكبر ما تحبه في حياتك من كل محاب الدنيا وأكبر ما تخافه في حياتك من كل مخاوف الدنيا وأكبر ما ترجوه وتتمناه في حياتك من كل طموحات الدنيا وأمانيها (تعلق المشاعر)، وهناك ثلاثة أمور أخرى ملازمة لذلك وهي أن يكون قدره أعظم عندك من نفسك ومن الناس وإن امتلكت كنوز الدنيا ومناصبها (شدة التأله)، وأن يكون أعظم ما يستحق أن ينشغل به همك (الهم الأكبر)، وأن يكون أعظم ما يستحق أن تعيش حياتك كلها له بدلا من أن تعيش لنفسك تعظيما له (تعلق الجوارح)، فتكون متعلقا بالخالق وليس بالدنيا.

الفصل الثالث عشر
اليقين وسيلة وأثره هو الهدف

ـ الهدف من المعلومة تحقيق أثرها وليس مجرد المعرفة بها، فما الذي استفاده الانسان من أن يعرف بأمر خطير بدون أي أثر.

ـ إذا تحقق اليقين تجد نفسك تلقائيا تحقق أثره.

ـ وإذا طُلِب منك تحقيق أثر اليقين فانت تحقق اليقين لكي يتحقق أثره، فاليقين هنا وسيلة والهدف تحقيق أثره.

ـ وأثر اليقين هو أصل العبادة (التعلق بالله – الخضوع – التعظيم)، فلا يمكن تحقيق أصل العبادة إلا من خلال تحقيق اليقين الحقيقي.

ـ لماذا يجب عليك تحقيق أثر اليقين؟:

١ـ لأن أثر اليقين بعظمة الله هو تعظيمه، وهذا معناه أنه يستحق التعظيم، فأنت تعظمه لأنه يستحق التعظيم ولا تترك تعظيمه حياء.

٢ـ لأن الله أمر بتعظيمه، ومن حق العظيم أن يأمر بتعظيمه، فأنت تعظمه لأنه يستحق التعظيم ولا تترك تعظيمه حياء.

٣ـ خوفا من العقاب ورجاء في الثواب، فأنت تحقق اليقين لتحقيق أثره خوفا من العقاب ورجاء في الثواب.

ـ إذن أثر اليقين هو تعظيم الخالق، فهذا حق للخالق على العباد.

ـ والتأثر الشديد بالخالق (التعلق به – الخضوع له – تعظيمه) هو أصل العبادة، فالخالق يستحق العبادة، أي حق عليك أن تعبده لكمال عظمته وخطورة صفاته.

ـ فالمطلوب منك هو عبادة الله لأنه يستحق العبادة، والانسان عندما يعبد الله فهو يؤدي حقا عليه لله تعالى، والذي يمنعك من التقصير في عبادته الحياء لأن العبادة حق لله عليك لأنها أثر لكمال عظمته وخطورة صفاته.

ـ فالعبادة هي حق الله على العبيد، فعن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: ((كُنْتُ رِدْفَ النبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ على حِمارٍ يُقالُ له عُفَيْرٌ، فقالَ: يا مُعاذُ، هلْ تَدْرِي حَقَّ اللَّهِ على عِبادِهِ، وما حَقُّ العِبادِ على اللَّهِ؟، قُلتُ: اللَّهُ ورَسولُهُ أعْلَمُ، قالَ: فإنَّ حَقَّ اللَّهِ على العِبادِ أنْ يَعْبُدُوهُ ولا يُشْرِكُوا به شيئًا، وحَقَّ العِبادِ على اللَّهِ أنْ لا يُعَذِّبَ مَن لا يُشْرِكُ به شيئًا))[١].

ـ المعرفة الحقيقية واليقين الحقيقي هو الطريق الوحيد لتحقيق العبادة:

ـ الهدف من وجود اليقين هو وجود أثره، وأثر اليقين هو أصل العبادة (التعلق بالله – الخضوع – التعظيم)، ولا يمكن تحقيق أصل العبادة إلا من خلال تحقيق اليقين الحقيقي.

ـ التأثر بالخالق والاخرة هو خوف المهابة والحب والخوف والرجاء وانشغال الهم والطاعة، وينشأ من وجود قدر من المعرفة الحقيقية ولكن لا تزال لم تتحقق المعرفة الحقيقية؛ لأن أثر المعرفة الحقيقية هو شدة التأثر بالخالق والاخرة وهو شدة خوف المهابة وشدة الحب والخوف والرجاء والهم الأكبر وتعلق الجوارح، وبغير وجود المعرفة الحقيقية واليقين الحقيقي فمن المستحيل تحقيق هذه الأمور، وما يحدث عندئذ من بعض الطاعات تكون متكلفة والانتساب للدين عندئذ يكون تقليدا وهو لا يفهم معنى الدين.

ـ لماذا يعظم الضعيف القوي؟:

ـ لأنه يستحق التعظيم، ولماذا يستحق التعظيم؟ يستحق التعظيم حبا وخوفا ورجاء، ولماذا يستحق التعظيم حبا وخوفا ورجاء؟ لمدى قوته ومدى عظمة عقابه وثوابه.

ـ فأنت تعظم الله لأنه يستحق التعظيم، وتعظم الله حبا وخوفا ورحاء، وتعظم الله لأنه القوي وأنت ضعيف ولمدى عظمة عقابه وثوابه.

---

(١) صحيح البخاري (٢٨٥٦).

ـ الضعيف يحب القوي اعجابا بقوته بحسب درجة قوته، فإذا كانت قوته تصل الى الكمال فيحبه بكمال الحب، فلا يحب نفسه ولا يحب أحدا غير هذا القوي، وهذا يؤدي الى أن يتعلق به بجوارحه ويكون همه الأكبر.

ـ فالطبيعي أن الضعيف كامل الضعف يخضع للقوي كامل القوة فيجعله بذلك إله له، والقوي كامل القوة مستحق لأن يكون إله.

ـ لماذا يستحق الخالق التعظيم؟:

ـ معنى أن الخالق يستحق التعظيم هو أنك تعظمه لأن هذا حقه ولا تترك تعظيمه حياءً.

١ـ لكونه عظيما:

ـ إذا كان هناك أحد أقوى منك ويقدر عليك ولكنه لا يريد أن يؤذيك ولا يرضى بأن يظلمك أبدا، فأنت تطيعه حبا له وليس خوفا منه، وذلك بحسب مدى قدرته عليك، فإن كانت قدرته لا حد له توجهت بكل عملك له وتعلقت به بكل جوارحك.

ـ الصفات الحميدة للخالق هي صفات خارقة تستحق كمال التعظيم، ومن كمال التعظيم أن تعيش له سبحانه.

ـ الخضوع الكوني يعطي الحق للخالق في أن تخضع له طوعا لأنه يقدر على أن يخضعك لعبادته ولكنه ترك لك الاختيار ليختبرك.

ـ الله أمر بتعظيمه، ومن حق العظيم أن يأمر بتعظيمه

٢ـ شكرا على نعماءه:

ـ إذا أنعم عليك أحد بعطاء فانت تحبه وتطيعه حبا له، ولا تقصر في حبه وطاعته حبا له.

ـ فضل الله على الانسان لا حد له ونعمه لا تحصى مع شدة الاحتياج إليها فيؤدي ذلك إلى تعظيمه (التعلق به) حياء منه، فأنت تعيش مرهونا بعطائه فمن غيره تموت، ذليلا لعطائه محتاجا لعطائه، فبغير عطاءه

ونعمه لا تستطيع أن تتنفس، فالنفس والهواء نعمة، فأنت عبد إحسانه خاضع لما يجود به عليك، وكما يقولون فالإنسان أسير الإحسان.

ـ فتخيل أنك تعيش في مسكن أحد الناس وتأكل من طعامه وينفق عليك من ماله فبماذا تشعر وكيف يكون حالك؟ وكذلك الحال مع الله فالمسكن الذي تسكن فيه ليس ملكًا لك، إنما هو ملك لله، وكذلك المال الذي معك إنما أعطاك إياه الله وهو مال الله، ولذلك إذا أردت أن تعصي الله فاخرج من تحت سمائه ومن فوق أرضه واخرج من ملكه إن استطعت**!!**

ـ والإنسان يترك الذنب خشية أنه عندما يقف أمام الله فماذا يقول له؟ فهو يستحيي أن يضع نفسه في هذا الموقف المخجل حيث يأكل من رزق الله ويعيش على أرضه وينعم بنعمه ثم يقف أمامه وقد عصاه فماذا يقول له؟

ـ فإذا ذكر الإنسان عظمة الله ندم: كيف أعصي ربي وهو الذي خلقني ورزقني؟ فالعاقل يستحي من أن يعصي من يكرمه ويحسن إليه تعظيما له، فكيف تعصيه وأنت تعيش في ملكه وتقف على أرضه وتأكل من رزقه وهو الذي خلقك وأنت جزء من ممتلكاته وهو يراك ويسمعك في كل وقت وبغير إنعامه لك تموت.

ـ فالإنسان يعظم الله لعظمة صفاته وشكرا على نعماءه: ((إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا))(١)، ((مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا))(٢)، ((إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٢٠) شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ))(٣).

ـ فمن أقر بأن الله خالقه من العدم ومالكه ورازقه والمنعم عليه بأنواع النعم التي لا يستطيع العبد إحصاءها والتي هي مستمرة في جميع الأوقات والأحوال منذ أن يولد إلى أن يموت بل وفيما قبل ذلك، وأنه

(١) الإنسان: ٣
(٢) النساء: ١٤٧
(٣) النحل: ١٢٠، ١٢١

تعالى المصرف لجميع أموره المدبر لها يلزمه أن يشكر الله تعالى على ذلك بأن يعبده سبحانه وتعالى، وأن يطيع أوامره، ويجتنب نواهيه

ـ التعظيم ثلاث درجات:

ـ هناك فرق بين مجرد التأثر وشدة التأثر وكمال التأثر، مجرد التأثر ينشأ من وجود قدر من العظمة فتتأثر به ولكن لا تتعلق به ولا تعيش له، وشدة التأثر ينشأ من شدة العظمة فتتأثر به تأثرا شديدا لدرجة أنك تتعلق به وتعيش له من شدة تأثرك به، وكمال التأثر ينشأ من الكمال في العظمة فتتأثر به تأثرا شديدا لدرجة أنك تتعلق به وتعيش له من شدة تأثرك به الى درجة الكمال.

ـ الله سبحانه له الكمال في العظمة فيجب ان تعظمه بكمال التعظيم، وتعظيمه بشدة التعظيم فيه تقصير، أما مجرد التأثر أو عدم التأثر فأنت لا تعرفه معرفة حقيقية ولا توقن به يقينا حقيقيا.

ـ أصل العبادة هي أثر لليقين بالخالق وحق له:

ـ الذي يستطيع أن يخرق الأسباب يستحق أن يكون إِلَهًا فيعظم بكمال التعظيم، والذي يكون محكوما بالأسباب عليه أن يكون عبدا لمن وضع هذه الأسباب.

ـ الذي له الكمال في صفات العظمة والقوة هو الذي يستحق أن يكون إله ، والذي له الكمال في صفات الضعف والنقص هو الذي يجب عليه الخضوع تعظيما للقوي ولإنعامه عليه ورجاء في ثوابه وخوفا من عقابه.

ـ فالله هو إله بالحق وغيره إله بالباطل، أي هو المستحق لأن يكون إِلَهًا، لأن الرب هو الذي يستحق أن يكون إله يعبده الناس.

ـ الله هو المستحق للعبادة لأن من يمتلك صفات العظمة والقوة هو الذي يستحق أن يكون إله، ومن يمتلك صفات النقص والضعف فعليه أن يخضع ويسجد للإله، لأن الضعيف عليه أن يسجد للقوي.

ـ الإنسان الذي في يده قطعة من الطين الصلصال له أن يفعل بها ما يشاء ويشكلها كيفما يشاء لأنه قوي يقدر على أن يشكلها كيفما شاء وهو مالكها

وهي لا حول لها ولا قوة، فالقوي بحق له أن يفعل ما يشاء بما صنعه وامتلكه، والعبد الضعيف ليس له أن يفعل إلا ما يأمره به سيده، فهذه هي العلاقة بين القوي والضعيف.

ـ فالله سبحانه يستحق الا تحب غيره ولا حتى حب النفس لكمال عظمته، ويستحق الا تخاف او ترجو غيره ولا حتى الرجاء فيما ترجوه النفس من رغبات او الخوف من عدم تحقيق رغبات النفس وذلك لكمال ثوابه وعقابه.

ـ وله حق الامر والنهي لأنه الخالق فهو المستحق للطاعة.

ـ الأدلة على أن أصل العبادة (الخضوع) ينشأ من اليقين:

ـ الخضوع هو أصل العبادة، والعبادة تنشأ كأثر لليقين، والدليل على ذلك الآيات: {ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ }(١) ، {ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ }(٢)، ((إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ))(٣) ، ((رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ))(٤)، ((وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ))(٥).

ـ مفهوم الحياء (الخوف من مخالفة الحق):

ـ ليس خوفا من العقاب ولكنه خوف من اللوم او الفضيحة او تأنيب الضمير أو الاحراج كالخوف من والخوف من نظر الله والخوف من معاتبة الله له يوم لقاءه والخوف من الملائكة (الرقيب والعتيد) أو من رؤية الناس له.

ـ هو شعور بانقباض النفس وانكسار يعتري الانسان من شيء وتركه حذرا عن اللوم فيه، وهو خلق يبعث صاحبه على اجتناب القبيح ويمنع

(١) الأنعام: ١٠٢
(٢) يونس: ٣
(٣) الزخرف : ٦٤
(٤) مريم : من الآية ٦٥
(٥) الأنبياء : من الآية ٩٢

من التقصير في حق ذي الحق، فهو مثلا يترك السرقة لأنها مخالفة للقيم السليمة

ـ في البداية يهاب الانسان المعاصي ثم يتعود عليها فلا يستحي ويتجرأ عليها، وفي الحديث: ((الحياء والايمان قرناء إذا رفع احهما رفع الآخر))[1].

ـ كيفية تحقيق اليقين من أجل إيجاد أثره؟:

ـ الطبيعي أن اليقين يؤدي أثره تلقائيا، فإذا لم يتحقق أثر اليقين فالمشكلة ليست في اليقين ولكن في الانسان الموقن نفسه لوجود موانع تمنع من أثره (التجاهل والمعرفة الكاذبة) وذلك بالتذكر والتفكر بطريقة تعيد تأثر الانسان بما يوقن به، والمشكلة الأخرى أنه يحسب أن أثر اليقين هو ما عليه من تأثر ضئيل جدا ولا يعلم أن أثر اليقين هائل جدا.

ـ أثر اليقين هو الهدف ولا يمكن تحقيقه إلا من اليقين الحقيقي:

ـ يحسب البعض أن الأعمال الباطنة يمكن تحقيقها بافتعالها وإيجادها تعمدا مثلما يفعل مع أعمال الجوارح، وهذا خاطئ، فإذا كنت تريد من إنسان أن يحب شيئا ما أو يكرهه فلا يمكن أن تجعله يفعل ذلك أبدا إلا بطريقة واحدة هي أن تجعله يعرف ذلك الشيء وصفاته الجميلة معرفة حقيقية فيحبه.

ـ فالإنسان لن يستطيع أبدا أن يحقق الأعمال الباطنة إلا كأثر تلقائي لمعرفة الغيبيات مع وجود اليقين.

ـ فمثلا لن يستطيع الإنسان أن يحقق حب الله تعالى إلا إذا عرفه وأيقن به، ولن يستطيع أن يحقق النية العامة والنية الخاصة من الطاعة (وهي أنه يطيع الله تعالى حبا له أو خوفا من عقابه أو رجاء ثوابه) إلا إذا عرف الله تعالى وأيقن به.

---

(١) صحيح الترغيب (٢٦٣٦)

ـ لذلك فالطريقة الوحيدة لتحقيق الأعمال الباطنة هي وجود المعرفة واليقين، ولا مانع مع ذلك من الاستعانة بافتعال الأعمال الباطنة من باب (إن لم تبكوا فتباكوا).

ـ يحسب البعض أن المشاعر يمكن تحقيقها بافتعالها وإيجادها تعمدًا مثلما يفعل مع أعمال الجوارح، وهذا خاطئ، فمثلا إذا كنت تريد من إنسان أن يحب شيئًا ما أو يكرهه فلا يمكن أن تجعله يفعل ذلك أبدًا إلا بطريقة واحدة هي أن تجعله يعرف ذلك الشيء وصفاته الجميلة معرفة حقيقية فيحبه.

ـ فالإنسان لن يستطيع أبدًا أن يحقق حب الله والخوف منه ورجاءه إلا كأثر تلقائي لمعرفة الله مع وجود اليقين.

ـ التغيير المطلوب:

ـ لمن لا يفهمون غير لغة الحسابات فالجنة لها ثمن، وثمنها أن تجعل أعمال قلبك وجوارحك تسير في اتجاه الخالق والاخرة وأن تكون موافقة للشرع فهذا ثمن الجنة وهذا هو أصل العبادة.

ـ والتغيير المطلوب هو الانتقال من تعلق القلب بالدنيا الى تعلق القلب بالله والاخرة، والانتقال من تعلق الجوارح بالدنيا الى تعلق الجوارح بالله والاخرة، ولاحظ أن هناك فرق بين أعمال الجوارح وتعلق الجوارح (انظر الفصل التاسع).

ـ وتغيير القلب من أصعب ما يمكن ولا يقدر عليه إلا من وفقه الله تعالى: ((قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا))[١].

ـ لا يزال الكثير من الناس ينظرون الى الدين على أنه مسألة طاعات ومعاصي مع وجود اليقين، ويحسبون أن زيادة الالتزام بالدين في الزيادة في تحصيل معلومات أكثر عن الدين والزيادة في القيام ببعض الطاعات، ولا يعلمون أن هناك أمور قلبية غائبة هي أهم بكثير من الطاعات والمعاصي، والفارق ببين عمل القلب وكل أعمال الجوارح كالفارق بين

---

(١) الشمس: ٩، ١٠

السماء والأرض، والعمل على تحقيق عمل القلب هو أهم شيء ـ وهذا لا يقلل من أهمية عمل الجوارح ـ فمن لم يحقق عمل القلب لم يحقق العبادة.

ـ الدين عبارة عن أعمال ظاهرة وباطنة، ونحن قد نهتم بتحقيق الاعمال الظاهرة وننسى تحقيق الاعمال الباطنة وهي الأهم وتحقيقها أصعب بكثير من تحقيق الاعمال الظاهرة.

ـ وقد يحسب الإنسان أنه قد حقق العبادة وهو لم يحققها، فالإنسان قد يتعلق قلبه بالدنيا ولا يتعلق بالله (عمل القلب) وهو يحسب أنه يعبد الله فهو لا يعرف أن تعلق القلب بالله هو أصل العبادة، والأعجب أنه قد يحسب أن قلبه متعلقا بالله في حين أن العكس هو الصحيح.

ـ ويحسب البعض أن عمل القلب أمر بسيط وموجود عند الجميع بالفطرة**!**

ـ مفهوم تغيير القلب:

ـ القلب إما أن يتعلق بالله والاخرة أو بالنفس والدنيا، وهذا التعلق يمكن أن يتغير كل ساعة وكل يوم، فيمكن أن يزيد أو ينقص أو يزول أو يعود كل ساعة وكل يوم، وبالتالي يجب على الانسان كل يوم أن يبعد تعلقه عن النفس والدنيا ويجعله يتعلق بالله والاخرة ويحافظ على هذا التعلق ويزيده وينميه من خلال التفكر والتدبر والتذكر وما يعين على ذلك كالأذكار مثلا، ولذلك أنصح بقراءة هذا الكتاب مرات كثيرة والقراءة والسماع عن كل من يتحدث عن الله والآخرة باستمرار، ففي الحديث: ((لقلب ابن آدم أشد انقلابا من القدر إذا استجمعت غليانا))[١]، فقد يهتم الانسان بأن يزداد علما بأمور الدين أو يهتم بقيامه ببعض أعمال الدين في حين قلبه يسير في عكس الاتجاه، فقلبه يتراجع شيئا فشيئا عن تعلقه بالله والاخرة حتى يتعلق بالدنيا فيكون خاسرا وهو يحسب أنه يزداد التزاما بالدين**!**.

---

(١) تحقيق الألباني: صحيح (انظر حديث رقم : ٥١٤٧ في صحيح الجامع)

ـ تغيير القلب معناه تغيير نظرة الانسان للأشياء ويرى الأشياء على حقيقتها وبالتالي يرى عظمة الخالق وخطورة الآخرة ويرى ضعف نفسه وضآلة الدنيا، وتغيير مشاعره فيصبح يحب شيئا غير الذي كان يحب ويرجو شيئا غير الذي كان يرجو ويخاف من شيء آخر غير الذي كان يخاف، ويتغير طبيعة تفكيره وما يشغل همه، وتغيير انفعالاته وفرحه وحزنه وغضبه، وتغيير طبيعة تصرفاته وسلوكه وأخلاقه وكلامه ونيته، ويصبح إنسانا جديدا بعقل وقلب جديدين تماما، وأصعب شيء على الانسان هو أن يغير نظرته للحياة ويغير أهدافه التي يعيش لها ويغير همومه ومشاعره، وكل هذا يحدث إذا تحققت المعرفة الحقيقية بوجود الخالق والآخرة.

ـ الكثير من الناس لا يعلمون أن هناك شيء في الدين نحن مطالبين بتحقيقه عبارة عن مشاعر، فهم يعتبرون أن كلمة المشاعر تستخدم فقط في الغناء واللهو، ولا يعلمون أن تحقيق هذه المشاعر أهم من الصلاة والصوم وجميع الأعمال، هذه المشاعر هي كمال الحب لله وكمال الحب للجنة وكمال الرجاء فيها وكمال الكراهية للنار وكمال الخوف منها.

ـ والكثير إذا أرادوا أن يلتزموا بالدين اجتهدوا في الأعمال ولا يعلمون أن تحقيق هذه المشاعر هي الأصل، والمشكلة الأكبر أنهم يحسبون أنها متحققة عندهم والحقيقة أنها على العكس تمامًا فلا حب لهم إلا للمال والشهوات ولا خوف ولا رجاء إلا في أمور الدنيا.

ـ والمشكلة الأخرى هي أن معاني الحب والخوف والرجاء والذل ماتت فأصبحنا في حاجة إلى شرح ماذا تعني كلمة (حب) وكلمة (خوف) وهكذا، وأصبح الكثير يتوهمون أن حب الله والخوف منه ورجاءه والذل له تملأ قلوبهم.

ـ المشاعر عبارة عن أحاسيس وليست كلامًا أو اقتناعًا أو عملًا أو أمورًا هلامية، فحب الله والخوف منه ورجاؤه عبارة عن أحاسيس إذا لم يحس بها الإنسان فهذه المشاعر غير موجودة عنده.

ـ كل انسان لديه مشاعر الحب والخوف والرجاء، والمطلوب تغيير هذه المشاعر من التعلق بالدنيا الى التعلق بالله والاخرة.

****

ـ الدنيا دار امتحان وليست دار إقامة:

ـ الله سبحانه لم يخلقنا ثم يتركنا يعيش كل واحد كيفما يريد وكل واحد يفعل ما يريد، ولم يخلق الله الناس ويحدث ما يحدث بينهم ويتركهم وشأنهم، وإنما خلقهم لحكمة وغاية هي أن يعيشوا وفق ما يريده الله أي لعبادته: ((أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عبثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ))(١).

ـ الهدف من الدنيا هو أنها دار اختبار وهو امتحان في تحقيق العبادة، فلم تخلق الدنيا لتكون مناسبة لنعيش ونقيم فيها ونبحث فيها عن السعادة، فالدنيا كلها بمثابة امتحان، فنحن نعيش الآن في مرحلة اختبار هي أيام عمرنا في هذه الحياة، والمطلوب تحديدًا حتى نكون من أهل الجنة هو النجاح في اختبار الدنيا.

ـ الكرة الأرضية هي مكان الامتحان ومدة الامتحان هي المدة من تاريخ بلوغك وحتى تاريخ وفاتك، والامتحان ليس له دور ثاني أو فرصة أخرى فلحظة الوفاة هي لحظة انتهاء الامتحان بلا رجعة.

ـ والاختبار يشمل كل ما تفعله وتقوله وتشعر به منذ أن بلغت حتى اللحظة التي تموت فيها، فالاختبار يشمل كل الأعمال الظاهرة والباطنة طوال الحياة الدنيا، فنحن نعيش في حالة اختبار، وكل شيء مراقب ومحسوب عليك سواء ما في قلبك أو ما تعمله طوال حياتك، فما نعيشه ليس حياتنا ولكنها حياة اختبار.

ـ بعض الناس يحسب أن مسألة تحقيق العبادة هي جزء من حياته وباقي حياته لأمور الدنيا، ولا يعرف أن حياة الانسان كلها يجب أن تكون قضية واحدة هي تحقيق العبادة.

---

(١) المؤمنون: ١١٥

ـ والبعض يعتبر أن تحقيق العبادة مسألة سهلة ولا يهتم بمعرفة ما هي حقيقة العبادة وكيف يحققها ولا يسأل نفسه هل حقق العبادة أم لا؟

ـ الامتحان الذي خلقنا من أجله هو امتحان تحقيق العبادة، فمن حقق العبادة نجح وفاز بالخلود في النعيم، ومن لم يحقق العبادة خسر وعوقب بالخلود في الجحيم، فهو امتحان عصيب لأن نتيجته خطيرة جدا.

ـ الناس صنفين من حيث التعامل مع الدنيا:

ـ قد يوقن الانسان بأن الدنيا دار امتحان وأن الاخرة دارا للحياة الدائمة في النعيم أو في العذاب، لكنه يتعامل مع الدنيا على أنها دارا للإقامة ولا دار غيرها.

ـ الانسان يعلم أنه لابد من وجود هدف من خلق الانسان وأنه لابد من معرفة ذلك الهدف من خلال الرسل لكنه يتناسى مبدأ وجود هدف من الخلق ويعيش كأن الله خلقنا وتركنا نفعل ما نشاء: ((أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ))[١]، ((أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ))[٢].

ـ الإنسان الغافل يعيش كأن حياة البشر على الأرض والمنظومة الكونية ليس لها أحد يسيطر عليها ويحكمها وكأن كل إنسان يعيش حياته كيف يشاء، كأن البشر موجودون من تلقاء أنفسهم ولا توجد حكمة من إيجادهم، ويتغافل عن كل الأخطار التي حوله ويعيش في الحياة هادئًا مطمئنًا كأن حياته إنما هي على ظهر هذه الأرض.

ـ تصور خطورة الامتحان:

ـ الغرض من وجودنا على الكرة الأرضية هو امتحان عصيب لنا لأن نتيجته خطيرة جدا وهي الخلود في الجنة أو الخلود في النار، فالامتحان

---

(١) الروم: ٨

(٢) المؤمنون: ١١٥

يكون خطيرا على حسب ما يترتب عليه من الثواب والعقاب، فإذا كان الثواب والعقاب هائل جدا كان الامتحان خطيرا جدا.

ـ إن البعض قد يرى مباراة كرة في منافسة ما أنها مصيرية وحاسمة فتحوذ على اهتمامه وتؤثر على أعصابه ومشاعره، ألا يرى هؤلاء أننا نعيش في حالة منافسة مصيرية أشد من هذه المباراة هي الامتحان الذي نعيشه في الدنيا والذي ينتهي بالخلود في الجنة أو الخلود في النار فكيف لا يؤثر ذلك على أعصابهم ومشاعرهم، فأي المنافستين أشد وأخطر وأهم؟

ـ أثر اليقين بأن الدنيا دار امتحان هو التعلق بخطورة الامتحان وليس بالدنيا:

ـ لابد أن يتعامل الانسان مع حياته في الدنيا على أنها عبارة عن امتحان، وهو امتحان خطير جدا لأنه يترتب عليه ثواب وعقاب هائل، وبالتالي فحياة الانسان في الدنيا هي أمر رهيب وخطير جدا لكن عند البعض عادي.

ـ والتعلق بالامتحان يشمل التالي:

ـ الخوف ألا يكون قد حقق العبادة فيرسب في الامتحان والامل في أن ينجح في اختبار العبادة فيفوز بالكأس (الحنة).

حب تحقيق العبادة والخوف من عدم تحقيقها ورجاء تحقيقها والاهتمام بمعرفة ما هي العبادة وما هو المطلوب منه، والاهتمام بأمور العبادة والاهتمام بما هو مطلوب

ـ تصور خطورة الاختبار في أنه يحدث الآن وانتهاؤه في أي لحظة فهو شعور مخيف ومرعب، فيكون هم المؤمن وشعوره طيلة حياته مثل شعور الطالب عند الامتحان بل أعظم بكثير.

ـ عدم شعورك بأنك الآن داخل لجنة الامتحان وأنك في أي لحظة تنتهي من الامتحان (بالموت) معناه أنك لا تزال لا تعرف الآخرة التي هي دار

الثواب والعقاب ومعناه أن الإنسان يقول بمشاعره أن الله خلق البشر وتركهم يفعلون ما يشاءون فهو خلقهم عبثًا.

ـ لابد أن يشعر الإنسان أنه داخل في مسابقة لها جوائز، ولكن وجه الاختلاف عن مسابقات الدنيا أن كل ناجح في هذه المسابقة ينال جائزة كبيرة، وكل خاسر عليه عقاب شديد، وأن هذا السباق ينتهي فجأة، فمرحلة الدنيا هي مرحلة سباق وتنافس في تحصيل الإيمان وجمع الحسنات: ((سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ))[١]، ((وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ))[٢].

ـ الإنسان أثناء السباق أو أثناء الامتحان لابد أن يشعر بالقلق والترقب، ولابد أن يشعر بالتحمس والتحفز كلما قطع خطوات، ويشعر بالضيق كلما أخطأ، وهذا السباق خطير ومصيري؛ لأنه يترتب عليه العذاب الأليم الأبدي أو النعيم المقيم، وبالتالي إذا لم يشعر الإنسان بالقلق وبالمشاعر التي يشعر بها أي إنسان أثناء الاختبار فهذا معناه أنه لا يزال لا يعرف أنه يعيش حياته الآن في مرحلة اختبار، ومعناه أنه لا يزال لا يعرف شيئًا اسمه الآخرة.

ـ وكما أن الاختبار شيء مرعب فهو أيضًا فرصة ذهبية لا تعوض لنيل الجنة والنجاة من النار، فالإنسان طالما لا يزال حيًا في هذه الدنيا فالفرصة لا تزال قائمة أمامه ليغير من مساره ويعمل لإنقاذ نفسه من النار والفوز بالجنة ويتزود من الطاعة، وهذا معناه شعور بالشوق والرجاء والأمل والتطلع إلى الجنة، فالذين ذهبوا للقبور يتمنون لحظة واحدة ليعودوا ويعملوا أي شيء لعله ينقذهم من النار أو يرتقي بهم درجات أعلى في الجنة فلا يسمح لهم.

---

(١) الحديد: ٢١
(٢) المطففين: ٢٦

ـ تجاهل أننا نعيش حياتنا في حالة امتحان:

ـ كل إنسان يعلم أن الدنيا دار امتحان لكنه يتجاهل ذلك أو أن معرفته بذلك معرفة كاذبة ويعيش كأنه مقيم في الدنيا.

ـ وسواء رضينا أم لم نرضَى، وسواء شعرنا بذلك أم لم نشعر، فنحن دخلنا الآن في لجنة امتحان منذ سن البلوغ، ونحن واقعين الآن وفي أثناء هذه اللحظة التي تقرأ فيها هذا الكتاب وفي كل اللحظات تحت رقابة تامة ومتابعة تامة من الخالق نفسه ومن الملكين الرقيب والعتيد، ويتم تسجيل كل شيء بمنتهى الدقة، ومدة الامتحان هي كل فترة عمرنا في هذه الدنيا، وينتهي الامتحان فجأة في أي لحظة ويبدأ بعدها فورًا الحساب حيث احتساب الدرجات والنتيجة.

ـ فتخيل أنك قد جاءت لحظة موتك وذهبوا بك للقبور، فطلبت من الله أن يعطيك فرصة لتعود، وها أنت الآن قد عدت للدنيا وأمامك الفرصة فماذا أنت صانع؟

ـ اليقين الحقيقي بأن الحياة في الدنيا عبارة عن اعداد للموت وما بعده:

ـ هل على الإنسان أن يعيش طوال عمره يعد نفسه للرحيل، أي يعيش في حالة استعداد للموت وما بعده، إن هذه الحياة التي نعيشها ما خلقت إلا لهذا الغرض، فالدنيا ما هي إلا طريق للآخرة، فهل يمكن لإنسان عاقل أن يبني سكنه في الطريق أو الشارع الذي يسير فيه الناس ويعيش ويقيم في طريق المارة، فلا تصلح المعيشة في الطريق، إنما هو مجرد سفر أي معيشة مؤقتة عابرة لضرورة الترحال ولإعداد الحقائب.

ـ فلماذا تأكل ولماذا تشرب ولماذا تأتي وتذهب ولماذا تعمل الطاعات؟ لكي تستعد للموت وما بعده.

ـ فالعاقل هو الذي ينشغل همه طوال حياته بقضية الموت والاستعداد له والآخرة.

ـ بعض الناس عندما يجد فراغا كبيرا في سنوات عمره يخترع لنفسه ما يشغل به وقته، فهو لا يريد أن يعيش منتظرا الموت لأنه في نظره النهاية رغم يقينه بأن الموت انتقال لحياة أخرى أبدية وهو عندئذ يقين كاذب.

ـ أما الذي يوقن يقينا حقيقيا بأن الموت هو انتقال الى الاخرة ولقاء الله فهو يخاف من مهابة البعث، ففي تفسير تنوير المقباس: (({بَلْ كَانُواْ لاَ يَرْجُونَ نُشُوراً} لَا يخَافُونَ الْبَعْث بعد الْمَوْت))[١]، فهو يعمل على تحقيق أعمال القلب وتنميتها (تزكية النفس) والطاعات منتظرا في كل ذلك الموت.

(١) تفسير تنوير المقباس من تفسير ابن عباس (ص: ٣٠٣)

الفصل الرابع عشر
تجاهل الخالق والآخرة

ـ الانسان إذا عرف أمرا مؤثرا وأراد أن يمنع نفسه من التأثر به تناساه وتجاهله حتى يصير كالجاهل به.

ـ المعرفة بالخالق والاخرة تتم بطريقتين هما:

١ـ من خلال رؤية الآيات الكونية وما يستنتجه منها:

ـ فالانسان يعرف بعقله بوجود الخالق ومعظم صفاته أو بعضها ووجود الآخرة وذلك من خلال التفكر.

٢ ـ من خلال السماع لقول الرسل وما وصلنا من كلامهم.

ـ وحتى تكون الحجة دامغة على الانسان فلا يحاسب الله الانسان إذا عرف الخالق والاخرة من خلال العقل فقط بدون وصول دعوة الرسل، كما أن المعرفة بالعقل هي معرفة عامة غير مفصلة وقد تختلف فيها الافهام في بعض الأمور، أما دعوة الرسل ففيها تفصيل لكل شيء وبيان التشريعات، فمن وصلت إليه دعوة الرسل قامت عليه الحجة.

ـ تجاهل الخالق والاخرة يشمل أمران هما:

١ـ تجاهل ما علمه بعقله من وجود الخالق والاخرة.

٢ـ تجاهل ما علمه من الرسل ومن ذكر الله (كلام الله) عن وجود الخالق والاخرة وأمور الدين.

ـ مفهوم التجاهل (التصام ـ التعامي ـ التغابي):

ـ الانسان إذا عرف أمرا مؤثرا وأراد أن يمنع نفسه من التأثر به تناساه وتجاهله حتى يصير كالجاهل به.

ـ قد يعرف الانسان أمرا ولا يستطيع نسيانه لكونه أمرا خطيرا أو يتردد ذكره كثيرا، فماذا يصنع لكي ينساه؟، يتناساه حتى تموت هذه المعرفة

ويصبح كأنه نسيها وكأنه جاهل بها رغم أنه لم ينساها، فهل تعتبر هذا الرجل بأنه جاهل بالأمر أم تعتبره يعرف الأمر؟، فعليا هو كالجاهل ولديه معرفة كاذبة ميتة معطلة لا قيمة لها.

ـ التجاهل يؤدي الى موت المعنى فيجعل الانسان لا يشعر بخطورة الامر، فيصبح الكلام غير مؤثر فلا ينفعل به الذهن ولا تتأثر به المشاعر والجوارح، فالإنسان بتجاهله أمات معنى الكلام الذي سمعه، فإذا مات معنى الشيء أصبح لا قيمة له لأنه لا يتفاعل معه الانسان ولا يحس به ولا ينفعل به ولا يستجيب له فلا يوجد رد فعل لا بالإيجاب ولا بالسلب.

ـ فالإنسان يتجاهل ما يوقن به ويهمله ولا يلقي له بالا ويعيش على مبدأ آخر يختاره لنفسه، فمثلا هو يوقن بأن الدنيا والمال والشهوات الى زوال وأن السعادة في رضا الله والجنة، لكنه يتجاهل ذلك ويعيش على مبدأ أن المال هو أعظم شيء في الحياة وأن السعادة في المال، فيكون عمله وهمه وأهدافه ومشاعره وحياته للمال والشهوات والدنيا.

ـ وهو يوقن بأن الرزق هو من الله وهو مضمون وأن عليه أن يمشي في طلب الرزق وليس يسارع إليه، لكنه يتجاهل ذلك ويعيش على مبدأ أن الحصول على المال والرزق ليس من الله وإنما هو من سعي الانسان وأنه ليس مقدارا ثابتا مقدر للإنسان وإنما يختلف بحسب سعيه وأن عليه أن يسارع وليس مجرد أن يمشي في طلبه، لذلك تجد قلبه وجوارحه متعلقة بطلب الرزق.

ـ ومثلا هو يوقن بأن الجنة هي التي تستحق أن يسعى إليها الانسان لأن كل لذات الدنيا ليست بشيء أمام الجنة، لكنه يتجاهل ذلك ويعيش على مبدأ أن المال أو شهوات النساء أو المظاهر والمناصب والألقاب أو التغلب على مشاغل الحياة وهمومها هي التي تستحق أن يسعى الانسان له.

ـ الفرق بين الجاهل لعدم السماع أو عدم الفهم والجاهل بسبب التجاهل والمعرفة الكاذبة:

ـ الأول لم يسمع والثاني كأنه لم يسمع، والاول لم يفهم والثاني كأنه لم يفهم، والأول لم يعرف والثاني كأنه لم يعرف، والأول لا يصدق ولا يكذب والثاني كأنه لا يصدق ولا يكذب.

ـ الاول ليس له أي علاقة بالأمر فلا تتأثر به مشاعره لا سلبًا ولا إيجابًا، فلا يحبه ولا يكرهه ولا يفرح به ولا يحزن عليه، ولا يعمل له حسابًا ولا يهتم به أو ينشغل به، فلا تربطه به أي علاقة سواء سلبًا أو إيجابًا.

ـ والثاني هو أيضا ليس له أي علاقة بالأمر فلا تتأثر به مشاعره لا سلبًا ولا إيجابًا، فلا يحبه ولا يكرهه ولا يفرح به ولا يحزن عليه، ولا يعمل له حسابًا ولا يهتم به أو ينشغل به فلا تربطه به أي علاقة سواء سلبًا أو إيجابًا، أي يصبح وجود الجنة والنار لا يؤثر فيه، ووجود قدرة الخالق المحيطة به والغالبة عليه لا تؤثر فيه لا في مشاعره ولا في عمله، وكذلك مسألة الحلال والحرام لا تؤثر فيه، فهو يفعل ما يراه لدنياه غير مهتم بأن هذا الأمر موافق أم مخالف للدين.

ـ الأول لا يصدق ولا يكذب بالأمر وليس معه ولا ضده لأنه لا يعرفه أصلًا.

ـ والثاني قد يكون مصدقا أو مكذبا أو منافقا، وإذا كان غير موقنا قد يظهر عدم يقينه وقد لا يظهره، ويكون حاله كأنه ليس معه ولا ضده، وكأنه لا يصدقه ولا يكذبه رغم أن قد يوقن به ويقينه عندئذ كاذبا.

ـ والأول معذور بجهله والثاني غير معذور.

ـ لماذا يتجاهل الانسان الخالق والاخرة؟:

ـ المعرفة بالله والاخرة تؤدي إلى أن يعيش الانسان خاضعا تعظيما لله حبا وخوفا ورجاء، ولكن الانسان مغرور بما عنده من نعم كالإرادة والعقل والمال وتسخير الأشياء له فهو يحسب أنه قوي بما يمتلك من هذه

النعم لذلك لا يريد أن يعيش معيشة الخضوع ويريد معيشة الحياة العاجلة، فيتجاهل الخالق والاخرة.

ـ الضعيف يعظم القوي اعجابا بقوته وخوفا من عقابه ورجاء ثوابه بحسب درجة قوته وشدة عقابه وثوابه، فيعمل له ما يسره في مرة أو عدة مرات، فإذا كانت قوته وشدة عقابه وثوابه تصل الى الكمال عاش حياته كلها للعمل بما يسره تاركا معيشته لنفسه، وهذا هو الخضوع، والخضوع فيه ألم والانسان مستكبر.

ـ فيتجاهل الخالق حتى يتوهم أنه قوي، ويتجاهل أن ما يتمتع به من النعم هو من الله حتى يتوهم أنه قوي بها كأنها ملكه.

ـ وجود الاخرة جعل النعم التي يتوهم الانسان أنه قوي بها لا شيء وبالتالي فهو لا يزال ضعيف حتى لو توهم ملكيته للنعم، وبالتالي يتجاهل الاخرة حتى يشعر بأنه قوي والقوي لا يخضع لغيره.

ـ النفس مجبولة على حب الشهوات والسعادة وما فيه الراحة واللذة وتكره الذلة والانكسار والخضوع لأي أحد أو أي شيء لأن في ذلك ألم لها، لذلك فالنفس لا تحب الخضوع لله والدين فتريد أن تتحرر من ذلك، فالنفس من داخلها تتكبر وتأبى أن تستسلم.

ـ فالإنسان قبل أن يعرف الغيبيات هو مغرور بالنعم فيرى نفسه قويا بها وليس ضعيفا وبسبب هذا الغرور لا يرضى أن يعيش ضعيفا ذليلا، فلما عرف الغيبيات تناساها حتى يظل على غروره وعدم خضوعه، فالإنسان يتناسى الغيبيات لأنه بدون الغيبيات لا يكون هناك أحد أقوى من الانسان وقادر عليه فلا يعيش حياته أسيرا لمن هو أقوى منه.

ـ لماذا يتجاهل الانسان أمرا هو لا يوقن به أصلا؟:

ـ التجاهل يكون في وجود أو عدم وجود اليقين.

ـ الطبيعي أن الانسان الموقن بالله والاخرة إذا أراد أن يهرب من الاخرة ولقاء الله أن يلجأ إلى التجاهل، ولكن لماذا يلجأ الانسان الغير موقن إلى التجاهل؟

ـ عقل الانسان مصمم بحيث أنه يقتنع بالشيء إذا عرف أدلته ولا يقتنع بشيء لا يعرف أدلته، ولكن يستطيع الانسان أن يخالف الفطرة فلا يقتنع بأمر عليه دليل، وذلك بأن يعطل عقله ويوقف تفكيره عند شبهة معينة أو تقليدا، والذي يعطل عقله يكون مهزوما أمام نفسه، لذلك يلجأ الى التجاهل ليهرب من مواجهة نفسه بالأدلة الواضحة لأن تذكر الأمر قد يجعله يوقن به: (({فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ (٦٤) ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ} [١].

ـ التجاهل يشمل التصام والتعامي والتغابي:

ـ مداخل المعرفة هي السمع والرؤية والفهم، والانسان يتجاهل أنه سمع أو رأى أو فهم، فالتجاهل يشمل التصام (التظاهر بأنه أصم لا يسمع) والتعامي (التظاهر بأنه أعمى لا يرى) والتغابي (التظاهر بأنه غبي لا يفهم).

ـ التجاهل معناه أنه يتكلف أن يكون حاله حال الجاهل بالأمر، أي يتكلف أن يكون حاله حال الذي لم يسمع عن الامر ولم يراه ولا يفهم معناه، أي يتوهم أنه لم يسمع ولم يرى ولم يفهم الامر.

ـ فهو يبتعد عن سماع أو رؤية كل ما يذكر بالأمر ويبتعد عن كل ما يدعوه الى التفكير والتدبر في الامر، ولو أسمعته الامر يتوهم أنه لم يسمع ما قلته له ويمنع نفسه من التفكير في المعنى أو تدبره كأنه لا يفهم معناه ولا يتكلم في الامر ويغير الحديث للكلام في أمر آخر، فهو يريد أن يعيش معيشة الجاهل بالأمر.

ـ التجاهل يشمل سبعة أمور هي:

١ـ يتوهم الجهل:

ـ أي يتوهم ويتصور لنفسه كأنه لم يسمع عن الأمر أو لا يفهمه.

ـ أي اللا مبالاة وعدم الاهتمام وعدم الاعتناء وعدم الاكتراث والتعامل مع الأمر كأنه لعب ولهو وأساطير وهزل ومزاح وليس جدًا، أي كأنه

(١) الأنبياء: ٦٤، ٦٥

شيئًا تافهًا لا قيمة له وغير مهم، فهو يتعامل مع الغيبيات كأنه نسيها وبالتالي لا يتأثر بها ولا تكون لها أثر في قلبه او حياته، أي يريد أن يكون جاهلا بها وألا يتأثر بها.

٢ـ يبتعد عن التفكير والتفكر والتذكر:

ـ يبتعد عن التذكر والتدبر والتفكر في الامر كأن الامر لا قيمة له أو لا يستحق التفكير فيه.

ـ يتعامى عن النظر في الآيات الكونية وذلك بأن يحصر تفكيره في حدود الأسباب فقط، فالمرض بسبب الفيروس وحرارة الجو مثلًا، ولا يتفكر في من الذي صنع الفيروس وجعله يقدر على الإنسان ويجعله ضعيفًا ومريضًا؟، ويحسب أن سبب تعرض السفينة للانقلاب هو الريح والأمواج ولا يتفكر في من الذي يسير الريح؟، ويتصور أن الشفاء من الدواء والزمن هو الفاعل للشيخوخة وهكذا.

ـ فلا يتفكر في أن هناك قوة خفية خارجية خارقة للأسباب هي التي أحدثت ذلك الأمر.

ـ فالتوقف عند الحدود المادية للأسباب يجعل الإنسان يشعر أن الأسباب هي التي أوجدت وصنعت وخلقت هذه الأمور، وإن كان مقتنعًا أن الخالق هو الذي أوجدها، فيعيش بمشاعره في دنيا الأسباب.

٣ـ يبتعد عن كل ما يذكر بالأمر:

ـ يمنع نفسه من كل ما يذكره بالله والآخرة ويبتعد عن كل ما يدعوه إلى التفكير في خطورة الغيبيات، فكل ما يذكره بالغيبيات من سماع أو رؤية أو كلام أو أعمال يبتعد عنه، أي يبتعد بسمعه وبصره وكلامه وهمه عن الغيبيات وكل ما يتعلق بها.

ـ فلا يحب أن يذكره أحد بالله والآخرة والموت والآيات الكونية والحلال والحرام ولا يرد على المتحدث إذا تكلم في ذلك، ويهرب من سماع ذلك، ولا يتكلم في الأمر مع أي أحد، كأن الأمر غير مطروح أصلًا كأنه أمر تافه، ولا يُذَكِّر نفسه بذلك ولا يفكر في ذلك ولا يتحدث بذلك مع الناس ويبتعد عن كل ما يذكره بالله والآخرة كالأذكار والقرآن وغير ذلك.

ـ الكلام عن الغيبيات يذكر بها، فيبتعد عن ذلك أو يلجأ لتحوير الكلام والتحول الى الحديث في آمر آخر، فيتصنع كأنه لم يسمع وكأنه ليس له موقف في الأمر كأنه لا يعرفه.

ـ وكذلك فالطاعات تذكر الانسان بالغيبيات لذلك يهرب منها ويتناساها ولا يتكلم في ذلك كأنه لم يسمع عنها، وهو يترك بعض أو كل الطاعات بطريقة الهروب، أي الهروب والتولي والابتعاد والإعراض عن كل ما يذكر بالأمر.

ـ فهو يمنع نفسه من التفكير في مدى قدرة الله وخطورة الآخرة ويمنع نفسه من كل ما يذكره بالله والآخرة ويستمر على ذلك حتى يكون كالسكران الذي لا يدري ما الله وما الآخرة ويؤدي ذلك إلى أن يعيش حياته كأنه لم يسمع عن الله والآخرة.

٤ ـ إذا سمع او رأى شيئا أو تكلم في أمر أو عمل عملا يذكر بالله والاخرة لم يتفكر ولم يتذكر:

ـ إذا سمع أو رأى شيئا أو تكلم في أمر أو عمل عملا يذكر بالله والاخرة لا يتصور خطورته الأمر ولا يتفكر فيه ولا يشغل به همه: ((وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ))(١).

٥ـ التلهي بشغل الهم بقضايا الدنيا على حساب تذكر الآخرة:

ـ فهو يتلهى بالدنيا للابتعاد عن الغيبيات، فالقضايا التي تشغل همه وتفكيره وكلامه ونقاشاته وطموحاته كلها أمور الدنيا ومشاغلها وليس فيها الآخرة، ويتجاهل أي شيء فيه تذكير بالله والآخرة كأنه لا يسمع.

ـ فالإنسان قد يصدق بالآخرة ولقاء الله لكن لا يعبأ بذلك ولا يهتم به ولا يتأثر به ولا يشغل همه به فهو رجل دنيوي كل همه الدنيا وكل كلامه للدنيا وكل مشاعره وطموحاته الدنيا.

---

(١) الأنفال: ٢٣

ـ قد يشغل الانسان كل تفكيره في قضايا الدنيا ومشاغل الحياة وبالتالي لا يعطي لنفسه فرصة لتذكر الآخرة، فكلما شغل الانسان همه بأمور الدنيا كلما لم يجد في ذهنه فرصة للتذكر.

ـ فقد يكون كل هم الانسان طوال حياته هو التغلب على أعباء الحياة ومشاكلها اليومية والتغلب على ما عنده من مشاكل وصراعات دنيوية والخروج من الفقر أو نقص المال وغير ذلك، أو يعيش كل حياته من أجل أن يمد زوجته وأولاده بكل ما يحتاجونه.

ـ مشاغل الحياة ومشاكلها وكثرة الاعمال الدنيوية والواجبات الكثيرة التي يجب على الانسان القيام بها كل ذلك يسرق وقت الانسان ويسرق عمره ويشغل همه طول وقته فلا يترك له أي فراغ من وقت أو هم ليتذكر ويتفكر.

ـ والعجيب ان الانسان إذا وجد فراغا في الوقت وقلة ما يشغل همه من أمور الدنيا فانه يتضايق ويبحث عما يسلي وقته ويجعل وقته يمر مثل كثرة الجلوس على المقاهي وغير ذلك أو يشغل وقته بشيء لا يحتاج إليه وبدون داعي.

ـ فهو يعيش الحياة ويخوض فيها وينشغل بأمور الدنيا ولا يفكر فيما سواها، ففي تفسير البغوي: (({يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا} يعني: أمر معاشهم، كيف يكتسبون ويتجرون، ومتى يغرسون ويزرعون ويحصدون، وكيف يبنون ويعيشون، قال الحسن: إن أحدهم لينقر الدرهم بطرف ظفره فيذكر وزنه ولا يخطئ وهو لا يحسن يصلي، {وَهُمْ عَنِ الآخرة هُمْ غَافِلُونَ} ساهون عنها جاهلون بها، لا يتفكرون فيها ولا يعملون لها))(١)، وفي تفسير المراغي: (({ذلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ} أي أن منتهى علمهم أن يتفهموا شئون الحياة الدنيا، ويتمتعوا باللذات، ويتصرفوا في التجارات، ليحصلوا على ما يكون لهم فيها من بسطة في المال، وسعة في الرزق، ويكونوا ممن يشار إليهم بالبنان، وما به يذكرون لدى

(١) تفسير البغوي -دار إحياء التراث العربي- بيروت (ج: ٣، ص: ٥٧١)

الناس، ولا يعنون بما وراء ذلك، فشئون الآخرة دبر أذنهم، ووراء ظهورهم، لا يعرفون منها قبيلا من دبير))[١].

٦ـ التلهي بشغل الوقت والجوارح بالأعمال التي تذكر بالدنيا على حساب الاعمال التي تذكر بالله والآخرة حتى لا يفكر في شيء غيرها:

ـ أي الانشغال بغذاء الجسد على حساب غذاء الروح.

ـ فهو يتشاغل عن الله والاخرة بالدنيا ومشاغلها ومظهر الدين حتى يأتي الموت.

ـ الانسان يعيش حياة في الدنيا وحياة في الآخرة، ولكن الحياة الدنيا لا تزيد عن كونها ثانية أو أقل بالنسبة للحياة في الآخرة لذلك فانشغال الهم وتعلق القلب بالحياة في الآخرة لابد أن يكون أكبر بكثير من انشغال الهم وتعلق القلب بالحياة التي في الدنيا وما يتعلق بها من غذاء الجسد.

ـ استغراق الإنسان في أعمال الدنيا وأمورها يؤدي إلى سرقة عمر الإنسان فيموت ولم يجد وقتًا يشغل فيه همه بمعرفة الله والآخرة.

٧ـ يظهر التجاهل على سلوكه:

ـ ويظهر التجاهل من خلال سلوك الإنسان وانفعالاته وردود أفعاله وكلامه، فتجده يبتعد بسمعه وبصره وكلامه وهمه عن الغيبيات وكل ما يتعلق بها ويترك أي عمل يتعلق بالغيبيات بطريقة الهروب والتجاهل وعدم الحديث في الأمر والتعامل كأنه لم يسمع عن الغيبيات، ولا هم له إلا المال والدنيا ولا كلام له إلا عن أمور الدنيا، وهو يعيش كأنه لم يسمع عن الدين أو كأنه لا يفهم معنى الخالق أو معنى الآخرة، فلا هو مع الدين ولا ضد الدين ولا يوالي ولا يعادي ولا يتأثر به، ويبدو من سلوكه أنه إنسان مادي كل تفكيره في أمور الدنيا وكل عمله للدنيا، فالقضايا التي تشغل همه وتفكيره وكلامه ونقاشاته وطموحاته كلها أمور الدنيا ومشاغلها وليس فيها الآخرة، ويتجاهل أي شيء فيه تذكير بالله والآخرة كأنه لم يسمع، فلا يحب أن يذكره أحد بالله والآخرة والموت والآيات

---

(١) تفسير الشيخ المراغي ـ شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر (ج: ٢٧، ص: ٥٦)

الكونية والحلال والحرام ولا يرد على المتحدث إذا تكلم في ذلك، ويهرب من سماع ذلك، ولا يتكلم في الأمر مع أي أحد، كأن الأمر غير مطروح أصلًا كأنه أمر تافه، ولا يُذَكِّر نفسه بذلك ولا يفكر في ذلك ولا يتحدث بذلك مع الناس ويبتعد عن كل ما يذكره بالله والآخرة كالأذكار والقرآن وغير ذلك، فالآخرة ليست في همه ولا على باله ولا في حساباته ولا في مشاعره وليست هدفه.

ـ وقد يبدو من سلوكه حرصه الشديد على المال وكل همه وحزنه وفرحه على المال وكل عمله للمال وكل كلامه عن المال والحسد والحقد على من يملك المال.

ـ ويعيش كأنه لا علاقة له بالغيبيات، فلا يتأثر قلبه ولا عمله بالغيبيات، فيعيش للدنيا فتكون مشاعره وهمومه وأهدافه للدنيا.

ـ وهو إنسان مادي دنيوي يعيش للدنيا، وهدفه أن يعيش في سعادة، وإما أنه يريد السعادة لنفسه فقط أو يدعو إلى السعادة للجميع، فإذا كان يريد السعادة للجميع فهو عندئذ على خلق لا يغش أو يسرق أو يظلم غيره.

ـ التجاهل له ثلاثة مراحل:

ـ هناك تفاوت كبير في درجة التجاهل، فقد يكون التجاهل صارخ وواضح، وقد يكون التجاهل ضعيف وغير واضح.

ـ وقد لا يشعر الانسان أنه يتجاهل وذلك من تعوده على التجاهل فأصبح تلقائيا.

ـ التجاهل يكون بالقلب وبالسلوك الظاهر، والتجاهل الظاهر غالبا ما يكون بأسلوب التورية والتبرير والهروب فلا يشعر به أحد، وقد يبرر لنفسه أن تعلقه بالدنيا ليس ابتعادا عن الدين!

ـ التجاهل الظاهر لا يعتبر دليلا قاطعا على وجود التجاهل في القلب فلا يعلم ما في القلب إلا الله والانسان في نفسه.

ـ التجاهل له ثلاثة مراحل؛ ففي البداية يتكلف الانسان التجاهل ثم يصير التجاهل أمر في طبيعته العادية ثم يستمر في التجاهل فيطبع على قلبه فلا يستطيع الخروج منه.

ـ ومراحل التجاهل هي:

١ـ المرحلة الأولى: في البداية يتكلف التجاهل ولا يكون كالجاهل، فهو يبتعد عن كل ما يذكره بالأمر ولكن إذا ذكره أحد يتذكر.

٢ـ المرحلة الثانية: يصير التجاهل أمر في طبيعته العادية ويكون كالجاهل، فهو يبتعد عن كل ما يذكره بالأمر ولكن إذا ذكره أحد قد يتذكر وقد لا يتذكر بحسب درجة تجاهله وبحسب توفيق الله له في أن يتذكر في أحد المرات التي يسمع فيها ما يذكره بالأمر.

٣ـ المرحلة الثالثة: يستمر في التجاهل ويكون كالجاهل، وإذا ذكره أحد لا يتذكر أبدا فيكون تذكيره مستحيلا أو أشبه بالمستحيل، وهنا يكون قد طبع على قلبه.

ـ ففي المرحلة الأولى والثانية يكون فيها التجاهل قابل للعلاج، وفي هذه الحالة قد يؤدي التذكير الى احياء أثر المعرفة من أول مرة تذكره بها أو في أحد المرات التي تذكره بها يشاء الله له أن ينتبه ويتفاعل مع الامر، وقد تذكره مرات كثيرة جدا فلا يتذكر ولكن يشاء الله في أحد المرات أن يتذكر.

ـ وفي المرحلة الثالثة وهي الاستمرار في التجاهل يكون فيها التجاهل غير قابل للعلاج أو صعب العلاج.

ـ وهناك تفاوت كبير بين الناس، فمن الناس مهما حدثته عن معلومات هائلة عن الخالق وعن الآخرة وأفهمته المعاني لن يتأثر، أي لا يحدث انفعال ودهشة وتعجب وانبهار من غرابة الأمر وخطورته، وبالتالي لا تتأثر مشاعره حبا وخوفا ورجاءً وبالتالي لا يخضع بقلبه وجوارحه، فلعل الله قد طبع على قلبه، ومن الناس من يتعرض لموقف مثل موت قريب له أو يستمع لموعظة ذات مرة فتكون سببا في إحياء المعرفة عنده وهدايته وتتغير بذلك حياته كلها.

ـ إذن لماذا لا يتعظ الانسان ولماذا لا تؤثر فيه المواعظ وهو كل يوم يرى من مات ومن ابتلي وغير ذلك؟، فذلك بسبب الاستمرار في التجاهل (التصام ـ التعامي ـ التغابي) والمعرفة الكاذبة (السماع والرؤية والفهم الكاذب) فمهما تعظه لا يتعظ.

ـ التجاهل (التصام ـ التعامي ـ التغابي) حيلة الاغبياء:

ـ وجود الغيبيات جعل الناس يعيشوا حياتهم خاضعين، فإذا أرادوا أن يعيشوا أحرارا فعليهم أن يتناسوا الغيبيات كأنها غير موجودة، وهذا من الغباء لأن التناسي لن يلغي وجود الغيبيات.

ـ كل إنسان يوقن يقينًا تامًا بأنه سيموت، ولكن الإنسان لا يريد أن يموت، فيلجأ إلى حيلة وهي أنه يتجاهل قضية الموت ويتغافل عنها ولا يشغل همه بها ويعيش كأنه لن يموت وبذلك يتوهم أنه لن يموت!

ـ فالذي لا يريد أن يذهب إلى الآخرة، أو يريد ألا يكون هناك آخرة وحساب يلجأ إلى حيلة وهي أنه يغمض عينه عن الآخرة ويتناساها فيعيش كأنه لا آخرة رغم اليقين التام بها، وهذه حيلة الأحمق، فالهروب من الآخرة بالتغافل عنها لن يمنع من مجيئها، وكل الناس مسافرون إلى الآخرة ولقاء الله تعالى رغمًا عنهم سواء رضوا بذلك أم لم يرضوا، وكل الناس ذاهبون إلى الموت رغمًا عنهم، والفرار من الآخرة ومن لقاء الله ومن الموت وتناسي ذلك والتغافل عنه وتجاهله لن يفيدهم شيئًا.

ـ فيمكن تشبيه ذلك بإنسان يعيش في منزل آيل للسقوط، لكنه لا يريد أن يغادر المنزل فماذا يصنع؟ يتناسى الأمر كأنه غير حاصل ويشغل تفكيره بأمور أخرى حتى لا ينشغل تفكيره بذلك الأمر، وهذا من الغباء طبعًا.

ـ كذلك الذي سوف تنتهي حياته في أي لحظة، لكنه لا يريد أن يترك الدنيا التي يعتبرها داره وفيها متاعه فماذا يصنع؟ يتناسى الأمر كأنه غير حاصل ويشغل تفكيره بأمور أخرى حتى لا ينشغل تفكيره بذلك الأمر، وهذا من الغباء طبعًا، أما العاقل فيظل تفكيره منشغلًا بهذا الأمر طالما أنه ما زال مقيمًا في هذه الدنيا.

ـ والهدف من التجاهل هو الهروب من الاخرة والهروب من لقاء الله، وهذا الهروب لن يفيده شيئا ولن يغير من حقائق الأمور شيئا، فالآخرة قادمة سواء رضيت أم لم ترضى وسواء تناسيت أم لم تتناسى وسواء أيقنت بذلك أم لم توقن، فهو بذلك كالنعامة التي تضع رأسها في الرمال حتى لا يراها الأعداء.

ـ وكل الناس سوف يذهبون إلى الآخرة، فإذا لم يعجبك الأمر فامتنع عن الذهاب إلى الآخرة إن استطعت!: ((إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ (١٣٤) قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ))(١)، ((قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فإنه مُلاقِيكُمْ))(٢)، ((وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ))(٣).

ـ نحن نعيش في هروب وتجاهل للموت وهروب وتجاهل للآخرة وهروب وتجاهل وتغافل عن الله، وهذا الهروب وهذا التجاهل والتغافل لن يغير من حقائق الأمور شيئًا؛ فالخطر قائم ونحن مقبلون عليه رضينا أم أبينا، والأمر خطير وعظيم: ((قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ (٦٧) أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ))(٤)، إنك مهما حاولت التغافل والهروب عن الحقيقة والمصير القادم، فإنها أيام قليلة وغدًا اللقاء رضيت أم لم ترضَ، شعرت بذلك أم لم تشعر، وقد سبقك الكثير إلى هناك، فالقضية حاسمة وخطيرة ولا تحتمل التراخي ولكننا في غفلة، وغدًا تنتهي الحياة فماذا أنت صانع؟!

(١) الانعام: ١٣٤، ١٣٥
(٢) الجمعة: ٨
(٣) البقرة: ٩٦
(٤) ص: ٦٧

الفصل الخامس عشر
الأدلة على تجاهل الخالق والآخرة

ـ الرسل جاءت من أجل أن تأمر الناس بعبادة الله، فالغرض من تجاهل الانسان لما جاءت به الرسل هو ألا يسلم حتى لا يخضع (حتى لا يحقق العبادة) وإذا كان منتسبا للإسلام فالهدف من التجاهل هو ألا يخضع (حتى لا يحقق العبادة).

ـ فهو يتجاهل كل ما يدعوه للخضوع، فيتجاهل ما سمعه من الرسل ويتجاهل ما سمعه عن الخالق والاخرة ويتجاهل رؤيته للآيات الكونية ويتجاهل الموت ولقاء الله تعالى لأن كل ذلك يدعوه للخضوع سواء كان منتسبا للإسلام أم غير منتسب.

ـ وبتعبير آخر فأثر اليقين هو الخضوع (التعلق بغير النفس، أي التعلق بالله تعالى) والغرض من التجاهل هو منع أثر اليقين.

ـ ومنع أثر اليقين إما بعدم تحقيق اليقين نفسه أو بتجاهل ما يوقن به، وقد يكون الانسان موقنا وينتسب للإسلام ويقوم ببعض اعمال الدين الظاهرة لكنه لا يريد أن يعيش خاضعا، فيتجاهل الخالق والاخرة ويختار أن يعيش للدنيا، فهو يتعلق بنفسه وبالدنيا ولا يتعلق بالله والاخرة.

ـ تجاهل الخالق والاخرة يشمل أمران هما:

١ـ تجاهل ما علمه بعقله من وجود الخالق والاخرة من خلال رؤية الآيات الكونية وما يستنتجه منها.

٢ـ تجاهل ما سمعه من كلام الله وكلام رسله عن وجود الخالق والاخرة وأمور الدين، وكلام الله وكلام رسله يسمى بـ (ذكر الله) ويسمى أيضا بـ (الذكر)

ـ تعبيرات القرآن عن تجاهل الخالق والاخرة وتجاهل كلام الله ورسله (أي تجاهل الذكر أو تجاهل ذكر الله تعالى):

١ـ التناسي:

ـ نسيان الله والاخرة والرسل المقصود منه التناسي والتجاهل، فهو يتناسى حتى يصير كالذي نسي، فهو عطل المعرفة بتناسيها فأصبح كالجاهل بها.

ـ وألفاظ القرآن عن تناسي الخالق هي: (نَسُوا اللَّهَ) وعن تناسي الاخرة هي: (نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ) و(نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا) و(نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا) وعن تناسي كلام الله ورسله هي: (نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ) و(نَسُوا الذِّكْرَ) و(نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ) و(فَنَسِيتَهَا) و(أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي).

ـ ((نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ))[١] معناه أعرض عن كل ما يذكر بالخالق ومدى قدرته وعظمته فلا يسمع كلاما يذكر به ولا يرى شيئا يذكر به ولا يعمل شيئا يذكر به، أي كأنه نسي الخالق، أي لم يلقِ له بالًا ولم يهتم به ولم ينتبه له وترك الاهتمام به كالمنسي، فعامله الله بمثل المعاملة فتركه في النار لم يلقِ له بالًا كأنه نسيه ولم ينسَه.

ـ {فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ }[٢]، ((إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ))[٣]، ((وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنْسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا))[٤]، ((فَالْيَوْمَ نَنْسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا))[٥]، ((نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ))[٦]، ((قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى))[٧]، ((وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ

---

(١) التوبة: ٦٧.
(٢) السجدة: ١٤.
(٣) ص: ٢٦.
(٤) الجاثية: ٣٤.
(٥) الأعراف: ٥١.
(٦) التوبة: ٦٧.
(٧) طه: ١٢٦.

أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ))(١)، ((فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّى أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ))(٢).

ـ ((وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ))(٣)، ((يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ))(٤)، ((فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّى أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ))(٥).

ـ وفي تفسير الشيخ المراغي: (({فَلَمَّا نَسُوا ما ذُكِّرُوا بِهِ} أي أنهم لما تركوا ما ذكّرهم به الصالحون وأعرضوا عنه حتى صار كالمنسيّ في كونه لا تأثير له))(٦)، وفي تفسير ابن كثير: (({فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا به} أي: أعرضوا عنه وتناسوه وجعلوه وراء ظهورهم))(٧)، وفي تفسير أبي السعود: (({فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكّرُواْ بِهِ} أي تركوا ما ذكرهم به صلحاؤُهم تركَ الناسي للشيء وأعرضوا عنه إعراضًا كليًا بحيث لم يخطُر ببالهم شيءٌ من تلك المواعظ أصلًا))(٨).

ـ وفي أيسر التفاسير للجزائري: (({قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا}(٩) أي تركتها ولم تلتفت إليها مُعرضًا عنها))(١٠)، وفي تفسير أبي السعود: (({فَنَسِيتَهَا} أي عَمِيتَ عنها وتركتها ترْكَ المنسيِّ الذي لا يُذكر أصلًا))(١١).

٢ـ التغافل:

ـ الغفلة يقصد بها التغافل، أي تغافل عن الشيء وتجاهله أي جعل نفسه كالغافل عنه والجاهل به كأنه لم يسمع عنه:

---

(١) الحشر: ١٩.
(٢) المؤمنون: ١١٠.
(٣) الفرقان: ١٨.
(٤) الأعراف: ٥٣.
(٥) المؤمنون: ١١٠.
(٦) تفسير الشيخ المراغي ـ شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر (٩ / ٩٦).
(٧) تفسير ابن كثير / دار طيبة (٣ / ٢٥٦).
(٨) تفسير أبي السعود ـدار إحياء التراث العربي- بيروت (٣ / ٥٩).
(٩) طه: ١٢٦.
(١٠) أيسر التفاسير للجزائري مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، السعودية (٣ / ٣٨٨).
(١١) تفسير أبي السعود دار إحياء التراث العربي ـ بيروت (٤ / ٣٩٢).

ـ ((وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ))(١)، ((فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ))(٢)، ((اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ (١) مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ إلا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ، لاهِيَةً قُلُوبُهُمْ))(٣)، ((يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخرة هُمْ غَافِلُونَ))(٤)، ((وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الأمر وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ))(٥)، ((اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ))(٦)، ((وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ))(٧)، ((لَقَدْ كُنْتَ فِي فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ))(٨).

ـ وفي تفسير الجلالين: (({الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ} جَهْل يَغْمُرهُمْ {سَاهُونَ} غَافِلُونَ عَنْ أَمْر الْآخِرَة))(٩).

٣ ـ التعامي:

ـ ففي التفسير المنير للزحيلي: (({وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ} يتعام ويتغافل ويعرض عن النظر في القرآن والعمل به ... والمراد بالآية: إن من يعرف كون القرآن حقًا ولكنه يتغافل عن ذلك فهو في ضلال، ومادة كل آفة وبلية الركون إلى الدنيا وأهلها، فإن ذلك بمنزلة الرمد للبصر، ثم يصير بالتدريج كالعشى، ثم كالعمى))(١٠)، وفي تفسير البيضاوي: (({وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمنِ} يتعام ويعرض عنه لفرط اشتغاله بالمحسوسات وانهماكه في الشهوات))(١١)، وفي تفسير روح المعاني: (({وَما كانُوا يُبْصِرُونَ} أي

(١) يونس: ٧.
(٢) يونس: ٩٢.
(٣) الأنبياء: ١ ـ ٣.
(٤) الروم: ٧.
(٥) مريم: ٣٩.
(٦) الأنبياء: ١.
(٧) الأنبياء: ٩٧.
(٨) ق: ٢٢.
(٩) تفسير الجلالين: (ص: ٦٩٣)
(١٠) التفسير المنير للزحيلي -دار الفكر المعاصر- دمشق (٢٥ / ١٥٦).
(١١) تفسير البيضاوي -دار إحياء التراث العربي- بيروت (٥ / ٩١).

أنهم كانوا يتعامون عن آيات الله تعالى المبسوطة في الأنفس والآفاق))[١].

٤ ـ التصام:

ـ أي يتجاهل ما سمعه من كلام الله وكلام رسله عن وجود الخالق والاخرة وأمور الدين، فيتوهم أنه لم يسمع ولا يسمع الأمر سماع تفهم واستبصار:

ـ ففي تفسير الجلالين: ((وقالوا لو كنا نسمع أي سماع تفهم أو نعقل أي عقل تفكر ما كنا في أصحاب السعير))[٢]، وفي تفسير روح المعاني: (({فهم لا يسمعون} أي سماع تفهم واعتبار))[٣]، وفي تفسير روح المعاني أيضًا: ((إن في ذلك لآيات لقوم يسمعون: أي شأنهم أن يسمعوا الكلام سماع تفهم واستبصار... من ألقى السمع وهو شهيد ينتبه لوعظ الله تعالى ويصغى إليه))[٤].

ـ وفي تفسير القرطبي: (({وهم لا يسمعون} أي لا يتدبرون ما سمعوا ولا يفكرون فيه فهم بمنزلة من لم يسمع وأعرض عن الحق))[٥].

ـ وفي تفسير ابن كثير: (({أو ألقى السمع وهو شهيد} أي استمع الكلام فوعاه وتعقله بعقله وتفهمه بلبه))[٦]، وفي تفسير الطبري: (({ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون} {وهم لا يسمعون} يقول: وهم لا يعتبرون ما يسمعون بآذانهم ولا ينتفعون به لإعراضهم عنه وتركهم أن يوعوه بقلوبهم ويتدبروه فجعلهم الله لما لم ينتفعوا بمواعظ القرآن وإن كانوا قد سمعوها بآذانهم بمنزلة من لم يسمعها))[٧]، وفي تفسير البغوي: (({وَمِنْهُم} يعني من هؤلاء الكفار، {مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ} وهم المنافقون، يستمعون قولك فلا يعونه ولا يفهمونه، تهاونًا به وتغافلًا))[٨].

(١) روح المعاني -دار الكتب العلمية- بيروت (٦ / ٢٣٢).
(٢) تفسير الجلالين دار الحديث ـ القاهرة (ج: ١، ص: ٧٥٥).
(٣) تفسير الألوسي [روح المعاني} -دار الكتب العلمية- بيروت (ج: ٥، ص: ١٥).
(٤) تفسير الألوسي [روح المعاني} -دار الكتب العلمية- بيروت (ج: ١١، ص: ٣٣).
(٥) تفسير القرطبي -دار الكتب المصرية- القاهرة (ج: ٧، ص: ٣٨٨).
(٦) تفسير ابن كثير -دار الكتب العلمية- بيروت (ج: ٧، ص: ٣٨٢).
(٧) تفسير الطبري ـ مؤسسة الرسالة ـ مؤسسة الرسالة (ج: ١٢، ص: ٤٥٨).
(٨) تفسير البغوي -دار إحياء التراث العربي- بيروت (ج ٤ / ص ٢١٣).

ـ وفي معاني القرآن: (({والذين إذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صمًا وعميانًا} أي لم يتغافلوا عنها ويتركوها حتى يكونوا بمنزلة من لا يسمع ولا يبصر))(١).

٥ـ اتخاذ الأمر ظِهريًا:

ـ ففي تفسير فتح القدير للشوكاني: (({وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا} وَالضَّمِيرُ فِي {وَاتَّخَذْتُمُوهُ} رَاجِعٌ إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ، وَالْمَعْنَى: وَاتَّخَذْتُمُ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ بِسَبَبِ عَدَمِ اعْتِدَادِكُمْ بِنَبِيِّهِ الَّذِي أَرْسَلَهُ إِلَيْكُمْ وَراءَكُمْ ظِهْرِيًّا أَيْ: مَنْبُوذًا وَرَاءَ الظَّهْرِ لَا تُبَالُونَ بِهِ))(٢)، وفي تفسير أبي السعود: (({وَرَاءكُمْ ظِهْرِيًّا} أي شيئًا منبوذًا وراء الظهر منسيًا لا يبالى به))(٣)، وفي تفسير السمرقندي: ((وقال الزجاج: معناه، اتخذتم أمر الله وَراءَكُمْ ظِهْرِيًّا أي: نبذتموه وراء ظهوركم، والعرب تقول لكل من لا يعبأ بأمره: قد جعل فلان هذا الأمر بظهره، وقال الأخفش: وَراءَكُمْ ظِهْرِيًّا يقول: لم تلتفتوا إليه))(٤).

ـ وفي تفسير الطبري: (({وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيرًا} أي وكان الكافر على ربه هينًا، من قول العرب: ظهرتُ به، فلم ألتفت إليه، إذا جعله خلف ظهره فلم يلتفت إليه))(٥).

٦ ـ يجعل الأمر كالمنبوذ وراء ظهره:

ـ ففي تفسير المراغي: (((فَنَبَذُوهُ وَراءَ ظُهُورِهِمْ) أي لم يبالوا به ولم يهتموا بشأنه، وقد كان من الواجب عليهم أن يجعلوه نصب أعينهم لا شيئًا مهملًا ملقًى وراء الظهور لا ينظر إليه، ولا يفكّر في أمره، فقد كان منهم الذين لا يستفيدون منه شيئًا ويحملونه كما يحمل الحمار الأسفار))(٦).

---

(١) معاني القرآن للنحاس ـجامعة أم القرى- مكة المرمة (٥ / ٥٥).
(٢) فتح القدير للشوكاني (٢/ ٥٩٠).
(٣) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم (٤/ ٢٣٦).
(٤) تفسير السمرقندي = بحر العلوم (٢/ ١٦٨).
(٥) تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (١٩/ ٢٨٦).
(٦) تفسير المراغي (٤/ ١٥٧).

ـ وفي تفسير فتح القدير: ((وَقَوْلُهُ: وَراءَ ظُهُورِهِمْ أَيْ: خَلْفَ ظُهُورِهِمْ، وَهُوَ مَثَلٌ يُضْرَبُ لِمَنْ يَسْتَخِفُّ بِالشَّيْءِ فَلَا يَعْمَلُ بِهِ، تَقُولُ الْعَرَبُ: اجْعَلْ هَذَا خَلْفَ ظَهْرِكَ، وَدُبُرَ أُذُنِكَ، وَتَحْتَ قَدَمِكَ أَيِ: اتْرُكْهُ وَأَعْرِضْ عَنْهُ))[1].

٧ـ عدم الاهتمام بالأمر واللا مبالاة به:

ـ ففي أضواء البيان: (({وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ} فَقَوْلُهُ تَعَالَى عَنْهُمْ: {مَاذَا قَالَ آنِفًا} يَدُلُّ عَلَى أنهم مَا كَانُوا يُبَالُونَ بِمَا يَتْلُو عَلَيْهِمُ النَّبِيُّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- مِنَ الْآيَاتِ وَالْهُدَى))[2]، وفي تفسير الخازن: ((قوله تعالى: {وَمِنْهُمْ} يعني ومن هؤلاء الكفار {مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ} وهم المنافقون يستمعون قولك فلا يعونه ولا يفهمونه تهاونا به وتغافلًا عنه))[3]، وفي تفسير الشعراوي: ((وقولهم: {مَاذَا قَالَ آنِفًا..} دليل على عدم اهتمامهم بالقرآن، وأنه شيء لا يُؤْبَهُ له))[4].

ـ وفي تفسير البيضاوي: (({وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ} أي يخرجون من عندك كما دخلوا لم يؤثر فيهم ما سمعوا منك))[5].

٨ ـ التعامل مع الأمر بغير جدية كأنه لعب ولهو (عدم الاهتمام بالأمر وعدم الانتباه إليه):

ـ الدنيا لعب ولهو والدين أمر جاد وخطير، ولكن بعض الناس يفعلون عكس ذلك فيتعاملون مع الدنيا كأنها أمر جاد وخطير ويتعاملون مع الدين بغير جدية كأنه لعب ولهو، فالآيات تبين أن الدنيا لعب ولهو: ((وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ))[6]، ولكنهم تعاملوا مع الدين بغير جدية كأنه لعب ولهو: ((وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ

---

(١) فتح القدير للشوكاني (١/ ١٣٩).
(٢) أضواء البيان -دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع- بيروت (٧ / ١٨٩).
(٣) تفسير الخازن -دار الكتب العلمية- بيروت (٤ / ١٤٤).
(٤) تفسير الشعراوي ـ مطابع أخبار اليوم (١٤ / ٨٧١١).
(٥) تفسير البيضاوي = أنوار التنزيل وأسرار التأويل (٢/ ١٣٤).
(٦) الأنعام: ٣٢.

الدُّنْيَا))[١]، ((الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنْسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا))[٢]، ((إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ (١٣) وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ))[٣].

ـ وفي تفسير إيجاز البيان: ((الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا: [اتخذوا أمر دينهم] كأمر دنياهم، والدنيا لهو وباطل))[٤]، وفي تفسير الحاوي: ((ثم إنه تعالى وصف هؤلاء الكفار بأنهم اتخذوا دينهم لهواً ولعباً، وفيه وجهان: الوجه الأول: أن الذي اعتقدوا فيه أنه دينهم تلاعبوا به، وما كانوا فيه مجدين، والوجه الثاني: أنهم اتخذوا اللهو واللعب ديناً لأنفسهم))[٥]، وفي تفسير السعدي: (({لَهْوًا وَلَعِبًا} أي: لهت قلوبهم وأعرضت عنه، ولعبوا واتخذوه سخريًا، أو أنهم جعلوا بدل دينهم اللهو واللعب، واستعاضوا بذلك عن الدين القيم، {وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا} بزينتها وزخرفها وكثرة دعاتها، فاطمأنوا إليها ورضوا بها وفرحوا، وأعرضوا عن الآخرة ونسوها، {فَالْيَوْمَ نَنْسَاهُمْ} أي: نتركهم في العذاب {كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا} فكأنهم لم يخلقوا إلا للدنيا، وليس أمامهم عرض ولا جزاء))[٦]، وفي تفسير السمعاني: ((قوله تعالى: {الذين اتخذوا دينهم لهوًا ولعبًا} معناه: أكلًا وشربًا، قاله عبد الله بن الحارث، وقيل: معناه: الذين كانت همتهم الدنيا، واشتغالهم بها؛ فهم الذين اتخذوا دينهم لهوًا ولعبًا، وغرتهم الحياة الدنيا))[٧].

ـ فهو يستمع إلى الأمر وهو يلعب فلا يلقي له بالًا: ((اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ (١) مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ إلا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ، لاهِيَةً قُلُوبُهُمْ))[٨].

---

(١) الأنعام: ٧٠.
(٢) الأعراف: ٥١.
(٣) الطارق: ١٣، ١٤
(٤) إيجاز البيان عن معاني القرآن -دار الغرب الإسلامي- بيروت (١ / ٣٣٢).
(٥) الحاوى فى تفسير القرآن الكريم كاملا (٢٧٠/ ٢٠٦)
(٦) تفسير السعدي ـ مؤسسة الرسالة (١ / ٢٩٠).
(٧) تفسير السمعاني دار الوطن ـ الرياض (٢ / ١٨٧).
(٨) الأنبياء: ١ ـ ٣.

٩ـ عدم التدبر التدبر والتفكر في آيات القرآن وآيات الكون:

ـ ففي تفسير السراج المنير: (({سأصرف عن آياتي} المنصوبات في الآفاق والأنفس كخلق السموات والأرض وما بينهما {الذين يتكبرون في الأرض} أي: أصرفها عنهم بالطبع على قلوبهم فلا يتفكرون فيها ولا يعتبرون بها))(١)، وفي تفسير البحر المحيط: (({سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ...} قَالَ ابْنُ جُبَيْرٍ سَأَصْرِفُهُمْ عَنِ الِاعْتِبَارِ وَالِاسْتِدْلَالِ بِالدَّلَائِلِ وَالْآيَاتِ عَلَى هَذِهِ الْمُعْجِزَاتِ وَبَدَائِعِ الْمَخْلُوقَاتِ، وَقَالَ سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ سَأَمْنَعُهُمْ مِنْ تَدَبُّرِهَا وَنَظَرِهَا النَّظَرِ الصَّحِيحِ الْمُؤَدِّي إِلَى الْحَقِّ))(٢).

ـ ((أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا))(٣).

١٠ ـ تجاهل المتحدث سواء على سبيل الحقيقة أو على سبيل المجاز:

ـ هناك تعبيرات في القرآن تشير الى تجاهل المستمع للمتحدث، فالمتحدث هو الخالق والرسل والدعاة، والمستمع هم الناس، والناس سمعوا لكنهم لا يريدون التذكير، وهذه العبارات على سبيل المجاز أو هي تحدث بالفعل.

ـ والقرآن يعبر عن ذلك بعبارات منها: يضع أصبعه في أذنيه حتى لا يسمع المتحدث، ولا يستمع للقرآن ويلغو فيه (يشوش على المتحدث)، ويستمع الى ذكر الله وهو يلعب، وينأى (يتباعد عن المتحدثُ) ويضع حجابا بينه وبين المتحدث ويجعل قلبه في أكنة حتى لا يصل الكلام، ولا يلقي سمعه للمتحدث (لا يوجه سمعه إليه)، ويلوي رأسه، وينغض رأسه (يحرك رأسه لأعلى ولأسفل) ويكون سامدا (أي يرفع رأسه لأعلى كأنه يبحث عن شيء في السماء ولا شيء)، ويكون في عنقه أغلالًا (تجعله يرفع رأسه إلى أعلى ويثبتها على ذلك حتى لا ينظر إلى المتحدث)، ويثني صدره ليستخفي منه (يستخفي من المتحدث بثني الرأس على

(١) السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير (١/ ٥١٦).
(٢) محمد: ٢٤
(٣) البحر المحيط في التفسير (٥/ ١٧٣).

الصدر) واستغشاء الثياب (يغطي رأسه بثوبه حتى لا يراه المتحدث) والانصراف والتسلل في سرية كأنه غير موجود، والتولي والإدبار والإعراض والصدف (أي الإعراض) والصد (أي الإعراض) والنكوص (الرجوع إلى الوراء للابتعاد عن المتحدث) والنفور (الابتعاد) وَنَأَى بِجَانِبِهِ (الابتعاد)، والفرار، ويحيد (يهرب) والهجر، وانفض عن المتحدث (تفرقوا عن المتحدث وتركوه)، والزيغ (الميل عن الحق)، ويضع يده على فمه (لا يطيق سماع كلام الرسل فيعض على يديه ضيقًا وغيظًا)، والتلهي بالتكاثر وبالأمل في أمور الدنيا واللعب (التغافل والتشاغل عن الغيبيات بشغل الهم بالدنيا).

ـ وهذه العبارات كالتالي:

١ـ يضع أصبعه في أذنيه حتى لا يسمع المتحدث:

ـ ففي صفوة التفاسير: (({جعلوا أَصَابِعَهُمْ في آذَانِهِمْ} أي سدوا آذانهم لئلا يسمعوا دعوتي))[(١)].

٢ ـ التشويش على المتحدث (التحدث أثناء حديثه):

ـ أي يتشاغل بالكلام مع أحد آخر أو مع آخرين أثناء حديث المتكلم حتى يتداخل الكلام مع بعضه.

ـ ففي إعراب القرآن وبيانه: (({لا تَسْمَعُوا لِهذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ} أي أظهروا اللغو برفع الأصوات تخليطًا وتشويشًا عليه))[(٢)].

٣ ـ التشاغل أثناء سماع المتحدث باللعب واللهو:

ـ ((اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ (١) مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ (٢) لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ))[(٣)].

٤ ـ يتباعد عن المتحدث:

---

(١) صفوة التفاسير (٣/ ٤٢٧).
(٢) إعراب القرآن وبيانه ـدار الإرشاد للشئون الجامعية- حمص - سورية (٦/ ٤٥٥).
(٣) الأنبياء: ١ ـ ٣.

ـ ففي تفسير الهداية إلى بلوغ النهاية: (({وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ} وقيل: المعنى أنهم ينهون [الناس عن] أن يستمعوا ما في القرآن، ويتباعدون هم عن استماعه، فالهاء للقرآن))(١).

٥ ـ وضع حاجز بين المتحدث والسامع حتى لا يصل الكلام (إشارة إلى التغافل عن كلام المتحدث):

ـ ففي أيسر التفاسير: (({وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ} أي مانع وفاصل بيننا فلا نسمع ما تقول ولا نرى ما تفعل))(٢)، وفي أيسر التفاسير أيضًا: (({وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالآخرة حِجَابًا مَسْتُورًا} أي ساترًا لهم فلا يسمعون كلام الله تعالى))(٣).

٦ ـ الحاجز والسد والحائل:

ـ أحاط نفسه بسد محيط بكل جهة، ففي تفسير نظم الدرر: (({وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ} أي فصارت كل جهة يلتفت إليها منسدة، فصاروا لذلك لا يمكنهم النظر إلى الحق ولا الخلوص إليه، فلذلك قال: {فأغشيناهم} أي جعلنا على أبصارهم بما لنا من العظمة غشاوة))(٤).

٧ ـ لا يوجه سمعه إلى المتحدث:

ـ الذي ينتفع بالقرآن هو الذي يلقي إليه سمعه غير متغافل عنه، ففي التفسير القيم لابن القيم: ((وقوله: «أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ» أي وجه سمعه، وأصغى حاسة سمعه إلى ما يقال له، وهذا هو شرط التأثير بالكلام، وقوله: «وَهُوَ شَهِيدٌ» أي شاهد القلب حاضر، غير غائب، قال ابن قتيبة: استمع لكتاب الله وهو شاهد القلب والفهم، ليس بغافل ولا ساه، وهو إشارة إلى المانع من حصول التأثر، وهو سهو القلب وغيبته عن تعقل ما يقال له، والنظر فيه وتأمله، فإذا حصل المؤثر، وهو القرآن، والمحل القابل،

(١) الهداية إلى بلوغ النهاية (٣/ ١٩٩١).
(٢) أيسر التفاسير للجزائري ـ مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة (٤/ ٥٦٠).
(٣) أيسر التفاسير للجزائري ـ مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة (٣/ ١٩٩).
(٤) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (١٦/ ٩٨).

وهو القلب الحي، ووجد الشرط، وهو الإصغاء، وانتفي المانع، وهو اشتغال القلب وذهوله عن معنى الخطاب وانصرافه عنه إلى شيء آخر: حصل الأثر، وهو الانتفاع بالقرآن والتذكر))(١).

٨ ـ لوي الرأس:

ـ ففي تفسير المراغي: (({وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ} لوّوا رءوسهم: أي حوّلوها استهزاء))(٢)، وفي صفوة التفاسير: (({لَوَّوْاْ رُءُوسَهُمْ} أي حركوها وهزوها استهزاءً واستكبارًا))(٣).

٩ ـ تحريك الرأس لأعلى ولأسفل:

ـ علامة للتعجب من تفاهة الأمر (في نظره):

ـ ففي أيسر التفاسير للجزائري: (({فسينغضون}: أي يحركون رءوسهم تعجبًا، {فسينغضون} أي يحركون إليك رءوسهم خفضًا ورفعًا استهزاءً))(٤)، وفي تفسير فتح البيان: (({فسينغضون إليك رءوسهم} أي يحركونها استهزاء، يقال نغض رأسه ينغض نغضًا ونغوضًا إذا تحرك وأنغض رأسه حركه كالمتعجب من الشيء))(٥).

١٠ ـ السمود أي يرفع رأسه لأعلى كأنه يبحث عن شيء في السماء، ولا شيء (كأنه يتغافل عن من يتحدث إليه):

ـ ففي التفسير القرآني للقرآن: ((«وَأَنْتُمْ سامِدُونَ» أي وأنتم غافلون في صلف وكبر، والسامد هو البعير الذي يرفع رأسه كأنه يبحث عن شيء في السماء، ولا شيء!))(٦).

١١ ـ يرفع رأسه إلى أعلى ويثبتها على ذلك حتى لا ينظر إلى المتحدث:

(١) التفسير القيم = تفسير القرآن الكريم لابن القيم (ص: ٤٨٤).
(٢) تفسير المراغي (٢٨/ ١١٠).
(٣) صفوة التفاسير (٣/ ٣٦٤).
(٤) أيسر التفاسير للجزائري (٣/ ٢٠١، ٢٠٢).
(٥) فتح البيان في مقاصد القرآن (٧/ ٤٠٤).
(٦) التفسير القرآني للقرآن ـدار الفكر العربي- القاهرة (١٤ / ٦٢٥).

ـ ففي أيسر التفاسير للجزائري: (({إنا جعلنا في أعناقهم أغلالًا} أي جعلنا أيديهم مشدودة إلى أعناقهم بالأغلال {فهي إلى الأذقان} أي أيديهم مجموعة إلى أذقانهم، والأذقان جمع ذقن وهو مجمع اللحيين {فهم مقمحون} أي رافعو رءوسهم لا يستطيعون خفضها))[١].

ـ وفي التفسير القرآني للقرآن: ((لقد جعل الله «فِي أَعْناقِهِمْ أَغْلالًا» أي أطواقًا من حديد، أشبه بالقلادة، تطوق بها أعناقهم، «فَهِيَ إِلَى الْأَذْقانِ» أي وهذه الأغلال أو القلائد تشتمل على العنق كله، حتى لتصل إلى الأذقان، «فَهُمْ مُقْمَحُونَ» أي مشدود والرؤوس إلى أعلى فهم لا يستطيعون أن يحركوا رءوسهم يمينًا أو شمالًا أو إلى تحت أو فوق، والصورة التي تبدو ممن طُوّق بهذا الطوق أنه تمثال جامد))[٢].

١٢ـ الاستخفاء من المتحدث بثني الرأس على الصدر:

ـ أي يطأطئ رأسه ويميله فوق صدره ليستخفي من المتحدث إليه كأنه منشغل بأمر آخر غير المتحدث:

ـ ففي أيسر التفاسير: ((وقوله تعالى: {ألا إنهم يثنون صدورهم ليستخفوا منه} هذا النوع من السلوك الشائن الغبي كان بعضهم يثني صدره أي يطأطئ رأسه ويميله على صدره حتى لا يراه الرسول صلى الله عليه وسلم، وبعضهم يفعل ذلك ظنًا منه أنه يخفي نفسه عن الله تعالى وهذا نهاية الجهل، وبعضهم يفعل ذلك بغضًا للرسول صلى الله عليه وسلم حتى لا يراه، فرد تعالى هذا بقوله: {ألا حين يستغشون ثيابهم} أي يتغطون بها))[٣].

ـ وفي تفسير مقاتل: (({أَلا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ} يعني يلوون وذلك أن كفار مكة كانوا إذا سمعوا القرآن نكسوا رءوسهم على صدورهم كراهية استماع القرآن لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ يعني من النبي -صلى الله عليه وسلم- فالله قد علم ذلك منهم))[٤].

---

(١) أيسر التفاسير للجزائري (٤/ ٣٦٥).
(٢) التفسير القرآني للقرآن (١١/ ٩٠٨).
(٣) أيسر التفاسير للجزائري مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة (٢ / ١٥٧).
(٤) تفسير مقاتل بن سليمان (٢/ ٢٧١).

١٣ ـ استغشاء الثياب (يغطي رأسه بثوبه حتى لا يراه المتحدث):

ـ ففي تفسير القرطبي: (({وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ} [نوح: ٧] أَيْ إِلَى سَبَبِ الْمَغْفِرَةِ، وَهِيَ الإيمان بِكَ وَالطَّاعَةُ لَكَ، {جَعَلُوا أَصابِعَهُمْ فِي آذانِهِمْ} لِئَلَّا يَسْمَعُوا دُعَائِي {وَاسْتَغْشَوْا ثِيابَهُمْ} أَيْ غَطَّوْا بِهَا وُجُوهَهُمْ لِئَلَّا يَرَوْهُ، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: جَعَلُوا ثِيَابَهُمْ عَلَى رءوسهم لِئَلَّا يَسْمَعُوا كَلَامَهُ، فَاسْتِغْشَاءُ الثِّيَابِ إِذًا زِيَادَةٌ فِي سَدِّ الْآذَانِ حَتَّى لَا يَسْمَعُوا، أَوْ لِتَنْكِيرِهِمْ أَنْفُسَهُمْ حَتَّى يَسْكُتَ، أَوْ لِيُعَرِّفُوهُ إِعْرَاضَهُمْ عَنْهُ))(١).

١٤ ـ الانصراف في سرية كأنه غير موجود:

ـ ((وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلى بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ انْصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ))(٢).

١٥ ـ التسلل في سرية كأنه غير موجود:

ـ ففي تفسير الماتريدي: (({قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا} يتسللون أي يذهبون مستخفين، يقال: انسل الرجل، أي: انسرقْ من الناس، أي فارقهم، وهم لا يعلمون به،.. وقَالَ الْقُتَيبِيُّ: قوله: {يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا} أي: من يستتر بصاحبه ويتسللْ ويخرج))(٣)، وفي تفسير البغوي: ((قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: {لِوَاذًا} أَيْ يَلُوذُ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ، وَذَلِكَ أَنَّ الْمُنَافِقِينَ كَانَ يَثْقُلُ عَلَيْهِمُ الْمَقَامُ فِي الْمَسْجِدِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ وَاسْتِمَاعُ خُطْبَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَكَانُوا يَلُوذُونَ بِبَعْضِ أَصْحَابِهِ فَيَخْرُجُونَ مِنَ الْمَسْجِدِ فِي اسْتِتَارٍ))(٤).

١٦ ـ التولي:

ـ التولي معناه أنه ترك المتحدث وتولى عنه كما في قوله تعالى: ((وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا))(٥)،

---

(١) تفسير القرطبي (١٨/ ٣٠٠).
(٢) التوبة: ١٢٧.
(٣) تفسير الماتريدي = تأويلات أهل السنة (٧/ ٦٠٣).
(٤) تفسير البغوي - إحياء التراث (٣/ ٤٣٣).
(٥) لقمان: ٧.

((وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ))(١)، ((فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا))(٢).

١٧ ـ الإدبار:

ـ أي يترك المتحدث يتحدث ويعطيه ظهره (أي يدبر عنه) ويتركه مبتعدًا عنه، والآيات في ذلك كثيرة منها: ((ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ))(٣)، ((تَدْعُو مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى))(٤)، ((إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ))(٥).

١٨ ـ الإعراض:

ـ الإعراض معناه أنه ترك المتحدث وأعرض عنه، ففي أيسر التفاسير: (({وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحْدَثٍ إلا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ} وما يأتي هؤلاء المُشركينَ، الذين يُكَذِّبُونَكَ، شيءٌ من عندِ اللهِ يُذَكِّرهُم بالدّينِ الحَقِّ، إلا أعْرَضُوا عنِ استِمَاعِهِ وتَرَكُوا إعمالَ الفِكْرِ فيهِ، ولَمْ يُوَجِّهُوا هَمَّهُمْ إلى تَدَبُّرِهِ))(٦)، وفي تفسير ابن كثير: ((يَقُولُ تَعَالَى: وَأَيُّ عِبَادِ اللَّهِ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا، أَيْ تَنَاسَاهَا وَأَعْرَضَ عَنْهَا وَلَمْ يَصْغَ لَهَا وَلَا أَلْقَى إِلَيْهَا بالًا))(٧).

ـ والإعراض ورد في آيات كثيرة منها: ((فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ))(٨)، ((قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ (٦٧) أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ))(٩)، ((وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ))(١٠).

١٩ ـ الصدف (الإعراض):

---

(١) الأنفال: ٢٣.
(٢) النجم: ٢٩.
(٣) المدثر: ٢٣.
(٤) المعارج: ١٧.
(٥) النمل: ٨٠.
(٦) أيسر التفاسير لأسعد حومد (١ / ٢٨١٩).
(٧) تفسير ابن كثير ط العلمية (٥/ ١٥٥).
(٨) فصلت: ٤.
(٩) ص: ٦٧، ٦٨.
(١٠) يوسف: ١٠٥.

ـ ففي تفسير الماتريدي: (({فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا}[1] أي أعرض عنها))[2].

٢٠ ـ الصد (الإعراض):

ـ ((فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ وَكَفَى بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا))[3]، ((وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا))[4].

٢١ ـ النكوص (الرجوع إلى الوراء للابتعاد عن المتحدث):

ـ ابتعد عن المتحدث ونفر منه بالرجوع إلى الوراء، ففي التفسير المنير: (({قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ تَنْكِصُونَ} أي إنه متى تليت عليكم آيات القرآن نفرتم منها وأعرضتم عن سماعها وعمن يتلوها، كما يذهب الناكص (الراجع) على عقبيه، بالرجوع إلى ورائه، والمراد: أنهم يعرضون عن الحق، فإذا دعوا أبوا، وإن طلبوا امتنعوا))[5].

٢٢ ـ النفور (الابتعاد):

ـ ففي تفسير القرطبي: (({وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا} (وَما يَزِيدُهُمْ) أَيِ التَّصْرِيفُ وَالتَّذْكِيرُ، (إِلَّا نُفُورًا) أَيْ تَبَاعُدًا عَنِ الْحَقِّ وَغَفْلَةً عَنِ النَّظَرِ وَالِاعْتِبَارِ))[6]، وفي تفسير السمرقندي: (({وَإِذا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ} يعني: وحدانيته، قول لا إله إلا الله، {وَلَّوْا عَلى أَدْبارِهِمْ نُفُورًا} أي أعرضوا تباعدًا عن الإيمان، وقال القتيبي: ولوا على أعقابهم هربًا))[7].

ـ وفي تفسير فتح القدير: (({أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَلْ لَجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ} بَلْ لَجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ أَيْ: لَمْ يَتَأَثَّرُوا لِذَلِكَ، بَلْ

(١) الأنعام: ١٥٧.
(٢) تفسير الماتريدي = تأويلات أهل السنة (٤/ ٣٢٥).
(٣) النساء: ٥٥.
(٤) النساء: ٦١.
(٥) التفسير المنير للزحيلي ـ دار الفكر المعاصر ـ دمشق (١٨ / ٧٣).
(٦) تفسير القرطبي (١٠/ ٢٦٥).
(٧) تفسير السمرقندي = بحر العلوم (٢/ ٣١٤).

تَمَادَوْا فِي عناد واستكبار عن الحقّ ونفور عنه، ولم يَعْتَبِرُوا، وَلَا تَفَكَّرُوا))[1].

ـ وفي تفسير الهداية إلى بلوغ النهاية: (({وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي القرءان وَحْدَهُ} أي إذا قلت لا إله إلا الله في القرءان {وَلَّوْاْ على أدبارهم نُفُورًا} أي: انفضوا عنك وذهبوا نفورًا من قولك واستعظامًا من توحيد الله جل ذكره))[2].

٢٣ ـ الابتعاد:

ـ ففي تفسير البغوي: (({وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الإنسان أَعْرَضَ} عَنْ ذِكْرِنَا وَدُعَائِنَا {وَنَأَى بِجَانِبِهِ} أَيْ تَبَاعَدَ عَنَّا بِنَفْسِهِ أَيْ تَرَكَ التَّقَرُّبَ إِلَى اللَّهِ بِالدُّعَاءِ))[3]، وفي تفسير الرازيُ: (({أَعْرَضَ} أَيْ وَلَّى ظَهْرَهُ أَيْ عَرْضَهُ إِلَى نَاحِيَةٍ {وَنَأَى بِجَانِبِهِ} أَيْ تَبَاعَدَ، وَمَعْنَى النَّأْيِ فِي اللُّغَةِ الْبُعْدُ وَالإعراض عَنِ الشَّيْءِ أَنْ يُوَلِّيَهُ عَرْضَ وَجْهِهِ وَالنَّأْيُ بِالْجَانِبِ أَنْ يَلْوِيَ عَنْهُ عِطْفَهُ وَيُوَلِّيَهُ ظَهْرَهُ، وَأَرَادَ الِاسْتِكْبَارَ لِأَنَّ ذَلِكَ عَادَةُ الْمُتَكَبِّرِينَ))[4].

٢٤ ـ الفرار:

ـ التشبيه بالحمار الوحشي حين يفر من الأسد: ففي صفوة التفاسير: (({فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ (٤٩) كأنهم حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ (٥٠) فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ}[5] {كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ} أي كأن هؤلاء الكفار حمر وحشية نافرة وشاردة {فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ} أي هربت ونفرت من الأسد من شدة الفزع، وقال ابن عباس: الحمر الوحشية إذا عاينت الأسد هربت، كذلك هؤلاء المشركون إذا رأوا محمدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هربوا منه كما يهرب الحمار من الأسد))[6].

---

(١) فتح القدير للشوكاني (٥/ ٣١٤).
(٢) الهداية إلى بلوغ النهاية (٦/ ٤٢١٦).
(٣) تفسير البغوي ـ طيبة (٥/ ١٢٣).
(٤) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (٢١/ ٣٩٠).
(٥) المدثر: ٤٩-٥١.
(٦) صفوة التفاسير ـدار الصابوني- القاهرة (٣/ ٤٥٦).

ـ وهم يفرون من الموت رغم أنهم موقنون به؛ لأن الموت يعني ضعفهم وقوة من يقدر عليهم فيميتهم، فالموت يأمرهم بالخضوع لذلك يفرون منه: ((قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فإنه مُلَاقِيكُمْ))[1]، فكذلك يفرون من الله والآخرة وكل ما يأمرهم بالخضوع.

٢٥ ـ يهرب ويحيد:

ـ ففي تفسير السمعاني: (({وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ} أَي: تَفِر وتهرب، وَيسْتَحب لِلْمُؤمنِ حب الْمَوْت؛ لِأَنَّهُ بِهِ يستخلص من الأوزار، ويصل إِلَى محبوبه إِن قدر لَهُ خير، وَعَن بعض السّلف: لَا يكره الْمَوْت إِلَّا مريب، وَإِنَّمَا كره تمني الْمَوْت بضر نزل بِهِ على مَا فِي الْخَبَر، فَأَما إِذا تمنى الْمَوْت ليستخلص من الدُّنْيَا وفتنها وشوقًا إِلَى لِقَاء ربه فَهُوَ مَحْبُوب))[2].

ـ لا يستطيع الإنسان أن يهرب من الله بحيث لا تصل إليه قدرة الله تعالى، ولا يستطيع أن يهرب من الآخرة فلا يكون ممن يحشر فيها، ولا يستطيع أن يخرج من ملك الله ولا من قدرته وسلطانه عليه، فالآخرة قادمة وقدرة الله واقعة على الإنسان: ففي التفسير الوسيط للواحدي: (({وأنا ظننا} علمنا وأيقنا، {أَنْ لَنْ نُعْجِزَ اللَّهَ فِي الأَرْضِ} [الجن: ١٢] لن نفوته إذا أراد بنا أمرًا، {وَلَنْ نُعْجِزَهُ هَرَبًا} أي: أنه يدركنا حيث كنا))[3]، وفي تفسير القرآن العزيز لابن أبي زمنين: (({فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الأَرْضِ} فَلَيْسَ بِالَّذِي يسْبق الله حَتَّى لَا يبْعَث))[4].

ـ وفي تفسير الهداية إلى بلوغ النهاية: (({فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الأرض} أي: ليس بمعجز ربه بهربه في الأرض إن أراد عقوبته؛ لأنه حيث كان في قبضة ربه وسلطانه))[5].

٢٦ ـ الهجر:

---

(١) الجمعة: ٨.

(٢) تفسير السمعاني (٥/ ٢٤١).

(٣) التفسير الوسيط للواحدي (٤/ ٣٦٦).

(٤) القرآن العزيز لابن أبي زمنين (٤/ ٢٣١).

(٥) الهداية الى بلوغ النهاية (١١/ ٦٨٦٩).

ـ ففي تفسير الهداية إلى بلوغ النهاية: (({وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا} وقال ابن زيد: مهجورًا: أي لا يريدون أن يسمعوه، أي هجروه وأعرضوا عنه فلا يسمعونه))(١)، وفي أيسر التفاسير للجزائري: (({مهجورًا} أي شيئًا متروكاً لا يلفت إليه))(٢).

٢٧ ـ انفضوا (تفرقوا عن المتحدث وتركوه):

ـ ففي تفسير الرازي: (({وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انْفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قائمًا قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ} [الجمعة: ١١] وَقَوْلُهُ: {انْفَضُّوا إِلَيْها} أَيْ تَفَرَّقُوا))(٣).

٢٨ ـ الزيغ (الميل عن الحق):

ـ كأنه ترك المتحدث يتحدث وانصرف عنه، ففي تفسير معاني القرآن: (({فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ}، أي عدَلُوا عنِ الحق وانصرفوا عنه فأضلَّهم الله وَصَرَفَ قُلوبَهُمْ))(٤).

٢٩ ـ يضع يده على فمه:

ـ لا يطيقون سماع كلام الرسل فيعضون على أيديهم ضيقًا وغيظًا: ((جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ))(٥).

ـ وفي تفسير معاني القرآن: ((وقيل: {رَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ} أومأوا إلى الرسل أن اسكتُوا))(٦).

٣٠ ـ التغافل والتشاغل عن الغيبيات بشغل الهم بالدنيا:

ـ قد يخترع الإنسان لنفسه هدف معين (المال مثلًا) ويعيش له ويغلق عقله عن التفكير في غير ذلك أو التفكير في حقيقة هذا الهدف.

ـ كلما شغل الإنسان همه بالدنيا كلما ابتعد عن معرفة الله والآخرة.

---

(١) الهداية الى بلوغ النهاية (٨/ ٥٢١٣).
(٢) أيسر التفاسير للجزائري (٣/ ٦١٢).
(٣) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (٣٠/ ٥٤٤).
(٤) معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٥/ ١٦٤).
(٥) الأعراف: ٥١.
(٦) معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٣/ ١٥٦).

ـ استغراق الإنسان في أعمال الدنيا وأمورها يؤدي إلى سرقة عمر الإنسان فيموت ولم يجد وقتًا يشغل فيه همه بمعرفة الله والآخرة.

ـ ففي تفسير القرطبي: (({لاهِيَةً قُلُوبُهُمْ} أَيْ سَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ، مُعْرِضَةً عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ، مُتَشَاغِلَةً عَنِ التَّأَمُّلِ وَالْتَفَهُّمِ، مِنْ قَوْلِ الْعَرَبِ: لَهَيْتُ عَنْ ذِكْرِ الشَّيْءِ إِذَا تَرَكْتُهُ وَسَلَوْتُ عَنْهُ))(١).

ـ ((يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ))(٢).

ـ وفي تفسير البيضاوي: (({وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ} بأنواع النعم فاستغرقوا في الشهوات {حتى نَسُواْ الذكر} حتى غفلوا عن ذكرك أو التذكر لآلائك والتدبر في آياتك))(٣).

ـ وفي تفسير فتح القدير: (({ولكن متعتهم وآباءهم حتى نسوا الذكر} والمعنى: ما أضللناهم ولكنك يا رب متعتهم ومتعت آباءهم بالنعم ووسعت عليهم الرزق وأطلت لهم العمر حتى غفلوا عن ذكرك ونسوا موعظتك والتدبر لكتابك والنظر في عجائب صنعك وغرائب مخلوقاتك))(٤).

ـ فقد ينشغل الإنسان بالمال وجمعه حتى يشغله عن التفكير في حقائق الأشياء ومعرفة الخالق والآخرة، ففي تفسير زاد المسير: ((قوله تعالى: {أما من استغنى} قال ابن عباس: استغنى عن الله وعن الإيمان بماله))(٥)، وفي تفسير البحر المحيط: (({أما من استغنى}: ظاهره من كان ذا ثروة وغنى، وقال الكلبي: عن الله، وقيل: عن الإيمان بالله))(٦).

---

(١) تفسير القرطبي (١١/ ٢٦٨).
(٢) المنافقون: ٩.
(٣) تفسير البيضاوي -دار إحياء التراث العربي- بيروت (ج: ٤، ص: ١٢٠).
(٤) تفسير فتح القدير -دار ابن كثير- دمشق (ج: ٤، ص: ٧٨).
(٥) تفسير زاد المسير -دار الكتاب العربي- بيروت (ج: ٤، ص: ٤٠٠).
(٦) تفسير البحر المحيط -دار الفكر- بيروت (ج: ١٠، ص: ٤٣٤).

- وفي تفسير فتح القدير: ((قوله: {ألهاكم التكاثر} أي: شغلكم التكاثر بالأموال والأولاد والتفاخر بكثرتها والتغالب فيها، وقال الحسن: معنى ألهاكم: أنساكم))(١).

- وفي أيسر التفاسير: (({أذهبتم طيباتكم في حياتكم}: أي يقال لهم أذهبتم طيباتكم باشتغالكم بملذاتكم في الدنيا، {واستمتعتم بها}: أي تمتعتم بها في الحياة الدنيا))(٢).

- وفي تفسير الكشف والبيان: (({وَالَّذِينَ كَفَرُوا} محلّه رفع على الابتداء {يَتَمَتَّعُونَ} في الدُّنيا {وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الأنْعَامُ} ليس لهم همّة إلا بطونهم وفروجهم، وهم لاهون ساهون عمّا في غدهم))(٣).

- وفي تفسير بحر العلوم: (({ذَرْهُمْ يَأْكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ} يقول: اتركهم وخلّ عنهم يا محمد في الدنيا يأكلوا ويتمتعوا؛ يأكلوا كالأنعام، ويتمتعوا بعيشهم في الدنيا، لا تهمهم الآخرة ولا يعرفون ما في غد {وَيُلْهِهِمُ الأمل} يعني: يشغلهم الأمل الطويل عن الطاعة، وعن ذكر الله تعالى، ويقال يشغلهم طول الأمل عن الطاعة وعن ذكر الأجل، {فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ} وهذا وعيد لهم أي يعرفون ما نزل بهم من العذاب والشدة يوم القيامة))(٤).

- وفي التفسير المنير للزحيلي: (({فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنا وَلَمْ يُرِدْ إِلا الْحَياةَ الدُّنْيا} أي فأعرض أيها الرسول عمن أعرض عن القرآن أو تذكير الله، ولم يكن همّه إلا الدنيا، وترك النظر إلى الآخرة))(٥).

- وفي تفسير الشيخ المراغي: (({ذلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ} أي إن منتهى علمهم أن يتفهموا شئون الحياة الدنيا، ويتمتعوا باللذات، ويتصرفوا في التجارات، ليحصلوا على ما يكون لهم فيها من بسطة في المال، وسعة في الرزق، ويكونوا ممن يشار إليهم بالبنان، وما به يذكرون لدى الناس،

(١) تفسير فتح القدير -دار ابن كثير- دمشق (ج: ٥، ص: ٥٩٦).
(٢) أيسر التفاسير للجزائري مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، السعودية (ج: ٥، ص: ٥٦).
(٣) تفسير الثعلبي [الكشف والبيان عن تفسير القرآن] ــــ دار إحياء التراث العربي، بيروت (ج: ٩، ص: ٣١).
(٤) بحر العلوم للسمرقندي (ج: ٢، ص: ٢٥١).
(٥) التفسير المنير للزحيلي - دار الفكر المعاصر- دمشق (ج: ٢٧، ص: ١١٥).

ولا يعنون بما وراء ذلك، فشئون الآخرة دبر أذنهم، ووراء ظهورهم، لا يعرفون منها قبيلًا من دبير))(١).

- وفي تفسير أبي السعود: (({أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ}، {وَهُمْ يَلْعَبُونَ} أي يلهُون من فرط الغفلةِ أو يشتغلون بما لا ينفعهم كأنهم يلعبون))(٢).

(١) تفسير الشيخ المراغي - شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر (ج: ٢٧، ص: ٥٦).
(٢) تفسير أبي السعود -دار إحياء التراث العربي- بيروت (٣ / ٢٢).

الفصل السادس العاشر
علاج عمى القلب والتعامي (التفكر)

ـ علاج المعرفة الكاذبة واليقين الكاذب هو استعادة المعرفة الحقيقية، واستعادة المعرفة الحقيقية يتم من خلال التذكر والتفكر، ولابد أن يكون التذكر والتفكر بطريقة صحيحة.

ـ التذكر يكون للشيء الذي عرفه عن طريق السماع، والتفكر يكون للشيء الذي عرفه من خلال رؤيته، فالتذكر يكون للغيبيات لأنها وصلتنا عن طريق السماع والتفكر يكون للمرئيات وما يستنتج منها.

ـ معنى عمى القلب (الرؤية الكاذبة) أي أنه يرى الآيات الكونية بعينه لكنه في الحقيقة لم يراها فرؤيته كاذبة وهو أعمى القلب، وعلاجه التفكر.

ـ النظر في الآيات الكونية يؤدي الى اليقين بوجود الخالق وبإنعامه على الناس وبأنه المالك لكل شيء، لكن لا يزال الانسان أعمى رغم أن عينه ترى الآيات، ولا يزال لا يوقن بالآيات الكونية يقينا حقيقيا حتى يتحقق أثر هذه المعرفة وأثر هذا اليقين وهو أن يرى عظمة ربه وضعف نفسه فيتعلق بالخالق ولا يتعلق بنفسه وبالدنيا.

ـ كل إنسان يعلم أن الله هو الخالق والمالك والمنعم، ولكن هذه المعلومة البسيطة لا تزال لم تصل بعد رغم أن الانسان يوقن بها تماما، والسبب هو التجاهل أو المعرفة الكاذبة بالآيات الكونية.

ـ والعلاج هو التذكر والتدبر في الآيات الكونية بطريقة تعيد المعرفة بها.

ـ طالما أن التفكر لا يزال لم يؤدي الى التأثر فلا يزال يحتاج الانسان الى التفكر:

ـ الإنسان يكفيه أن يشعر بالإعجاز في آية واحدة من آيات الله المنظورة وعندئذ تتغير مشاعره وهمومه وتفكيره وتتغير حياته كلها ولن يحتاج

أكثر من آية واحدة سواء في السماء أو في الأرض أو في نفسه أو في أحوال الدنيا ومصائر السابقين أو أي شيء.

ـ إن نظرة واحدة متأملة في الكون وحقائق الأشياء قد تضع في النفس من الإيمان ما يغير حياة الإنسان كلها، مثلًا كأن ينظر إلى الكرة الأرضية وهي هباءة بين الأجرام فهنا يعرف الإنسان معرفة حقيقية بضآلة حجمه، في حين لو تعلَّم الإنسان كل علوم الدين والدنيا طوال عمره فقد لا يتكون في نفسه شيء من مشاعر الإيمان (الحب وخوف العقاب ورجاء الثواب).

ـ فمن الناس من يتعرض لموقف مثل موت قريب له أو يستمع لموعظة ذات مرة أو يرى آية كونية فتكون سببا في إحياء المعرفة عنده وهدايته وتتغير بذلك حياته كلها ويكتشف كأنه يعرف الأمر لأول مرة، ولكن إذا طبع الله على قلب انسان منع عنه المعرفة الحقيقية التي تؤدي أثرها، فلا يتأثر بالمعرفة مهما سمعها وعرفها ويظل كالجاهل بها.

ـ وإذا أدى التفكر الى التأثر فيحتاج الانسان أيضا الى الاستمرار في التفكر حتى يستمر ذلك التأثر ويزداد.

ـ فإذا لم يؤدي التفكر إلى التأثر بالآيات الكونية فلا قيمة له، ولكي يتأثر الانسان لابد أن يتم التفكر بطريقة تثير الدهشة والتعجب من غرابة وهول وخطورة الأمر.

ـ الطريقة الصحيحة للتفكر:

ـ التفكر والتذكر ليس جمع معلومات ولكن هو عبارة عن تصور لمدى ما في الامر من عجب وغرابة وخطورة وتصور كونه مرعب أو مخيف أو رائع ومحبوب وتصور ما في الأمر من صفات خارقة فوق كل التصورات بحيث يؤدي إلى التأله وبالتالي تأثر المشاعر والهموم والجوارح.

ـ معنى أن الانسان يقول سبحان الله إذا تفكر في آية كونية أو تذكر الآخرة وقدرة الله هو أنه رأى أمرا عجيبا مذهلا غريبا يدعو الى شدة التأله والدهشة الشديدة.

ـ إذا لم يؤدي التفكر إلى شدة التأله (الدهشة الشديدة) فلا قيمة له، ولكي يؤدي الى التأله لابد أن يتم التفكر بطريقة تثير الدهشة والتعجب من غرابة وهول وخطورة الأمر كالتالي:

ـ أولا: الانتباه الى وجود قوة خفية خارقة وراء الاشياء:

ـ ينظر إلى الأشياء كأنه لا يعرف من خلقها، فيجد أشياءً لا يستطيع البشر أو أي كائنات صنعها، ويعجز الإنسان عن إيجاد ذلك الشيء فيدل ذلك على أن هناك قوة خفية هائلة جدًا فوق قدرة البشر هي التي أوجدت ذلك الشيء.

ـ فالآيات الكونية تدل على وجود قوة خفية أعظم من كل قدرات البشر وتفوق كل التصورات، هي قدرة الخالق سبحانه.

ـ معنى كلمة (معجزة) أي أن ذلك الشيء لا يستطيع البشر أو غيرهم من المخلوقات القيام بذلك الأمر، إذن فكل شيء حول الإنسان هو معجزة.

ـ والمعجزة أمر خطير جدًا يلفت الانتباه ويجعل الإنسان يشعر بالمهابة من حدوث ذلك الأمر.

ـ فيشعر الإنسان بالمهابة من مدى قدرة صاحب هذه القوة الخارقة التي استطاعت إيجاد ذلك الشيء، ويشعر بحب الإعجاب بمدى قوته ويشعر بالضعف والخضوع تجاه صاحب هذه القوة.

ـ فمثلًا هذا الكون لا يمكن أن يكون هو الذي أنشأ نفسه، ولا يستطيع الإنسان إيجاده، فلابد من وجود أحدًا لا نراه له قدرة هائلة فوق قدرة الإنسان هو الذي أوجده، وكذلك الحيوانات، وكذلك الإنسان نفسه.

ـ والأشجار تعني خروج كائن حي من بذرة ميتة وتعني تحول الطين إلى خشب وثمار ومن غير أن نرى أحدًا يقوم بهذه الأمور الهائلة، وهذه الأمور فوق قدرة الإنسان وفوق قدرة الشجرة نفسها فهي إعجاز خارق للأسباب، فلابد أن الذي يقوم بهذه الأمور أحد لا نراه ولابد أن له قدرة هائلة فوق قدرة الإنسان، فهو يقدر على أن يحي الموتى ويقدر على تحويل الطين إلى طعام مقصود به الإنسان، وهذا معناه شعور بالتحير

والذهول والانبهار من مدى قدرة الخالق، وشعور بالضعف والعجز أمام قدرته، أما الذي ألف النظر إلى الأشجار ولم يشعر بذلك فهو لا يزال لا يعرف ماذا تعني كلمة (شجرة)؟! وهكذا.

ـ الذي يستطيع أن يخرق الأسباب يستحق أن يكون إِلَهًا، والذي يكون محكوما بالأسباب يجب عليه أن يكون عبدا لمن وضع هذه الأسباب، فمثلا سيدنا موسى جاء ليثبت أن الله هو الإله الحق عن طريق أن يثبت أن الله يستطيع خرق الأسباب التي يعهدها البشر فوضع العصا فإذا هي حية حقيقية.

ـ التعظيم للشيء هو تعظيم لصاحبه، فالكون عظيم وهو يدل على عظمة صاحبه، فحجم الكون كبير جدا فيدل على قدرة من أوجده، والعمليات التي تتم في جسم الانسان عظيمة جدا وهي تدل على عظمة علم من خلقه، وهذا يؤدي الى عبادة الله تعظيما له.

ـ ثانيا: تصور مدى علم الخالق:

ـ عندما نجد أمورًا تتحرك وتتم بحسابات في منتهى الدقة رغم أنها حسابات معقدة جدًا وتتم ليلًا ونهارًا فهي فوق مستوى عقل وعلم كل الكائنات، إذن فهناك أحدًا له علم وحكمة هائلة جدًا فوق علم البشر والكائنات هو الذي صنعها.

ـ عجز علم الإنسان أو علم الشيء نفسه عن القيام بوظائف معقدة غاية في الدقة يدل على أن هناك علم هائل هو الذي صمم هذه الوظيفة المعقدة بمنتهى الدقة.

ـ فيسأل الإنسان نفسه: من الذي أوجد هذه الوظائف المتداخلة المعقدة داخل جسمه؟ الإنسان لا يستطيع ذلك بل إنه لا يعرف ما الذي يحدث داخل جسمه؟، ولا يمكن أن تحدث هذه الوظائف من تلقاء نفسها، فلابد من وجود أحد لا نراه له علم هائل فوق علم الإنسان هو الذي صمم هذه الوظائف المعقدة.

ـ الكائنات الحية تعمل أشياءً أكبر من مستوى قدراتها وإمكانياتها وعلمها مما يدل على أن هناك قوة خارجية هي التي تعمل ذلك، فمثلًا الجنين

فور الولادة يتجه لثدي أمه ويرضع، فمن علمه ذلك؟ والحيوانات تقوم بأعمال تحميها من العدو، وبعض النباتات تتحور بشكل يحافظ عليها، فتقوم الكائنات بأعمال فطرية هي لا تعقلها رغم أنها أعمال في منتهى العقل والحكمة، فلابد أن هناك من علمها ذلك، وأن هناك قوة خارجية هي التي تحركها وتعلمها، والأمثلة على ذلك لا حصر لها، وذلك مصداقًا لقوله تعالى: ((قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى))(١)، والكرة الأرضية متناسبة في البعد عن الشمس بحيث لا تكون جليدًا ولا تكون منصهرة من الحرارة حتى تكون متناسبة لمعيشة الإنسان وهكذا، فكل ذلك يدل على أن كل هذه الأمور موضوعة بحكمة وبقصد وأن هناك من رتب لها ذلك، فكل شيء محسوب بحسابات في منتهى الدقة بحيث لو زادت أو قلت ذرة واحدة لاختل الأمر سواء في جسم الإنسان أو في الأجرام السماوية أو في أي شيء، فهذا يدل على وجود صانع عليم حكيم خبير.

ـ إنه لا يمكن لسمكة زينة أن تكون هي التي تختار ألوانها وبهذه الروعة والدقة الفائقة، فلابد من قوة خارقة وعلم هائل لتصميم هذا الجمال والإبداع.

ـ ثالثا: تصور قصد النفع للإنسان:

ـ عندما ينظر الانسان إلى الأشياء من حوله يجدها مصممة خصيصًا لتناسب الانسان وتكون مفيدة له، رغم أن هذه الأشياء ليس لديها معرفة بالإنسان وليس لديها معرفة بما يفيده، فيدل ذلك على أن هناك من يقصد تسخير هذه الأشياء لإفادة الإنسان تحديدًا.

ـ فمثلًا أشجار الفاكهة لمن تخرج هذه الفاكهة؟ إنه أمر مقصود ليتناوله الإنسان، وهل تدري هذه الأشجار بالإنسان؟ ولماذا تقصد وتعد له هذه الفاكهة المناسبة لتكون طعاما له؟ وكيف تستطيع أصلًا أن تصنع هذه الفاكهة وهي من مادة مختلفة تمامًا عن مادة البذرة ومادة الأرض التي نبتت منها؟ إن هذه الأشجار لا يمكن أن يكون لها هذا العقل الهائل وهذه

---

(١) طه: ٥٠

القدرة الهائلة، إذن لابد من وجود قوة خارجية قاصدة مريدة هي التي أرادت لهذه الشجرة أن تُكَوِّن هذه الفاكهة وتصنعها للإنسان، فإن الله أراد ذلك فقال تعالى: ((وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ (٣٤) لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ))(١).

ـ وأيضًا البقرة لمن تخرج هذه الكمية من اللبن الزائدة عن حاجة أولادها؟ هل البقرة تعي الإنسان وتريد له ذلك؟ طبعًا لا، وهل أصلًا تستطيع البقرة وتفهم هذه المصانع المعقدة في جسمها والتي تقوم بتصنيع ذلك اللبن؟ طبعًا لا، إذن لابد من وجود قوة خارجية قاصدة مريدة هي التي أرادت ذلك، فقال تعالى: ((نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَناً خالصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ))(٢)، فقال: (نسقيكم) أي هو سبحانه الذي قصد ذلك للإنسان وصنع ذلك له، فذلك يعني حب من صنع لك هذا الغذاء وقصَده لك والمهابة من عظيم قدرته على فعل ذلك ومدى هذا العلم.

ـ وكذلك النحلة لمن تخرج العسل الزائد عن حاجتها؟، وكيف تم ضبط مقادير العناصر في جسم الانسان بحيث لو زادت أو نقصت قليلا لمات الانسان، وهذا معناه أن هناك من يهتم بحالك ويعطيك ما تحتاج إليه وبلا مقابل، فهذا أمر عجيب يدعو إلى الشعور بالمهابة والحب والشكر والامتنان لصاحب هذا العطاء، فمن شعر بهذه المشاعر هو فقط الذي قد عرف معنى كلمة (نِعم)، أما غيره فيقولون ولا يدرون ما يقولون!

ـ أنت لا تستطيع أن تصنع البروتين أو الزروع أو البترول، وما تدفعه من ثمن لهذه الأشياء كان عليك أن تدفعه لمن صنع لك هذه الأشياء، ولكنه صنع ذلك لك مجانًا فلا يمنعك من أخذ هذه الأشياء، وما تدفعه إنما هو لمن أعد لك هذه الأشياء ونقلها لك.

ـ فالمال الذي تدفعه عندما تشتري فاكهة مثلًا ليس هو ثمن الفاكهة، فلا يستطيع أحد أن يدفع ثمن الفاكهة، إنما هذا المال سبب وهذه الفاكهة هي مجانية لمن يريد الله إعطاءها له، فالبائع ليس صاحبها ولا الزارع وإنما

---

(١) يس: ٣٤، ٣٥
(٢) النحل: ٦٦

صاحبها هو الذي صنعها وهو الله سبحانه وتعالى، فلا يستطيع أحد أن يدفع ثمن نعمة العين أو الأنف أو الماء أو غيرها.

ـ وثمن البيضة يأخذها من صنعها وليس من أعدها أو جمعها، ومن صنعها ليست الدجاجة فهي ليس لها عقل يستطيع صناعتها وإنما صنعها الله تعالى، وهكذا، وإنما أنت أحضرت القمح والحبوب للدجاجة، ونفس الشيء أنت لم تصنع الحبوب ولا تعرف كيفية صناعتها ولا ما بداخلها فأنت فقط تسقي الماء، فالنِعم مجانية ومقصودة للإنسان.

ـ كل الأشياء مسخرة ومفيدة للإنسان، فكل شيء نِعم للإنسان، فالإرادة نِعمة، والعقل نِعمة، والروح التي يحيا بها نِعمة، والعين نِعمة، واللسان نِعمة، والماء نِعمة، والهواء نِعمة، والمال والزوجة والأولاد نِعمة، والبترول في باطن الأرض نِعمة، وكل شيء هو نعم من الله سبحانه.

ـ رابعا: يتصور الأمر كأنه يراه لأول مرة، وفي كل مرة يتصور كأنه يراه لأول مرة:

ـ التفكر عند الانسان الذي يوقن بوجود الخالق ليس معناه أنه يعيد معرفته ويقينه بالله من جديد ولكن معناه أنه يتخيل كأنه لم يكن يعرف بوجود الخالق من قبل، والغرض منه ليس تحقيق المعرفة النظرية بوجود الخالق وتحقيق اليقين به ولكن الغرض منه تحقيق المعرفة الحقيقية التي تؤدي أثرها على القلب والجوارح ولزيادة هذه المعرفة الحقيقية والحفاظ عليها، فالتفكر مطلوب دائما سواء للموقن أو غير الموقن بوجود الخالق.

ـ مجرد المعرفة بوجود الخالق فهذا أمر مؤثر جدا على كل مشاعر الانسان وحياته ولكن مات المعنى وتحول الأمر إلى معلومة روتينية باهتة ولإحياء هذا المعنى من جديد لابد أن يتخيل الانسان أنه لم يكن يعرف بوجود الخالق من قبل ويتفكر في وجود الخالق من خلال آياته وذلك في كل مرة يتفكر فيها.

ـ كل إنسان يعلم بوجود الخالق ولا يتأثر بذلك، ولكن عندما يتصور أنه لأول مرة يعلم أن هناك أحدا لا يراه له كل هذه القدرة على خلق هذا الكون الهائل فهذا يجعل الإنسان في ذهول ولا يغيب ذلك عن ذهنه أبدا.

ـ أخطر مشكلة هي التعود على الأمر، فكل يوم ينظر الإنسان إلى السماء ويرى الشمس ولا مشكلة في ذلك، والحل هو أنه ينظر إلى السماء كأنه يراها لأول مرة، وينظر إلى الشمس كأنه يراها لأول مرة وكأنه لأول مرة يسمع عن كلمة غريبة اسمها (الشمس) مثلًا، فلكي يزول عمى القلب ولكي تزداد المعرفة الحقيقية به لابد أن نتعامل مع الأشياء من حولنا كأننا نراها لأول مرة.

ـ فالعاقل هو الذي يرى الأمر كأنه أول مرة ولو رآه مئات المرات لأن التعود يجعل الإنسان لا يتصور الأمر.

ـ فمثلًا لابد أن يتعامل الإنسان مع النوم والموت كأنه يسمع عن ذلك الأمر لأول مرة، فيجد الأمر عجيبًا مدهشًا يلفت النظر ويستوجب انشغال البال، وكلما أراد أن ينام كأنه يسمع عن النوم لأول مرة فيتساءل ماذا يعني النوم؟ إنه سلب للسمع والبصر والكلام والحركة، فمن الذي يسلب هذه الصفات رغمًا عن الإنسان ويجبره على النوم مرات ومرات، فهو دليل على قدرة هائلة مهيمنة على الإنسان ودليل على ضعف الإنسان، وكذلك كلما قام من نومه يتساءل من أين عادت هذه الصفات إليه؟، لكن تعودنا أن ننام ونصحوا وتعودنا أن نسمع كل يوم: مات فلان، ولم نتخيل اليوم الذي نموت فيه: ((اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ))[١]، وفي الحديث: ((النوم أخو الموت ولا ينام أهل الجنة))[٢].

ـ عندما يأكل الإنسان برتقالة مثلًا لابد أن ينظر إليها كأنه يراها لأول مرة، ويتساءل من أين أتت؟ وفي أي مصنع أو شركة تم تصنيعها؟ ولماذا صنعت بهذا الشكل؟، والإجابة أنه لا أحد من البشر يستطيع صنعها وإنما خرجت من الطين لتكون طعامًا مناسبًا ومعدًا للإنسان ومحفوظًا بطريقة معينة بحيث لا تفسد، فلابد من قوة خفية لها قدرة هائلة وخبرة هائلة وبراعة على صناعة هذه البرتقالة ولابد أن الذي صنعها يحب الإنسان

(١) الزمر: ٤٢
(٢) تحقيق الألباني: صحيح (انظر حديث رقم: ٦٨٠٨ في صحيح الجامع)

ويرسل له ما يفيده، فعندئذ يكون الإنسان شاكرًا ممتنًا لمن أعطاه هذه البرتقالة وكل هذه النعم، وكلما أكل برتقالة لا تغيب هذه الصورة عن عينه، فعندئذ فقط قد عرف الإنسان معنى كلمة (برتقالة) معرفة حقيقية.

ـ فيتصور الانسان أنه كان أعمى وأصم طوال فترة حياته السابقة منذ أن ولد، فماذا يحدث في أول لحظة يبصر فيها ويسمع؟ فيتساءل من أوجده ولماذا أوجده؟ ومن أوجد هذه الأشياء من حوله؟ ومن الذي جعل هذه الكائنات تتحرك وتحيا؟ وما هي حقيقة الشهوات وحقيقة الإنسان وحقيقة الموت؟، وينظر إلى ما حوله من الأشياء كأنه يراها لأول مرة ويسأل: ما هذا؟ وكيف وجد؟ ومن الذي أوجده؟ ويتصور مدى قوة وعلم من صنعها، وفي كل مرة يرى الشيء يكون كأنه يراه لأول مرة ولو رآه ألف مرة وذلك لخطورة ما يرى ومدى غرابته، وليس المطلوب من هذه الأسئلة المعرفة النظرية فهي معروفة ولكن يستشعر خطورة هذه المعرفة وما تدل عليه.

ـ فكل شيء هو خارق للأسباب، والإنسان العاقل ينشغل ذهنه بالأمور الخارقة للأسباب، ولا يمكن لإنسان أن يتعود النظر على أمر خارق للأسباب من غير أن يتعجب من عظمته وعظمة صانعه، ولكن الإنسان هو الذي يتغافل عن عظمة ما يراه فينظر إلى الشمس كأنها موجودة من تلقاء نفسها وكأنه لا أحد أوجدها وكأن تصميمها بهذا الشكل وبقاءها ملايين السنين متوهجة أمر عادي، وكأن فوائدها للإنسان والمصممة بدقة متناهية لا أحد صممها أو موجودة هكذا، وهكذا في كل شيء من الماء والهواء والتراب والزروع والنجوم وكل شيء.

ـ لو جاءك ساحر فسحر لك أشياء مذهلة، هذا معناه أن الساحر له قدرة أعلى من قدرتك، ولكنك لا تريد أن تشعر بضعف قوتك أمام قوته، فتتجاهل ما قام به من السحر كأنه لم يسحر شيئًا وكأنها أمور عادية، وكل يوم يأتيك الساحر فيسحر لك أشياء مذهلة وأنت لا تبالي فقد تعودت على رؤية ما يأتي به، فتجاهلك لهذا السحر لن يغير من حقيقة الأمر شيء فقوتك ضعيفة.

ـ هذا الأمر إذا كان سحرًا فما بالك لو كان حقيقة وليس سحرًا، فأنت حولك أمور هي معجزات وهي أعجب من السحر، فخروج النبات بألوانه وثماره من تراب أسود هو أعجب من السحر وهو أمر خارق للأسباب، وكذلك كل الآيات الكونية، ولكن الإنسان تعود النظر إلى السماء والأشياء من حوله على أنها أمور عادية.

ـ كل الأشياء هي أدلة على الخالق فهي آيات الله الكونية، ولكن الناس يتعاملون مع هذه الأدلة بصورة خاطئة، فيتعاملون مع هذه الأشياء لا باعتبارها دليلًا على الخالق، ولكن باعتبارها أشياء موجودة ويستفيدون منها، فالشمس تضيء للإنسان ولا يفكر لماذا تضيء ومن الذي جعلها تضيء؟ والزرع يخرج من الأرض ليفيد الإنسان ولا يفكر لماذا يخرج ومن الذي جعله يفيد الإنسان؟ والبترول في باطن الأرض يفيد الإنسان ولا يسأل من الذي وضعه في باطن الأرض ولماذا؟ والإنسان موجود على الأرض يسعى ويتحرك ولا يفكر من الذي أوجده ولماذا؟ وهكذا، وإذا فكر في الأمر فيفكر في ظاهر الأمر وليس في حقيقته، وكل الناس يعرفون الإجابة على هذه الأسئلة ولكنها معرفة نظرية فقط وليست معرفة حقيقية، أما إذا عقل الإنسان حقيقة الأمر فإن صورة قدرة الخالق الهائلة وعلمه الهائل لا تكاد تفارق ذهنه.

ـ فإذا تصور الإنسان ذلك شعر بضعف قوته وشعر بخضوعه لقوة الخالق الذي له كل هذه القدرة، وبالتالي فالعاقل كلما رأى شيئًا تذكر ضعف نفسه وقدرة من أوجد هذا الشيء فشعر بالخضوع لله تعالى وشعر بحب الإعجاب بقوته وحبه لإنعامه وخاف من مهابة قوته، وهذا هو التعامل الصحيح مع الأدلة على الخالق.

ـ خامسا: الحرص على رؤية ومعرفة الآيات الكونية التي لم يكن يراها أو يعرفها من قبل:

ـ عندما يرى الانسان بمساعدة كاميرا مكبرة أرجل النملة وهي تمشي أو أعين الناموسة وتفاصيل جسدها وهي تتحرك أو يرى ما على سطح المريخ وغير ذلك لأول مرة في حياته فإنه ينتابه شعور بالهيبة والرهبة

ولا يملك إلا أن يقول سبحان الله، ولكن إذا تعود النظر إلى هذه الأشياء كثيرا لم يعد يتأثر بها.

ـ ومن صور التفكر مشاهدة الأفلام التسجيلية عن حياة الحيوانات والحشرات والأسماك والطبيعة وزيارة حدائق الحيوان، وهناك بعض المواد الدراسية التي تفيد في التفكر مثل علم الأحياء والفسيولوجي والتشريح والفلك والعلوم التي تختص بدراسة الذرات والجزيئات، ومن ذلك أيضا علم الاثار للاعتبار بمصائر الاقوام السابقين، والمطلوب دراسة هذه العلوم من باب التفكر وليس فقط باعتبارها مواد دراسية.

ـ وهناك بعض الحرف تعين على التفكر والاتعاظ مثل المغسل والحانوتي ولكن المشكلة في أن التعود على الأمر قد يؤدي الى فقدان التأثر به فقد تجد مغسلا للموتى وقلبه قاسي وهكذا.

ـ فكذلك الانسان في بداية التزامه يتأثر بما يسمعه عن الجنة والنار وعن الخالق ثم بعد مدة لا يتأثر، فهو بمرور الوقت يزداد علما بالدين لكنه يزداد جهلا بالله والاخرة، وهذا الجهل لغياب المعرفة الحقيقية فقد يكون لديه معلومات عن الخالق والجنة والنار لا أول لها ولا آخر ولكنه في حقيقة الامر لا يعرف الله والاخرة معرفة حقيقية تؤدي أثرها: ((أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ))(١).

ـ سادسا: تصور عجز الأسباب عن تفسير الأمر:

ـ أهم شيء يمنع الإنسان من معرفة الله هو أن يحصر تفكيره في حدود الأسباب فقط.

ـ سبب عدم الاتعاظ من الابتلاءات هو تصور أن الفاعل للابتلاءات هي الأسباب، فالمرض بسبب الفيروس وحرارة الجو مثلًا وينسى من الذي صنع الفيروس وجعله يقدر على الإنسان ويجعله ضعيفًا ومريضًا،

---

(١) الحديد: ١٦

ويحسب أن سبب تعرض السفينة للانقلاب هو الريح والأمواج وينسى من الذي يسير الريح، ويتصور أن الزمن هو الفاعل للشيخوخة وهكذا.

ـ الأسباب عبارة عن قوانين تسير بها الأشياء فمن الذي وضع هذه القوانين؟ الله هو الذي خلق القانون الذي يسير به الكون، فالإنسان إما أن يوقن بالله الذي يخرق الأسباب يقينا حقيقيا وإما أن يكون ماديًا لا يعرف غير الاسباب، فالأسباب هي قوانين مخلوقة لا تنفع ولا تضر، وهذه القوانين عند البشر فقط وليست عند الله، والبشر لا يستطيعون إلغاء الأسباب ولكن الله يستطيع أن يلغي الأسباب لأنه هو الذي خلقها ووضعها.

ـ فمثلًا قانون الجاذبية هو الذي يجعل الشيء الذي يسقط من يدك يقع على الأرض، فهذا القانون مخلوق يلزمك أنت ولكن لا يلزم الله، فالله إذا أراد ألا يقع على الأرض ما يسقط من يدك لفعل، كما أن قانون الجاذبية لا يستطيع أن يفعل شيء فليس هو الفاعل الحقيقي، ولكن الفاعل هو الله سبحانه، فإذا سقط شيء من يدك فوقع على الأرض فنقول أنَّ سبب ذلك قانون الجاذبية مجازًا، لكن في الحقيقة الله هو الذي أوقع ما سقط من يدك على الأرض؛ لأن الله هو الذي صمم هذا القانون.

ـ وكذلك فالدواء لا يشفي والشافي هو الله، والله هو الذي جعل الدواء يؤدي إلى الشفاء؛ لأنه هو الذي خلق القانون الذي به يستطيع الدواء أن يؤدي إلى الشفاء، أي أن الله هو الذي خلق الخواص المعينة التي في الدواء والخواص المعينة الموجودة في الجسم بحيث إذا وضع الدواء نتج الشفاء، والإنسان فقط يكتشف ويعرف ما هو موجود فيستفيد من خواصه وليس يخترع ويبتكر الخواص التي تؤدي إلى الشفاء، وقد يريد الله للمريض أن يشفى بغير دواء ولا أسباب، وقد يبقيه على مرضه وإن أخذ بكل الأسباب، والإنسان مطالب بأن يأخذ بالأسباب فقط لأن الله أمره بذلك؛ لأن عدم الأخذ بالأسباب معصية.

ـ وقد يوقف الإنسان تصوره عند الحدود المادية فقط، فهو يتصور ما يحدث داخل النبات من أسباب، وعندما يسأل عن السبب يجد له سبب آخر، وعندما يصل إلى كيفية اختيار النبات لعناصر معينة يحتاجها من

التربة وبدقة متناهية لتكوين مادة البرتقالة مثلا (وتسمى بالنفاذية الاختيارية) لا يجد لذلك سببًا ويعلم أن هناك قوة خفية هي التي تصنع ذلك لكنه لا يتصور ذلك الأمر ولا يلفت انتباهه إليه ولا يشغل همه به رغم أنه يرى البرتقالة ويمسكها بيده ويأكلها!

ـ عندما تتفكر في أي أمر ينبغي عدم التوقف عند الحدود المادية للأسباب، فعندما تتفكر في أي أمر تجد له مبررات علمية لحدوثه، فتبحث عن سبب هذه المبررات فتجد لها مبررات أخرى وهكذا، وعليك أن تستمر في هذا حتى يعجز العلم المادي ويقول هذه لا أجد لها مبررات فتعرف أن هناك قوة خفية خارجية خارقة للأسباب هي التي أحدثت ذلك الأمر، وعندئذ تشعر أن هناك قوة قاهرة تهيمن على كل شيء وتسيطر على كل شيء سيطرة كاملة وهيمنة كاملة وعلى الجميع الاستسلام والخضوع الكامل للخالق: ((ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ))(١)، أما التوقف عند الحدود المادية للأسباب يجعل الإنسان يشعر أن الأسباب هي التي أوجدت وصنعت وخلقت هذه الأمور، وإن كان مقتنعًا أن الخالق هو الذي أوجدها، فيعيش بمشاعره في دنيا الأسباب، فينبغي أن تكون نظرة الإنسان إلى كل شيء على هذا النحو.

ـ والمشكلة أن الإنسان قد يقطع هذا التصور ويعتبره فلسفة، فيكون مثل الذي سار في الطريق ونسي هدفه، فالغرض من التصور تحقيق المعرفة الحقيقية.

ـ سابعا: تصور عجز الإنسان عن دفع الضرر والابتلاءات عن نفسه:

ـ عجز الإنسان عن دفع الضرر والابتلاءات عن نفسه يدل على أن هناك قوة أعلى منه تتحكم فيه وتدل على أنه ضعيف لا يستطيع أن يدفع عن نفسه البلاء.

ـ فمثلًا الحكمة من وجود الزلازل والبراكين وإهلاك الأمم كعاد وثمود ومعجزات الرسل وغير ذلك من عجائب قدرة الله هو أن الله يظهر للناس

---

(١) الملك: ٤

بعضًا يسيرًا من قدرته حتى يشعروا بمدى قدرة الله فيخافوا من مهابته ويخافوا من عقابه، ويقول تعالى: ((وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلا تَخْوِيفًا))(١)، فالله يريد أن يخاف الناس من مهابته ومن عقابه بهذه الآيات التي تظهر قدرته ولكن هناك من لا يخاف: ((وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلا طُغْيَانًا كبيرًا))(٢).

ـ بعض الناس اهتدوا بسبب أنهم تعرضوا لمحنة فاكتشفوا فيها ضعف أنفسهم واحتياجهم إلى الله وقدرة الله عليهم، فمنهم من استمر شعوره بهذه المحنة التي هي آية تدل على الله فاستمرت هدايته، ومنهم من نسي هذه الآية فترك الهداية بمجرد أن مرت المحنة.

ـ فالنفس بطبيعتها متكبرة، والابتلاءات تجعل النفس تنكسر وتعترف بأنها ضعيفة فتخضع.

ـ ثامنا: تصور عجز الإنسان عن دفع الموت عن نفسه:

ـ الانسان يتعامل مع النعم كأنه هو الذي أوجدها لنفسه وأنها ملكه وبالتالي فهو قوي بها ومغرور بها وبالتالي لا يخضع لله تعالى.

ـ فالله يسلب منه النعم التي جعلها الانسان مصدر قوة له فتعلق بها بدلا من أن يتعلق بالله تعالى، فالابتلاء سلب لبعض النعم والموت سلب لكل النعم.

ـ عجز الانسان عن أن يحافظ على بقاء ما عنده من النعم دليل على ضعفه ودليل على أن هناك قوة أكبر منه هي التي تفعل به ما تشاء وتقصد سلب النعم كلها فهي قوة الخالق سبحانه.

ـ ولا يستطيع الانسان أن يمنع الموت عن نفسه فهو مقهور بالموت وبالتالي لابد أن يخاف من المميت.

---

(١) الاسراء: ٥٩
(٢) الاسراء: ٦٠

ـ الله قدَّر على الإنسان الشيخوخة والموت والإنسان لا يستطيع أن يمنع ذلك عن نفسه: ((قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينِ))[١]، إذن هناك من هو أقوى منه: ((اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ))[٢]، لكن الإنسان ينام ويتغافل عن قضية النوم ويتغافل عن ما يحدث له ومن يفعل به ذلك وكأنه لا شيء رغم أنه أمر خارق للأسباب.

ـ اليقين الحقيقي بما يراه الانسان من موت الناس من حوله يؤدي الى الشعور بمدي ضعف الإنسان والشعور بأن هناك قوة أعلي من الإنسان هي التي تميته وتفعل به ما تشاء هي قوة الله تعالى، ويؤدي إلى القلق وخوف المهابة من الانتقال إلى مرحلة شديدة الخطر مجهولة لا يدري ما يناله منها، ولا يكن مرعوبا من الموت، فمن عرف معنى الموت معرفة حقيقية فإنه لا يفزع من الموت لأنه إعطاء الأمانة (النعم) لصاحبها وأنت محبا له لأنه جعلك تستفيد منها طوال هذه المدة التي عشتها في الدنيا.

ـ واليقين الحقيقي بما يراه الانسان من موت الناس يؤدي إلى أن ينشغل ذهن الانسان بقضية الموت لأنها من أخطر القضايا في حياة الإنسان، ففي الحديث: ((كُنْ في الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أو عَابِرُ سَبِيلٍ وَعُدَّ نَفْسَكَ في أَهْلِ الْقُبُورِ، فَقَالَ لي ابْنُ عُمَرَ إِذَا أَصْبَحْتَ فَلاَ تُحَدِّثْ نَفْسَكَ بِالْمَسَاءِ وَإِذَا أَمْسَيْتَ فَلاَ تُحَدِّثْ نَفْسَكَ بِالصَّبَاحِ))[٣].

ـ بعض الناس اهتدوا بسبب أنهم رأوا أحدًا مات مثلًا فتأثرت مشاعرهم وأيقنوا بالموت وبأنهم سيموتون وأنهم لا يستطيعون مقاومة الموت ولا الدفاع عن أنفسهم، فالذي يستطيع أن يميتهم يستطيع أن يفعل بهم أي شيء فيخضعوا لمن يستطيع أن يتوفاهم ويعبدوه: ((قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ

---

(١) آل عمران: ١٦٨
(٢) الزمر: ٤٢
(٣) تحقيق الألباني: صحيح (الصحيحة: ١١٥٧)

كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ))(١).

ـ كل الناس يوقنون بأن الموت هو انتقال لحياة أخرى لكن البعض يتعاملون مع الموت على أنه نهاية الحياة وليس انتقال لحياة اخرى، لذلك لديهم رعب من الموت وتجدهم يلهثون وراء أسباب الصحة ظنا أنها تقيهم من الموت: ((قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فإنه مُلاقِيكُمْ))(٢).

ـ والبعض الآخر لا يتأثرون بالموت مطلقا كأنه شيء غير مؤثر وكأنه غير موجود.

ـ ومهما حاول الإنسان التغافل والهروب عن الحقيقة والمصير القادم، فإنها أيام قصيرة وغدا اللقاء رضي أم لم يرضى، شعر بذلك أم لم يشعر، وقد سبقه الكثير إلى هناك ولكن من عنده مشاعر يحس بها ؟ ((إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ))(٣)، وغدا تنتهي الحياة فماذا أنت صانع ؟.

ـ تاسعا: تصور الحكمة:

ـ فمثلًا خروج النبات من البذرة هو خروج حي من ميت ليكون درسًا عمليًا للإنسان على البعث، وكذلك نوم الإنسان ويقظته كل يوم تذكير له بالموت والبعث كل يوم، والنار التي تطهي الطعام تذكير له بنار الآخرة وهكذا.

ـ عاشرا: تصور أصل القضية:

ـ أصل القضية هي أهم شيء فيها، فإذا تناسى الإنسان الأصل أصبحت القضية بلا معنى ولا قيمة، فالعاقل يفكر في أصل القضية وحقيقتها وليس في تفاصيلها متناسيًا أصل القضية.

---

(١) يونس: ١٠٤
(٢) الجمعة: ٨
(٣) قّ : ٣٧

ـ تصور أصل القضية معناه أن يستمر في السؤال لماذا؟ وما حقيقة الأمر؟ فالإنسان يأكل ويعيش ولا يسأل لماذا يأكل ولماذا يعيش؟، وهدفه كذا وكذا ولا يسأل ماذا بعد تحقيق أهدافه؟ فهي أهداف وراءها أهداف، فلابد أن يستمر السؤال: وماذا بعد؟ الإجابة أنه بعد كل هذا يموت وتأتي القيامة وكل ما حققه من أهداف دنيوية تفنى ويأتي الحساب عليها، فمن يتصور ذلك لن يعيش من أجل أهداف دنيوية وسوف يكون هدفه شيئًا واحدًا هو الإعداد ليوم موته وما بعده من حياة.

ـ إذا وصل إلى علم الإنسان بأن هناك شيء غامض أو لغز أو مشكلة أو أمر خطير ومهم، فذلك يجعل الإنسان يفكر ما هو هذا الشيء وماذا أصنع؟، وجود هذا الكون الهائل هو لغز يدعو الإنسان لمعرفة سر وجوده، والموت لغز يدعو الإنسان لمعرفة ما هو وماذا بعده؟، ووجود الإنسان لغز يدعو الإنسان لمعرفة سر وجوده والهدف من وجوده.

ـ فذلك يدعو الإنسان لمعرفة حقائق الأشياء من حوله كيف وجدت ولماذا وجدت ومن أوجدها ومن الذي أوجد الإنسان وما الهدف من ذلك؟ وماذا عليه أن يفعل؟ ولماذا يعيش وما الهدف من حياته؟ وليس المطلوب من هذه الأسئلة المعرفة النظرية فهي معروفة ولكن يستشعر خطورة هذه المعرفة وما تدل عليه.

ـ الحادي عشر: تذكر ضعف الإنسان في ذاته:

ـ الإنسان مغرور رغم أنه ضئيل القيمة فأوله نطفة مذرة (أي نطفة لا قيمة لها ولا حياة فيها) وآخره جيفة قذرة، وهو بين ذلك يحمل العذرة (أي يحمل في أمعاءه البراز النتن أثناء حياته)، ((أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ))[1]، ((أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا))[2]، ((هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ

(١) يس: ٧٧
(٢) مريم: ٦٧

شَيْئًا مَذْكُورًا (١) إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا))[١].

ـ ومما يساعد على تذكر ضعف الانسان زيارة المرضى وخاصة المصابين بأمراض خطيرة وتأمل أصحاب الإعاقات وتذكر الذين ماتوا فجأة وكانوا في كامل صحتهم وتذكر ضعف الانسان وهو في مرحلة الطفولة وفي مرحلة الشيخوخة وهكذا.

****

ـ أمثلة تبين المعرفة الحقيقية للآيات الكونية:

ـ مثال (١): تصور قصد النفع للإنسان:

ـ لو أن رجلًا يقوم ببناء بيت له وقد أتم بناء الحوائط والسقف ولكن ليس في البيت كهرباء ولا ماء ولا مفروشات، ودخل بيته ذات مرة فوجد البيت فيه كهرباء وماء ورأى منضدة كبيرة في الصالة موضوع عليها طعام وشراب ووجد سريرًا موضوعًا في حجرة النوم ووجد كرة موضوعة في البيت، فإذا به يأكل من الطعام ويلعب بالكرة وينام على السرير دون أن يسأل من أحضر كل هذه الأشياء ومن أدخل الكهرباء والماء إلى المنزل ولم يشعر بأي تعجب أو ذهول أو غرابة وكأن كل شيء عادي، وكل شيء موجود لأنه موجود كما هو، وظل على ذلك سنوات عمره كل يوم إذا دخل بيته يجد الطعام موضوع فيأكل ويلعب وينام، فهذا حال الإنسان الذي لا يعقل.

ـ وإذا كان هذا الرجل عاقلًا ورأى ذلك فإنه يُفاجأ ويندهش ويشعر بالرهبة من غرابة الأمر ويشعر بالحب لمن أحضر هذا.

ـ إن الله ينبت الزروع من الأرض ليأكل منها الإنسان كأنها منضدة أعدت ليوضع عليها الطعام للإنسان، والأنهار تحمل المياه العذبة له، والشمس والقمر والنجوم تضيء له نهارًا وليلًا، والإنسان خرج من بطن أمه وكبر وعاش سنوات عمره كأن كل هذه الأشياء أمور عادية هو الذي وضعها

(١) الإنسان: ١، ٢

لنفسه، كأنه هو الذي جعل الأرض تنبت وصمم نظام السحاب بحيث يتجمع الماء العذب في الأنهار وجعل نظام إضاءة فصنع الشمس والقمر حتى لا يعيش في الظلام! أو كأن الزرع يخرج من تلقاء نفسه ليفيد الإنسان، وكأن الماء والهواء هو الذي أوجد نفسه ويفيد الإنسان من تلقاء نفسه: ((أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ (٣٥) أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ))[١].

ـ مثال (٢): اليقين الحقيقي بأن الشمس مصدر الضوء والحرارة:

ـ عدم وجود الشمس معناها أن الناس يعيشون في ظلام دائم وفي درجة حرارة تحت الصفر المئوي، لذلك يتم اضاءة الأرض كلها بمصباح واحد هو الشمس، وتصل اليك حرارتها من مسافة حوالي ١٥٠ مليون كم، في حين أنك لو جلست امام مدفأة على بعد عشرين مترا او أكثر فلن يصل اليك حرارتها وذلك لأنها موقد هائل جدا حيث أن درجة حرارة سطح الشمس أكثر من ٥ مليون درجة مئوية ودرجة حرارة باطنها أكثر من ١٥ مليون درجة مئوية.

ـ تخيل لو أن انسانا لم يرى الشمس من قبل ولأول مرة يسمع عن وجود الشمس ماذا يكون أثر ذلك عليه وكيف يكون رد فعله وانفعالاته؟

ـ إنه سوف يندهش من مدى هول الشمس ومن قدرة من صنعها وسوف يصاب بالرعب من كونها إذا اقتربت قد تدمر البشر وسوف يعجب بمدى فوائدها التي بدونها يفنى البشر وسوف ينشغل همه بصورتها المرعبة فهي نار هائلة معلقة في الفضاء وسوف يبني حياته خضوعا لقدرة من صنعها لأنه بذلك يقدر على البشر جميعا تعظيما لقدرته وخوفا ورجاءً.

ـ إذا لم يحدث هذا التعلق بعناصره الأربعة فهذا معناه أنه لا يزال لا يعرف ما هي الشمس ولا يزال لم يراها رغم أنه يراها كل يوم!

ـ فالشمس عبارة عن كتلة هائلة من النار معلقة في الفضاء ونحن على الكرة الأرضية ندور حول هذه الشمس في دورة كل عام، وهي ما زالت

(١) الطور: ٣٥ ، ٣٦

موقدة ولم تنطفئ على مدى ملايين السنين من قبل خلق البشر أساسًا، ويمكنها أن تبتلع الأرض ومن عليها ولا يمثل ذلك سوى واحد على مليون من حجمها، وشدة نارها تصل إلى ملايين الدرجات المئوية، وحر الصيف الذي نعيشه هو مجرد اقتراب بسيط جدًا من الشمس فنحن على مسافة هائلة منها.

ـ وجميع النجوم مثل الشمس عبارة عن نار هائلة معلقة في الفضاء، ومنها ما هو أضخم من الشمس ملايين المرات، وهذه النجوم ما هي إلا زينة للسماء فانظر إلى مدى قدرة الله تعالى.

ـ مثال (٣): اليقين الحقيقي بأننا نعيش في الفضاء على ظهر كرة تسبح بنا في الفضاء وحولنا النجوم من كل اتجاه!:

ـ هل تصدق أننا نعيش وسط النجوم؟!، كان الناس يظنون أن هذه النجوم الكثيرة وهذا الفضاء الواسع هو فوقنا فقط، لكن هذه النجوم وهذا الفضاء حول الأرض من كل اتجاه وليس فوقنا فقط، فنحن نعيش على أرض معلقة في الفضاء، وهناك نجوم أسفل الأرض ونجوم أعلاها.

ـ وإذا عرَّفنا كلمة (السماء) على أنها الفضاء وما فيه من النجوم فهذا معناه أننا نعيش في السماء!، ولكي تدرك هذه الحقيقة جيدًا تحتاج إلى تصور ذهني وتخيل لمكان الكرة الأرضية بالنسبة للنجوم:

ـ فالكون عبارة عن فضاء تسبح فيه نجوم هائلة العدد، وكل نجم تدور حوله بعض الكواكب، ومن بين هذه النجوم والكواكب الهائلة العدد في الكون يوجد نجم اسمه الشمس وكوكب اسمه الأرض، فكوكب الأرض هو كرة معلقة في الفضاء يحيط بها النجوم من كل اتجاه، فالنجوم ليست فقط فوق الأرض ولكنها تحيط بالكرة الأرضية من كل اتجاه.

ـ إذن نحن نعيش في الفضاء على ظهر كرة تسبح بنا في الفضاء وحولنا النجوم من كل اتجاه!

ـ تخيل لو أن الكرة الأرضية لم تعد معلقة في الفضاء وسقطت فأين تذهب؟ إن تحت الكرة الأرضية فضاء ونجوم!





ـ عندما صعدت سفن الفضاء في الفضاء البعيد التقطت صورة للأرض وحولها الشمس والنجوم، فكانت الأرض عبارة عن نقطة زرقاء باهتة وسط النجوم (والصورة التوضيحية تبين ذلك).

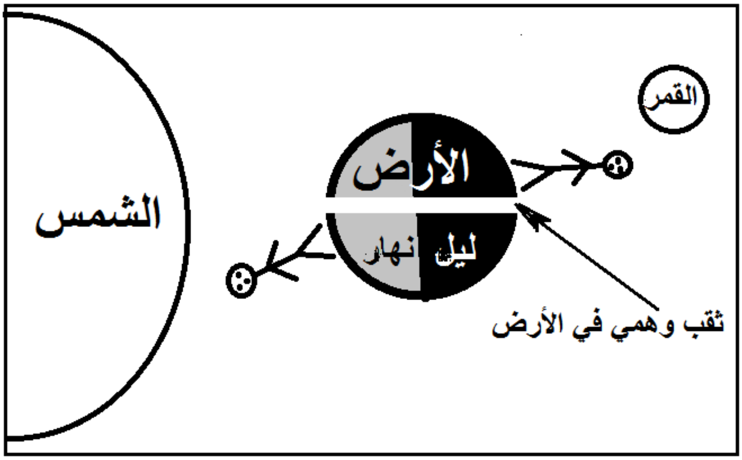
ـ إن هذه الدنيا التي نعيشها بكل ما فيها ليست إلا حياة ضئيلة جدًا موضوعة على نقطة زرقاء باهتة وسط الفضاء والنجوم، فالأرض ومن عليها من البشر مجرد جزء صغير جدًا من منظومة كبيرة جدًا هي الكون، فيتكون شعور بضعف البشر وعجزهم وشعور بمدى عظمة هذا الكون واتساعه فلا يقدر البشر على إيجاد شيء منه ولا التحكم فيه وبالتالي الشعور بمدى قدرة وعظمة خالق الكون.

ـ أي القضيتين تشغل الذهن أكثر؟ قضية وجود البشر جميعًا في مكان واحد هو الكرة الأرضية فلا يزيد حجم كل هذه البشرية عن نقطة تافهة في فضاء سحيق! أم القضايا والمسائل والمشاغل التي بين البشر بعضهم البعض وهموم الحياة وأعمالها؟، فما قيمة ما يحدث بين البشر وما يتشاغلون به من أعمال وهم جميعًا عبارة عن كتلة ضئيلة جدًا من النمل تتحرك في نقطة لا تكاد تراها في مشهد الفضاء والنجوم، طبعًا العاقل يشغله القضية الأولى عن أي شيء آخر من مشاغل الحياة وهمومها وشهواتها ومن العلوم والمعارف المختلفة، وصورة الأرض المعلقة بنا في الفضاء لا تكاد تفارق ذهنه، ولكن البعض يغفل عن هذا الأمر ويعطل عقله عن النظر فيه ولا يشغل عقله بغير ما يحدث من مشاغل الحياة وهمومها وشهواتها وأعمالها، وهؤلاء هم غافلون عن هذه الآية من آيات الله ومشغولون بما سوى ذلك.

ـ مثال (٣): اليقين الحقيقي بأن الشمس والكواكب جيران لنا في الفضاء!:

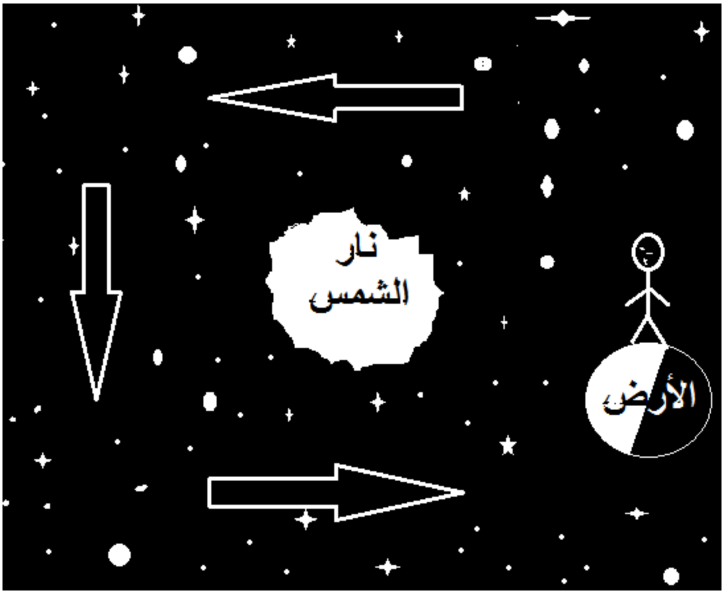
ـ تصور وضعك مع حركة الأرض حول نفسها، وحدوث الليل والنهار، فهذا يؤدي إلى الشعور بأن هناك قوة أعلى من الإنسان تفعل به ما تشاء، وتؤدي إلى الشعور بضآلة الإنسان، وبالتالي الشعور بالاستسلام والخضوع للخالق.

ـ تخيل لو أنك كنت بالليل وقمت بعمل ثقب في الكرة الأرضية فسيصل إليك نور الشمس!



ـ مثال (٤): اليقين الحقيقي بأننا ندور حول نار هائلة معلقة في الفضاء!:

ـ هل تصدق أن هناك نارًا هائلةً جدًا معلقة في الفضاء وأننا ندور حولها مثلما يدور الفراش حول النار المشتعلة؟!، إن الشمس عبارة عن كتلة من النار هائلة مشتعلة في الفضاء ونحن الآن ندور حولها على ظهر مركبة فضائية تطير بنا في الفضاء المظلم هي الأرض في رحلة تستغرق عام كامل، ففي اللحظة التي تقرأون أنتم فيها هذه السطور تدور الأرض في مدارها حول الشمس في رحلة طولها ٩٥٠ مليون كيلو متر، نقطعها في سفر مدته سنة ثم تبدأ من جديد دون توقف، وحر الصيف وبرد الشتاء يحدث بسبب اقترابنا أو بعدنا عن نار الشمس أثناء هذه الرحلة.



ـ فنحن نسير الآن بسرعة ١٠٨ ألف كيلو متر في الساعة (٣٠ كم في الثانية)، ويمكنكم أن تعرفوا ضخامة هذه السرعة على النحو التالي: إن أقصى سرعة يمكنكم أن تصلوا إليها عند قيادة سيارة عادية هي ٢٠٠ كيلو متر في الساعة، يعني أن الأرض تدور حول الشمس بسرعة تبلغ ٥٤٠ مرة بحجم سرعة السيارة، ويمكن أن نفهم الأمر بشكل أوضح من خلال هذا المثال أيضًا: فسرعة الرصاصة تبلغ ١٨٠٠ كيلو متر في الساعة، وسرعة الأرض في دورانها حول الشمس تبلغ ٦٠ مرة حجم سرعة الرصاصة**!**، ومع سرعة الأرض الهائلة هذه تكون قوة جاذبية الشمس غاية في الأهمية، فلو أنه حصل نقص في قوة جاذبية الشمس فإن الأرض تضيع في الفضاء بسرعة غير عادية، وذلك يمثل نهايتها، والعكس أيضًا صحيح، بمعنى أنه لو حدثت زيادة في قوة جاذبية الشمس فإن الأرض تتجه نحو الشمس بسرعة هائلة وتذوب وتتبخر، وبالتأكيد فنحن أيضًا سوف نتبخر معها، ولو كانت جاذبية الأرض لما عليها من البشر والأشياء أقل مما هي عليه الآن لطاشَ كلّ شيء ولطشنا نحن أيضًا في الفضاء.

ـ فنحن الآن نطير في الفضاء حول هذه النار في دورة كل عام، وفي هذا شعور بالرهبة والخوف، والشعور بأن هناك قوة أعلى من الإنسان تفعل به ما تشاء، والشعور بمدى ضآلة الإنسان، وبالتالي الشعور بالاستسلام والخضوع للخالق.

ـ هناك حدثان يحدثان في آن واحد هما أنك تتحرك الآن على كرة تطير بك في الفضاء، والحدث الثاني هو أحداث الحياة وصراعاتها ومشاغلها وهمومها وعلومها وشهواتها وما يدور من حولك من أمور في دنيا الناس، فأي الحدثين يشغل بالك أكثر؟ وهل يمكن أن تنسى هذا الحدث الأكبر أنك تسير الآن في الفضاء؟ طبعًا العاقل يشغله الأمر الأول عن الثاني، ولكن البعض يغفل عن هذا الأمر ويعطل عقله عن النظر فيه ولا يشغل عقله بغير ما يحدث من مشاغل الحياة وهمومها وشهواتها وأعمالها، وهؤلاء هم غافلون عن هذه الآية من آيات الله ومشغولون بما سوى ذلك.

ـ لا يمكن لإنسان عاقل أبدًا أن ينسى أنه يسير الآن على متن مركبة في فضاء سحيق، ومن يعقل ذلك فإنه يركع ويسجد على متن هذه المركبة لمن يحركه على هذه المركبة في فضاء الكون الهائل!

ـ مثال (٥): اليقين الحقيقي بأن الأرض كرة معلقة في الفضاء!:

ـ عندما صعد العلماء إلى القمر رأوا الأرض صغيرة وكأنها القمر بالنسبة لهم، تخيل نفسك هناك على سطح القمر وتشير إلى الأرض من بعيد: هناك بيتي وأولادي وأهلي في انتظاري حتى أعود، إن الآخرة مثل ذلك، وانظر كيف أن الأرض كرة معلقة في الفضاء!



ـ مثال (٦): اليقين الحقيقي بمدى اتساع الكون الهائل:

ـ الضوء يقطع المسافة بيننا وبين أقرب نجم إلينا في مدة أربع سنوات وربع، ومن النجوم ما يبعد عنا مسافة يقطعها الضوء في مائة سنة، ومنها ما يسافر منها الضوء إلينا في ألف سنة، ومنها ما يبقى الضوء مسافرًا منها إلينا في مدة مليون سنة، ومنها ما يبقى الضوء مسافرًا منها إلينا في (٣٤٠) مليون سنة، ومنها ما يبقى الضوء مسافرًا منها إلينا في مدة ملايين السنين!! [سرعة الضوء (٣٠٠) ألف كيلومتر في الثانية]: ((فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ (٧٥) وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ))(١).

ـ لا يكفي أن يشعر الإنسان بمدى ضخامة حجم النجوم وعددها الهائل، فلابد أن يشعر أيضًا بعظمة المسافات بينها، فذلك يجعل الإنسان العاقل يُجن ويخر ساجدًا، فإن أرقام المسافات والأحجام هائلة ومبهرة جدًا ولا يمكن تصورها أو تخيلها: ((لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ))(٢).

ـ وأيضًا تأمل أن الفضاء كله ظلام، والنور موجود فقط في قشرة طفيفة على الأرض.

ـ مثال (٧): اليقين الحقيقي بأن كوكب الأرض لم يكن عليه بشر لمدة أكثر من ٤ مليار سنة:

ـ الأرض بقيت بدون بشر لمدة أكثر من ٤ مليار سنة، والحيوانات والنباتات كانت تعيش على الأرض لأكثر من ٢٠٠ مليون سنة ولم يكن هناك بشر على الأرض طوال هذه المدة، والإنسان ضئيل جدا وعمره منذ خلق آدم هو فقط عشرة آلاف عام تقريبا: ((هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا))(٣).

---

(١) الواقعة: ٧٥ ، ٧٦
(٢) غافر: ٥٧
(٣) الإنسان: ١

ـ وقبل خلق الكون والأشياء لم يكن شيئًا سوى الله سبحانه، فلا شيء قبله، فلا كواكب ولا شمس ولا فضاء ولا سماء ولا بشر ولا مخلوقات ولا شيء سوى الله سبحانه، ففي الحديث: ((كان الله ولم يكن شيء قبله))[(١)]، وهذا معناه أن يشعر الانسان بضعفه.

ـ اليقين الحقيقي بالحقائق العلمية!:

ـ العلم يكشف لنا حقائق مذهلة عن الطبيعة وما في داخل الانسان ولكن كل ذلك لا يؤثر في مشاعر الكثير سواء من هذه الأمور المذهلة أو من مدى قدرة الخالق، وبالتالي فاليقين بهذه الحقائق العلمية (آيات الله المنظورة) هو يقين كاذب.

ـ إذا علم الإنسان حقائق علمية مثل اكتشاف أن الأرض كرة معلقة في الفضاء أو دوران الأرض حول نفسها أو دورانها حول الشمس، وكل هذه أمور عجيبة ومذهلة وأعجب من السحر، فإذا لم يشعر الإنسان بالتعجب والتحير ويشعر بضآلة الإنسان أمام عظمة هذا الكون وأنه أشد ضآلة أمام خالق الكون فيشعر بالخضوع والاستسلام لله فهو لا يزال لا يعرف خطورة معنى هذه الأمور ويتجاهلها، فإذا كان تعامله كذلك مع كل ما يراه من آيات الله من أرض وسماء وزرع وجبال وكائنات وكذلك مع إعجاز القرآن والسنة فيقينه بالخالق كاذبا.

ـ ملحوظة:

ـ هناك تفاوت كبير بين الناس، فمن الناس مَن يكفيه أن يشعر بالإعجاز في آية واحدة من آيات الله المنظورة وعندئذ تتغير مشاعره وهمومه وتفكيره وتتغير حياته كلها، ومن الناس من لا يتأثر إلا بعد مرات كثيرة من النظر في الآيات الكونية ليفيق من غفلته، ومن الناس من لا ينفع معه التذكير بالآيات الكونية مطلقا ولو رأوا المعجزات بأعينهم: ((وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ (١٤) لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ))[(٢)]، ((وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي

---

(١) صحيح البخاري (٧٤١٨)
(٢) الحجر: ١٤، ١٥

قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ))(١)، ((قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ))(٢)، ((وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ))(٣).

ـ التفكر الصحيح في الآيات الكونية هو الذي يؤدي الى الخضوع، وهو نعمة من الله، فمن كان متكبرا ولا يعيش معيشة الخضوع لله تعالى يحرمه الله من هذه النعمة، ففي تفسير السراج المنير: (({سأصرف عن آياتي} المنصوبات في الآفاق والأنفس كخلق السموات والأرض وما بينهما {الذين يتكبرون في الأرض} أي: أصرفها عنهم بالطبع على قلوبهم فلا يتفكرون فيها ولا يعتبرون بها))(٤)، وفي تفسير البحر المحيط: (({سَأَصْرِفُ عَنْ آياتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ...} قَالَ ابْنُ جُبَيْرٍ سَأَصْرِفُهُمْ عَنِ الِاعْتِبَارِ وَالِاسْتِدْلَالِ بِالدَّلَائِلِ وَالْآيَاتِ عَلَى هَذِهِ الْمُعْجِزَاتِ وَبَدَائِعِ الْمَخْلُوقَاتِ، وَقَالَ سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ سَأَمْنَعُهُمْ مِنْ تَدَبُّرِهَا وَنَظَرِهَا النَّظَرِ الصَّحِيحِ الْمُؤَدِّي إِلَى الْحَقِّ))(٥).

(١) الأنعام: ٧
(٢) يونس: ١٠١
(٣) يوسف: ١٠٥.
(٤) السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير (١/ ٥١٦).
(٥) البحر المحيط في التفسير (٥/ ١٧٣).

الفصل السابع عشر
علاج السماع الكاذب والتصام (التذكر)

ـ علاج المعرفة الكاذبة واليقين الكاذب هو استعادة المعرفة الحقيقية، واستعادة المعرفة الحقيقية يتم من خلال التذكر والتفكر، ولابد أن يكون التذكر والتفكر بطريقة صحيحة.

ـ التذكر يكون للشيء الذي عرفه عن طريق السماع، والتفكر يكون للشيء الذي عرفه من خلال رؤيته، فالتذكر يكون للغيبيات لأنها وصلتنا عن طريق السماع والتفكر يكون للمرئيات وما يستنتج منها.

ـ أي أن التذكر يكون لما عرفه عن طريق ما سمعه من الرسل والدعاة وأقوالهم عن الغيبيات مثل وجود الخالق وصفاته ومدى عظمة صفاته وعن الاخرة وخطورة ما فيها وعن وجود الملائكة وما يكون في القبر، لكن الانسان يتصام كأنه لم يسمع أو أنه أصيب بمرض السماع الكاذب.

ـ وقد يحسب الانسان أنه لا يتصام وذلك لأنه تعود على التصام فأصبح التصام تلقائي.

ـ الهدف من خلق السمع والبصر والعقل هو التذكر والتفكر لمعرفة الله معرفة حقيقية:

ـ السمع والبصر والعقل هي وسائل يستخدمها الإنسان من أجل التذكر والتفكر في حقيقة الأشياء، وأهم شيء يستحق أن يتدبره ويفكر فيه هو قضية الخالق والاخرة، فإذا لم يتذكر ويتفكر الإنسان في ذلك وصرف كل تفكيره في قضايا الدنيا فقد أضاع الفائدة من السمع والبصر والعقل.

ـ ففي تفسير أبي السعود: (({وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعاً وأبصارا وَأَفْئِدَةً} ليستعملُوهَا فِيمَا خُلقتْ لهُ ويعرفُوا بكل منها ما بيطت بهِ معرفتُه من فنونِ النعمِ ويستدلُّوا بها على شؤن منعهما عزَّ وجلَّ ويداومُوا على شُكرِه {فَمَا أغنى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ} حيثُ لم يستعملُوه في استماعِ الوَحي ومواعظِ الرسلِ

{وَلاَ أبصارهم} حيثُ لم يجتلُوا بها الآياتِ التكوينيةِ المنصوبةِ في صحائفِ العلم {وَلاَ أَفْئِدَتُهُمْ} حيثُ لم يستعملُوها في معرفةِ الله تعالَى))[1]

ـ وفي صفوة التفاسير: (({وَهُوَ الذي أَنْشَأَ لَكُمُ السمع والأبصار والأفئدة} أي خلق لكم هذه الحواس لتسمعوا وتبصروا وتفقهوا، وفيه توبيخٌ للمشركين حيث لم يصرفوا النعم في مصارفها، لأن السمع خلق ليسمع به ما يرشده، والبصر ليشاهد به الآيات على كمال أوصاف الله، والعقل ليتأمل به في مصنوعات الله وباهر قدرته فمن لم يصرف تلك النعم في مصارفها فهو بمنزلة عادمها كما قال تعالى: {فَمَآ أغنى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلاَ أَبْصَارُهُمْ وَلاَ أَفْئِدَتُهُمْ مِّن شَيْءٍ} [الأحقاف: ٢٦]))[2].

ـ وفي تفسير الخازن: (({وَجَعَلْنا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصارًا وَأَفْئِدَةً} يعني إنا أعطيناهم هذه الحواس ليستعملوها فيما ينفعهم في أمر الدين فما استعملوها إلا في طلب الدنيا ولذاتها فلا جرم فَما أَغْنى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلا أَبْصارُهُمْ وَلا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ))[3].

ـ ويوم القيامة يندم الانسان على عدم التذكر: ((وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ))[4].

ـ التذكر والتفكر والمداومة عليه يؤدي إلى تحقيق المعرفة الحقيقية وتقويتها وبالتالي تحقيق العبادة وتقويتها:

ـ البعض يحسب أن الهدف من التفكر هو فقط لتحقيق اليقين بوجود الخالق إذا لم يكن موجودا، لذلك فهو لا يرى داعي للتفكر، ولكن هناك هدف أهم للتفكر وهو الانتقال من المعرفة الكاذبة الى المعرفة الحقيقية وتجديد المعرفة الحقيقية وتقويتها، لذلك فالجميع يحتاج إلى التفكر دائما.

---

(١) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم (٨/ ٨٧)
(٢) صفوة التفاسير (٢/ ٢٩٠)
(٣) تفسير الخازن ـدار الكتب العلمية- بيروت (٤ / ١٣٤).
(٤) فاطر: ٣٧

ـ وكذلك فالغرض من التذكر هو الانتقال من المعرفة الكاذبة الى المعرفة الحقيقية وتجديد المعرفة الحقيقية وتقويتها.

ـ التفكر والتذكر عبادة قلبية من أكبر طاعات القلوب وأهم من أعمال الجوارح، والقيام بهذه الطاعة ليس فقط للحصول على الحسنات ولكن لابد أن تفهم الغرض منها لكي تحققه.

ـ لقد أمرنا الشرع بالتفكر والتدبر: ((قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ}[١]، ((أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا))[٢]، وفي الحديث: ((لقد نزلتْ عليَّ الليلةَ آياتٌ ويلٌ لمن قرأها ولم يتفكَّرْ فيها {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} الآية))[٣].

ـ يقول شيخ الإسلام ابن القيم: ((التفكر والتذكر أصل الْهدى والفلاح وهما قطبا السَّعَادَة وَلِهَذَا وسعنا الْكَلَام فِي التفكر فِي هَذَا الْوَجْه لعظم الْمَنْفَعَة وَشدَّة الْحَاجة إليه، قَالَ الْحسن: مَا زَالَ أهل الْعلم يعودون بالتذكر على التفكر وبالتفكر على التَّذَكُّر ويناطقون الْقُلُوب حَتَّى نطقت فَإذا لَهَا أسماع وأبصار))[٤]، ويقول أيضًا: ((وَالتَّذَكُّرُ وَالتَّفَكُّرُ مَنْزِلَانِ يُثْمِرَانِ أَنْوَاعَ الْمَعَارِفِ، وَحَقَائِقَ الإيمان وَالْإِحْسَانِ، وَالْعَارِفُ لَا يَزَالُ يَعُودُ بِتَفَكُّرِهِ عَلَى تَذَكُّرِهِ، وَبِتَذَكُّرِهِ عَلَى تَفَكُّرِهِ، حَتَّى يُفْتَحَ قُفْلُ قَلْبِهِ بِإِذْنِ الْفَتَّاحِ الْعَلِيمِ، قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: مَا زَالَ أَهْلُ الْعِلْمِ يَعُودُونَ بِالتَّذَكُّرِ عَلَى التَّفَكُّرِ، وَبِالتَّفَكُّرِ عَلَى التَّذَكُّرِ، وَيُنَاطِقُونَ الْقُلُوبَ حَتَّى نَطَقَتْ))[٥].

ـ جاء في تفسير الطبري: ((عن مجاهد في قوله (إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ) قال: بذكر الآخرة فليس لهم همّ غيرها))[٦]، وفي الحديث: ((أكثروا ذكر هاذم اللذات))[٧].

---

(١) يونس: ١٠١
(٢) محمد: ٢٤
(٣) السلسلة الصحيحة (١٤٧/١)
(٤) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة (١/ ٢١٣)
(٥) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (١/ ٤٤٠)
(٦) تفسير الطبري ـ مؤسسة الرسالة (ج: ٢١، ص: ٢١٨).
(٧) تحقيق الألباني: صحيح: (انظر حديث رقم: ١٢١٠ في صحيح الجامع)

ـ ويقول شيخ الإسلام لابن القيم: ((فالفكر إِذا هُوَ المبدأ والمفتاح لِلْخَيْرَاتِ كلهَا وَهَذَا يكْشف لَك عَن فضل التفكر وشرفه وأنه من أفضل أعمال الْقلب وانفعها لَهُ حَتَّى قيل تفكُّر سَاعَة خير من عبَادَة سنة، فالفكر هُوَ الَّذِي ينْقل من موت الفطنة إِلى حَيَاة الْيَقَظَة)) (١).

ـ الهدف من أذكار الصباح والمساء هو تحقيق المعرفة الحقيقية بالله وتقويتها.

ـ الطريقة الصحيحة للتذكر:

ـ التفكر والتذكر ليس جمع معلومات ولكن هو عبارة عن تصور لمدى ما في الامر من عجب وغرابة وخطورة وتصور كونه مرعب أو مخيف أو رائع ومحبوب وتصور ما في الأمر من صفات خارقة فوق كل التصورات بحيث يؤدي إلى التأله وبالتالي تأثر المشاعر والهموم والجوارح.

ـ إذا لم يؤدي التذكر إلى شدة التأله (الدهشة الشديدة) فلا قيمة له، ولكي يؤدي الى التأله لابد أن يتم التذكر بطريقة تثير الدهشة والتعجب من غرابة وهول وخطورة الأمر كالتالي:

ـ أولا: يتصور الأمر كأنه يسمع عنه أول مرة، وفي كل مرة يتذكر فيها نفس الأمر يتصوره كأنه يسمع عنه لأول مرة:

ـ أخطر مشكلة هي التعود على الأمر، الاعتياد على سماع أهوال القيامة يجعل الانسان لا يتأثر بها، وعدم التأثر لن يغير من حقيقة الأهوال القادمة شيء.

ـ أكثر المعلومات التي يسمعها الناس كثيرًا في حياتهم هي أن لهم خالقًا وأن هناك آخرة، ولكن هذا الأمر أصبح عند البعض تعود ومعلومات روتينية باهتة، فلابد أن يتصور الإنسان معنى الخالق ومعنى الآخرة كأنه يسمع عن ذلك لأول مرة.

---

(١) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة (١/ ١٨٣)

ـ كذلك يتعامل مع قضية البعث كأنه يسمع عنها لأول مرة فيتعجب من الأمر ومن غرابته ثم يدرك هذه الحقيقة المذهلة.

ـ ويتعامل مع الآخرة على أنها عالم آخر غريب غير عالمنا الذي نعيش فيه ومجهز ومعد لاستقبالنا حينما نصل إليه، كأنه يسمع عن هذا العالم الغريب لأول مرة.

ـ والعاقل هو الذي يسمع عن الأمر كأنه أول مرة ولو تكرر مئات المرات لأن التعود يجعل الإنسان لا يتصور الأمر.

ـ كل إنسان يعلم أن الله يسمعه ويراه ولا يتأثر بذلك، ولكن عندما تتصور أنه لأول مرة تعلم أن هناك أحدا لا تراه له القدرة على أن يراك ويسمعك في أي مكان وطوال الليل والنهار، فلا تستطيع أن تتحرك إلا وأنت مكشوف ومراقب، فهذا يجعل الإنسان في ذهول ولا يغيب ذلك عن ذهنه أبدا لأنه كلما عمل عملا فهناك أحدا رآه.

ـ ثانيا: المقارنة بين الأمر الغيبي والأمر الحسي:

ـ المقارنة معناها تصور الآخرة وما يحدث فيها من خلال تشبيه ما فيها بما في الدنيا.

ـ قيمة الشيء تعرف من خلال مقارنته بغيره فمثلًا: هل ألف جنيه هو مبلغ كبير أم صغير؟ بدون المقارنة بشيء لا نعرف، بالمقارنة بالمليون جنيه فهو تافه، وبالمقارنة بالجنيه فهو عظيم القيمة.

ـ قيمة الدنيا تعرف بالمقارنة بالآخرة، فوجود الآخرة جعل الدنيا شيء تافه لا قيمة له، وإذا لم يكن هناك رب ولا آخرة لكانت الدنيا عظيمة جدًا؛ لأنه ليس أمام الإنسان شيء غيرها.

ـ فلابد من المقارنة بين قوة الله وقوة الإنسان، ورؤية الله ورؤية الإنسان وقدرة السمع عند الله وقدرة السمع عند الإنسان وبين الأمر الطبيعي والأمر الخارق للأسباب، وبين قيمة الدنيا وقيمة الآخرة، والمقارنة بين صحة الإنسان في الدنيا وصحته في الجنة، وقصر عمره في الدنيا أمام طول عمره في الآخرة، والمقارنة بين الشهوات والعقاب عليها، وهكذا

حتى يفيق الإنسان من الغيبوبة وينتبه من غفلته إلى أن قدرة الله وهول الآخرة خطر واقع رهيب، وعندئذ تتحقق المعرفة بالله والآخرة.

ـ النعم عبارة عن أمران هما صفات في الانسان كالقدرة على السمع والقدرة على الرؤية ونعم الدنيا كالماء والهواء والتكنولوجيا، إذا قارنا بين النعم التي هي قدرات في الانسان وبين قدرات الخالق فهي لا شيء، وإذا قارنا بين نعم الدنيا ونعم الجنة فهي لا شيء.

ـ الانسان مغرور بما عنده من قدرات كالسمع والبصر والعلم وتوهمه بالقدرة على تسخير الأشياء لصالحه، ولن يزول هذا الغرور حتى يتصور مدى ضعفه فيشعر بالذل.

ـ ومن صور المقارنة ما يلي:

١ـ المقارنة بين آلام ولذات الدنيا أمام آلام ولذات الاخرة:

ـ إن كل آلام الدنيا ومشاكلها وهمومها ليست بشيء أمام ألم النار يوم القيامة وكل لذات الدنيا ليست بشيء أمام لذات الجنة.

ـ فلو أن إنسانًا غُمس في النار غمسة واحدة ثم عاد إلى الدنيا فكل آلام الدنيا ومشاكلها في نظره لهو ولعب ولا قيمة لها، ولو أن إنسانًا غُمس في الجنة غمسة واحدة ثم عاد إلى الدنيا فكل متع الدنيا ولذاتها في نظره لهو ولعب ولا قيمة لها، وفي الحديث: ((يُؤْتَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِأَنْعَمِ أَهْلِ الدُّنْيَا مِنَ الْكُفَّارِ فَيُقَالُ اغْمِسُوهُ في النَّارِ غَمْسَةً، فَيُغْمَسُ فِيهَا ثُمَّ يُقَالُ لَهُ أي فُلان هَلْ أَصَابَكَ نَعِيمٌ قَطُّ، فَيَقُولُ لاَ مَا أَصَابَنِي نَعِيمٌ قَطُّ، وَيُؤْتَى بِأَشَدِّ الْمُؤْمِنِينَ ضررًا وَبَلاَءً، فَيُقَالُ اغْمِسُوهُ غَمْسَةً في الْجَنَّةِ، فَيُغْمَسُ فِيهَا غَمْسَةً فَيُقَالُ لَهُ أي فُلان هَلْ أَصَابَكَ ضُرٌّ قَطُّ أو بَلاَءٌ فَيَقُولُ مَا أَصَابَنِي قَطُّ ضُرٌّ وَلاَ بَلاَءٌ))(١).

٢ـ المقارنة بين قصر العمر في الدنيا أمام الخلود في الآخرة:

ـ وجود الآخرة هو الذي جعل الدنيا لا قيمة لها، لأن الدنيا بالمقارنة بالآخرة تساوي صفر وكل آلامها ولذاتها تساوي صفر ومدة البقاء فيها

(١) تحقيق الألباني: صحيح (الصحيحة: ١١٦٧)

تساوي صفر رغم أنها سنوات طويلة لكنها في حقيقتها تساوي صفرا أمام مدة البقاء اللا نهائية في الآخرة، ولكن الشيطان يزين للإنسان أن الحياة في الدنيا طويلة، وأن الستين سنة (مثلًا) التي يحياها في الدنيا أعمار طويلة.

ـ لو أن إنسانًا عاد من الآخرة إلى الدنيا فسوف ينظر إلى السنوات الطويلة التي يقضيها في الدنيا على أنها ثواني معدودة لا قيمة لها وأنه باقي على قيام الآخرة ثواني معدودة: ((قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ (١١٢) قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أو بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ (١١٣) قَالَ إِنْ لَبِثْتُمْ إلا قليلًا لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ))[١]، ((أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ (٢٠٥) ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ (٢٠٦) مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ))[٢].

٣ـ المقارنة بين دار الإقامة ودار الغربة:

ـ الدنيا ليست المكان المعد والمجهز والمناسب لإقامة الإنسان فيه، ولكن الدنيا عبارة عن سفينة أو مركبة تحمل الإنسان إلى بيته أو داره ومكان إقامته، وداخل هذه السفينة يعيش الإنسان حياة مؤقتة عابرة فيها مكان مؤقت ينام فيه وطعام وشراب مؤقت.

ـ الدنيا دار غربة نحن الآن مسافرون منها عائدين إلى وطننا وأهلينا، فنحن الآن مسافرون سفر العودة والرجوع وليس سفر الذهاب بعيدًا عن الوطن والأهل، فوطن الإنسان وأهله هو في الآخرة وليس في الدنيا.

٤ـ المقارنة بين صفات الانسان وصفات الخالق:

ـ الانسان مغرور بما عنده من نعم الدنيا كالماء والهواء والصحة والمال والشهوات والتكنولوجيا، ويحسب أنه قوي بها، ولن يزول هذا الغرور حتى يتصور مدى ضآلة صفاته أمام صفات الخالق ومدى نعم الدنيا التي يغتر بها أمام نعم الجنة فيشعر بالذل.

---

(١) المؤمنون: ١١٢ ـ ١١٤
(٢) الشعراء: ٢٠٥، ٢٠٦

ـ الإنسان له قوة والله سبحانه له قوة، قوة الإنسان تتمثل في النعم التي أنعم الله بها على الإنسان من إرادة وعقل وسمع ومال ومسكن وزروع ... الخ، صفات الخالق معجزة وتدعو الى الرهبة كالقدرة على السمع والرؤية وعمل الأشياء لأنها قوة أعظم من قوة البشر كلهم ولأن ما عند الإنسان من قوة هي في حقيقتها نعم من الله وليست قوة له، كما أن نعم الدنيا بالمقارنة بنعم الآخرة فهي ضئيلة جدا وإلى زوال سواء بالمقارنة بين مدة بقاءها أمام الخلود في الآخرة أو بقيمتها أمام مدى قيمة النعيم في الجنة، وبدلا من أن تكون النعم سببا لمعرفة قدرة الله وقوته وإنعامه اغتر بها الإنسان على أنها ملك له وأنه أوجدها لنفسه واعتبرها قوة له، لذلك لا يريد أن يستسلم.

ـ معرفة الخالق تؤدي إلى أن يعرف الإنسان حقيقة نفسه فيرى نفسه ضعيفا ويرى ضآلة نفسه ويشعر بالذل فلا يغتر بنفسه ولا يعيش من أجل نفسه ولكن من أجل الخالق، فإذا تعلق قلبه بتحقيق رغبات نفسه فهذا دليل على أن الإنسان لا يزال لم يعرف حقيقة نفسه وسبب ذلك أنه لا يزال لم يعرف الخالق سبحانه.

ـ الانسان مغرور بما عنده من صفات كالقدرة والسمع والبصر وبما عنده من نعم كالمال والممتلكات، لكن إذا قارن الانسان بين صفات المخلوق وصفات الخالق، وقارن بين النعم في الجنة ونعم الدنيا لوجد أن ما يملكه الانسان من صفات ونعم ليس بشيء امام صفات الخالق ونعم الجنة وعندئذ يزول غروره بنفسه.

ـ بل إن الانسان لا يملك أصلا ما عنده من صفات ولا ما عنده من نعم فكلها ملك لله فهذا معناه أن يزول غروره بنفسه.

ـ ثالثا: التصور والوصف للآخرة كأنك تراها وكذلك قدرة الله وليس ذاته:

ـ لا يمكن تصور صفات الذات للخالق سبحانه؛ لأنه سبحانه ليس كمثله شيء، ولكننا نستطيع أن نتصور الصفات المعنوية كالقدرة والعلم، فالذي يتصور مدى قدرة الله ومدى علمه فلا يمكن أن يفارق ذهنه صورة هذه

القدرة المذهلة وهذا العلم الهائل، فنتصور مدى قدرة الله على السمع، فسبحانه له القدرة على أن يسمع كل الكائنات وكل المخلوقات في آن واحد، وكذلك نتصور مدى قدرة الله على رؤية كل شيء حتى الذي في الظلمات والذي في الجحور والذي في السماء والذي في الأرض ويرى كل ما تعمله المخلوقات في آن واحد، ونتصور مدى قدرة الله على العلم بكل شيء حتى الذي سوف يحدث في المستقبل هو يعلمه ومدى علمه سبحانه وحكمته في تدبير أمور جميع المخلوقات وما يحدث داخل الذرات وفي المجرات بدقة متناهية كاملة بالغة سبحانه، ونستطيع أن نتصور مدى قوة الله إذا قورنت بقوة المخلوقات فهو يستطيع أن يبيد البشرية والكون وينشئهم من جديد.

ـ رابعا: التخيل كأنك في الآخرة:

ـ تخيل أنك تقف الآن على أرض المحشر في الآخرة أو أنك الآن داخل جنة الآخرة أو أنك الآن داخل نار الآخرة، أنت الآن فقط تعرف قيمة الدنيا وأنها بكل ما فيها من لذات وآلام لم تكن سوى لعب ولهو، وأنت الآن تدرك أن الناس الذين يعيشون في الدنيا في غفلة تامة عن الآخرة وأن الآخرة خطر هائل جدًا فوق كل تصورات الناس، وأنت تدرك الآن أن الأمور معكوسة تمامًا فكل تفكير الناس ومشاعرهم وأعمالهم هي في أمور الدنيا وأنت تقول: أهؤلاء أغبياء لا عقل لهم!

ـ الإنسان العاقل هو الذي لا يحتاج إلى أن يذهب للآخرة لكي يعرف مدى هذا الخطر ويشعر به ولكي يشعر بأن الدنيا ما كانت إلا لعب ولهو، وإنما هو يستطيع أن يدرك ذلك بأن يتصور خطورة الأمر وهو ما زال في الدنيا وهذا هو العاقل.

ـ خامسا: تصور الآخرة كصورة من صور قدرة الله:

ـ القدرة على خلق النار الهائلة التي لا تنطفئ ولا يفنى وقودها والقدرة على خلق الجنة وما فيها من متاع هائل هي قدرة هائلة جدا تدل على عظمة قدرة الله وعظمة ثوابه وعقابه فهذا معناه الشعور بالمهابة من عظمة قدرة الله تعالى.

ـ وكذلك قدرة الله على البعث ومدى علمه سبحانه في محاسبته للعبادة جميعا.

ـ سادسا: التدبر لمعاني ما يسمعه وإدراك المغزى من الامر به:

ـ طالما أن الانسان لا يزال لم يتأثر بخطورة ما سمع فهو لا يزال لم يسمع، ولكي يستعيد وظيفة السمع لابد أن يستمع إلى الأمر من جديد كأنه يسمعه أول مرة ويسمعه بتفكر وتدبر وتصور ما فيه من خطورة: ((إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أو أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ))[١]، ((وتعيها أذن واعية))[٢].

ـ مثل التدبر لمعاني الاذكار وإدراك المغزى الشرعي من الامر بها، فالأذكار تسمى بذلك لأنها تذكر الانسان بالخالق والاخرة، ولها معاني عظيمة تحتاج الى التدبر.

ـ ومثل تدبر معنى الركوع والسجود ومعنى كلام الله وتدبر معانيه.

ـ سابعا: التذكير بحقيقة المعرفة واليقين وأثره:

ـ وذلك حتى ينتبه الانسان إلى أنه لا يزال لم يعرف الله والآخرة فيسعى إلى تحقيقها، وهذا الكتاب هو بيان لذلك، وتكرار قراءته تعين على تحقيق المعرفة الحقيقية.

ـ ملحوظة:

ـ قد يؤدي التذكير إلى إحياء المعرفة من أول مرة تذكره بها أو في أحد المرات التي تذكره بها، وقد تذكره مرات كثيرة جدا فلا يتذكر ولكن يشاء الله في أحد المرات أن يتذكر، وقد لا ينفع معه التذكير مطلقا مهما حدثته عن معلومات هائلة عن الخالق وعن الآخرة وأفهمته المعاني فلن يتأثر ومهما تعرض لمواقف مؤثرة أو سمع مواعظ مؤثرة.

---

(١) ق: ٣٧
(٢) الحاقة: ١٢

ـ فهناك تفاوت كبير بين الناس، فمن الناس من يتعرض لموقف مثل موت قريب له أو يستمع لموعظة ذات مرة فتكون سببا في إحياء المعرفة عنده وهدايته وتتغير بذلك حياته كلها ومن الناس من لا يتأثر إلا بعد مرات كثيرة من الموعظة ليفيق من غفلته ومن الناس من لا ينفع معه التذكير مطلقا.

الفصل الثامن عشر
هل الغيبيات مرعبة ورائعة وتدعو إلى شدة التأله والتعلق بها؟

ـ قد يسأل سائل: هل صفات الخالق والحياة في الاخرة تدعو للتحير والتعجب والشعور بالمهابة وانشغال البال؟ والجواب: وهل هناك شيء بعد الله والاخرة يدعو للتحير والتعجب والشعور بالمهابة وانشغال البال؟

ـ لو افترضنا أن الناس يرون الغيبيات من حولهم، فهم يرون الملائكة تسير حولهم ويرى كل واحد قرينه من الجن يسير معه، وكذلك يرون الله ويرون الكرسي والعرش ويرون الجنة ويرون الحور العين التي تطل من نوافذ الجنة، ولكن كان هناك إنسانًا أعمى يعيش وحوله الناس مبصرون، والناس يقولون له حولك الآن ملائكة هائلة مخيفة ويسير معك الآن قرين من الجن ويراك الخالق فبماذا يشعر هذا الأعمى؟ إنه يشعر بالرهبة والرعب والخوف وربما ما استطاع أن ينام وهمه منشغل بهذا الأمور المذهلة.

ـ لقد خلق الله الناس ومنعهم من رؤية الغيبيات من حولهم ليختبرهم: ((لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ))[١].

ـ ومن ضمن الأمور المرعبة أن يكون أمامك شيء خطير وأنت ممنوع من رؤيته فهذا أيضا أمر يدعو الى الدهشة والرهبة من قدرة الله على منع عينك أن تراه، وبخاصة إذا كان ذلك الشيء هائلا ومرعبا، وكون ذلك الشيء غيبي لا تراه فهذا يزيد من الإثارة والقلق والتخوف والحيرة والدهشة، فالملائكة والجن حولك وأنت لا تراهم، فهذا أمر معجز خارق للعادة.

---

(١) ق: ٢٢

ـ إذا كانت رؤية الغيبيات تؤدي الى تأثر شديد وذهول، فعدم الرؤية لا يغير من حقيقة وجود الغيبيات شيئا فلماذا لا تتأثر بها؟

ـ والإنسان مهما كان يقينه ففي يوم القيامة سوف يكتشف أن حجم الألم أو اللذة كان يفوق كل تصوراته عندما يرى الملائكة ويرى الجنة والنار ويجد أن الدنيا قد انتهت وأنها ليست بشيء على الإطلاق!، فهو عندئذ يعلم الحقيقة واضحة ولكن بعد فوات الأوان، فالناس في غفلة فإذا ماتوا انتبهوا، ففي اللحظة التي يموت فيها الإنسان فإنه يرى الملائكة ويرى الأهوال ويعلم أنه كان في الدنيا أعمى لا يرى شيئًا والآن أصبح يرى، وأنه كان أحمقًا لا عقل له والآن أدرك الحقائق ولكن لا يستطيع أن يعود ولو للحظة واحدة، فالغافل يرى أمر الآخرة بعيدا جدًا ولا يعلم أنه في لحظة واحدة مفاجأة مباغتة من ليل أو نهار قد يأتيه عذاب الآخرة فورًا: ((قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا أو نَهَارًا مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ (٥٠) أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنْتُمْ بِهِ آلْآنَ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ))(١).

ـ وجود الملائكة والجن من حولنا يدعو الى الدهشة والذهول لما فيه من الاثارة:

ـ ربما تسمع أساطير عن إنسان رأى عفاريت وأشباح أو أن مكانًا معينًا مسكونًا بالعفاريت، هذه أمور مرعبة، فالملائكة من حولنا الآن أشد رعبًا من هذه العفاريت فضلًا عن أنها حقيقة، فأي عاقل يوقن بأنه يعيش وحوله كائنات أكثر رعبًا من العفاريت ثم لا يشعر بالقلق والخوف من مهابتها، وأي عاقل يوقن بأنه سوف يرى هذه الملائكة ويرى الأهوال يوم القيامة ثم لا يشعر بالقلق والخوف من مهابة الأمر!

ـ وجود كائنات تختلف عن البشر ولا يراها الناس ولها قدرات هائلة هو أمر مدهش وعجيب ومذهل، لكن بالنسبة للغافل هو أمر عادي؛ لأنه في حقيقة الأمر هو يجهل هذا الأمر.

ـ فهذه الكائنات عجيبة من حيث تكوينها وصفاتها وقدراتها ومن حيث وجودها معنا ومن حيث أننا لا نراها، لكن كل هذا لا يثير انتباه الغافل

---

(١) يونس: ٥٠ ، ٥١

عنها، وهو يعيش كأنها كالعدم أو كأنها كائنات عادية جدًا وليس فيها أمور تدعو للدهشة، وذلك رغم يقينه التام بوجودها.

ـ لو قيل لك أن هناك اثنين من الكائنات الفضائية العملاقة يسيران معك في كل لحظة وهما في حالة اختفاء فلا تستطيع رؤيتهما ويحملان كاميرات مراقبة خفية ويسجلان عليك كل حركة وسكنه وكل كلمة حيث تحاسب على كل شيء، إنك عندئذ تشعر بخطورة الأمر، فأنت تعيش وصورة هذه الكاميرات وهي ترصدك لا تكاد تفارق ذهنك في كل أعمالك، أما لو قيل أن هناك ملكين يسجلان عليك كل شيء فقد تنظر إلى ذلك كما تنظر إلى أمر لا قيمة له أو كأنه أمر لا يخصك فلا تشعر بأي قيمة أو خطورة لهذا الأمر فهذا يدل على أنك غافل تمامًا عن وجود الملكين معك الآن وفي كل وقت.

ـ وكيف تكون حياة الناس لو أن الله جعل الناس يرون الرقيب والعتيد وهما يسيران مع كل واحد في كل لحظة؟! وهل عدم رؤية الناس لهم تغير من حقيقة وجودهم معنا شيئًا؟ وماذا أيضًا لو أن الله كشف الحجب فرأى الناس الله وهم في الدنيا؟ وهل هذا يغير من حقيقة وجود الله شيئًا؟ ولكن لا يشعر الإنسان بالمهابة من وجود الله ومن وجود الملائكة رغم وجود الاقتناع التام بوجود الخالق ووجود الملائكة.

ـ فلابد أن يشعر الإنسان بأن وجود الجن والملائكة حقيقة واقعة حوله الآن في هذه اللحظة وفي كل وقت، ولا يمكن لإنسان عاقل أن تغيب صورة هذه الملائكة والشياطين وهي تعيش معه وتلازمه عن ذهنه أبدًا.

ـ تصور لو أن الناس ترى الملائكة حولها وفي الطرقات لصعق الناس جميعًا وماتوا من هول ما يشاهدونه، ففي تفسير الخازن: (({ولو جعلناه ملكًا لجعلناه رجلًا} يعني ولو أرسلنا إليهم ملكًا لجعلناه في صورة رجل، وذلك أن البشر لا يستطيعون أن ينظروا إلى الملائكة في صورهم التي خلقوا عليها، ولو نظر إلى الملك ناظر لصعق عند رؤيته، ولذلك كانت الملائكة تأتي الأنبياء في صورة الأنس، كما جاء جبريل إلى النبي (صلى الله عليه وسلم) في صورة دحية الكلبي، وكما جاء الملكان إلى داود عليه السلام في صورة رجلين، وكذلك أتى الملائكة إلى إبراهيم ولوط عليهما

السلام، ولما رأى النبي (صلى الله عليه وسلم) جبريل في صورته التي خُلق عليها صعق لذلك وغشي عليه))(١)، وفي تفسير الثعالبي: ((لماتوا من هول رؤية الملك في صورته))(٢)، أي يموت الإنسان من شدة الرعب والفزع من رؤية هذه المخلوقات المرعبة جدًا الهائلة في ضخامة خلقتها.

ـ لماذا تخاف الملائكة من الله؟ إنها تخاف من هيبة الله تعالى: ((وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ))(٣)، وهذا الخوف يؤدي بهم إلى عمل دائم هو أنهم يسبحون الله تعالي، وفي الحديث: ((مررت ليلة أسري بي بالملأ الأعلى وجبريل كالحلس البالي من خشية الله))(٤)، و(الحلس) هو كساء رقيق يوضع على ظهر البعير تحت السرج، إن الملائكة عرفت عظمة الله وعظمة قدره وعظمة قدرته معرفة حقيقية أدت إلى الشعور بالمهابة والحب لله، وأنت أيضًا إذا كنت تعرف قدرة الله معرفة حقيقية فلابد أن ينشأ عن ذلك الشعور بالمهابة والحب لله تعالى.

ـ فالملائكة والجن مثلًا ليسوا مصنوعين من مادة كالهواء بحيث لا تراها ولكن المشكلة عندك هي أن عينك ممنوعة من رؤية الملائكة والجن الموجودين معك الآن وأنت تقرأ هذه السطور.

ـ وجود الخالق معنا بقدرته وبرؤيته لنا في كل لحظة يدعو الى الدهشة والذهول لما فيه من الاثارة:

ـ لو افترضنا أن هناك رجل مسلح بكافة أنواع الأسلحة وكان في غاية القوة وهو يسير معك في كل لحظة فأنت تحت مراقبته الدائمة وتحت قدرته فيفعل بك ما يريد فبماذا تشعر؟، إنك تشعر بالرهبة والخوف دائما.

ـ ولكن إذا ابتعد عنك هذا الرجل فإنه لا يستطيع أن تصل رؤيته لك ولا أن تصل قدرته عليك.

(١) تفسير الخازن لباب التأويل في معاني التنزيل (٢ / ٩٩ ، ١٠٠)
(٢) تفسير الثعالبي ـ مؤسسة الأعلمي (١/ ٥٠٧)
(٣) الرعد: ١٣
(٤) تحقيق الألباني: حسن (انظر حديث رقم: ٥٨٦٤ في صحيح الجامع).

ـ الله سبحانه تصل رؤيته إليك وإلى كل الناس وتصل قدرته عليك وعل كل الناس كأنه مع كل الناس بذاته، فلا تستطيع أن تهرب من علمه بك وقدرته عليك: ((وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ))(١)، فلابد أن تشعر تجاه الخالق بنفس الشعور تجاه الرجل المسلح الذي يسير معك في كل لحظة بل أكثر بكثير.

ـ صفات الخالق كالقدرة والملكية والانعام هي صفات مذهلة جدا وتدعو الى التأله وشدة التعلق:

ـ لا يزال الانسان لا يعرف معنى (الخالق) ولا يزال لا يوقن به حتى يتأثر قلبه وجوارحه به فيتعلق به بقلبه وجوارحه ويزول تعلقه وغروره بنفسه فيخضع لأنه لا يمكن لإنسان عاقل يعرف مدى قدرة الخالق ومدى علمه ومدى ملكه ومدى خضوع الانسان كونيا تحت أمره ومدى انعامه ويوقن بذلك ثم لا يتعلق به بقلبه وجوارحه، فإذا كان عاقلا وموقنا ولم يتأثر فذلك لأن الله طبع على قلبه فأبطل معرفته أو أنه تجاهل الخالق ولم يتدبر ويتذكر معناه وتجاهل السعي للوصول لرضاه وجنته فحصر عقله وسعيه وراء دنيا فانية.

ـ المعرفة النظرية بالله موجودة عند جميع الناس، أما المعرفة الحقيقية فهي التي تؤثر على مشاعر الانسان وحياته، لذلك يقول شيخ الإسلام لابن القيم: ((معرفة الله تعالى نوعان، النوع الأول: معرفة واقرار، وهي التي اشترك فيها الناس، البر والفاجر، والمطيع والعاصي، النوع الثاني: معرفة توجب الحياء منه، والمحبة له، وتعلق القلب به، والشوق الى لقائه، وخشيته، والإنابة إليه، والأنس به، والفرار من الخلق إليه. وهذه هي المعرفة الخاصة الجارية على لسان القوم، وتفاوتهم فيما لا يحصيه إلا الذي عرفهم بنفسه، وكشف لقلوبهم من معرفته ما أخفاه عن سواهم، ... ولهذه المعرفة بابان واسعان: باب التفكّر والتأمّل في آيات القرآن كلها، والفهم الخاص عن الله ورسوله صلى الله عليه وسلم. والباب الثاني: التفكّر في آياته المشهودة، وتأمل حكمته فيها، وقدرته ولطفه، واحسانه

---

(١) الحديد: ٤

وعدله، وقيامه بالقسط على خلقه. وجماع ذلك: الفقه في معاني أسمائه الحسنى، وجلالها وكمالها، وتفرّده بذلك، وتعلّقها بالخلق والأمر))[1].

ـ الخلود في لذات لا نهائية أو عذاب رهيب يدعو الى أن يعيش الانسان حياته في تأثر شديد بالأمر:

ـ كل لذات الدنيا وآلامها ليست بشيء أمام لذات وآلام الآخرة، وعودة الإنسان إلى شباب دائم وبلا موت أو مرض في قصور مبنية من الذهب والفضة فيها نساء فاتنات وخمور وكل ألوان السعادة فوق كل التصورات ولا تخطر على بال بشر هو أمر مذهل، وسنوات العمر الطويلة في الدنيا ليست بشيء أمام الخلود في الآخرة، والأخطر من كل هذا هو قدرة الخالق وعلمه الهائل ووجوده معنا بقدرته وعلمه (وليس بذاته) والأخطر أننا لا نراه رغم أنه يرانا ويحيط بنا بقدرته وعلمه الهائل ولسنا إلا جزءا من ملكه وكل أمرنا بيده وكل ما عندنا وحولنا هو الذي خلقه وتحت أمره، إذن كل هذا إذا لم يؤثر في مشاعر الانسان فيتعجب أشد العجب ويمتلأ بالحب والخوف والرجاء ويعيش خاضعا معترفا ومستسلما لقدرة الخالق سبحانه، فإذا لم يؤثر كل هذا على مشاعر الانسان وحياته فهذا معناه أنه لا يعرف الخالق ولا الآخرة معرفة حقيقية.

ـ عذاب القبر وسؤال الملكين يدعو الى الدهشة والذهول لما فيه من الاثارة ويدعو الى الخوف:

ـ أنت توقن تامًا بعذاب القبر وسؤال الملكين، لكن لو قام إليك أحد الموتى ليخبرك عما كان من سؤال الملكين وعذاب القبر فتقول له وأنت بارد القلب: أنا أعرف ذلك وأكثر منه، فلو جاء بعصاة وضربك بها لكان محقًا ويقول لك: أنت ليس لديك أي تصور عن عذاب القبر؛ لأنك لا تشعر بمدى خطورة هذا الأمر وألم هذا العذاب.

---

(١) الفوائد لابن القيم ط-أخرى (ص: ١٨٦، ١٨٧) ـ المصدر: الشاملة الذهبية

ـ فإذا لم يحدث لك خوف مهابة من عذاب القبر وسؤال الملكين فأنت تماما مثل الذي لم يسمع عن شيء اسمه عذاب القبر أو سؤال الملكين برغم وجود اليقين بذلك.

ـ قدرة الله على البعث تدعو الى الدهشة والذهول لما فيها من الاثارة:

ـ لو أن إنسانًا مات منذ سنين وبلي جسمه ثم أخبروك أنه سوف يقوم حيًا يسعى إليك وتراه وتتحدث معه، إنه أمر مرعب يجعلك ترتعد وتخاف، وسبب هذا الرعب أن ذلك الأمر خارق للأسباب، إن هذا الأمر سوف يحدث بالفعل لجميع الناس ولكن أنت ستكون واحدًا من هؤلاء الذين يقومون بعد أن ماتوا وفنيت أجسامهم، إن هذا الأمر حقيقة فعلية وقادمة قريبًا، فإذا لم تتحير وتتعجب من مدى قدرة الله على إحياء الأموات وتشعر بالمهابة من البعث ويتأثر همك بهذا الحدث المنتظر القريب الهائل حينما تقوم من موتك ويقوم معك كل الناس فهذا معناه أن قضية البعث ليس لها قيمة في مشاعرك، فأنت غافل عنها كأنها لن تحدث على وجه الحقيقة، فالبعث والحياة في الآخرة هي أخطر قضية في حياة أي عاقل، فلماذا لا ينشغل بها عقل الإنسان ويشعر بالمهابة؟ ذلك لأنه لا يزال جاهلا لا يعرف البعث والآخرة تماما مثل الجاهل الذي لم يسمع عن شيء اسمه البعث أو الآخرة.

ـ بل إنك كنت ميتًا ثم أحياك الله، فكنت نطفة ميتة لا روح فيها في رحم أمك ثم نفخ الله فيك الروح فأصبحت حيًا، وهذا ما تراه كل يوم لجميع الناس حيث يخلق الله الأطفال في الأرحام من نطفة لا قيمة لها وينفخ فيها الروح، إن ذلك أشد عجبًا وغرابة وليس سحرًا ولكنه حقيقة وخرق للأسباب، فلماذا لا تشعر بالتحير والتعجب من مدى عظمة الخالق وقدرته فتشعر بالاستسلام والخضوع لقدرة الله: ((قُتِلَ الإنسان مَا أَكْفَرَهُ، مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ، مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ))(١)، ولماذا لا تشعر بضعفك وضآلتك

(١) عبس: ١٧

حيث يفعل الله بك ما يشاء فيحييك ثم يميتك ثم يحييك؟: ((كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إليه تُرْجَعُونَ))(١).

ـ والزروع تراها أمام عينك بذور ميتة تتحول إلى أشجار حية تتنفس وتكبر ثم تموت، فإذا لم يؤثر كل هذا في الإنسان فيشعر بالرهبة من أمر البعث وخطورته ويشعر بالخضوع والاستسلام لله، فهذا معناه أنه لا يزال لا يعرف خطورة معنى البعث ولا الآخرة.

ـ فلو أن إنسانًا وضع في يده حفنة من التراب ثم قال لك انظر إلى هذا التراب فلما نظرت إليه وجدته يتحول إلى برتقالة! إنك تقول إن هذا الإنسان ساحر، إن هذا الأمر يحدث بالفعل ولكن الساحر هنا ليس إنسانًا ولكنه بذرة البرتقال حيث تستطيع بذرة شجرة البرتقال أن تستخدم تراب الأرض وتحوله إلى برتقال! وهكذا كل النباتات والزروع، وفي الحقيقة فإن بذرة البرتقال ليس لديها القدرة على عمل ذلك، ولكن هناك قوة خارجية خفية هي التي تمكن بذرة البرتقال من هذا العمل، فالبذرة هي جماد تحول إلى كائن حي (نبات): ((فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ))(٢).

ـ الذي يعيش للآخرة يتعامل مع البعث والآخرة على أنها حقيقة واقعة وجد لا هزل فيه وخطر محقق، والذي يعيش للدنيا يتعامل مع البعث والآخرة كأنها لعب أو أمر غير مهم ولا يأخذها مأخذ الجد ويتغافل عنها رغم اليقين بها.

ـ الحياة في الآخرة تدعو الى الدهشة والذهول لما فيها من الاثارة:

ـ إن كلمة الآخرة تعني المصير المرعب والمخيف الذي أنت مقبل عليه، وتعني الأهوال العظيمة، فلماذا لا تشعر بالمهابة والقلق من أهوال القيامة؟، فمن أسماء الآخرة (يوم الحسرة) و(يوم الزلزلة) و(يوم تشخص

---

(١) البقرة: ٢٨
(٢) الروم: ٥٠

فيه الأبصار)، و(الغاشية)، وفي تفسير البحر المحيط: (({هل أتاك حديث الغاشية} والغاشية: الداهية التي تغشى الناس بشدائدها يوم القيامة))[١]، ((يومًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا))[٢]، إن الآخرة هي أخطر شيء في حياة الإنسان، وأهوال القيامة من أشد ما يمكن ومن أخطر ما يمكن، وما نشعر به من ذلك الخطر لا يساوي واحد على مليون من خطورة الآخرة، فالأمر يقابله البعض ببرود في حين مع أي أمر من أمور الدنيا تجد المشاعر تتفاعل والخوف شديد، وانظر إلى شدة خوف الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والصحابة والتابعين والصالحين من الآخرة، فلو جاء إلينا إنسان من الآخرة فرأى حالنا لأصابته سكتة قلبية من حال البعض وبرود أعصابهم تجاه هذا الخطر المحدق، انظر كيف يعبر القرآن عن هذا الخطر: ((يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ))[٣]، فهل رأيت إنسانًا أصابه السُّكْر من شدة العذاب؟، إن ما يحدث في الآخرة هو أغرب من الخيال، وهو حقيقة وليس خيالا، فلابد أن تشعر بمدى ما أنت مقبل عليه، وكيف لا يهتم إنسان بأن يشعر بما هو مقبل عليه.

ـ إن الطالب إذا دخل الامتحان فمن هول الموقف قد يتلعثم ولا يستطيع الإجابة، وبعض الناس إذا تعرض لصدمة شديدة فإنه قد يفقد الذاكرة، فنحن في الدنيا في حالة امتحان عصيب عليه رقيب وعتيد لكننا غافلون عنه.

ـ جاء في تفسير المحرر الوجيز: (({يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم قالوا لا علم لنا}[٤] واختلف الناس في معنى قولهم عليهم السلام {لا علم لنا} فقال الطبري: ذهلوا عن الجواب لهول المطلع، وذكر عن الحسن أنه قال: لا علم لنا من هول ذلك اليوم، وعن السدي أنه قال: نزلوا منزلًا

(١) البحر المحيط في التفسير (١٠/ ٤٦١)
(٢) المزمل: ١٧
(٣) الحج: ٢
(٤) المائدة: ١٠٩

ذهلت فيه العقول فقالوا: لا علم لنا، ثم نزلوا منزلًا آخر شهدوا على قومهم، وعن مجاهد أنه قال: يفزعون فيقولون لا علم لنا))(١).

ـ وفي الحديث: ((تُحْشَرُونَ حُفاةً عُراةً غُرْلًا قالَتْ عائِشَةُ: فَقُلتُ: يا رَسولَ اللَّهِ، الرِّجالُ والنِّساءُ يَنْظُرُ بَعْضُهُمْ إلى بَعْضٍ؟ فقالَ: الأمْرُ أشَدُّ مِن أنْ يُهِمَّهُمْ ذاكِ))(٢)، وذلك من شدة الخوف من هول الموقف.

ـ إن الذي يقف أمام القاضي ينتظر حكم المحكمة هل يحكم عليه بالسجن أم بالبراءة فهو قلق جدًا لدرجة أنه قد لا يستطيع الوقوف على رجليه فيجلس على ركبتيه من هول الترقب والانتظار وليس من التعب، ففي أيسر التفاسير: (({وترى كل أمة جاثية}: أي كل أمة ذات دين جاثية على ركبها تنتظر حكم الله فيها))(٣)، وفي تفسير الخازن: (({وترى كل أمة جاثية} أي باركة على الركب وهي جلسة المخاصم بين يدي الحاكم ينتظر القضاء، قال سلمان الفارسي: إن في القيامة ساعة هي عشر سنين يخر الناس فيها جثاة على الركب حتى إبراهيم ينادي ربه لا أسألك إلا نفسي))(٤)، وفي تفسير الخازن أيضًا: (({وترى كل أمة جاثية} قلت وصفوا بالجثو على العادة المعهودة في مواقف المقالات والمناقلات، وذلك لما فيه من القلق مما يدهمهم من شدة الأمور التي لا يطيقون معها القيام على أرجلهم فيجثون على ركبهم جثوًا))(٥).

ـ إن تصور لحظة واحدة من الحياة في القبر أو الحياة في الآخرة يجعل الإنسان ينسى الحياة الدنيا، وبالتالي فالعاقل هو الذي يتجه تفكيره واهتمامه وتصوره إلى الحياة في الآخرة وليس الدنيا.

ـ وكان الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا خطب على المنبر فذكر الآخرة تحركت مشاعره وانفعل بشدة ففي الحديث: ((وكان إذا ذكر الساعة

(١) تفسير ابن عطية = المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (٢/ ٢٥٦)
(٢) صحيح البخاري: (٦٥٢٧)
(٣) أيسر التفاسير للجزائري (٥/ ٣٩)
(٤) تفسير الخازن لباب التأويل في معاني التنزيل (٤/ ١٢٥)
(٥) تفسير الخازن لباب التأويل في معاني التنزيل (٣/ ١٩٣)

احمرت وجنتاه وعلا صوته واشتد غضبه كأنه نذير جيش يقول صبحكم مساكم))[١].

ـ الفارق بين الخيال والسحر وبين الغيبيات:

ـ الفارق في أمرين هما:

١ـ الغيبيات أعجب وأغرب من الخيال والسحر، فمثلًا الجنة فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، والله يقول للشيء كن فيكون ولا يعجزه شيء.

٢ـ الغيبيات حقيقة، أما الخيال والسحر فهو وهم.

ـ إن الآخرة فوق مستوى الخيال وأشد رعبًا من كابوس مرعب وأشد رعبًا من رؤية أشباح وأعجب من السحر، لكن الآخرة في مشاعر البعض هي عالم عادي جدًا لا خطورة منه ولا مشكلة فيه مثل حواديت، فمثل هؤلاء يفاجئون بعد الموت بعالم حقيقي أخطر وأعجب وأغرب من هذه الأشياء، فيرون الملائكة ويفاجئون بالحساب والجنة والنار؛ ففي تفسير التيسير: (({وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ} أي تصيبهم الحيرة والذهول، لأنهم لم يكونوا يتوقعون قيام الساعة أبدا، يقال: (أبلس الرجل) إذا سكت وانقطعت حجته ولم يؤمل أن تكون له حجة))[٢].

ـ عندما يرى الإنسان كابوسًا مرعبًا فإنه قد لا ينام عدة أيام؛ لأنه كلما نام رأى الكابوس، ويكون في حياته قلقًا متوترًا خائفًا منزعجًا وصورة الكابوس لا تفارق عينه ولا يستطيع أن ينساها، فالآخرة أشد في خطورتها من أي كابوس؛ لأن فيها أهوالًا أشد من أي كابوس، فضلًا عن أنها حقيقة وليست كابوسًا، فالذي يعرف خطورة معنى الآخرة لا تفارق صورة الآخرة ذهنه.

ـ الغيبيات هي أعجب من الخيال والسحر، فلو كانت الجنة خيال أو حدوته لما صدقها أحد، لأنه كيف لإنسان أن يعيش بلا موت ولا مرض ولا

(١) قال الشيخ الألباني: صحيح (سنن النسائي ج: ٣، ص: ١٨٨، برقم ١٥٧٨).
(٢) التيسير في أحاديث التفسير (٥/ ٢٦)

شيخوخة وفي متع لا تحصى؟!، فما بالك والجنة حقيقة وليست خيالًا، والقضية ليست في التصديق فقط ولكن في شعور الإنسان بهذا العجب العجاب وتأثير هذا الأمر المدهش على مشاعره وانفعالاته وتصرفاته وترقبه طوال عمره لهذا الكنز الحقيقي الذي هو أعظم من الكنوز التي تذكرها القصص والخيالات.

ـ فالذي يتعامل مع الجنة في برود تام هو في حقيقة أمره مغيب عن الوعي.

ـ الحياة عند لحظات وقوع الخطر:

ـ عندما تقع كارثة معينة أو توشك أن تقع أو عندما يتعرض الناس لخطر معين ما الذي يحدث؟، إن الناس يعيشون لحظات الخطر في رعب وخوف وهلع وترقب لما يمكن أن يحدث، كل الناس يتركون عملهم ولعبهم ويتوقفون عن الطعام والشراب ولا ينشغلون بأمور الدنيا مطلقًا، منهم من يجري ومنهم يموت من هول الصدمة ومنهم من يصاب بالهستيريا.

ـ السنوات التي نعيشها في هذه الحياة ولو كانت مائة سنة ليست إلا لحظات وقوع الخطر، والخطر الذي نتعرض له هو أننا الآن مسافرون في لحظات إلى الآخرة بكل ما فيها من أهوال لنعيش فيها حياة أبدية وبلا رجعة، وكذلك الخطر الهائل جدًا الذي هو قدرة الله وعلمه ومراقبته لنا، فقدرة الله معنا في كل مكان أينما ذهبنا ولو في الحصون والمخابئ المحصنة، وقدرة الله هائلة جدًا فهي أمر مخيف ومرعب، وكذلك علم الله ومراقبته لنا ورؤيته لنا في كل مكان ولو في الظلام ولو داخل الحجرات المغلقة، نحن نعيش في حصار تام ونخضع لهيمنة تامة لن نستطيع أن نفلت أو نهرب.

ـ أعمال الدنيا كلها عند لحظة وقوع الخطر ما هي إلا لعب ولهو، والدنيا ما هي إلا لحظات الخطر، والعجيب أن هناك نائمون وآخرون يلعبون والخطر يحيط بهم فهؤلاء لا عقل لهم فقد ماتت عقولهم، وهناك آخرون قد أخرجوا كل أعمال الدنيا من قلوبهم وشمروا سواعدهم ولاذوا بالفرار

في رعب وخوف لا يأمنون ما الذي يمكن أن يحدث لهم أو يصيبهم من هذا الخطر الهائل، فهؤلاء هم أصحاب العقول وهؤلاء هم أولوا الألباب: ((أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ (٩٧) أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ (٩٨) أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ))(١).

ـ لو قالوا لك أن الكرة الأرضية معرضة لخطر ما محقق ووشيك مثل نزول نيزك ضخم يحطم الأرض أو تعرض الأرض لأشعة تهلك البشر وأن هذا الخطر حقيقة سوف تقع، فماذا يمكن أن يكون سلوك الناس عندئذ؟، هل يكون همهم مشاغل الحياة والأكل والشرب والبحث عن الشهوات والذهاب للعمل أم يكون همهم مُنصَبًّا على هذا الأمر الذي سوف يهلك البشرية كلها، إن هذا الخطر واقع فعلًا وهو أنك سوف تموت قريبًا وسوف يموت كل البشر وسوف تدمر الأرض وكل الكون، فلماذا لا يشغل هذا الأمر بال الناس ويفكرون فيه؟ ذلك لأنهم يتجاهلونه بينما يفكرون ويهتمون بأمور الدنيا.

ـ وكذلك لو حدثَ حدثٌ كوني كبير ثم قيل إن القيامة سوف تقوم الآن مثلًا، فماذا يمكن أن يفعل الناس؟ إنهم لن ينشغلوا بأي أمر من أمور الدنيا وسوف يهرعون إلى الصلاة والعبادة خائفين وجلين مترقبين الآخرة: ((اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وهم في غفلة معرضون))(٢).

ـ أثر اليقين بالغيبيات هائل جدا:

ـ قدرة الخالق خارقة لا حد لها ومحيطة بالإنسان، وسمعه وبصره محيط بالإنسان، فمجرد أن يعرف الانسان بقدرة الخالق فسوف يتأثر ذهنه ومشاعره وعمله تأثرا شديدا وربما لا ينام ولا ينشغل باله طوال حياته بغير ذلك، فإذا لم يحدث ذلك التأثر الشديد فهذا معناه وجود خلل في الانسان فهو مجنون أو لا يعقل أو هو يتناسى الخالق فيصبح كأنه لم يسمع عن الخالق.

(١) الاعراف: ٩٧ ـ ٩٩
(٢) الأنبياء: ١

ـ ولو افترضنا أن الله لا يعاقب الإنسان سواء في الدنيا أو الآخرة ولا يعطيه ثوابا لا في الدنيا ولا في الاخرة فهل ينقطع تأثر ذهنه ومشاعره وجوارحه بقدرة الخالق؟، إنه سوف يخاف من مهابة قدرة الخالق بشدة وسوف يمتلأ قلبه بحب الخالق اعجابا بقدرته وحبا لإنعامه فلا يحب شيئا سواه وسوف ينشغل همه بقدرة الخالق فلا هم له غير ذلك لعظم قدرته، وسوف يعيش حياته لله من شدة حبه له، كل هذا ولا توجد أي علاقة نفع أو ضرر من الخالق له.

ـ فأثر المعرفة بالخالق والآخرة هو أمر خطير جدا، فالطبيعي أنه بمجرد أن يعرف الإنسان بوجود الخالق والآخرة فإن حياته كلها من مشاعر وأهداف وطموحات وسلوك وتصرفات وانفعالات وفرح وحزن وغضب وأخلاق وكلام ونية وعمل سوف تتأثر تأثرا كبيرًا، وسوف تتغير حياته بزاوية مائة وثمانين درجة.

ـ ولكن لأننا نعيش في زمن الغفلة فقد يتعجب الانسان ويسأل وهل الغيبيات خطيرة جدا الى هذه الدرجة؟، وسبب هذا السؤال أنه غافل وليس لديه تصور لمدى خطورة الأمر، وطالما أن الانسان لا يزال لم تتأثر مشاعره بالغيبيات فهو لا يزال لم يحقق المعرفة الحقيقية، وربما كان ممنوعا من تحقيق المعرفة الحقيقية فذلك هو المعرفة الكاذبة وعندئذ مهما سمع عن الغيبيات طوال عمره فلن يحقق المعرفة الحقيقية وبالتالي لن يحقق أثر هذه المعرفة.

ـ فالمشكلة أن الكثير من الناس لا يعلمون أن مجرد المعرفة الحقيقية بالخالق والآخرة هو أمر خطير جدًا ومؤثر جدًا إلى هذه الدرجة، لكنهم سوف يعلمون ذلك عندما يجدون أنفسهم واقفين على أرض المحشر في الآخرة.

ـ فإذا لم تتأثر حياة الإنسان بالله والآخرة بهذا التأثر الكبير جدًا، أو كان تأثرها قليل أو شكليًا في بعض المظاهر فهذا يدل على أن المعرفة كاذبة واليقين كاذبا وحقيقة الانسان عندئذ أنه كالجاهل تماما.

ـ اليقين الحقيقي بالآخرة يؤدي إلى أن يعيش الإنسان حياته من أجل الإعداد للآخرة، فتكون حياته كلها كالذي يرتب أموره ويعد حقائبه ويجهز نفسه ويستعد للرحيل، فلا يعيش حياة المقيم، وإنما حياة الإعداد والترتيب والاستعداد النفسي والتأهب للمرحلة القادمة الخطيرة.

ـ عندما يشعر الإنسان بالآخرة فإن حساباته في الحياة سوف تختلف تمامًا، وإنه سوف يسقط أمور الدنيا والناس من حساباته؛ لأنه يشعر أن الدنيا ضئيلة، ويشعر بأن السعادة إنما هي في الجنة، فتكون الجنة هدفه وطموحه وغايته ومستقبله؛ لأنه سوف يشعر بأن الحياة التي نعيشها الآن بكل ما فيها من الأعمال الضخمة هي حياة كاذبة ومجرد لعب ولهو مثل لهو ولعب الأطفال: ((وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إلا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الآخرة لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ))[١]، فالمكان الطبيعي لمعيشة البشر ليس الكرة الأرضية وإنما هو الآخرة، والكرة الأرضية ليست إلا مكانًا هبط إليه آدم ليتم اختباره وذريته ثم يعودون إلى حيث ديارهم وأهليهم وأوطانهم في الآخرة، أما إذا ظل الإنسان غافلًا تلهيه الدنيا فغدًا سوف يشعر بالآخرة حين لا ينفع الندم: ((يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى (٢٣) يَقُولُ يَالَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي))[٢].

---

(١) العنكبوت: ٦٤

(٢) الفجر: ٢٣، ٢٤

الفصل التاسع عشر
اليقين الحقيقي بضآلة الدنيا وخطورة الآخرة

ـ اليقين الحقيقي بالبعث ولقاء الله والحساب وما يحدث في أرض المحشر معناه خوف المهابة وانشغال الهم بهذه الأمور لأنه لا يوجد ما هو أخطر منها، واليقين الحقيقي بالآخرة بالنظر الى الثواب والعقاب معناه التعلق بالآخرة، أي وجود العناصر الأربعة للتعلق.

ـ اليقين الحقيقي بالبعث:

ـ البعث معناه إحياء كل البشر من جديد، وهذا يبين مدى قدرة الله تعالى ومدى ضعف الانسان الذي لا يستطيع أن يدفع عن نفسه الموت ولا يستطيع أن يعيد لنفسه الحياة، فالبعث أمر رهيب.

ـ فاليقين الحقيقي بالبعث معناه خوف المهابة من البعث ومن قدرة الباعث، وانشغال أكبر الهم بالبعث وبقدرة الباعث، وتعلق المشاعر والجوارح بالباعث، وعدم وجود هذه الأمور معناه أن اليقين بالبعث كاذب.

ـ اليقين الكاذب بالبعث:

ـ عدم وجود خوف المهابة من البعث معناه أن الانسان لا يبالي بأمر البعث وينظر إليه نظرة اهمال، ففي تفسير السراج المنير: (({وقال الذين لا يرجون لقاءنا} أي: لا يخافون البعث، قال الفراء: الرجاء بمعنى الخوف لغة تهامة، ومنه قوله تعالى: {ما لكم لا ترجون لله وقاراً} (نوح، ١٣) أي: لا تخافون لله عظمة))(١).

ـ عدم وجود خوف المهابة من البعث معناه الاطمئنان بالدنيا فهو لا يجد في المعيشة في الحياة الدنيا شيئا يدعو الى القلق وبالتالي فهو راضي بها وفرح بها ومسرور بها، فهو يشعر بالاستقرار في الدنيا ويتعامل مع

(١) السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير (٢/ ٦٥٥)

الدنيا على أن معيشته فيها، فهو بذلك جعل الدنيا دار مقر وليست دار ممر وارتحال، وهو بذلك يقول بلسان حاله أن الحياة إنما هي في الدنيا رغم أنه يوقن بأن الحياة إنما هي في الاخرة، وهو بذلك لا يرجو الاخرة رغم يقينه بالآخرة: ((إِنَّ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ، أُولَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ))(١)، أما المؤمن فيشعر بأنه غريب عن هذه الحياة؛ لأنها ليست وطنه، فهو غير مطمئن بها ولا يألف المعيشة فيها؛ لأنه يعيش بين غرباء ينتظر الرحيل إلى وطنه وأهله.

ـ عدم الشعور بالقلق وتوقع الموت في أي لحظة معناه أنه لا يزال لا يعرف أن الموت قد يأتيه بغتة في أي لحظة، وهذا معناه أنه مطمئن بالدنيا، فالمؤمن عنده استعداد نفسي لأن يترك أهله وزوجته وأولاده وأصحابه ووطنه وأعماله التي تعود عليها وماله وكل شيء، وهو يشعر أن ذلك وشيك وسوف يحدث خلال أيام قليلة هي ما بقي له من أيام الدنيا القليلة.

ـ خوف المهابة وانشغال الهم بقضية الانتقال الى حياة جديدة:

ـ انتقال البشر جميعهم من الحياة على هذه الكرة الأرضية الى حياة أخرى من جديد في مكان آخر غير كوكب الأرض هو أمر خطير ومثير ومؤثر جدًا ويدعو الى الدهشة والذهول لما فيه من الاثارة وبالتالي انشغال الهم وتأثر المشاعر والجوارح بإعداد العدة لما بعد هذا السفر، لكن ذلك عند البعض هو أمر عادي جدا لا شيء فيه غريب أو يدعو للدهشة والعجب، فأنت مهاجر إلى حياة غير الحياة التي تعيشها الآن وسكن غير السكن الذي تسكن فيه وطعام غير الطعام الذي تأكله.

ـ لو قيل لك أنه قد تحدد لك موعد سفرك من أرض الدنيا إلى أرض المحشر بعد شهر من الآن، وأن جواز سفرك قد تم التأشير عليه بالهجرة من الدنيا بلا عودة، إن هذا الأمر عندئذ سوف يشغل تفكيرك ليلًا ونهارًا، وستظل تفكر في لقاء الله وتتهيب الأمر حيث تقف أمامه لتجيب عليه

(١) يونس: ٧

وهو يسألك عن أعمالك، وسوف تتعامل مع أهلك والناس تعامل المودع لهم الراحل عنهم، إنه تفكير دائم وشعور بالتهيب من الأمر.

ـ إنه بالفعل قد تحدد لك موعد سفرك وهو قريب جدًا، وهو سفر بلا عودة فليس للإنسان أن يجرب أو يتراجع، ولكن لم يتم إعلامك به، فلماذا لا يتوجه تفكيرك إلى هذا الأمر ولماذا لا تتهيب الأمر طوال وقتك؟ ذلك لأنك تبعد تفكيرك عن هذا الأمر وتتناساه وتتجاهله وتتغافل عنه كأنك لن تسافر وترحل ولن تقابل الله نفسه سبحانه، إذن يتضح الآن أن عالم الغيب إما ليس له وجود في مشاعرك.

ـ كل إنسان يترقب اليوم الذي يحقق فيه هدفه أو اليوم الذي يحدث فيه أمر خطير فيظل همه منشغلًا بهذا اليوم، فالطالب يترقب يوم الامتحان والسجين يترقب يوم الإفراج، والعاقل الذي يشعر بخطورة الآخرة فإنه يعيش حياته مترقبًا يوم لقاء الله والآخرة ومترقبًا يوم موته حيث يلقى الآخرة فيظل ذهنه منشغلًا بالتطلع إلى يوم اللقاء المهيب حيث تكون الدنيا لا قيمة لها.

ـ الآخرة واقع قادم والسفر لا اختيار فيه، فهو إجباري رغمًا عن أنفك وموعد السفر قد تحدد وهو في وقت قريب جدًا، وإذا جاء موعد السفر فلا رجعة سواءً كنت مستعدًا للرحيل أم غير مستعد ولا انتظار ولو ثانية واحدة وانتهت القضية وقد أُقفل دفتر حياتك: ((إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ (٧) مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ))(١).

ـ فهل لديك شعور بأن هذا السفر هو سفر نهائي وأنه سفر بلا عوده؟!، وقد سبقك إليه الكثيرون والدور في انتظارك، والرحيل مفاجئ وفوري وبلا رجعة، فالقضية حاسمة وخطيرة ولا تحتمل التراخي ولكننا في غفلة، وغدًا تنتهي الحياة فماذا أنت صانع؟ إنها ليست موعظة ورقائق، ولكنها حقائق ومشاعر حقيقية في النفس، يتضح الآن أن عالم الغيب ليس له وجود في مشاعرك، فمشاعرك تقول أننا لسنا في دار غربة ولسنا

---

(١) الطور: ٧ ، ٨

على سفر، ومشاعرك تقول: ((إِنْ هِيَ إلا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ))[1]، رغم أن الاقتناع تام بالآخرة.

ـ إن الذي لا يشعر بأنه مقبل على عالم آخر فإنه يعيش كأنه لن يموت، وعندما يأتيه الموت يشعر أنه هو النهاية، ولا يريد أن يموت، ويكره مَنْ يقبض روحه.

ـ إذا لم يشعر الانسان بالمهابة والقلق من خطورة السفر إلى حياة أخرى غير عالمنا الذي نعيش فهذا يدل على أنه لا يعرف الآخرة معرفة حقيقية، وبالتالي لا يتعامل مع هذه الأمور على أنها جد لا هزل فيه وتظل هذه المعاني مجرد كلام لا يؤثر فيه؛ لأن خاصية الانتباه للآخرة قد ماتت عنده، وغدًا يُفاجأ بالآخرة أمام عينه حقيقة واقعة في أقل من ثانية ولكن لا ينفع الندم.

ـ خوف المهابة وانشغال الهم بخطورة الانتقال للآخرة في أي لحظة:

ـ الانتقال للآخرة في أي لحظة مفاجئة هو أمر رهيب يستحق أن تخاف من مهابته ويستحق أن يشغل الهم لخطورته.

ـ مدة البقاء في دار الإقامة المؤقتة (الدنيا) قصير جدًا والسفر فوري في أي لحظة من ليل أو نهار فلابد أن يكون الإنسان جاهزًا بحقائبه مرتديًا ملابس سفره في كل وقته.

ـ ليست المشكلة فقط في قصر عمر الدنيا وأنها دار سفر، فالأخطر من ذلك أن الانتقال إلى الآخرة يكون في لحظة مفاجئة مباغتة وبلا مقدمات وينتهي كل شيء للأبد: ((قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا))[2]، ((وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إلا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أو هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ))[3]، فيفتح الإنسان عينيه فلا يجد بيته الذي كان يسكن فيه وعمله الذي كان يعمل

(١) المؤمنون: ٣٧
(٢) الانعام: ٣١
(٣) النحل: ٧٧

فيه وأهله وأصدقاءه الذين أَلِفَ المعيشة معهم، فجأة يفتح عينه ليجد كل شيء قد تغير في لحظة: ((وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ (٥١) قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ))(١)، فالمعرفة الحقيقية بأن الموت يأتي في أي لحظة وينتقل الإنسان للآخرة معناه الشعور بالمهابة من خطورة الانتقال إلى الآخرة في أي لحظة، ومعناه أن يعتبر الانسان نفسه من أهل القبور، ففي الحديث عَنْ مُجَاهِدٍ عَنِ ابْنِ عُمَرَ: قَالَ أَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم بمنكبي فَقَالَ: ((كُنْ في الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أو عَابِرُ سَبِيلٍ، وَعُدَّ نَفْسَكَ في أَهْلِ الْقُبُورِ، فَقَالَ لي ابْنُ عُمَرَ: إِذَا أَصْبَحْتَ فَلاَ تُحَدِّثْ نَفْسَكَ بِالْمَسَاءِ، وَإِذَا أَمْسَيْتَ فَلاَ تُحَدِّثْ نَفْسَكَ بِالصَّبَاحِ، وَخُذْ مِنْ صِحَّتِكَ قَبْلَ سَقَمِكَ، وَمِنْ حَيَاتِكَ قَبْلَ مَوْتِكَ، فَإِنَّكَ لاَ تَدْرِي يَا عَبْدَ اللَّهِ مَا اسْمُكَ غَدًا))(٢).

ـ خوف المهابة وانشغال الهم بالآخرة ولقاء الله:

ـ الآخرة ولقاء الله هو أمر رهيب يستحق أن تخاف من مهابته ويستحق أن يتعلق به الهم والمشاعر والجوارح، فإذا لم يحدث هذا التعلق فاليقين بالآخرة ولقاء الله كاذب.

ـ إذا كان لديك موعدا هاما لأمر ما فأنت تظل في حالة ترقب وتأهب وقلق وتطلع في انتظار ذلك الموعد الهام وينشغل ذهنك به طول فترة الانتظار.

ـ فالآخرة هي أخطر موعد تنتظره لأنه يتحدد فيه مصيرك وهو حياتك ومستقبلك، فعدم وجود هذا الشعور بالاستعداد والتأهب والتطلع إلى الآخرة معناه عدم وجود المعرفة الحقيقية باقتراب الآخرة.

ـ فالذي يشعر باقتراب الآخرة يعيش سنوات عمره في حالة تأهب وترقب واستعداد نفسي متطلعا إلى اليوم المحتوم الذي يعيش من أجله منتظرا مجيء اليوم الذي يصل فيه إلى بيته بعد سفر طويل!، وهو يعيش حياته

(١) يس: ٥١ ، ٥٢
(٢) تحقيق الألباني: صحيح (الصحيحة: ١١٥٧)

معيشة المسافر عابر السبيل الذي ينظر إلى الحياة الدنيوية على أنها مؤقتة فانية وأنه راحل إلى حياة الخلود حيث داره وأهله ومعيشته، وهو يعيش في حالة قلق وإشفاق وخوف من الآخرة، ويستمر ذلك طوال حياته وأثناء أداءه للأعمال.

ـ وعنده صبر طويل، فهو يصبر على الدنيا منتظرا الآخرة، والصبر على الدنيا معناه أن يصبر الإنسان مدة الستين سنة أو أكثر أو أقل حسب عمر الإنسان باعتبار أن هذه السنوات ما هي إلا لحظات منتهية ضئيلة في عمر الآخرة، فالذي يوقن بالآخرة ويشعر بها فإنه يصبر على أيام هذه الدنيا حتى تنقضي؛ لأن الإنسان منشغل عن الدنيا بانتظار الآخرة، ولأنه يشعر بأن الدنيا عابرة وتمر سريعًا: ((فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا، إنهم يَرَوْنَهُ بعيدًا، وَنَرَاهُ قَرِيبًا))[١].

ـ فالذي يشعر باقتراب الآخرة يعيش في الدنيا معيشة من يقف في مكان ما ينتظر أحدًا على موعد لمقابلته وهو قلق ينظر في الساعة دائمًا ويتلفت يمينًا وشمالًا لعل من ينتظره قادم الآن، فلحظات الانتظار هذه هي فترة عمره يبقى طوال حياته الدنيوية في حالة ترقب وانتظار وتوقع مجيء الموت والآخرة ولقاء الله في أي لحظة وإعلان النتيجة لما يصنعه في الدنيا.

ـ إن الذي ينتظر أحدًا في موعد، فأثناء فترة الانتظار يكون قلقًا، ويزيد ذلك القلق إذا كان لقاءً هامًا جدًا يترتب عليه مصير الإنسان، كما يزيد القلق إذا لم يكن يعرف الموعد بالضبط، ويزيد القلق إذا علم أن الموعد وشيك وقريب جدًا، ويزيد القلق إذا لم يكن يعلم هل نتيجة هذا اللقاء تؤدي إلى الشقاء والمصائب أم إلى السعادة والراحة؟، وهل سيلقى الترحيب بهذا اللقاء أم الزجر والويل والثبور؟، كما يزيد القلق إذا علم أن من سيقابله له مكانة كبيرة مثل ملك من الملوك أو زعيم من الزعماء، هذا بالنسبة لأمور الدنيا، فما بالك بلقاء الله والحساب الذي ينبني عليه الشقاء الأبدي أو السعادة الأبدية، فلابد أن ينزعج ذهن المؤمن وينشغل باله

(١) المعارج: ٥ ، ٧

طوال فترة حياته قلقًا على ما ينتظره وما يحدث له من أهوال ومخاطر قادمة حتمية وقريبة.

ـ وكذلك الذي ينتظر لقاء محبوبته الجميلة، فأثناء فترة الانتظار يكون قلقًا، ويزيد ذلك القلق إذا كان لا يعلم هل ستأتي أم لا؟، كما يزيد القلق إذا لم يكن يعرف الموعد بالضبط، ويزيد القلق إذا علم أن الموعد وشيك وقريب جدًا، هذا بالنسبة لأمور الدنيا فما بالك بلقاء الحور العين وملذات الجنة، فلابد أن يعيش المؤمن حياته في انتظار الحور العين وفي انتظار النعيم المقيم، ولابد أن ينزعج ذهن المؤمن وينشغل باله طوال فترة حياته قلقًا على ما ينتظره وما يحدث له هل سيصل إلى الحور العين أم إلى الجحيم؟

ـ لو قيل لك أن لديك موعد قريب تقابل فيه رئيس الدولة شخصيًا، فإنك تشعر بالمهابة من هذا اللقاء، فما بالك برب العالمين، ولماذا لا تشعر بالمهابة من هذا اللقاء؟ فذلك لأن لقاء الله لا وجود له في مشاعرك.

ـ وكذلك لو قيل لك إنك على موعد في محكمة من المحاكم مع قاضٍ من القضاة ليناقشك فيما عملته ويقول حكمه على ما فعلته بماذا تشعر؟، ولماذا لا تشعر بهذا الشعور من لقاء الله ليحاسبك على ما فعلت؟، وبماذا تشعر لو علمت أن هذا الموعد اقترب وينعقد في أي لحظة؟، وبماذا تشعر عندما تعلم أن الأمرين معًا، فأنت تقابل رب العالمين وهو سبحانه الذي يحاسبك؟

ـ اليقين الكاذب بأنك غريب في الدنيا:

ـ نحن ضيوف على وجه هذه الكوكبة الأرضية، فالدنيا هي دار غربة ونحن مسافرون منها الى الاخرة حيث وطننا وأهلنا، وهذا معناه الشعور بالغربة من وجود الانسان في بلد ليست بلده وليس فيها أهله هي الدنيا، فهو يعيش في ترقب وشعور بالحنين ليوم العودة إلى أهله ووطنه.

ـ فهل عندك فعلًا شعور بالغربة والحنين أم أنك تدعي ذلك؟، والشعور بالغربة أمر خطير؛ لأن عدم وجود الشعور بالغربة يعني أن الذهاب إلى الآخرة لا وجود له في مشاعرك.

ـ انظر إلى الحالة النفسية لشخص سجين، إنه يشعر بالحنين إلى أهله ووطنه، ويشعر بالضيق مما هو فيه، فهذا حال المؤمن ففي الحديث: ((الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر))[1]، فهل تشعر في نفسك بالغربة مثلما يشعر الإنسان الغريب أو عابر السبيل أو المسافر أو السجين؟!.

ـ اليقين بأن الدنيا دار سفر يؤدي الى عدم التعلق بالناس:

ـ الدنيا ليست المكان المعد والمجهز والمناسب لإقامة الإنسان فيه، ولكن الدنيا عبارة عن سفينة أو مركبة تحمل الإنسان إلى بيته أو داره ومكان إقامته، وداخل هذه السفينة يعيش الإنسان حياة مؤقتة عابرة فيها مكان مؤقت ينام فيه وطعام وشراب مؤقت.

ـ الدنيا دار غربة نحن الآن مسافرون منها عائدين إلى وطننا وأهلينا، فنحن الآن مسافرون سفر العودة والرجوع وليس سفر الذهاب بعيدًا عن الوطن والأهل، فوطن الإنسان وأهله هو في الآخرة وليس في الدنيا.

ـ ويمكن تشبيه ذلك بأن إنسانًا ركب سيارة أجرة ليصل إلى مكان ما، دخل السيارة فوجد فيها ركابًا آخرين مثله، ربما يتحدث معهم أو يتعرف على أحد منهم، وعندما يصل إلى المكان الذي يريده ينزل من السيارة ويترك الركاب الموجودين فيها، فالدنيا هي وقت الإنسان الذي يقضيه داخل السيارة، والركاب الموجودين داخل السيارة هم الناس الموجودين في الدنيا، والإنسان مهما تعامل معهم فليسوا أهله ولكنهم غربَاء مسافرين مثله، وعندما ينزل من السيارة لا يشعر بألم الفراق؛ لأنه لا تربطهم به سوى أنه تقابل معهم أثناء الطريق.

ـ والمؤمن عنده استعداد نفسي لأن يترك أهله وزوجته وأولاده وأصحابه ووطنه وأعماله التي تعود عليها وماله وكل شيء، وهو يشعر أن ذلك وشيك وسوف يحدث خلال أيام قليلة هي ما بقي له من أيام الدنيا القليلة.

ـ فينبغي أن تشعر أنك الآن في دار الغربة، والأصح أن تشعر بأنك الآن أثناء السفر منتقل من دار الغربة إلى مكان الإقامة والمعيشة فأنت عابر

(١) تحقيق الألباني: صحيح (انظر حديث رقم: ٣٤١٢ في صحيح الجامع)

سبيل، ففي الحديث عَنْ مُجَاهِدٍ عَنِ ابْنِ عُمَرَ: قَالَ أَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم بمنكبي فَقَالَ: ((كُنْ في الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أو عَابِرُ سَبِيلٍ، وَعُدَّ نَفْسَكَ في أَهْلِ الْقُبُورِ، فَقَالَ لي ابْنُ عُمَرَ: إِذَا أَصْبَحْتَ فَلاَ تُحَدِّثْ نَفْسَكَ بِالْمَسَاءِ، وَإِذَا أَمْسَيْتَ فَلاَ تُحَدِّثْ نَفْسَكَ بِالصَّبَاحِ، وَخُذْ مِنْ صِحَّتِكَ قَبْلَ سَقَمِكَ، وَمِنْ حَيَاتِكَ قَبْلَ مَوْتِكَ، فَإِنَّكَ لاَ تَدْرِي يَا عَبْدَ اللَّهِ مَا اسْمُكَ غَدًا))(١)، و(أو) في الحديث بمعنى (بل) للإضراب، أي كن في الدنيا كأنك غريب بل عابر سبيل.

ـ فالدنيا إما أنها دار إقامة مؤقتة أو أنها مجرد طريق يسير فيه السائر ليصل إلى بيته، ومن لم يشعر بهذا أو بهذا فهو يعتبر الدنيا دار إقامة دائمة وأنها بيته، وبالتالي فهو لا يعرف الآخرة معرفة حقيقية.

ـ اليقين بأن الدنيا دار سفر يؤدي الى عدم التعلق بالدنيا:

ـ إذا عرف الإنسان أنه مسافر إلى الآخرة لا ينشغل همه بالدنيا إلا في حدود ما يحتاجه عابر السبيل أثناء سفره، ولا تتأثر مشاعره بالدنيا وشهواتها إلا في حدود ما يحتاجه عابر السبيل، ولا تنشغل جوارحه بالعمل فيها إلا بما ينشغل به عابر السبيل، ويكون عمل الإنسان مثل عمل الغريب أو عابر السبيل المسافر المستعد للرحيل، ولا يكون عمله مثل عمل المقيم في بلده، فمثلًا الشخص الذي يعيش في غربة في بلد ما ليست قضيته أن يبحث عن الراحة والطعام والشراب، فإنه ينتظر الراحة والطعام والشراب عند العودة إلى وطنه، أما طعامه وشرابه ومكان نومه وعيشه في بلد الغربة فهو كيفما اتفق يرضى بأي شيء يؤدي الغرض، فإن الذي يرى أن طعامه إنما هو في الآخرة فإنه لا يهتم كثيرًا بطعام الدنيا فهو كيفما اتفق، وإنما هو يأخذ زاد المسافر، وكذلك سكن الدنيا ومتطلباتها، فعن ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ نام على حصير، فقام وقد أثّر في جسده، فقال ابن مسعود: يا رسول الله لو أمرتنا أن نبسط لك ونعمل، فقال: ((ما لي وللدنيا؟ وما

---

(١) التخريج: صحيح (صحيح الترغيب والترهيب برقم ٣٢٨٣).

أنا والدنيا، إلا كراكب استظل تحت شجرة، ثم راح وتركها))(١)، وفي الحديث عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ: ((مَرَّ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم وَنَحْنُ نُعَالِجُ خُصًّا لَنَا فَقَالَ: مَا هَذَا؟، فَقُلْتُ خُصٌّ لَنَا وَهَى نَحْنُ نُصْلِحُهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: مَا أُرَى الأمر إلا أَعْجَلَ مِنْ ذَلِكَ))(٢)، وقد كان الإمام أحمد بن حنبل يقول: ((إنما هو طعام دون طعام، ولباس دون لباس، وإنها أيام قلائل))(٣).

ـ فالذي يعيش في غربة ليست قضيته أن يبحث عن الراحة والطعام والشراب، فإنه ينتظر الراحة والطعام والشراب عند العودة إلى وطنه، أما طعامه وشرابه ومكان نومه وعيشه في بلد الغربة فهو كيفما اتفق يرضى بأي شيء يؤدي الغرض، فهل في شعورك أن الطعام الذي تأكله هو طعام مؤقت وأن السكن الذي تسكن فيه هو سكن مؤقت أم أنك تشعر أنه سكن دائم؟

ـ الحياة التي يعيش فيها الإنسان ويأكل ويشرب ويلبس ويقيم هي الآخرة أما هذه الحياة التي نعيشها في الدنيا فهي حياة كاذبة مؤقتة مثل الحياة التي يعيشها عابر السبيل ليصل إلى بيته ووطنه: ((وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إلا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الآخرة لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ))(٤)، "الحيوان" أي الحياة الحقيقية وفي الآية: ((يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي))(٥)، أي لحياته في الآخرة، لذلك من الناس من تكون قضيته كيف يعيش حياته وكيف يقوم بشئون معيشته وكيف يدبر أموره المعيشية وهو لا يدري أنها ليست بحياة وأنها مجرد سفر أوشك أن ينتهي، أما الذي يدرك أنه على سفر فهو منشغل بسفره عن هذه الأمور المعيشية المؤقتة فهو لا يبالي بلقيمات تعينه على سفره كيفما اتفق، ولا يبالي كيف

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٣٧٧)، وابن ماجه (٤١٠٩)، وقال الترمذي: حسن صحيح، وإسناده صحيح (انظر الصحيحة: ٤٣٨)

(٢) أبو داود في الأدب (٥٢٣٦) والترمذي في الزهد (٢٣٣٦)، وقال الترمذي: حديث حسن صحيح

(٣) صيد الخاطر -دار القلم- دمشق (١ / ٤٤٧).

(٤) العنكبوت: ٦٤

(٥) المؤمنون: ٣٧

تكون هذه الحياة المعيشية العابرة؛ لأنها زائلة سريعًا فتكون عنده كيفما اتفق.

ـ اليقين الكاذب بأن الدنيا دار سفر:

ـ هناك من بنى حياته على أساس البقاء كأنه يبقى فيعيش كأنه خالد لن يموت، فلا هم له ولا عمل له ولا كلام له إلا للمال والدنيا، وهو منكب على الدنيا يلهث وراء الأموال والشهوات، وهناك من بنى حياته على أساس أنه مفارق الناس جميعًا وكل شيء وأن من حوله لن يدومون وأنه سوف يفارق كل شيء وكل الناس، فهو يعيش كأنه غريب أو عابر سبيل.

ـ البعض قد يتعامل مع الدنيا على أنها دار إقامة وليس على أنها دار سفر وليس على أنه عابر سبيل، فيعيش حياته كأنه لن يموت، فهو يعيش من أجل تدبير مسكنه وأمور معيشته والحفاظ على صحته فلا هم له ولا سعي له غير ذلك كأنه خالد في الدنيا، ولذلك ففي تفسير الرازي : (({وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ} المصانع مآخذ الماء، وقيل القصور المشيدة والحصون {لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ} ترجون الخلد في الدنيا أو يشبه حالكم حال من يخلد، وفي مصحف أبي : (كأنكم)، وقرأ (تخلدون) بضم التاء مخففاً ومشدداً، واعلم أن الأول إنما صار مذموماً لدلالته إما على السرف، أو على الخيلاء، والثاني: إنما صار مذموماً لدلالته على الأمل الطويل والغفلة عن أن الدنيا دار ممر لا دار مقر))(١).

ـ قد يوقن الانسان بأن الدنيا دار غربة ودار سفر لكن لا يشعر بالغربة ويتعامل مع الدنيا كأنها دار اقامته وكأنه خالد فيها، فلا يشعر بالترقب والتطلع والانتظار للآخرة وتتعلق مشاعره بالمال والشهوات حبا وخوفا ورجاءً وهدفه الذي يلهث وراءه هو المال أو الشهوات فهو بذلك لا يزال لا يعرف أنه مسافر إلى الآخرة معرفة حقيقية.

ـ الإنسان الذي يتعامل مع الدنيا كأنها دار إقامة عندما يشعر باقتراب الموت أو قبل موته يحدث له اكتئاب شديد وخوف وهلع؛ لأنه لا يريد

---

(١) تفسير الرازي [مفاتيح الغيب ـ التفسير الكبير] ـ دار إحياء التراث العربي - بيروت (ج : ٢٤ ، ص : ٥٢٣)

أن يترك ما اعتاد عليه، فهو يقول بلسان حاله أن الموت هو النهاية للحياة وليس البداية للحياة فلا يريد أن يموت، ويكره مَنْ يقبض روحه.

ـ اليقين الحقيقي بقصر العمر في الدنيا أمام الخلود في الآخرة:

ـ وجود الآخرة هو الذي جعل الدنيا لا قيمة لها، لأن الدنيا بالمقارنة بالآخرة تساوي صفر وكل آلامها ولذاتها تساوي صفر ومدة البقاء فيها تساوي صفر رغم أنها سنوات طويلة لكنها في حقيقتها تساوي صفرا أمام مدة البقاء اللا نهائية في الآخرة، ولكن الشيطان يزين للإنسان أن الحياة في الدنيا طويلة، وأن الستين سنة (مثلًا) التي يحياها في الدنيا أعمار طويلة.

ـ الخلود في الآخرة جعل عمر الإنسان في الدنيا مجرد ثوانٍ، فهل يهتم الإنسان بحياة مدتها ثوانٍ أم بحياة مدتها ما لا نهاية؟ وهل يهتم بما يحدث له من خيرٍ أو شرٍ في مدة لا تزيد عن ثوانٍ؟، فالعمر ما هو إلا يومان، يوم ذهب وباقي يوم.

ـ الخلود في الآخرة ليس أمر بسيط يمكن أن نمر عليه مر الكرام، فالخلود في النار معناه أن يظل الإنسان في العذاب داخل النار ليس لمدة ساعة ـ وإن كان ذلك مروع جدًا- وليس لمدة يوم كامل، ولا لمدة شهر ولا سنة ولا مائة سنة ولا مليون سنة ولا مليار سنة، ولكن للأبد من غير أن يموت، فمقارنة ذلك بأيام الدنيا وآلامها تكون الدنيا لحظات، حتى لو عاش الإنسان في الدنيا مائة عام تكون لحظات تمضي سريعة، وكذلك الخلود في نعيم الجنة وملذات الجنة ليس لمدة يوم ـ وإن كان ذلك غاية في المتعة ـ وليس لمدة شهر ولا سنة ولا مائة سنة ولا مليون سنة ولا مليار سنة، ولكن للأبد من غير أن يموت، إنها السعادة الأبدية في متعة ولذة بلا حدود وإلى الأبد ومع الجميلات الفاتنات الساحرات من الحور العين، قارن هذا أمام السنوات الحقيرة المعدودة في الدنيا، فلا وجه للمقارنة أصلًا، فإنك في الجنة سوف تبقى شبابًا للأبد بلا مرض ولا ضعف ولا موت مع كل ألوان المتع.

ـ فإذا كانت مشاعر الإنسان تتعلق بسعادة مدتها ثانية -هي سعادة الدنيا- فهو لا يزال لا يعرف ما هي الآخرة، وهو أحمق لا يعقل.

ـ إن كل شيء منتهي فهو ضئيل، وكل شيء خالدٍ فهو عظيم، فالدنيا زائلة ومنتهية وليس فيها خلود، والمتع والشهوات التي تنتهي لا قيمة لها، ولكي يشعر الإنسان بذلك يسأل نفسه: وماذا بعد أن يأكل ويشرب وينام ويعمل ويتمتع ويقوم بأمور الدنيا؟ فالإجابة: إن كل ذلك إلى زوال وبعد ذلك القيامة.

ـ قَالَ مَالِكُ بْنُ دِينَارٍ: ((لَوْ كَانَتِ الدُّنْيَا مِنْ ذَهَبٍ يَفْنَى، وَالْآخِرَةُ مِنْ خَزَفٍ يَبْقَى، لَكَانَ الْوَاجِبُ أَنْ يُؤْثَرَ خَزَفٌ يَبْقَى، عَلَى ذَهَبٍ يَفْنَى. قَالَ: فَكَيْفَ وَالْآخِرَةُ مِنْ ذَهَبٍ يَبْقَى، وَالدُّنْيَا مِنْ خزف يفنى))[(١)].

ـ لو أن إنسانًا عاد من الآخرة إلى الدنيا فسوف ينظر إلى السنوات الطويلة التي يقضيها في الدنيا على أنها ثواني معدودة لا قيمة لها وأنه باقي على قيام الآخرة ثواني معدودة: ((قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ (١١٢) قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أو بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ (١١٣) قَالَ إِنْ لَبِثْتُمْ إلا قليلًا لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ))[(٢)]، ((أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ (٢٠٥) ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ (٢٠٦) مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ))[(٣)].

ـ وفي الحديث عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ: ((مر علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن نعالج خصًا لنا فقال: ما هذا؟ فقلنا: قد وَهَى فنحن نصلحه، قال: ما أرى الأمر إلا أعجل من ذلك))[(٤)]، أي الآخرة قريبة ووشيكة حتى كأنه لا وقت للانشغال بشيء غيرها.

ـ لا يزال الانسان لا يعي ولا يدرك مدى الفرق بين مدة الحياة في الدنيا والاخرة حتى يكون تعلقه بالحياة الاخرة ولا يتعلق بالحياة الدنيا.

---

(١) تفسير القرطبي (٢٠/ ٢٤)
(٢) المؤمنون: ١٢ ـ ١٤
(٣) الشعراء: ٢٠٥ ـ ٢٠٧
(٤) قال الشيخ الألباني: صحيح (جامع الترمذي ج: ٤، ص: ٥٦٨، برقم: ٢٣٣٥)

ـ اليقين الحقيقي بالآخرة يؤدي الى عدم التعلق بالدنيا:

ـ قيمة الشيء تعرف بالمقارنة بشيء آخر، فإذا انتبه الإنسان إلى حقيقة الآخرة رأى الدنيا على حقيقتها وبالتالي لم يتعلق بها وينظر إلى المال والشهوات والدنيا نظرة احتقار وليس نظرة تعظيم.

ـ الدنيا وما بها من مال وشهوات ومتع لا تساوي شيئًا بالمقارنة بالآخرة، فمن يعرف الآخرة ويوقن بها تكون كل أموال الدنيا وشهواتها ومناصبها هي مثل الطين في نظره؛ لأنه يقارنها بالآخرة فلا تساوي شيئًا، وهو ينظر إلى من عنده قدر كبير من أموال الدنيا ومناصبها وشهواتها على أنه عنده قدر كبير من الطين، فلا ينظر له نظرة انبهار، وينظر إلى الفقير المعدوم على أنه عنده قدر قليل من الطين، وإذا ظلمه أحد فلا يتألم ويشتد حزنه؛ لأنه يعلم أن ذلك الظالم مسكين قد أتعب نفسه وأخذ منه قدرًا من الطين، وهذا لا يمنع من أن يطالب بحقه، أما الذي لا يعرف الآخرة إذا كان مظلومًا أو فقيرًا فإنه يكون دائم التسخط والتألم الشديد والحزن الشديد ودائم الشكوى، وإذا خسر في تجارة أو أصابه مصاب قد يصاب بسكتة قلبية أو اكتئاب شديد جدًا، وإذا كان ظالمًا أو غنيًا فإنه يكون دائم التهلل والفرح الشديد ويعجب بنفسه بشدة ويتكبر على غيره، والذي لا يعرف الآخرة يكون خائفًا خوفًا شديدًا جدًا على صحته وعلى عمره لدرجة الهلع كأنه لا يريد أن يموت، وكذلك فهو خائف بشدة على ألا يفوته أو ينقص منه شيء من متع الدنيا وحريص بشدة على أن يُفقد غيره من الناس متع الدنيا وألا يحصلوا على شيء من متعها حتى يكون هو الأعلى، وذلك لأن الدنيا ومناصبها وأموالها وشهواتها هي في نظره عظيمة وكبيرة جدًا، ويوم القيامة يُفاجأ بأن كل ذلك كان مجرد طين وأنه كان حريصًا على جمع الطين!.

ـ فعندما يعرف الإنسان الآخرة تتغير نظرته تجاه صاحب الأموال الهائلة الذي يعيش من أجل جمع المال يراه مسكينًا غبيًا يُورد نفسه موارد الهلاك، وعلى العكس فإنه ينظر إلى الإنسان المتصل بالله نظرة إكبار وتعظيم ويحسده على ما عنده من إيمان، وينظر إلى الأعمال الهائلة التي

يعملها الذين يعيشون للدنيا فيراها لهوًا ولعبًا رغم أنها عند أهل الدنيا أعمال عظيمة جدًا.

ـ فالناس أمامهم جبل من الذهب الحقيقي وجبل من الطين، وهم يتهافتون ويتنافسون على جبل الطين الذي هو أموال الدنيا وشهواتها ومناصبها، ويتركون جبل الذهب الذي هو رضا الله وجنات النعيم.

ـ فالتأثر الشديد بظلم الظالم هو من الغباء؛ لأن الدنيا ليست إلا طينًا، فالظالم أخذ كثيرًا من الطين والمظلوم عنده قليل من الطين، والفرح الشديد بالحصول على الدنيا أو الحزن الشديد بفقدان الدنيا من الغباء لأن كلاهما لا شيء أمام الاخرة: ((لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ))[١].

ـ فالدنيا مثل لعبة الكراسي الموسيقية، في المنتصف يوضع الشهوات والمناصب والأموال، والناس يدورون حولها كأنهم يطوفون حولها، كل واحد يريد أن يأخذ من هذه الكومة الموضوعة في المنتصف، ولكن البصير ينظر إلى هذه الكومة فيراها كومة من الطين فلا يدور معهم.

ـ وطالما أن الانسان لا يزال متعلقا بالمال والشهوات ولا يستطيع تركها ويراها عظيمة فهو لا يزال لم يعرف الخالق والآخرة.

ـ وكذلك طالما أن الإنسان لا يزال يغضب وينفعل ويتأثر بآلام الدنيا ومشاكلها هو أنه لا يزال لم يعرف أن الدنيا إلى فناء وأن آلام الدنيا ليست بشيء أمام آلام النار.

ـ اليقين الكاذب بالآخرة:

ـ الانسان يعيش حياة في الدنيا وحياة في الآخرة، ولكن الحياة الدنيا لا تزيد عن كونها ثانية أو أقل بالنسبة للحياة في الآخرة لذلك فانشغال الهم وتعلق القلب والجوارح بالحياة في الآخرة لابد أن يكون أكبر بكثير من انشغال الهم وتعلق القلب والجوارح بالحياة التي في الدنيا وما يتعلق بها من غذاء الجسد.

---

(١) الحديد: ٢٣

ـ كيف يوقن الإنسان بأن الدنيا ضئيلة وزائلة ولا قيمة لها وأن الحياة الحقيقية الأبدية في الآخرة ورغم ذلك لا تتعلق مشاعره وهمومه وأهدافه إلا بالدنيا، فهذا تناقض عجيب، فهو يوقن بأن الحياة الحقيقية في الاخرة لكن يتعامل مع الدنيا على أنها هي الحياة، ويوقن بخطورة الاخرة لكن ينظر إليها نظرة إهمال، ويوقن بضآلة المال والشهوات لكن ينظر إلى المال والشهوات نظرة تعظيم، فيقينه كاذبا وحاله حال الجاهل بوجود الاخرة.

ـ كل لذات الدنيا وآلامها ليست بشيء أمام لذات وآلام الآخرة، وسنوات العمر الطويلة ليست بشيء أمام الخلود في الآخرة، وانتقال الإنسان إلى حياة أخرى من جديد هو أمر خطير ومثير، ورغم ذلك فالبعض لا تتأثر مشاعرهم ولا همومهم ولا أهدافهم ولا حياتهم إلا بأمور الدنيا، فهؤلاء إما أن يكونوا جاهلين بالآخرة أو لديهم معرفة كاذبة ويقين كاذب بالآخرة.

ـ بل إن الانسان إذا عاش حياته مكتئبا غاضبا من أمور الدنيا وما فاته منها فهذا دليل على أنه لا يزال لم يعرف الآخرة بعد لأن الدنيا لا تساوي شيئا بالمقارنة بالآخرة سواء كان فيها سعادة أو شقاء.

ـ الحياة التي نعيشها هي حياة كاذبة وما فيها من متع هي متع كاذبة وما فيها من آلام هي آلام كاذبة وذلك لأن الحياة الحقيقية هي حياة واحدة وهي حياة الخلود في الاخرة وكل متع الدنيا وآلامها ما هي إلا اسم فقط أمام متع وآلام الاخرة، ولكن لسان الحال يقول عكس ذلك تماما، فلسان الحال يقول بأن الدنيا هي الحياة وليس غيرها حياة أخرى ولا شيء بعد الموت.

ـ هل مشاعرك وحبك وغضبك وفرحك متعلق بالله والاخرة أم متعلق بالدنيا، وأيهما يتعلق أكثر؟، فإذ لم تتأثر المشاعر بالخالق والاخرة فاليقين كاذبا.

ـ معنى أن مشاعر الانسان تتفاعل بشدة بأمور الدنيا من المال والشهوات ومشكلات الحياة في حين لا تتفاعل مع أمور الآخرة دليل عن أن الانسان كالجاهل عن الآخرة تماما كأنه لم يسمع عن شيء اسمه الآخرة،

فمشاعره وأهدافه وطموحاته وتطلعاته وانفعالاته وسلوكه وفرحه وحزنه ونيته وأكثر كلامه ونقاشاته وأكثر عمله لا علاقة له بالغيبيات، فلو ذكرته بعقاب الآخرة لا يؤثر ذلك في نفسه شيئًا، في حين لو أخبرته بفقد شيء من ماله لطاش عقله وتأثرت مشاعره.

ـ لو افترضنا أنه جاء أحد من الاخرة فرأى حال الكثير من الناس الذين لديهم يقين تام وجازم بالآخرة لأقسم أن هؤلاء لم يسمعوا عن الاخرة ولا يعرفونها، فهل هؤلاء موقنون بالأخرة أم جاهلين بها؟، فالذي يحكم عليهم من خلال لسان الحال يقول أنهم جاهلين بالآخرة والذي يحكم عليهم من خلال لسان المقال يقول أنهم موقنون تماما بالأخرة، والحكم الشرعي على هؤلاء هو أن لديهم يقين كاذب بمعنى أن يقينهم صحيح شرعا وهو حجة عليهم ولكن هذا اليقين معطل عن العمل وموقوف وميت ولا قيمة له فهو كالعدم وحقيقة هؤلاء أنهم كالجاهلين.

ـ المقارنة بين التعامل مع قضية الاخرة وقضايا الدنيا تكشف حقيقة اليقين بالأخرة:

ـ قضايا الدنيا كثيرة منها العمل لكسب لقمة العيش والتغلب على أعباء الدراسة والزواج وتدبير نفقات الأولاد وتوفير الطعام والشراب، ومنها الحصول على مناصب أو شهادات، ومنها قضية التمتع بشهوات النساء، ومنها حل مشاكل تواجه الانسان كالفقر والمرض والمشاكل العائلية أو إنجاب الأطفال أو الظلم من أحد، ومنها توفير وسائل السعادة والترفيه والتطلع لشراء مسكن أو سيارة ومنها أمور التسلية أو الترفيه وغير ذلك.

ـ إذا وضعت مقارنة بين مقدار انشغال الهم ومقدار الانفعال والتفاعل وتأثر المشاعر بقضية الغيبيات وقضايا الدنيا، تجد التفاعل كله أو معظمه لقضايا الدنيا رغم أن قضايا الدنيا ومشاكلها وملذاتها لا شيء أمام قضية الغيبيات، فهذا يدل على أن اليقين بالغيبيات كاذبا.

ـ جميع آلام الدنيا وملذاتها ليست بشيء أمام الآخرة ورغم ذلك تتفاعل معها مشاعر الإنسان وانفعالاته في حين لا تتفاعل وتتأثر بالغيبيات، فذلك يدل على حماقة الإنسان وعدم وجود المعرفة الحقيقية بالغيبيات.

ـ وتتضح هذه المقارنة من خلال العناصر الأربعة لتعلق القلب والجوارح وهي:

١ـ الأموال والشهوات عظيمة جدا في نظره (شدة التأله)، في حين ينظر الى ما في الاخرة من ملذات ونعيم وعذاب كما ينظر الى شيء ضئيل لا قيمة له.

٢ـ كل حبه ورجاءه وخوفه متعلق بالمال والشهوات ولا يستطيع أن يترك تعلقه بها، في حين لا يشعر بشيء تجاه ما في الاخرة من ملذات ونعيم وعذاب.

ـ ويشعر بالتألم الشديد والكراهية لآلام الدنيا، فالإنسان في حياته قد يواجهه مشاكل حياتية كثيرة، عند كل مشكلة قد يغضب ويثور ويتضايق وينفعل، أما الآخرة عنده فليست بمشكلة رغم أنها الخطر المرتقب والامتحان العصيب والحياة الأبدية، ورغم أن الدنيا أيام قليلة تفنى بمشاكلها، أما الذي يشعر بحجم الخطر في مشكلة الآخرة أمام ضآلة مشاكل الدنيا فتهون عليه مشاكل الدنيا وتنفعل مشاعره ويقلق ويغضب ويضطرب أمام مشكلة الآخرة.

٣ـ صورة عظمة المال والشهوات وخطورة آلام الدنيا لا تفارق ذهنه (الشاغل الاكبر)، في حين لا ينشغل همه بشيء مما في الاخرة من ملذات ونعيم وعذاب.

٤ـ يبني حياته على أساس الحصول على المال والشهوات وتجنب آلام الدنيا وعلى أساس أنه مقيم وخالد في الدنيا، ويعيش حياته حرا غير خاضع لأحد ويسارع في تحصيل الدنيا وتظل تلهيهم أعمال الدنيا ويتلهى بها حتى يجد نفسه واقفا على أرض المحشر (تعلق الجوارح).

ـ فلا يمكن لإنسان عاقل يوقن تمام اليقين بنعيم الجنة الهائل ثم هو يلهث وراء فتات الدنيا إلا إذا طبع الله على قلبه فأصبح كالذي لا يعقل ما يوقن به.

ـ فالإنسان قد يصدق بالآخرة ولقاء الله لكن لا يعبأ بذلك ولا يهتم به ولا يتأثر به ولا يشغل همه به فهو رجل دنيوي كل همه الدنيا وكل كلامه

للدنيا وكل مشاعره وطموحاته الدنيا، فالقضايا التي تشغل همه وتفكيره وكلامه ونقاشاته وطموحاته كلها أمور الدنيا ومشاغلها وليس فيها الآخرة، ويتجاهل أي شيء فيه تذكير بالله والآخرة كأنه لا يسمع ((ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ))[١]، وفي الجانب الآخر فمن الناس من لا هم له إلا الآخرة، ففي تفسير الطبري: ((عن مجاهد في قوله (إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ) قال: بذكر الآخرة فليس لهم همّ غيرها))[٢].

ـ الآخرة شيء مهيب ومخيف ومرعب ومفزع ويدعو إلى القلق، فبدون أن يحدث خوف مهابة من الآخرة وبدون أن تتأثر مشاعر الإنسان بالآخرة (الخوف والرجاء) وطالما أن المال والدنيا والشهوات ما زالت هدف الإنسان فهو تماما كالذي لا يعرف ما هي الآخرة وكأنه لم يسمع عنها.

---

(١) الحجر: ٣

(٢) تفسير الطبري ـ مؤسسة الرسالة (ج: ٢١، ص: ٢١٨).

الفصل العشرون
اليقين الحقيقي بالحياة في الجنة والنار

ـ الجنة والنار هي أهم وأخطر قضية في حياة الانسان ولا يمكن لإنسان عاقل أن يكون له هدف يعيش له غيرها.

ـ لا يزال الانسان لا يعرف ما هي الجنة ولا يزال لا يوقن بالجنة يقينا حقيقيا حتى يتأثر قلبه وجوارحه بالجنة فيتعلق بها بقلبه وجوارحه لأنه لا يمكن لإنسان عاقل يعرف الجنة ويوقن بما فيها من النعيم والخلود في الملذات ثم لا يتعلق بها بقلبه وجوارحه، فإذا كان عاقلا وموقنا ولم يتأثر فذلك لأن الله طبع على قلبه فأبطل معرفته أو أنه تجاهل الجنة فلم يتدبر ويتذكر بما فيها وتجاهل السعي للوصول اليها فحصر عقله وسعيه وراء دنيا فانية.

ـ وكذلك لا يزال الانسان لا يعرف ما هي النار ولا يزال لا يوقن بها يقينا حقيقيا حتى يتأثر قلبه وجوارحه بها فينشغل بها بقلبه وجوارحه لأنه لا يمكن لإنسان عاقل يعرف النار ويوقن بما فيها من الآلام والخلود داخل نار محرقة ثم لا ينشغل بها بقلبه وجوارحه، فإذا كان عاقلا وموقنا ولم يتأثر فذلك لأن الله طبع على قلبه فأبطل معرفته أو أنه تجاهل النار فلم يتدبر ويتذكر بما فيها وتجاهل الهرب منها فحصر عقله وسعيه وراء دنيا فانية.

ـ التعلق بنعم الدنيا معناه غياب اليقين الحقيقي بنعم الجنة:

ـ الانسان مغرور بما عنده من نعم الدنيا كالماء والهواء والصحة والمال والشهوات والتكنولوجيا، ويحسب أنه قوي بها، ولن يزول هذا الغرور حتى يتصور مدى ضآلة نعم الدنيا أمام نعم الجنة فيشعر بالذل.

ـ وكذلك فالتعلق بنقص نعم الدنيا بأن تكون كل قضيته التغلب على أعباء الحياة ومشاكلها وآلامها وتأثره الشديد بها حزنا وهما وسعيا فهذا معناه

غياب اليقين الحقيقي بعذاب النار لأن مشاكل الدنيا وآلامها ليست بشيء أمام آلام النار.

ـ اليقين الكاذب بالجنة والنار:

ـ مجرد أن يعرف الانسان بوجود الجنة والنار فسوف يتأثر ذهنه ومشاعره وعمله تأثرا شديدا وربما لا ينام ولا ينشغل باله طوال حياته بغير الجنة والنار، فإذا لم يحدث ذلك التأثر الشديد فهذا معناه وجود خلل في الانسان فهو مجنون أو لا يعقل أو هو يتناسى الجنة فيصبح كأنه لم يسمع عن الجنة والنار، لأن ما في الجنة من نعيم وما في النار من عذاب يفوق كل التصورات وجميع لذات الدنيا وآلامها ليست بشيء أمام لذات الجنة وآلام النار.

ـ ولو افترضنا أن الله ضمن للإنسان دخول الجنة فهل ينقطع تأثر ذهنه ومشاعره وجوارحه عن الجنة والنار؟، إنه سوف يخاف من مهابة النار بشدة وسوف يذهل وينبهر من حلاوة الجنة بشدة وسوف يمتلأ قلبه بحب الجنة فلا يحب شيئا سواها من كل محاب الدنيا وسوف يمتلأ قلبه بكراهية النار فلا يكره شيئا سواها وسوف ينشغل همه بالجنة والنار فلا هم له غير ذلك لعظم الجنة والنار، وسوف يبقى متعلقا بالله حبا له.

ـ إذا كنت لا تزال لا تشعر بالمهابة من مدى ما في الجنة والنار من عجب وخطر فأنت لا تزال لا تعرف ما هي الجنة وما هي النار، وإذا كنت لا تزال لا تشعر بالشوق للجنة وحب الحور العين والخوف من النار فأنت لا تزال لا تعرف ما هي الجنة وما هي النار.

ـ طالما أن ذهن الانسان ومشاعره وعمله لا يزال لم يتأثر بالجنة والنار أو لم يكن تأثره شديدا فهو لا يزال لم يعرف الجنة والنار معرفة حقيقية وهو لا يزال يتناسى الجنة والنار.

ـ أثر اليقين الحقيقي بوجود الجنة الآن:

ـ تصور لو أن هناك كوكبًا آخر في السماء غير الأرض عليه سكان من البشر يعيشون حياة غاية في التطور والرفاهية، فمن يعيش على هذا الكوكب يعيش في متع متناهية لا حد لها، وينال كل ما يشتهي ويتمنى

ولا يتعب ولا يعمل، ولكن تركيبة البشر هناك مختلفة عن تركيبة البشر على الأرض، فهم في شباب دائم وصحة دائمة وأجسادهم مصممة بحيث أنها غير قابلة للمرض أو الموت وهم يأكلون ويتنعمون كيفما شاءوا وكل ما يريدونه يتحقق فورًا وكأنه سحر، لذلك من أراد الوصول إلى هذا الكوكب من سكان الأرض فلابد أن يتغير جسده ويتكون من جديد حيث يموت أولًا ثم يتشكل جسده من جديد ثم يُصعد به إلى هناك بدون مركبة فضائية.

ـ فكذلك الجنة موجودة الآن، وسكانها الآن هم الحور العين، ومن يصل إليها هم المؤمنون، وفيها عالم آخر كامل من المعيشة في حياة الخلود، وفي الجنة الآن الحور العين وهن ينظرن إليك ويرونك الآن في الدنيا، ففي الحديث: ((لا تؤذي امرأة زوجها في الدنيا إلا قالت زوجته من الحور العين لا تؤذيه قاتلك الله فإنما هو عندك دخيل يوشك أن يفارقك إلينا))(١).

ـ فالجنة موجودة الآن فوق السماء السابعة وسقفها العرش، والرسول صلى الله عليه وسلم دخل الجنة حقيقة في رحلة المعراج، ففي الحديث: ((ثمَّ أُدْخِلْتُ الجنَّةَ فإذا فيها جنابذُ اللؤْلؤِ، وإذا تُرابُها المِسْكُ))(٢) والجَنابِذ: هي القباب.

ـ أثر اليقين الحقيقي بالجنة:

ـ الجنة هي حياة مليئة بالأفراح والورود وبكل ألوان السعادة والملذات والفتيات الجميلات والخمور والشهوات والقصور وكل ما تتخيله من ألوان المتع لدرجة أن ما فيها من متع يفوق كل ما يخطر على بالك، وهذا يؤدي إلى الشعور بالمهابة والتعجب الشديد والذهول من مدى ما في الجنة من متع ولذات عجيبة جدًا ومذهلة وتفوق كل التصورات والانبهار بها.

---

(١) تحقيق الألباني: صحيح (ابن ماجة: ٢٠١٤)
(٢) متفق عليه، أخرجه البخاري في الصحيح ١/ ٤٥٨ ـ ٤٥٩، كتاب الصلاة.

ـ تخيل لو أن رجلًا أخبرك بأنه على موعد مع فتاة جميلة ولكنها تسكن في مكان ما فوق السحاب، وأنه لن يصعد إليها بطائرة، ولكنه سوف يصعد إليها بعد أن يموت! لأنه سوف تحل الروح في جثته ثم يطير فوق السحاب ليلقاها! إنك سوف تقول: إن هذا هراء وأساطير وخرافات، فما بالك أن وجود الحور العين أمر أعجب من ذلك، فأنت فعلًا على موعد مع فتيات حسناوات جميلات في مكان آخر غير العالم الذي نعيش فيه، وسوف تلقاهن بعد أن تموت ويتحلل جسدك في التراب، ثم تحل فيك الروح وتذهب للقائهن إن كنت من أهل الإيمان، وهذا الأمر قريبًا جدًا، فما العمر في الدنيا إلا لحظات! فإذا لم يشعر الإنسان بالمهابة من هذا الأمر العجيب فكأنه لم يسمع عن شيء اسمه الجنة.

ـ تخيل مكانًا ما به كل ألوان المتع والملذات من نساء وخمور ورقص وطعام وشراب، فإن الجنة بها أعجب من كل ذلك، فلماذا لا تتحير من عجائب ما فيها ولماذا لا تشعر بحب الجنة وتشتاق للوصول إلى متعها؟ أين الرغبة الحقيقية والشوق إلى الجنة؟

ـ تخيل أن العلم قد توصل إلى طريقة تجعل الإنسان يعود من الشيخوخة إلى الشباب ولا يمرض ولا يموت، فسوف تجد الناس يتسابقون إلى ذلك ويدفعون في ذلك كل ما يملكون ولكان ذلك كل همهم وكل هدفهم وكل مشاعرهم، فالإنسان في الجنة يعود من الشيخوخة إلى الشباب ولا يمرض ولا يموت ويعيش في متع أبدية ولا يوجد ما يعكر مزاجه أو يشغل باله، ورغم ذلك لا تجد أي شعور أو رغبة أو انشغال الهم بهذا الإعجاز الهائل القريب جدًا؛ ذلك لأن الإنسان غير منتبه لخطورة الجنة وبالتالي لا يزال لا يعرف ما هي الجنة كأنه لم يسمع عنها.

ـ وفي الحديث: ((إن الرجل من أهل الجنة ليعطى قوة مائة رجل في الأكل والشرب والشهوة والجماع، حاجة أحدهم عرق يفيض من جلده فإذا بطنه قد ضمر))[١]، وفي حديث آخر: ((يعطى المؤمن في الجنة قوة مائة في النساء))[٢]، فالجماع في الجنة مائة ضعف الجماع في الدنيا

(١) تحقيق الألباني: صحيح (انظر حديث رقم: ١٦٢٧ في صحيح الجامع)
(٢) تحقيق الألباني: صحيح (انظر حديث رقم: ٨١٠٦ في صحيح الجامع)

وهو في ريعان الشباب (في سن ٣٣ سنة) ويستطيع الإنسان ذلك لأنه يعطى قوة مائة ففي حديث آخر: ((يعطى المؤمن في الجنة قوة كذا وكذا من الجماع قيل يا رسول الله أو يطيق ذلك قال يعطى قوة مائة))(١)، وفي حديث آخر: ((يُنَادِي مُنَادٍ: إِنَّ لَكُمْ أَنْ تَصِحُّوا فَلاَ تَسْقَمُوا أَبَداً وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَحْيُوا فَلاَ تَمُوتُوا أَبَداً وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَشِبُّوا فَلاَ تَهْرَمُوا أَبَداً وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَنْعَمُوا فَلاَ تَبْأَسُوا أَبَداً))(٢)، وفي حديث آخر: ((خَلَقَ الله آدَمَ على صُورَتِهِ وطُولُهُ سِتُّونَ ذِراعاً ... فَكُلُّ مَنْ يَدْخُلُ الجَنَّةَ على صُورَةِ آدَمَ فِي طُولِهِ سِتُّونَ ذِرَاعاً فَلَمَ تَزَل الخَلْقُ تَنْقُصُ بَعْدَهُ حَتَّى الآن))(٣)، فلماذا لا تشعر بالحب لأن تكون كذلك؟ إن الإنسان الذي يعيش للدنيا هدفه أن يأكل ويشرب ويتمتع بكل ألوان الراحة، وكذلك الإنسان الذي يعيش للآخرة يريد أن يأكل ويشرب ويتمتع بكل ألوان الراحة ولكن أي طعام وأي متعة؟ إنه يريد المتع الحقيقية التي لا تفنى والتي لا يحيطها مخاوف بالمرض أو الشيخوخة أو الموت أو سلب النعمة، إنه يريد المتع الدائمة والشباب الدائم وحياة لا يموت فيها ولا يمرض، وحياة بها الفاتنات الحسناوات من الحور العين.

- تأمل قوله تعالى: ((لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ))(٤)، فكل ما تتمنى يتحقق فورًا وتراه حقيقة وليس سحرًا، فقد ورد أن رجلًا من أهل الجنة اشتهى أن يزرع فبذر فنما الزرع سريعًا وكان كالجبال، ففي الحديث: ((إنّ رَجُلاً مِنْ أهْلِ الجَنَّةِ اسْتَأْذَنَ رَبَّهُ فِي الزَّرْعِ فقالَ لهُ: أَلَسْتَ فِيما شِئْتَ؟ قالَ: بَلَى ولَكِنْ أحِبُّ أنْ أزْرَعَ! فَبَذَرَ فَبادَرَ الطَّرْفَ نَباتُهُ واستِواؤُهُ واستِحْصادُهُ فَكانَ أمثالَ الجِبالِ فيَقولُ الله: دُونَكَ يَا ابنَ آدَمَ! فإنهُ لَا يُشْبِعُكَ شَيْءٌ))(٥).

- لو أن امرأة من نساء أهل الجنة نظرت من نافذة مثلًا وهي في الجنة إلى الأرض فإن نور جمالها سوف يضيء الدنيا، ورائحة العطر الذي

(١) تحقيق الألباني: حسن صحيح (المشكاة: ٥٦٣٦)
(٢) حكم الألباني: صحيح (انظر حديث رقم: ٨١٦٤ في صحيح الجامع)
(٣) حكم الألباني: صحيح (انظر حديث رقم: ٣٢٣٣ في صحيح الجامع)
(٤) ق: ٣٥
(٥) حكم الألباني: صحيح (انظر حديث رقم: ٢٠٨٠ في صحيح الجامع)

فيها سوف يملأ الدنيا عبقًا، والزينة التي تظهر على رأسها أجمل من كل الجمال الذي في الدنيا، ففي الحديث: ((وَلَوِ اطَّلَعَتِ امْرَأَةٌ مِنْ نِسَاءِ أَهْلِ الجَنَّةِ إِلَى الأَرْضِ لَمَلأَتْ مَا بَيْنَهُمَا رِيحاً وَلأَضَاءَتْ مَا بَيْنَهُمَا وَلَنَصِيفُهَا عَلَى رَأْسِهَا خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا))[١]، فأين الذين يبحثون عن الشهوات؟ فهذه هي الشهوات الحقيقية.

- تخيل أننا الآن في الجنة ونذكر أيام الدنيا وما كان فيها، فما قيمتها وما قدرها عندئذ؟ إنها كانت أيامًا قليلةً وحياةً ضئيلةً انتهت ولا قيمة لها، أما نحن الآن (في الجنة) فهذه هي حقًا الحياة نعيش فلا نموت ولا نمرض ونتمتع كيفما نشاء.

- انظر إلى مدى لذة النظر إلى الله تعالى التي هي أعظم من كل لذات الجنة، فهل من مشتاق إلى الجنة من أجل أن يستمتع بلذة النظر إلى وجه الله تعالى.

- إن شهوات الدنيا ضئيلة حتى وإذا حاول الإنسان أن يكثر منها فإن اللذة منها تقل عندئذ حتى تنتفي، كأن يكثر من الطعام أو الشراب أو الجماع أو ينظر إلى عورات النساء، بل يتعرض عندئذ للأمراض، كما أن المتع تقل مع كبر عمر الإنسان خاصة عندما يصل إلى الشيخوخة ويعود إلى الضعف مثلما كان طفلًا ضعيفًا، ولذلك يقول تعالى: ((وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلا يَعْقِلُونَ))[٢]، أما في الجنة فلا يحدث أن تقل اللذة مهما أكثر الإنسان من ألوان المتع: ((لا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلا يُنْزِفُونَ))[٣]، إن شهوات الدنيا كما أنها ضئيلة فليست سهلة المنال أيضًا ولابد من السعي والتعب، فالحصول على الدنيا ليس أمرًا سهلًا، فإن المتنافسين على الدنيا كثير وطلاب الدنيا كثير، وهم يتقاتلون ويتشاحنون عليها، ويتشبثون بها بأيديهم وأسنانهم، ومن يأتي بينهم ليتنافس على الدنيا لا يرقبون فيه إلًا ولا ذمة فيأكلوه، أما شهوات وطعام وفواكه الجنة ((لا مَقْطُوعَةٍ وَلا مَمْنُوعَةٍ))[٤]، وفي الحديث: ((فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ رَأَيْنَاكَ تَنَاوَلْتَ شَيْئًا

(١) حكم الألباني: صحيح (انظر حديث رقم: ٥١١٦ في صحيح الجامع)
(٢) يس: ٦٨
(٣) الواقعة: ١٩
(٤) الواقعة: ٣٣

فِي مَقَامِكَ هَذَا ثُمَّ رَأَيْنَاكَ تَكَعْكَعْتَ قَالَ: (إني رأيت الجنة ـ أو أُريتُ الجنة ـ فتناولت مِنْهَا عُنْقُودًا وَلَوْ أَخَذْتُهُ لَأَكَلْتُمْ مِنْهُ مَا بَقِيَتِ الدُّنْيَا))[١].

ـ الجنة هي أعجب من الخيال والسحر؛ لأنه كيف لإنسان أن يعيش بلا موت ولا مرض ولا شيخوخة وفي متع لا تحصى، فما بالك والجنة حقيقة وليست خيالًا، فهذا أمر عجيب ومدهش يؤثر على مشاعر الانسان وانفعالاته وتصرفاته ويجعله يترقب طوال عمره لهذا الكنز الحقيقي الذي هو أعظم من الكنوز التي تذكرها القصص والخيالات.

ـ كل ما يمكن أن تتخيله من المتع والشهوات من نساء فاتنة ساحرة وخمور وكل ألوان الطعام والشراب وكل ألوان المرح والترفيه فشهوات الجنة أكبر من ذلك، وكل شيء بمجرد أن تتمناه يتحقق لك كأنه سحر لكنه حقيقة، وكل هذا موجود الآن في الجنة: ((وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ))[٢]، ((وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ))[٣]، ((وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ))[٤]، ((لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ))[٥]، وفي الحديث القدسي: ((أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر))[٦].

ـ فما في الدنيا من طعام وشهوات ليس إلا مجرد اسم فقط: ((وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ))[٧]، وفي الحديث: ((ليس في الجنة شيء مما في الدنيا إلا الأسماء))[٨]، وفي الحديث: ((إن مَطعم ابن آدم قد ضرب مثلًا للدنيا وإن قزحه وملحه فانظر إلى ما يصير))[٩]،

---

(١) تعليق الشيخ الألباني: صحيح (صحيح أبي داود: ١٠٧٥)
(٢) الزخرف: ٧١
(٣) الأنبياء: ١٠٢
(٤) فصلت: ٣١
(٥) ق: ٣٥
(٦) حكم الألباني: صحيح (انظر حديث رقم: ٤٣٠٧ في صحيح الجامع)
(٧) البقرة: ٢٥
(٨) حكم الألباني: صحيح (انظر حديث رقم: ٥٤١٠ في صحيح الجامع)
(٩) حكم الألباني: حسن (انظر حديث رقم: ٢١٩٥ في صحيح الجامع)

وفي حديث آخر: ((والله ما الدنيا في الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم أصبعه هذه في اليم فلينظر بم يرجع))(١).

ـ الساحر يسحر لك أشياءً تدعو للدهشة والعجب فيحدث خوف من مهابة الأمر، أما شهوات الجنة فهي فوق مستوى الخيال وأعجب من السحر، فضلًا عن أنها حقيقة وليس سحرًا، فلماذا لا يحدث خوف من مهابة الأمر؟ ولماذا يحدث الحب والرجاء لشهوات الدنيا ونساءها في حين لا يحدث ذلك لشهوات الجنة التي هي أعظم بكثير؟؛ ذلك لأن الجنة غير موجودة في المشاعر، ففي المشاعر هي خيال أو وهم أو شيء مصنوع من البلاستيك لا معنى له، أو شيء بعيد الاحتمال تمامًا أو كلامًا نظريًا فقط كأساطير الأولين، رغم وجود الاقتناع التام واليقين التام بوجود الجنة.

ـ اليقين الحقيقي بضآلة قيمة المال أمام متع الجنة:

ـ المال هو أهم وسيلة للحصول على متع الدنيا، ومتع الدنيا بالمقارنة بمتع الجنة فهي تساوي صفر، وهذا معناه أن قيمة المال تساوي صفر، وكذلك بالمقارنة بين مدة التمتع بالدنيا امام الخلود في الجنة فمتع الدنيا تساوي صفر، أي أن قيمة المال تساوي صفر.

ـ قد يكون الانسان فقيرا لكن قلبه متعلق بالمال، وقد يحصل الانسان على المال من طريق حلال ولكن قلبه متعلق بالمال.

ـ إذن فالإنسان العاقل الذي يوقن بالجنة لا يتعلق أبدا بالمال، والتعلق بالمال معناه أن اليقين بالجنة كاذب، أما إذا كان الانسان أعمى القلب فهو يرى المال عظيما ويتعلق به.

ـ التعلق بالمال يشمل عناصر التعلق الأربعة كالتالي:

١ـ تأله المال: أي يراه عظيما.

٢ـ الهم الأكبر هو المال: فلا هم له غيره.

(١) حكم الألباني: صحيح (انظر حديث رقم: ٧١٠٠ في صحيح الجامع)

٣ـ تعلق المشاعر بالمال: فرحه وحزنه وغضبه وحبه وخوفه ورجاءه متعلق بالمال.

٤ـ تعلق الجوارح بالمال: فيبني أمور معيشته على أساس جلب المال ويستغرق أكثر وقته وجهده للحصول على المال ومعظم كلامه عن المال وردود افعاله تتعلق بالمال.

ـ أصعب شيء يمكن أن تطلبه من أحد في هذا الزمان هو أن يغير نظرته الى المال فبدلا من أن يراه عظيما يراه ضئيلا، فتغيير هذا الأمر أشبه بالمستحيل، وكذلك حبه الشديد للمال ورجاءه الشديد في الحصول عليه وندمه الشديد في ضياعه، وكذلك إذا طلبت منه ألا يكون المال هو الشاغل الأكبر لهمه، فالمال هو أهم اختبار للإنسان خاصة في هذا الزمان هل يجعل هدفه الذي يعيش له المال أم الجنة؟، ففي الحديث: ((لكل أمة فتنة وإن فتنة أمتي المال))[١].

ـ اليقين الكاذب بالجنة:

ـ قيمة الشيء تعرف بالمقارنة بغيرها، فمن عرف الآخرة والجنة والنار معرفة حقيقية رأى الدنيا حقيرة ولم يتعلق بها، وطالما أن الانسان لا يزال يتعلق بالمال والشهوات في الدنيا فهذا معناه أنه لا يزال لم يعرف الاخرة والجنة والنار معرفة حقيقية.

ـ إذن فمن لا يشعر بأي قدر من حب الجنة والشوق لها والتعجب (الشعور بالمهابة) من مدى ما فيها من ألوان النعيم هو في حقيقته يقول بمشاعره أن الجنة أساطير الأولين وحواديت الشاطر حسن! رغم اليقين التام بالجنة، فالحور العين بالنسبة له كأنهن نساء خيالية وليست نساء حقيقية فيها لذة أمتع من كل نساء العالم!، فلو كان يشعر بمدى جمالهن حقًا لعاش من أجل الوصول إليهن وزهد في نساء الطين!

ـ تخيل أن رجل يحب امرأة جميلة، ويشتاق إلى لقائها بماذا يشعر؟ فإن الحور العين أجمل من ذلك بكثير واللقاء بهن حق، فلماذا لا تشعر بالحب

(١) قال الشيخ الالباني: صحيح – السلسلة الصحيحة (٢٢١٦)

للحور العين؟ ولماذا لا تشتاق وتحلم بلقائهن؟ ولماذا لا تسبح بخيالك مع فتاة أحلامك من الحور العين فإن كل محبوب يفكر في محبوبه؟ أليست الحور العين حقيقة أم أنها مصنوعة من البلاستيك؟ وأليس الوصول إليهن قريبًا جدًا؟، وإذا كانت حور الطين يلهث وراءها الكثيرون ويعيشون من أجلها فما بالك بحور العين، إن عبارة (الحور العين) أي التي تتحير فيهن العيون وتندهش من شدة جمالهن.

ـ إن لكل إنسان مقعده من الجنة ومقعده من النار، فهل تشعر أن الحور العين الآن تشتاق إليك وتنتظرك إلى أن تلقاها، إن كلمة (الحور العين) هي كلمة موجودة وراسخة في الاقتناع لكن في المشاعر لا يوجد شيء اسمه الحور العين ولا يزال الإنسان لا يعرف شيئًا اسمه (الحور العين).

ـ تخيل لو علم الناس بوجود كنز كبير يمكن الوصول إليه، تصور كيف ستكون مشاعرهم متجهة بالشوق للوصول لهذا الكنز، وسوف يشغل ذلك الكنز بالهم وأكثر همهم، فالجنة كنز حقيقي هائل لا ينفد، فلماذا لا تتجه إليه المشاعر والتطلعات مثلما تتجه لكنز من كنوز الدنيا؟ ذلك لأن ذلك الكنز الحقيقي (الجنة) في مشاعر البعض إنما هو كلام نظري فقط كأساطير الأولين!!

ـ ولابد من وجود حقيقي للمشاعر وليس التوهم بوجودها، ويتضح ذلك من خلال وجود الحالة النفسية المميزة للحب والشوق والرغبة في الجنة.

ـ إذا سمع الإنسان عن وجود كنز وتأكد من وجوده في مكان ما، فإنه يسعى ويلهث وراءه ويحلم بأن يجد فيه الذهب والياقوت والمرجان ويكون ذلك هدفه، ولكن إذا سمع عن وجود الجنة التي هي كنز هائل به الذهب والياقوت والمرجان فلا تجده يلهث وراءه ولا يشتاق إليه ولا ينشغل به همه ولا يتخيله ولا يحلم به، ذلك لأنه لا يزال لا يعرف الجنة.

****

ـ المعرفة الحقيقية بخطورة الحياة داخل النار

ـ إذا وضع الانسان داخل النار فسوف يموت في لحظات، لكن إذا منعه الله من الموت فسوف يعيش حيا داخل النار خالدا فيها ليذوق آلام الموت

طوال حياته الخالدة من غير أن يموت، فما أقسى وما أشد وما أفظع هذا العذاب، فلا يمكن لعاقل أبدًا يوقن بالنار أن ينسى النار، ذلك المصير المرعب الذي يخشاه كل عاقل، فالعاقل يكون دائم التفكير في ذلك الخطر الهائل وكيفية تفاديه.

ـ إن الغرض الأصلي من وجود النار في الدنيا هو أنها تذكِرة لنار الآخرة: ((نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِلْمُقْوِينَ))(١)، ولو كانت نار الآخرة مثل نار الدنيا لكفت، ففي الحديث: ((ناركم هذه التي توقد بنو آدم جزء من سبعين جزءا من نار جهنم قيل: يا رسول الله! إن كانت لكافية؟ قال: فإنها فضلت عليها بتسعة وستين جزءا كلهن مثل حرها))(٢).

ـ لو كانت الشمس هي نار الآخرة لكانت كافية، فيمكن أن نتخيل أن الشمس هي نار الآخرة، فإذا رأينا مدى حجمها وشدة نارها بحيث أنها يمكن أن تبتلع الأرض ومن عليها ولا يمثل ذلك سوى واحد على مليون من حجمها، وشدة نارها تصل إلى ملايين الدرجات المئوية، وحر الصيف الذي نعيشه هو مجرد اقتراب بسيط جدًا من الشمس فنحن على مسافة هائلة منها، فالشمس عبارة عن كتلة هائلة من النار معلقة في الفضاء ونحن على الكرة الأرضية ندور حول هذه الشمس في دورة كل عام، فإذا ما تصورنا حجم هذه النار ووجودها وأننا ندور حولها وأثرها الواصل إلينا فيمكننا أن نتصور مدى خطورة نار الآخرة الأكثر شدة والتهابًا.

ـ وحيث أن وجود هذه الشمس التي هي نار معلقة في الفضاء بهذه الشدة والالتهاب وحيث أنها ما زالت موقدة ولم تنطفئ على مدى ملايين السنين من قبل خلق البشر أساسًا، فما بالك إذن بنار الآخرة؟!

ـ وجميع النجوم مثل الشمس عبارة عن نار هائلة معلقة في الفضاء، ومنها ما هو أضخم من الشمس ملايين المرات، وهذه النجوم ما هي إلا زينة للسماء فانظر إلى مدى قدرة الله تعالى.

---

(١) الواقعة: ٧٣

(٢) حكم الألباني: صحيح (انظر حديث رقم: ٦٧٤٢ في صحيح الجامع)

ـ ونار الآخرة موجودة الآن وبالطبع هي أضخم من كل هذه النجوم.

ـ الشعور بمدى عذاب وألم النار:

ـ إذا ذهبت إلى قسم الحرائق بأحد المستشفيات ونظرت كيف تفعل النار في الجسم، بماذا تشعر؟، وهذا بعد أن حدث الحريق فما بالك لو رأيت حادثة ما فيها أحدًا يحترق، وما بالك إذا كنت أنت المصاب في هذه الحادثة؟، إن أهل النار يسمع لجلودهم أزيزًا من الاحتراق مثلما توضع الدجاجة في النار لتُشوَى، فما بالك لو أنك أنت في مكان هذه الدجاجة!

ـ فإذا لم يتحقق عندك الشعور بالخوف من مهابة النار والخوف من الوقوع فيها فإن النار في مشاعرك لا تنفع ولا تضر مثل النار التي وضع فيها سيدنا إبراهيم عليه السلام، فإن نار الآخرة في الاقتناع عذابها شديد، أما نار الآخرة في مشاعر البعض فإنها نار لا تحرق قد سلبت منها خاصية الإحراق، فنار الآخرة لا وجود لها في مشاعر البعض.

ـ وفي الحديث: ((لَوْ كان في هذا المسجدِ مِائَةُ [أَلْفٍ] أوْ يزيدُونَ، وفيهِ رجلٌ من أهلِ النارِ فَتَنَفَّسَ فأصابَهُمْ نَفَسُهُ، لاحْتَرَقَ المسجدُ ومَنْ فيهِ))(١)، وفي الحديث: ((إنَّ في النارِ حَيّاتٌ أَمْثالُ أَعْناقِ البُخْتِ؛ يَلْسَعْنَ اللَّسْعَةَ؛ فَيَجِدُ حَمْوَتَها أربعينَ خَرِيفًا. وإنَّ فيها لَعَقارِبَ كالبِغالِ المُوكَفَةِ؛ يَلْسَعْنَ اللَّسْعَةَ، فَيَجِدُ حَمْوَتَها أربعينَ خَرِيفًا))(٢)، وفي الحديث: ((لَوْ أَنَّ قَطْرَةً مِنَ الزَّقُّومِ قَطَرَتْ فِي دَارِ الدُّنْيَا لأَفْسَدَتْ عَلَى أَهْلِ الدُّنْيَا مَعَايِشَهُمْ فَكَيْفَ بِمَنْ تَكُونُ طَعَامَهُ؟)) (٣).

ـ إن نار الآخرة أمر أبعد من كل تصوراتنا وخطر من أشد ما يمكن، وإذا وضعت مقارنة بين نار الآخرة وكل مخاوف الدنيا وآلامها فإنها لا تساوي شيئًا، وفي الحديث: ((يُؤْتَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِأَنْعَمِ أَهْلِ الدُّنْيَا مِنَ الْكُفَّارِ، فَيُقَالُ: اغْمِسُوهُ في النَّارِ غَمْسَةً، فَيُغْمَسُ فِيهَا، ثُمَّ يُقَالُ لَهُ: أي فُلان هَلْ أَصَابَكَ نَعِيمٌ قَطُّ؟ فَيَقُولُ: لاَ مَا أَصَابَنِي نَعِيمٌ قَطُّ، وَيُؤْتَى بِأَشَدِّ الْمُؤْمِنِينَ

(١) السلسلة الصحيحة (٢٥٠٩)
(٢) السلسلة الصحيحة (٣٤٢٩)
(٣) حكم الألباني: صحيح (انظر حديث رقم: ٥٢٥٠ في صحيح الجامع)

ضرًا وَبَلاَءً، فَيُقَالُ: اغْمِسُوهُ غَمْسَةً في الْجَنَّةِ، فَيُغْمَسُ فِيهَا غَمْسَةً، فَيُقَالُ لَهُ: أي فُلان هَلْ أَصَابَكَ ضُرٌّ قَطُّ أو بَلاَءٌ؟ فَيَقُولُ: مَا أَصَابَنِي قَطُّ ضُرٌّ وَلاَ بَلاَءٌ))(١).

ـ فلا ألم في ألم بعده الجنة، ولا راحة في راحة بعدها النار، لذلك فالعاقل يستوي عنده ألم الدنيا مع نعيمها، فكلاهما لعب ولهو، فقارن بين مخاوف الدنيا الفانية وبين الشقاء إلى الأبد فتعيش في عذاب بلا حدود وإلى الأبد، فإن كل آلام الدنيا وهمومها وأحزانها ومشاكلها ليست بشيء أمام آلام النار، وفي الحديث: ((لو أن رجلًا يجر على وجهه من يوم ولد إلى يوم يموت هرمًا في مرضاة الله تعالى لحقره يوم القيامة))(٢).

ـ إن كل آلام الدنيا ومشاكلها وهمومها ليست بشيء أمام ألم النار يوم القيامة، فمن كان يشعر بألم الكراهية والضيق لآلام الدنيا ومشاكلها وهمومها وخطورتها ولا يشعر بألم الكراهية والضيق والاشمئزاز لآلام النار في الآخرة (الشعور بالمهابة من شدة النار وخوف الوقوع فيها) فذلك لأن النار في مشاعره خيال وأساطير الأولين!

ـ الخوف والرجاء من فزع هول القيامة:

ـ الناس يوم القيامة يكونون في خوف شديد ورعب وفزع من هول ما يرونه من الاهوال.

ـ الله سبحانه يجعل المؤمن الذي عبد الله تعالى يكون غير خائف وغير فزع من هذه الاهوال، فمن ضمن الأسباب التي تدفع الانسان على عبادة الله تعالى هي أن يأمن من هول يوم القيامة: ((مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ))(٣).

---

(١) تحقيق الألباني: صحيح (الصحيحة: ١١٦٧)
(٢) رواه أحمد (٤/ ١٨٥) وقال الألباني: صحيح (الصحيحة: ٤٤٦)
(٣) النمل: ٨٩

الفصل الأخير
اليقين الكاذب بضعف الانسان وقوة الخالق

ـ النعم عبارة عن أمران هما صفات في الانسان كالقدرة على السمع والقدرة على الرؤية ونعم الدنيا كالماء والهواء، فإذا قارنا بين النعم التي هي قدرات في الانسان وبين قدرات الخالق فهي لا شيء، وإذا قارنا بين نعم الدنيا ونعم الجنة فهي لا شيء.

ـ فالإنسان ضعيف لأن الأصل أنه لا يملك سمعا وأعطاه الله سمعا، كما أنه لو افترضنا جدلا أنه يملك سمعه فهو لا شيء أما سمع الله تعالى، وهكذا في باقي الصفات، وأيضا فالإنسان ضعيف لأن الأصل أنه لا يملك شيئا من نعم الدنيا، كما أنه لو افترضنا جدلا أنه يملك هذه النعم فهي لا شيء أما نعم الجنة.

ـ فمعنى أن الانسان يتعلق بالنعم هو أنه يتعامل مع النعم على أنه مالكها لتدل على قوته بدلا من أن تدل على قوة الله تعالى.

ـ النعم تدل على قوة الخالق وضعف الانسان:

ـ إذا لم يكن هناك خالق فالإنسان قوي بما يمتلكه من قدرات وما عنده من ممتلكات وقدرته على التحكم فيما حوله وأنه لا يقدر عليه أحد.

ـ وجود الخالق جعل الانسان ضعيف لأنه بمقارنة قوة الانسان الى قوة الخالق فلا شيء كما ان الانسان نفسه وما عنده من قدرات هو من صناعة الخالق وملكا له.

ـ الانسان الذي يريد أن يكون قوي ماذا يصنع؟ يتجاهل الخالق ويعيش كأنه لا خالق وهذا من الغباء لأنه لن يغير من حقيقة الامر شيئا.

ـ الانسان يوقن بأن ما عنده عين واذن وصحة وماء وهواء وممتلكات هو نعم من الله لكنه يتجاهل ذلك ويتعامل مع ما عنده على انه ملكا له،

فبدلا من أن تكون النعم دليل على عظمة الله جعلها دليل على عظمة نفسه

ـ فمثلا عين الانسان وما بها من اعجاز ليست صفة مدح للإنسان بل هي صفة مدح لمن خلقها ولصاحبها، ولكن الانسان يتعامل مع هذه النعمة على انها ملكا له وعلى انها ليس عطاء من الله له وبالتالي يجعلها صفة مدح له فيغتر بنفسه، وهكذا في باقي النعم.

ـ فعظمة النعم تدل على عظمة صاحبها، لكن الانسان يتعامل مع النعم على أنه هو صاحبها وليس الله.

ـ وكذلك فالقدرة على سلب النعم تدل على عظمة قدرة الله تعالى وذلك بالابتلاءات وبالموت، لكن الانسان يتجاهل ذلك حتى لا يشعر بضعفه.

ـ الانسان يتعامل مع النعم على أنه مالكها لتدل على قوته بدلا من أن تدل على قوة الله تعالى:

ـ كل الأشياء مسخرة ومفيدة للإنسان، فكل شيء نِعم للإنسان، فالإرادة نِعمة، والعقل نِعمة، والروح التي يحيا بها نِعمة، والعين نِعمة، واللسان نِعمة، والماء نِعمة، والهواء نِعمة، والمال والزوجة والأولاد نِعمة، والبترول في باطن الأرض نِعمة، وكل شيء هو نعم من الله سبحانه.

ـ فمن عرف حقيقة النِعمة فإنه يتعامل مع النِعم على أنها ملك لله وأنها رزق للإنسان مقدر لا دخل للإنسان فيه ولا يزيد أو ينقص بسعيه أو عدم سعيه، وأنها هدية عظيمة أهديت له فيفرح بها فرحًا عظيمًا ويحب من أعطاها له، أما الغافل فإنه يتعامل مع النعم على أنه مالكها وهو الذي أتى بها بكده وسعيه، أو أنها موجودة من تلقاء نفسها، أو أن غيره من البشر هو الذي أوجدها وأعطاها له، أو أن الزمان أو الدنيا أو الأسباب هي التي أوجدتها، ويتعامل مع النعم على أنها تزيد وتنقص حسب سعي الإنسان رغم وجود اليقين التام بأن النعم ملك لله وأن الله هو الذي يعطي النعم ويسلبها بما يشاء، وأنه النافع الضار وغيره لا ينفع ولا يضر، وأن الرزق مضمون ومقدر!.

ـ كل الناس يعترفون بأن كل شيء هو نعم من الله تعالى عليهم، ولكنهم يتعاملون مع النعم على عكس ذلك تمامًا كأنهم هم الذين أوجدوها لأنفسهم ولم تأتهم من الله وكأنها ملكًا لهم وليست ملكًا لله تعالى، فعندما ينعم الله على الانسان بنعمة تجد أن الانسان يعتبر أنه حصل عليها بسعيه وكده فيقول: (إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ)، فيقول تعالى: ((فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ))[١]، وكذلك قال قارون: ((قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي))[٢]، وفي تفسير البحر المحيط: (({وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي}[٣] {لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي} أَيْ بِسَعْيِي وَاجْتِهَادِي، وَلَا يَرَاهَا أَنَّهَا مِنَ اللَّهِ))[٤].

ـ وبدلًا من أن تكون النِعم سببًا لمعرفة قدرة الله وقوته وإنعامه اغتر بها الإنسان كأنها ملك له وكأنه أوجدها لنفسه واعتبرها قوة له، لذلك لا يريد أن يستسلم، لذلك عند الموت لا يريد أن يترك النعم كالمال والمسكن والزوجة والأولاد والجاه والسلطان أو نعم كالعين والأنف والصحة... إلخ، كأنها ملكًا له ولا يحق لأحد أن يأخذها منه وإلا كان ظالمًا فعند الموت تخرج روحه بصعوبة لتعلقها بهذه النعم، ويكره مَنْ يقبض روحه لأنه لا يشعر بأنها أمانة أو عارية يستردها صاحبها (وهو الله سبحانه)، ولا يشعر أنه هو نفسه ملك لله تعالى، ولذلك علمنا الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن نقول إذا توفي أحد: ((لله ما أخذ وما أعطى وكل شيء عنده إلى أجل))[٥].

ـ ما عند الانسان من مال وأولاد وممتلكات هي ملكا له على سبيل المجاز، وكذلك ما عنده من عقود تمليك لعقارات وغير ذلك هو ملكية مجازية للتعامل فيما بيننا، وكذلك ما يملكه الانسان من سمع وبصر وعقل ملكا للإنسان مجازا، أما المالك الحقيقي لكل شيء هو الله سبحانه،

---

(١) الزمر: ٤٩
(٢) القصص: ٧٨
(٣) فصلت: ٥٠
(٤) البحر المحيط في التفسير (٩/ ٣١٦)
(٥) تحقيق الألباني: صحيح (الأحكام: ١٦٣ ـ ١٦٤)

ولكن الانسان يتعامل مع ما عنده من هذه الأمور وغيرها على أنها ملكا له على سبيل الحقيقة وليس على سبيل المجاز، لذلك يتعلق بها ويغتر بها.

ـ النعم دليل على قدرة الخالق لأن الانسان لا يستطيع إيجادها وعلمه قاصر على إتقانها بدقة معجزة تلبي احتياج الانسان، ولكن الانسان يتغافل عن ذلك ويتعامل مع النعم على أنها قوة له وأنه هو الذي أوجدها لنفسه.

ـ فهناك طريقتين للتعامل مع النعم هما التعامل مع النعم باعتبارها إنعام من الله وتدل على عظمة الخالق وعجز الانسان وهذا هو التعامل الصحيح، والتعامل مع النعم على أنها ملكا للإنسان وكأنه هو الذي أوجدها لنفسه ولم يعطها أحد له، فيراها قوة له فيغتر بنفسه.

ـ وفي هذه الحالة المذموم ليس النعم ولكن المذموم هو الاغترار بها، فالنعم كالصحة والنظر والمال والأولاد والتكنولوجيا في حد ذاتها ليست مشكلة بل هي فضل من الله نرجو منه الاستزادة، ولكن المشكلة هي هل الانسان مغرور بها ويتعامل معها كأنه يمتلكها ويعتبرها مصدر قوة له وبالتالي لا يخضع باعتبار أنه قوي أم لا؟

ـ قدرة الانسان على صنع المعجزات وصنع الحياة المدنية الحديثة من خلال العلم المادي هائلة جدا لكنها لا شيء أمام قدرة الله تعالى، فمن أغمض عينيه عن قدرة الله اغتر بقدرة الانسان ورأي أن الانسان قوي وبالتالي لا يعيش معيشة الخضوع وهو في القرن الحادي والعشرين، ففي تفسير مفاتيح الغيب: (({أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٨٢) فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ}(١) ... يجوز أن يكون المراد علمهم بأمور الدنيا ومعرفتهم بتدبيرها كما قال تعالى: يَعْلَمُونَ ظاهِراً مِنَ الْحَياةِ الدُّنْيا وَهُمْ

(١) غافر: ٨٢، ٨٣

عَنِ الآخرة هُمْ غافِلُونَ(١)، ذلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ(٢)، فلما جاءهم الرسل بعلوم الديانات وهي معرفة الله تعالى ومعرفة المعاد وتطهير النفس عن الرذائل لم يلتفتوا إليها واستهزؤا بها، واعتقدوا أنه لا علم أنفع وأجلب للفوائد من علمهم ففرحوا به)) (٣)، وفي التفسير القرآني للقرآن: ((قوله تعالى: «ذلِكُمْ بِما كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِما كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ» أي ذلكم الذي أنتم فيه من بلاء وعذاب في الآخرة، هو بسبب ما كنتم عليه في الدنيا من غرور بما ملكتم فيها، وزهو وعجب بما بين أيديكم من زخرفها ومتاعها، فصرفكم ذلك عن أن تنظروا إلى ما وراء يومكم الذي أنتم فيه، فقطعتم حياتكم في فرح ومرح، ولهو وعبث))(٤)، أي فرح غرور بالدنيا كأنهم هم الذين جلبوا متع الدنيا لأنفسهم فهي ملكهم وهم أقوياء بذلك فاستكبروا عن الخضوع لله القوي.

ـ فبدلا من أن تكون نعم الله سببا لمعرفة الله وشكره ومحبته جعلها بعض الناس سببا لرفض دعوة الرسل لأنهم اغتروا بهذه النعم وحسبوا أنهم أقوياء بها ولم يعتبروها نعم من الله ولكن اعتبروا أنهم مالكوها وصانعوها وأنهم أقوياء بها فرفضوا الخضوع فأهلكهم الله وأهلك النعم التي اغتروا بها، فقوم عاد كان عندهم من صور القوة والمدنية الكثير: ((فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ))(٥)، ((أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ (١٢٨) وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ))(٦)، فكان مصيرهم: ((وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ، سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُوماً فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كأنهم أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ))(٧)، وهذا هو مصير الذين يغترون بأنفسهم ويدعون القوة بما عندهم من النعم: ((أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا

---

(١) الروم : ٧
(٢) النجم : ٣٠
(٣) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (٢٧/ ٥٣٥)
(٤) التفسير القرآني للقرآن (١٢/ ١٢٦٩)
(٥) فصلت: ١٥
(٦) الشعراء: ١٢٨، ١٢٩
(٧) الحاقة: ٧

كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ))(١)، ((أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَاراً وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْناً آخَرِينَ))(٢)، ((وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثاً وَرِئْياً))(٣)، ((وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعاً وَأَبْصَاراً وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلا أَبْصَارُهُمْ وَلا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ))(٤).

ـ التعلق بأسباب الرزق يدل على أن الانسان يتعامل مع النعم على أنها ليست من الله وبالتالي فهي قوة له:

ـ كل انسان يعلم أن الرزق مضمون وفي الحديث: ((أيها الناس اتقوا الله وأجملوا في الطلب فإن نفسا لن تموت حتى تستوفي رزقها وإن أبطأ عنها فاتقوا الله وأجملوا في الطلب خذوا ما حل ودعوا ما حرم))(٥).

ـ ولكنه يتعلق بأسباب الرزق، فتكون عناصر التعلق الأربعة مرتبطة بالرزق أي أنه يتأله أسباب الرزق (ينظر إليها نظرة تعظيم فيعتبرها أهم شيء في حياته) وتتعلق بها مشاعره فتكون محبوبه الأعظم ورجاءه وخوفه الأكبر، وتكون همه الأكبر الدائم الذي لا يفارق ذهنه، وسلوكه وتصرفاته وانفعالاته وعمله وأكثر وقته دائما منشغل بتحصيل لقمة العيش وتوفير متطلبات المعيشة، من طعام وشراب وأن يعيش بصحة ويجد مكان آمن يعيش فيه والانفاق على أسرته وغير ذلك مما يريده من أمر الدنيا للمعيشة، وهو بذلك يجعل هدفه الذي يعيش له هو التغلب على أعباء الحياة ومشاكلها اليومية والتغلب على ما عنده من مشاكل وصراعات دنيوية والخروج من الفقر أو نقص المال وغير ذلك، فيجعل

---

(١) الروم: ٩
(٢) الانعام: ٦
(٣) مريم: ٧٤
(٤) الاحقاف: ٢٦
(٥) تحقيق الألباني (صحيح) انظر حديث رقم: ٢٧٤٢ في صحيح الجامع.

قضيته في الحياة توفير لقمة العيش كأن الله خلقه لذلك: ((وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (٥٦) مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ (٥٧) إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ))[١].

ـ وإذا وضعت مقارنه بين نظرته لأسباب الرزق وتأثر مشاعره وهمه وجوارحه به وبين نظرته لخطورة الاخرة ولقاء الله وتأثر مشاعره وهمه وجوارحه بذلك تجد الفارق بينهما كالفارق بين السماء والأرض.

ـ ولاحظ أن هناك فرق بين التعلق بأسباب الرزق والاخذ بأسباب الرزق، فالأخذ بأسباب الرزق معناه أنه يمشي بجوارحه في طلب الرزق وليس يلهث وراءه ليلا ونهارا، فلا ينظر إليه نظرة تعظيم ولا ينشغل همه به ولا تتأثر مشاعره به ولا تتعلق جوارحه به فلا يكون ذلك هدفه من حياته وإنما أخذه بالأسباب هو لمجرد أنه مطالب بذلك.

ـ والتعلق بأسباب الرزق معناه أن الانسان يقول بلسان حاله أن الله ليس هو الرزاق وإنما يأتي الرزق من سعي الانسان وبأن الرزق ليس له مقدار ثابت وإنما مقداره بحسب سعي الانسان.

ـ التعلق بالمال والنعم يكشف حقيقة اليقين بضعف الانسان وبأن النعم من الله تعالى:

ـ الانسان ضعيف لأنه لا يملك النعم (المال والصحة والهواء)، والله قوي لأنه يملك النعم وهي لا شيء فيما عند الله تعالى.

ـ الانسان لا يفتخر ويفرح بالمال الموجود عند أحد غيره لأنه ليس ماله وبالتالي لا يتعلق به.

ـ كما أننا لو افترضنا أن الإنسان يملك هذه النعم فلا يكون قويا بها لأن هذه النعم بالمقارنة بما عند الله وبما في الجنة فهي لا شيء فهو لا يزال ضعيف حتى لو كان يمتلكها وبالتالي لا يتعلق بها وانما يتعلق بالقوي الذي عنده ما هو أعظم بكثير، ففي الحديث القدسي عَنِ اللهِ تَبارَكَ وَتَعالى أنَّهُ قالَ: ((يا عِبادِي، لو أنَّ أوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وإنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ، قامُوا في

(١) الذاريات: ٥٦ ـ ٥٨

صَعِيدٍ واحِدٍ فَسَأَلُونِي، فأعْطَيْتُ كُلَّ إنْسانٍ مَسْأَلَتَهُ؛ ما نَقَصَ ذلكَ ممّا عِندِي إلّا كما يَنْقُصُ المِخْيَطُ إذا أُدْخِلَ البَحْرَ))[١].

ـ فالنعم عبارة عن أمران هما صفات في الانسان كالقدرة على السمع والقدرة على الرؤية ونعم الدنيا كالماء والهواء، فإذا قارنا بين النعم التي هي قدرات في الانسان وبين قدرات الخالق فهي لا شيء، وإذا قارنا بين نعم الدنيا ونعم الجنة فهي لا شيء.

ـ فالإنسان ضعيف لأن الأصل أنه لا يملك سمعا وأعطاه الله سمعا، كما أنه لو افترضنا جدلا أنه يملك سمعه فهو لا شيء أما سمع الله تعالى، وهكذا في باقي الصفات، وأيضا فالإنسان ضعيف لأن الأصل أنه لا يملك شيئا من نعم الدنيا، كما أنه لو افترضنا جدلا أنه يملك هذه النعم فهي لا شيء أما نعم الجنة.

ـ فمعنى أن الانسان يتعلق بالمال والنعم هو أنه يتعامل معها كأنها ملكه ويتعامل معها كأنه لا يوجد من عنده أعظم منها، أي كأنه لا خالق ولا آخرة.

ـ التعلق بالمال والنعم معناه أن يقين الانسان بأنه ضعيف وبأن الله هو القوي هو يقين كاذب، ومعناه أن اليقين بأن الله صاحب النعم وأنها نعم من الله كاذب.

ـ ولو قارنت بين تعلق الانسان بالمال وتعلقه بالله تعالى تجد أن تعلقه بالمال وليس بالله، فنظرته للمال عظيمة في حين لا ينظر الى الله نظرة تعظيم ولا يحب غير المال ولا يرجو سواه ولا يخاف إلا عليه ولا يفرح ولا يحزن ولا يغضب إلا به، ويلهث وراء جمع المال وكل تصرفاته وسلوكه تدل على أنه لا يعمل إلا له.

****

(١) صحيح مسلم (٢٥٧٧)

ـ اليقين الحقيقي بمدى قدرة الخالق سبحانه:

ـ القدرة على خلق السماوات بما فيها من مجرات لا حصر لها هي قدرة خارقة وهائلة جدًا يقف الإنسان أمامها عاجزًا متحيرًا: ((فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ (٣) ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ))[١].

ـ فإذا حدث انبهار وتعجب ودهشة من مدى خطورة الأمر والشعور بالمهابة فعندئذ قد عرف الإنسان قدرة الله معرفة حقيقية.

ـ الساحر يستطيع أن يصنع أي شيء ولكن في الخيال وليس في الحقيقة، فهو يسحر أعين الناس، أما الخالق فيستطيع أن يصنع أي شيء في الحقيقة وليس في الخيال، فقدرة الله أعظم من السحر، فيصنع أي شيء بدون أسباب أو يحول شيء إلى شيء آخر مختلف تمامًا بدون أي أسباب وبمجرد قوله كن فيكون، فهذه قدرة هائلة لا يستطيعها أي بشر.

ـ فالساحر يستطيع أن يخرج لك ناقة من الصخرة ولكن غير حقيقية، والله أخرج ناقة صالح من الصخرة وهي حقيقية حتى أنهم كانوا يشربون لبنها وذبحوها بأيديهم وأكلوها.

ـ وسحرة فرعون صنعوا ثعابين من الحبال ولكنها خيالية، والله صنع ثعبانًا من الحبل ولكنه حقيقي.

ـ فإذا كان السحر أمرًا عجيبًا ويورث في النفس الدهشة والانبهار والإعجاب فالقدرة الحقيقية أعجب من السحر فلماذا لا يحدث في النفس الدهشة والإعجاب بقدرة الله تعالى؟؛ ذلك لأن اليقين الحقيقي بقدرة الله غير موجود.

ـ تصور مدى الفارق الهائل بين قدرة الإنسان وقدرة الخالق:

ـ لو كانت قدرة الخالق أكبر من قدرة الإنسان مرتين أو ثلاثة مثلًا فربما ذلك لا يثير الانتباه كثيرًا، وإذا كانت قدرة الخالق أكبر من قدرة الإنسان ألف مرة، فذلك يجعل العاقل يتصور في ذهنه مدى هذه القدرة الهائلة

(١) الملك: ٣ ، ٤

ويشعر بالتعجب والانبهار والدهشة من هذه القدرة العجيبة، ويستمر انشغال ذهنه بهذا الأمر العجيب.

ـ ولكن قدرة الخالق أكبر من قدرة الإنسان إلى ما لا نهاية، فإذا لم يشعر الإنسان بالتحير والتعجب من مدى هذه القدرة وإذا لم ينشغل باله بهذا الأمر العجيب ويستمر هذا الشعور بالتعظيم والتحير من مدى هذه القدرة فهذا معناه أن الإنسان لا يعقل.

ـ اليقين الحقيقي بعظمة صفات الله تعالى:

ـ لا يكفي أن يتصور الإنسان صفات الله، وإنما لابد أن يتصور مدى مقدار وعظمة هذه الصفات، فهي صفات خارقة فوق كل التصورات، فالله هو الخالق ولكنه لم يخلق واحدًا من البشر أو شيئًا واحدًا ولكن قدرته على الخلق هائلة فهو خلق كل هذه البشرية التي لا تعد ولا تحصى، وكل هذا الكون الهائل جدًا، والله هو العليم ولكن علمه ليس لما يحدث مع إنسان واحد أو اثنان ولكن علمه مع كل البشرية وكل الذرات والجزيئات وكل ساكن وكل متحرك وفي نفس الوقت، والله يرى كل شيء والحواجز لا تمنعه من رؤية أي شيء حتى ما يكون في الظلام ويرى ما يحدث داخل الذرة، وكذلك يسمع كل من يتكلم وكل ما يصدر عنه صوت حتى ولو كان دبيب نملة على الأرض وكل ذلك في آن واحد، والله يستطيع أن يلغي الزمان والمكان ويلغي قوانين الأسباب ويفعل كل ما يريد في أقل من لحظة، وهكذا.

ـ فصفات الله سبحانه ليست مجرد صفات موجودة ولكنها تصل إلى حد الكمال من العظمة بحيث تجعلك تتحير وتندهش وتتعجب وتعجب وتنبهر وتذهل من مدى عظمة الخالق وقدرته سبحانه، وهذا هو معنى كلمة (إله) في اللغة، ففي تاج العروس: ((أَلِهَ يَأْلَهُ إذا تَحَيَّرَ، يُريدُ إذا وَقَعَ العَبْدُ في عَظَمَةِ اللَّهِ وجَلالِهِ وغيرِ ذلِكَ مِن صفَاتِ الرُّبُوبيَّةِ وصَرَفَ توهّمُه إليها، أَبْغَضَ الناسَ حتى ما يميلَ قلْبُه إلى أَحَدٍ))[1].

---

(١) تاج العروس من جواهر القاموس ـ دار الهداية (٣٦ / ٣٢٢)

ـ القدرات الهائلة للخالق هي معجزات فوق الأسباب، كقدرة الله على أن يسمع كل شيء ويرى كل شيء ولا ينسى شيئًا مما يفعله العباد من صغيرة أو كبيرة منذ بدأ الخلق إلى قيام الساعة.

ـ عدم وجود التأله والتأثر بقدرة الخالق معناه أن الإنسان لا يزال لا يعرف من هو الخالق وكأنه لم يسمع عنه.

ـ توحيد الصفات:

ـ الناس كلهم ضعفاء لأن ما عندهم من قوة إنما هو عطاء من الله لهم، فالقوة ليست نابعة من أنفسهم ولا هم أوجدوها لأنفسهم، والضعف صفة ذم، والقوة صفة مدح.

ـ الناس كلهم فقراء لأن ما عندهم من مال هو مال الله، والفقر صفة ذم والغنى صفة مدح.

ـ صفات الضعف والنقص كلها عند الانسان، فالأصل أن الانسان أعمى لا يرى وما عنده من عين إنما هي ملك لله وليست ملكا له وليس هو الذي أوجدها لنفسه وإنما هي أمانة يستردها الله منه، وهكذا في كل النعم، بل إننا إذا أخذنا جميع النعم من الانسان أصبح لا شيء.

ـ فالخالق سبحانه له جميع الصفات الحميدة، ولا يقتصر الأمر على ذلك فهذه الصفات تصل إلى درجة الكمال وفوق كل تصورات الإنسان، وما عند الناس من الصفات الحميدة هو مجرد عطاء من الله لهم وليست صفات أصيلة فيهم، فالله وحده الغني والناس الفقراء، والله وحده العليم والناس لا يعلمون شيئًا، وهكذا.

ـ صفات القوة عند الإنسان والتي تتمثل في قوة جسمية وجاه وسلطان ومال وممتلكات ونعم يتمتع بها، كل هذه الصفات ليست قوة له وهو ضعيف؛ لأنه لا يملك شيئًا منها وما هي إلا نعم من الله عليه، والله هو الذي يملك كل شيء، فجميع الناس ضعفاء وليس فيهم قوى، فلا قوي

بحق إلا الله وكل ما سوى الله ضعيف: ((وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا))(١).

ـ فكل ما سوى الله فيه كل صفات النقص والعجز والضعف وما عند الانسان من صفات حميدة إنما هي مجرد عطاء من الله وليست أصيلة فيه وبالتالي ليست مدحًا له وإنما مدحًا لمن أعطاها إياه.

ـ جميع المخلوقات هي في ذاتها فيها كل الصفات المذمومة وما عند المخلوقات من صفات حميدة هي عطاء من الخالق وليست أمور في ذاتها، فالمخلوقات في ذاتها لا تمتلك شيئًا وليس لها حول أو قوة أو علم، كما أن الذي لديه صفات حميدة معرضة لأن تسلب منه فهذه صفات ذم، وجميع الصفات الحميدة هي للخالق وحده، فهي صفات ذاتية في ذات الخالق سبحانه لم يكتسبها من أحد ولم يعطيها أحد له ولا يستطيع أحد أن يسلبها منه سبحانه، إذن فلا يُحب لذاته إلا الله، وجميع المخلوقات يبغضها الإنسان لذاتها لضعفها ونقصها، وما يحبه الإنسان في المخلوقات هو من حب الله أي هو حب في الله وليس حب لذات المخلوق؛ لأن المخلوق في ذاته لا يملك ولا يعلم شيئًا وما عنده من إرادة هي عطاء من الله ومعرضة لأن يسلبها الله منه في أي وقت، وحب الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو حب في الله أي هو من حب الله تعالى وكذلك حب المؤمنين.

ـ فالحب الحقيقي هو فقط لله لأن كل أحد غير الله هو ضعيف وما عنده من قدرة إنما هي عطاء من الله، والخوف الحقيقي والرجاء الحقيقي هو من الله فقط لأن كل ما سوى الله لا ينفع ولا يضر ولا يملك ثوابا ولا عقابا، ففي الحديث: ((يا غلام! إني أعلمك كلمات احفظ الله يحفظك احفظ الله تجده تجاهك إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك بشيء إلا قد كتبه الله عليك جفت الأقلام ورفعت الصحف))(٢).

(١) البقرة: ١٦٥
(٢) تحقيق الألباني: صحيح (انظر حديث رقم: ٧٩٥٧ في صحيح الجامع)

ـ اليقين الحقيقي بصفات الانعام:

ـ الأصل أن الإنسان محروم من كل النعم ثم أعطاه الله هذه النعم، وإذا حُرم الإنسان من كل النعم فهو ميت أو عدم؛ لأن كل شيء هو نِعم للإنسان، فالأصل أنك أعمى ثم أبصرت، فانظر كيف يشعر إنسان أعمى إذا أبصر، إنه عندئذ فقط يشعر بنعمة البصر، ويشعر بحب عميق جدًا لمن أنعم عليه بأن جعله يبصر، وهكذا في كل النعم: ((كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ))(١).

ـ إذا لم يكن لديك شيئًا على الإطلاق من طعام أو شراب وأتاك أحد بشربة ماء فأنت حينئذ تكون ممتنًا شاكرًا، وهذا الماء بالنسبة لك هو نعيم ونعمة كبيرة؛ لأنه جاءك ولم تكن تستحقه وهو ذو قيمة كبيرة وأنت في احتياج كبير له، فلابد أن تشعر بأنك تعيش في نعيم مهما كان حالك من الفقر والمرض.

ـ فالنعم أمانة أو عارية يستردها صاحبها وهو الله سبحانه في أي وقت شاء، لذلك فأنت تشكر الله لما أعطاك، ولا تكرهه لما سلب منك؛ لأنه أعطاك أمانة تمتعت بها فترة من الزمن بغير استحقاق منك، فأنت تشكره لما استفدت به من هذه النعمة خلال هذه الفترة، وكذلك لا يحزن العاقل إذا فقد نعمة؛ لأنه لا يملك شيئًا أصلًا فهذا هو الأمر الطبيعي بالنسبة له.

ـ فيتحقق الشعور بأن الله هو المالك وأن له صفات الإنعام بأن يشعر الإنسان بعظمة نعم الله عليه، وبمدى احتياجه إلى هذه النعم وأنه لا تقوم حياته بغيرها وأنه غير مستحق لأي منها، وأنه لم يحصل عليها لا من كسب ولا كد ولا تعب فهذه مجرد أسباب وإنما هذه النعم هي محض تكرم وإنعام من الله العظيم إلى العبد الفقير المعدوم الذي لا يملك حتى نفسه.

ـ أنت إذا طُلِب منك أن تبيع عينك مقابل مائة ألف جنيه فهل توافق؟ طبعًا لا، وإذا طلب منك أن تبيع سمعك مقابل مائة ألف جنيه فهل توافق؟ طبعًا

---

(١) البقرة: ٢٨

لا، وهكذا، إذن أنت تملك مئات الآلاف من الجنيهات، ولا يعرف قيمة النعمة إلا من فقدها.

ـ إذا سلبت النعم من الإنسان فأصبح بغير عين ولا أنف ولا مال ولا سلطان فعندئذ يشعر بالضعف والعجز والنقص والخضوع، وإذا لم تسلب هذه النعم من الإنسان فينبغي أن يشعر بنفس هذه المشاعر (أي بالضعف والعجز والنقص والخضوع) لأنها ليست ملكًا له، فحقيقته أنه معدوم مسلوب النعم لا يملك شيئًا، وينبغي عليه أن يشعر بالانهزام والاستسلام والتذلل لمن يعطي هذه النعم له، وينبغي أن يشعر أن الذي يعطيه هذه النعم قوي متكبر ومتعالٍ بما يمتلك من هذه النعم التي يعطيها لهذا الفقير المحتاج المسكين الذليل، كما ينبغي أن يشعر بالحب لمن يمن عليه ويتكرم عليه ويتفضل عليه بهذا الإحسان بغير أن يكون مستحقًا لهذا العطاء، كما ينبغي أن يشعر أنه لا يستطيع هو بنفسه مهما سعى وعمل أن يحصل على هذه النعم ويجلبها لنفسه فيشعر بالتوكل والاعتماد على من يعطيها له.

ـ فإذا لم يشعر الإنسان بهذه المشاعر تجاه الخالق، فهذا معناه أنه لا يزال غافلًا لا يعرف معنى (الخالق) معرفة حقيقية.

ـ لو أن رجلًا أعطاك مالًا وبيتًا ومرتبًا شهريًا وزوجك وتكفل برعايتك وتودد إليك فلماذا لا تحبه؟ فيجب عليك أولًا أن تشعر بالتجرد والاحتياج إلى النعم وأنك لم تأتِ بالنعم من كدك أو تعبك وأنها ليست ملكًا لك وأنك في أمس الحاجة إليها، ثم تتصور أن أحدًا يعطيك هذه اللقمة التي تأكلها عن جوع واحتياج وبدون ثمن ولا مقابل فتحبه، وكذلك تصور أن أحدًا يعطيك ما تلبس وما تملك من عنده وبلا مقابل، إنك عندئذ تشعر بالحب له، أما إذا كنت تتصور أن ما عندك إنما هو من كدك وتعبك وأنه ملك لك أو أن أحدًا أعطاك حقًا لك وواجبًا عليه وهو ملك لك فلن تشعر بالحب لله.

ـ وتصور أنك تقابلت مع شخص هو الذي كان قد أنفق عليك ورعاك طوال سنوات عمرك منذ أن كنت رضيعًا وأعطاك السكن الذي تسكن

فيه وكل شيء فبماذا تشعر؟ ولماذا لا تجد مثل هذا الشعور والله هو المالك لكل شيء المنعم عليك وأنت بين يديه ولا تغيب عنه طول وقتك.

ـ وتصور لو أنك ذهبت إلى مكان ما وقيل لك أن مصاريف الإقامة والطعام والشراب والملبس على حساب فلان، تصور فعلًا أن إقامتك في هذه الدنيا مدفوعة الحساب (فأنت لا تملك أن تدفع حساب شربة ماء واحدة) إذا لماذا لا تحب الله؟ ولماذا تتوكل على غير الله كأن تعتمد على نفسك؟ ولماذا يكون كل همك في إحضار الرزق؟

ـ إذا شعرت فعلًا بأن النعم من الله فإنك إذا أكلت أكلة أو شربت شربة فإنك تستشعر أن هذه الأكلة أو هذه الشربة هي ملك لله ليس لك فيها حق، ولم تستطع أن تأكل اللقمة أو تشرب الشربة إلا بعد أن أذن الله لك بذلك، وكذلك تستشعر أن السكن الذي تسكن فيه ليس خاصًا بك وملكًا لك وإنما هو ملك لله ومحض تكرم من الله عليك، بل إن يدك وجسمك ليس ملكًا لك وإنما هو ملك لله تعالى وكونه معك فهو محض تكرم من الله عليك.

ـ من صفات العظمة الصفات التي فيها نفع للإنسان كالرب والوكيل والرزاق والكريم والمنعم والمجيب والمغيث والشافي والرحمن والرحيم والغفور.

ـ حقيقة الانسان أنه عاجز عن القيام بأمر نفسه، فإذا وجد من يتولى عنه شئونه ويمده بما يحتاجه وبلا مقابل فبماذا يشعر تجاهه؟، والله سخر للإنسان كل شيء ليكون فيه النفع له، ولا يعاقبه على سيئاته إذا تاب وهكذا.

ـ معنى أن الله هو المالك لكل شيء:

ـ لو أن إنسانًا وجد مالًا في الطريق فأخذه واعتبر أن هذا المال ليس له صاحب واعتبره ملكًا له، فهذا ما يحدث مع الغافل، فالله وضع في الأرض بترول ومعادن وزروع وبهائم بقصد أنها نِعم للإنسان، والإنسان وجد هذه الأشياء وتجاهل أن هذه الأشياء لها صاحب يملكها فأخذها واعتبرها ملكًا له فاغتر بنفسه.

ـ أما العاقل فينتبه إلى أن الله هو مالكها وأنها مهداة إليه من الخالق وهذا معناه أن ملكيتها لا تزال لله رغم أنه يستفيد منها.

ـ فالمالك للشيء هو الذي صنعه وقدر على إيجاده لنفسه بقدرته، أما الذي وجد شيئًا في الطريق فهو ليس بمالك، والسعي على الرزق هو مجرد أنه يأخذ ما وضع له من رزق وليس معناه أنه هو الذي أوجده لنفسه من كده وتعبه.

ـ فالإنسان لم يصنع الزروع ولم يصنع البهائم ولم يصنع المعادن في باطن الأرض وإنما هو وجدها واكتشفها، وهي موضوعة بقصد أن تكون مفيدة للإنسان أي مسخرة له.

ـ إن هذا الكون الهائل لابد له من خالق، والذي يخلق شيئًا فإنه يملكه، إذن فهو المالك لكل شيء.

ـ وملكية الإنسان للأشياء هي مسألة مجازية فقط، فالإنسان ليس له بيت يأويه وإنما يسكن في ملك الله ويأكل من رزق الله.

ـ فكل شيء ملك لله، وهذا معناه أن عقود التمليك التي عندنا في الدنيا مجازية للتعامل بيننا في الدنيا فقط وليست عقود حقيقية، لأنه في الحقيقة لا أحد يملك شيئًا فالله هو المالك لكل شيء وإنما هي أمانة وعارية ملك لله ويستردها الله منا وقتما يشاء، لذلك فمَنْ اعتقد أنه يملك شيئًا ملكًا حقيقيًا فقد أشرك: ((وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ))(١)، ((ألا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ))(٢)، ((وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ))(٣)، ((قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الأمر فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ))(٤).

ـ إن كل ما عندك وكل ما معك من مال ومسكن وزوجة وأولاد وكل النعم وكل شيء ملكًا لله تعالى بل أنت نفسك ملكًا لله؛ لأن الذي خلق شيئًا

---

(١) النور: ٤٢
(٢) يونس: ٦٦
(٣) النمل: ٩١
(٤) يونس: ٣١

فهو يملكه، ولكن الإنسان يظن أن ما به من يد وعين وأنف... إلخ ملكًا له.

ـ فالمال ملك لله وليس من كدك وتعبك: ((وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ))(1)، ((وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ))(2).

ـ كل ما يعمله الإنسان من عمارات وسيارات وغير ذلك فكل ذلك مصدره مادة الأرض أو من النبات أو من الحيوان، وكل ذلك ملك لله تعالى، ففي تفسير الطبري: ((عن قتادة: {والله خلقكم وما تعملون} بأيديكم))(3).

ـ والمخترعات تنشأ من تطويع مواد الأرض، وقابلية تحويل المواد من مادة إلى مادة أخرى هي من خواص أودعها الله فيها فقد سخرها الله للإنسان لتقبل التحويل إلى مادة أخرى: ((أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ))(4)، ((وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جميعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ))(5).

ـ أعضاء الإنسان من أنف وعين وكلية... إلخ هي ملك لله: ((قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الأمر فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ))(6).

ـ والطعام الذي تأكله ليس ملكًا لك ولم تحضره من كدك وتعبك إنما هو ملك لله وهو الذي أنعم به عليك، وكذلك الملابس التي تلبسها هي ملكًا لله وليست ملكًا لك وقد أنعم الله بها عليك، لذلك ففي الحديث: ((من أكل طعاما ثم قال: الحمد لله الذي أطعمني هذا الطعام ورزقنيه من غير حول مني ولا قوة غفر له ما تقدم من ذنبه ومن لبس ثوبا فقال: الحمد لله الذي

(1) النور: ٣٣
(2) الحديد: ٧
(3) تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (٢١/ ٧٠)
(4) الحج: ٦٥
(5) الجاثية: ١٣
(6) يونس: ٣١

كساني هذا ورزقنيه من غير حول مني و لا قوة غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر))[١].

ـ وفي الحديث القدسي: ((يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته فاستهدوني أهدكم، يا عبادي كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعموني أطعمكم، يا عبادي كلكم عارٍ إلا من كسوته فاستكسوني أكسكم))[٢].

ـ اليقين الحقيقي بأن الله هو المالك لكل شيء:

ـ أثر اليقين بأن الله هو المالك هو الشعور بالخضوع الكوني والرضا بقضاء الله وقدره والتوكل على الله، والخضوع طوعا بالقلب والجوارح لأن هذا حقه، ويتضح ذلك كالتالي:

ـ الملكية قوة وعدم الملكية ضعف، فالذي لا يملك مالًا ولا متاعًا ويشعر بملكية كل شيء لله يشعر بافتقاره وضعفه أمام الله تعالى، ولن يخضع الإنسان طالما أنه يشعر بأنه يمتلك، فالنفس تأبى أن تنكسر وتريد أن تكون هي المالكة ولا تريد أن يمن أحد عليها بعطاء أو يتكرم عليها بفضل، وأصعب شعور على النفس هو الشعور بالذل.

ـ الإنسان مغرور بنفسه وبالدنيا، فعندما يعلم بأنه ضعيف ولا يملك شيئًا وبأن الدنيا ضئيلة فانية يكون شعوره مثل شعور الإنسان الذي تخسر تجارته ويفقد وظيفته ويتركه أهله ويعيش عالة على الناس، ويكون سلوكه سلوك الذي لا يستطيع أن يفعل شيء وهو معتمد على الله في كل شيء، وهذا لا ينفي أخذه بالأسباب.

ـ لابد أن تشعر بأنك عاري من كل شيء ومحتاج إلى غيرك أي أنك أولا تنفي كل شيء من نفسك وثانيا تثبت وتنسب كل شيء لله، أي الرضا بأن الله له كل شيء، وأنك جزءا من ملكه وهو يقوم بأمرك، وأنك ذليل إلى الله محتاج إليه، فالله هو المالك لكل شيء حتى النفس الذي تتنفسه، وأنت محتاج إليه فمن غيره تموت وتهلك.

---

(١) تحقيق الألباني: حسن (انظر حديث رقم: ٦٠٨٦ في صحيح الجامع)
(٢) أخرجه مسلم (٢٥٧٧)

ـ فإذا لم يتوكل الانسان على الله فيقينه بأن الله هو المالك هو يقين كاذب، فطالما أن الإنسان يظن أن ما عنده من قوة ومال وقدرات مادية ومعنوية وصحة وهواء ....الخ هي ملكا له فلن يشعر بالحاجة إلى الله ليعطيه هذه الأشياء، يقول تعالى: ((كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى (٦) أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى))(١)، ففي ظنه أنه يمتلك من أسباب القوة ما يجعله في غنى عنه ـ سبحانه ـ ولكن عندما يستبدل حاله من اليسر إلى العسر فإنه يتجه بكليته إلى الله ـ عز وجل ـ بعد أن زالت عنه عوارض القوة وعاش في حقيقة فقره وضعفه واستشعر حاجته الماسة إليه سبحانه، فتراه يعود إليه متضرعا منكسرا مخلصا له الدين: ((وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ (٥٣) ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ (٥٤) لِيَكْفُرُواْ بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُواْ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ))(٢)، ((هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أنهم أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ))(٣).

ـ إذا سلبت النعم من الإنسان فأصبح بغير عين ولا أنف ولا مال ولا سلطان فعندئذ يشعر بالضعف والعجز والنقص والخضوع، وإذا لم تسلب هذه النعم من الإنسان فينبغي أن يشعر بنفس هذه المشاعر (أي بالضعف والعجز والنقص والخضوع الكوني) لأنها ليست ملكا له، فحقيقته أنه معدوم مسلوب النعم لا يملك شيئا، وينبغي عليه أن يشعر بالانهزام والاستسلام والتذلل لمن يعطي هذه النعم له، وينبغي أن يشعر أن الذي يعطيه هذه النعم قوي متكبر ومتعالي بما يمتلك من هذه النعم التي يعطيها لهذا الفقير المحتاج المسكين الذليل، كما ينبغي أن يشعر بالحب لمن يمن عليه ويتكرم عليه ويتفضل عليه بهذا الإحسان بغير أن يكون مستحقا لهذا العطاء، كما ينبغي أن يشعر أنه لا يستطيع هو بنفسه مهما سعى

(١) العلق: ٦، ٧
(٢) النحل: ٥٣ ، ٥٤
(٣) يونس: ٢٢

وعمل أن يحصل على هذه النعم ويجلبها لنفسه فيشعر بالتوكل والاعتماد على من يعطيها له.

ـ معنى أن الله هو المالك أي أن الله له ملكية كل شيء، وهذا معناه أن يتجرد الإنسان عن كل ما يملك وعن نفسه لينسب ذلك إلى الله المالك الحقيقي فيشعر أن كل ما عنده هو محض تكرم وإنعام من الله فيحبه ويذل لعطاءه مدين له بالولاء مرهونا وأسيرا لفضله منكسر النفس غير حر لأنه عنده النقص والعوز معترفا بذلك غير قادر على أن يقيت نفسه (فالله هو المقيت أي الذي يعطيه القوت) والله يمده باللقمة التي يأكلها وهو أسير وعبد لإحسانه منكسر المشاعر يشعر بالعجز أمامه ويشعر بأنه ما له حول ولا قوة.

ـ الإنسان لا يملك شيئًا ولا يستحق شيئًا، وبالتالي إذا لم يجد غير لقمة صغيرة لا تسد جوفه فإنه يكون سعيدًا مسرورًا بها؛ لأن الأصل أنه لا يمتلك شيئًا، فما عنده من عين وأنف وما عنده من مال وزوجة وأولاد وكل شيء هو ملك لله وهو عطاء من الله للإنسان، وبالتالي يشعر الإنسان بالسعادة والراحة ولو كان في أشد الأزمات والمحن لأنه أصلًا لم يكن مالكًا لأي شيء افتقده، فالرضا بالقضاء والقدر والرضا بالرزق هو شعور نفسي بالراحة والطمأنينة.

ـ مالك الشيء له الحق في أن يفعل بما يملك ما يشاء، بل إن الله لو عذب جميع الخلق لعذبهم وهو غير ظالم لهم لأنه مالكهم له الحق أن يفعل بما يملك ما يشاء ففي الحديث: ((لو أن الله عذب أهل سماواته وأهل أرضه لعذبهم وهو غير ظالم لهم، ولو رحمهم لكانت رحمته خيرا لهم من أعمالهم، ولو كان لك مثل أحد ذهبا أو مثل جبل أحد ذهبا تنفقه في سبيل الله ما قبله منك حتى تؤمن بالقدر كله فتعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك وما أخطأك لم يكن ليصيبك وأنك إن مت على غير هذا دخلت النار))[١].

ـ فالذي يعرف أن الله هو المالك معرفة حقيقية فإنه يستسلم لله متقبلا أي شيء يحدث له، فلا يحزن بشيء ولا يفرح بشيء، فهو لا يملك شيئا

(١) تحقيق الألباني: صحيح (ظلال: ١٤٥، المشكاة: ١١٥)

حتى يحزن على فقده، فالإنسان كالدمية يفعل بها صاحبها ما يشاء، والاستكبار معناه أن الإنسان يرفض أن يكون كالدمية يفعل بها صاحبها ما يشاء فلا يريد أن يتحكم فيه أحد فيريد أن يكون حرا وليس عبدا، فعدم الرضا بالقضاء والقدر دليل على أن اليقين بأن الله هو المالك هو يقين كاذب.

ـ من أهم المشاعر الناشئة عن المعرفة الحقيقية بأن الله هو المالك هو عدم الخوف من أي ابتلاء ولو فقد كل شيء دفعة واحدة، لأن الإنسان إذا فقد شيئًا لا يخصه ولا يملكه لم يبكي عليه، فما عنده من أمانة يأخذها صاحبها؛ لأنها تكون تحت تصرف صاحبها سواء بقيت معك أو أخذها منك.

ـ فإذا لم يشعر الإنسان بهذه المشاعر تجاه الخالق، فهذا معناه أنه يشعر بأنه مالك لهذه النعم وأنه حصل عليها بكده وتعبه، أو أنها موجودة من تلقاء نفسها أو تجاهل الشعور بقيمة ملكيتها لله تعالى، أي أن الإنسان يقول عندئذ بمشاعره أن الله ليس هو الرزاق الكريم المنعم الوهاب، وإنما هذه النعم ملكا للإنسان.

ـ عندما يشعر الإنسان أن كل شيء بقدر الله ومشيئته، وأن الخالق من حقه أن يفعل بمخلوقه ما يشاء ويأمره بما يشاء، فإنه يرضى بما يفعله الله ويسلم نفسه لله يفعل بها ما يشاء ويطيع أوامره، فيعيش في حالة من الارتياح والسعادة النفسية، فهو لا يقلق بشأن ما حدث أو ما سيحدث فكله بقدر الله، فيعمل وهو هادئ مطمئن قد أسلم أمره لله وتوكل عليه سبحانه، فالإنسان يشعر بالسعادة والراحة ولو كان في أشد الأزمات والمحن لأنه أصلا لم يكن مالكا لأي شيء افتقده، فالرضا بالقضاء والقدر هو شعور نفسي بالراحة والطمأنينة.

ـ وكل من شعر بمدى عظمة الله وضآلة نفسه تعلم الأدب مع الله وعلم أن لله أن يفعل ما يشاء وشعر بالمهابة من عظمته ولم يقصر في عبادته حياء منه.

ـ تصور معنى الملك والقاهر والقهار (الخضوع الكوني):

ـ معنى (الملك) أي النَّافِذ الأمر فِي ملكه، فهو يقدر على غيره، وغيره لا يقدرون عليه، ولأن الله يقدر على ملوك الدنيا وأمره نافذ فيهم فهم في الحقيقة ليسوا بملوك، ففي الحديث: ((يقبض الله الأرض يوم القيامة ويطوي السموات بيمينه، ثم يقول: أنا الملك، أين ملوك الأرض؟))[1].

ـ فالملك والقاهر والقهار والمهيمن والمسيطر أي الذي له السيادة المطلقة والسلطة الكاملة فهو يستطيع أن يعمل أي شيء لأي أحد، فيجازي هذا ويعاقب هذا ويأمر بأي أمر فينفذ فورًا، فله قدرات أن يفعل أي شيء ويخضع له كل شيء فلا يستطيع أحد أن يخرج عن أمره، فهو الذي يهدي وهو الذي يضل وهو الذي يشفي وهو الذي يمرض وهو الذي يعاقب ويثيب ومشيئته فوق مشيئة الإنسان: ((وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ))[2].

ـ تصور أن هناك أحدًا ما ذو قوة قاهرة يمكن أن يقضي عليك ويزهق روحك فبماذا تشعر عندما تتعامل معه أو يأمرك بشيء؟، إن الله هو القهار الجبار الذي سوف يزهق روحك في أي وقت يحدده لك ولن تفلت منه (فهو المميت) وهو يراك الآن ولن تستطيع أن تفلت منه أو تهرب عن نظره، فلماذا لا تجد مثل هذا الشعور؟ بل إن الله هو الذي يميتك كل يوم ويحييك فأين قدرتك وقوتك وإرادتك وأنت نائم؟!، فلماذا لا تشعر بالاستسلام لمَنْ يقهرك ويقدر عليك كل يوم وكل لحظة؟، ولماذا لا تشعر أنك مقبل على حياة أبدية؟، فالذي يحييك كل يوم سوف يحييك يوم الدين والذي يميتك كل يوم سوف يميتك ويسلب منك كل شيء، فلماذا لا تشعر بالاستسلام والخضوع لله؟ ((اللَّهُ يَتَوَفَّى الأنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إلى أَجَلٍ مُسَمّىً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ))[3].

---

(١) تحقيق الألباني: صحيح (انظر حديث رقم: ٨١٢٥ في صحيح الجامع)
(٢) التكوير: ٢٩
(٣) الزمر: ٤٢

ـ فالله هو القهار المسيطر، والعبد يكون مقهورا واقعا تحت سيطرته، والله يكون قادرا والعبد لا يقدر على شيء، فالذي يستطيع أن يسيطر على غيره ويقدر عليه ويستطيع أن يعطيه أو يمنعه ويحرمه فهو قوي مسيطر والآخر ضعيف خاضع، فالله هو الملك على كل الناس وكل شيء، والمسيطر على كل الناس وكل شيء، ويستطيع أن يهلك الناس أو يعطيهم أو يمنعهم، وهذا يستلزم قدرة وعلم على عمل ذلك الأمر.

ـ أثر اليقين بالخضوع الكوني (الوقوع تحت السيطرة والهيمنة) هو عدم التعلق بالنفس:

ـ هناك صفات كثيرة تدعو إلى تحقير شأن النفس والشعور بالذل، لكن من أشد هذه الصفات هي الوقوع تحت السيطرة والهيمنة من الغير.

ـ الانسان خاضع لله رغما عنه، فقدرة الله مسيطرة على الانسان وكل شيء، فالإنسان لا يستطيع أن يتنفس الا بأمر الله ولا يستطيع أن يرفع المرض أو الموت عن نفسه، وما يحدث له من خير أو شر هو مقدر له، فهو خاضع لأمر الله رغما عنه.

ـ فالخضوع لأمر الله الكوني معناه أن كل المخلوقات خاضعة لله قهرا لا تستطيع الخروج عن أمر الله، ومعناه بأننا واقعون تحت سيطرة قوة قاهرة أكبر من قوى العالم، وأن كل الأمور وكل شيء يخضع لهيمنة الله وسيطرته خضوعًا كاملًا، فنحن وكل ما عندنا عبارة عن جزء من ممتلكاته سبحانه وكل أمرنا بيده، وهذا معناه الشعور بأننا ضعفاء لا نملك شيئًا ولا حتى أنفسنا، ولا نستطيع أن نجلب أي نفع لأنفسنا، فمن عرف أنه خاضع لأمر الله الكوني عرف ضعفه وخضع لأمر الله الشرعي.

ـ والخضوع لأمر الله الكوني هو عبادة عامة، فهي عامة لجميع الخلق، فكلهم عباد الله، المؤمن والكافر، والفاسق والمنافق، بمعنى أنهم تحت تصرفه وقهره، فلا يستطيع أحد أن يخرج عن قبضته وسلطانه؛ قال تعالى: ((إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا))[١]،

(١) مريم: ٩٣

((إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ))(١)، ((أَأَنْتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ))(٢).

ـ الإنسان بداخله متكبر، فإذا انكسر هذا التكبر والغرور بالنفس شعر الإنسان بضعف قدرته وعجزه أمام قدرة الله وشعر بالاستسلام والاستكانة والانكسار والانهزام وشعر كأن أحدًا سلب منه إرادته فأصبح تابعًا منقادًا، فيشعر بعجزه أمام قدرة الله ويشعر بأنه واقع تحت تصرف من له القدرة عليه وأنه لا يستطيع أن يقوم بأمر نفسه ولا يستطيع أن يتنفس إلا بأمر الله.

ـ الانسان ضعيف لا يستطيع أن يدفع عن نفسه ضرا أو يجلب لنفسه نفعا، وكل ما يحدث له من خير أو شر هو بقضاء الله وقدره وبالتالي يشعر بالخضوع لقضاء الله وقدره.

ـ لقد جعل الله فلانًا غنيًا وفلانًا فقيرًا، وفلانًا يتعب في عمله ورزقه قليل، وفلانًا لا يعمل أو عمله قليل ورزقه كبير، وفلان أجاب الله دعاءه رغم معاصيه وفلان لم يستجب له رغم تقواه، وفلان يُبتلى ويزيده الله ابتلاءً رغم دعائه وعبادته، وفلان يؤذي الناس في دنياهم ودينهم ويظلمهم ويزيده الله في الترقي في المناصب والمزيد من الدنيا فيتمكن من ظلمهم أكثر، وفلان حرمه الله من البنين، وفلان أعطاه الكثير، وفلان ترك عملًا لأنه كان يكسب منه مالًا حرامًا ثم سعى للبحث عن عمل فلم يجد.

ـ طالما أن الإنسان مع الله ويطيعه فلابد أن يكون الله معه، ولكن قد يظن الإنسان أن ذلك معناه أنه لابد أن ينقذه الله من الشدائد ويعطيه من الدنيا ويستجيب له فورًا.

ـ ما يحدث للإنسان من ضرر هو بالنسبة للإنسان ضرر لكن حقيقته فيه خير للإنسان لا يعلمه، فالله لا يصدر عنه إلا كل خير، فمن علم ذلك أحب الله ورضي بالخضوع الكوني له حبا له.

****

(١) غافر: ٤٨
(٢) الفرقان: ١٧

ـ اليقين الكاذب بأن الأسباب لا تنفع ولا تضر وبأن الله هو الوكيل والرزاق والنافع الضار:

ـ أنت مطالب بأن تأخذ الدواء عندما تمرض لأن الله أمر بهذا رغم أن الدواء لا يشفي، فأنت ترجو من الله أن يشفيك ولست ترجو من الدواء أن يشفيك، فإذا تم الشفاء فمن الله وليس من الدواء.

ـ قد يوقن الانسان بأن الأسباب لا تنفع ولا تضر لكن يراها عظيمة، فتعامله مع الأسباب يقول بأن الأسباب هي التي أوجدت وصنعت ما يحدث في الاشياء، وإن كان مقتنعًا أن الخالق هو الذي أوجدها.

ـ فمثلا هو يوقن بأن الفاعل للابتلاءات هو الله لكن لسان حاله يقول بأن الفاعل للابتلاءات هي الأسباب، فالمرض بسبب الفيروس وحرارة الجو مثلًا، وينسى من الذي صنع الفيروس وجعله يقدر على الإنسان ويجعله ضعيفًا ومريضًا، ويحسب أن سبب تعرض السفينة للانقلاب هو الريح والأمواج وينسى من الذي يسير الريح، ويتصور أن الزمن هو الفاعل للشيخوخة، وأن المال يأتي بالسبب وليس عطاء من الله وهكذا، فقلبه معلق بالأسباب وحبه وخوفه ورجاءه في الأسباب واعتماده على الأسباب، و يتناسى ان المسبب هو الله فيتعامل مع الأمور على أن الأسباب هي التي تفعل الأشياء.

ـ قد يوقن الانسان بأن الله هو الوكيل والرزاق والنافع الضار، ولكن لسان حاله يقول عكس ذلك تماما، فلديه قلق شديد وهم لا يفارقه وخوف شديد بشأن توفير ما يحتاجه وتدبير أعباء الحياة والقيام بمسئولياته تجاه أسرته وأولاده ومشاعره تتعلق بالأسباب أو الناس أو الأشياء حبا وخوفا ورجاء كأنهم هم الذين يعطونه ما يريد، وكذلك عمله في مسارعة ولهث كأن الأسباب هي التي ترزق، فهو بلسان حاله يعتمد على نفسه أو الناس أو الأسباب ويقول بلسان حاله أن الله ليس هو الوكيل والرزاق والنافع الضار.

ـ فقد يتوهم الانسان أنه معتمد على الله ويوقن بذلك تماما ويوقن بأن الأسباب لا تنفع ولا تضر وهو في الحقيقة معتمد على الأسباب، فهو

يتعامل مع الأسباب على أنها هي التي تحقق له ما يريد، فرجاؤه في الأسباب أكبر من رجاؤه في الله أو لا رجاء له إلا في الأسباب، وخوفه من الأسباب أكبر من خوفه من الله أو لا خوف له إلا في الأسباب، وخضوعه لقانون الأسباب أكبر من خضوعه لله أو لا خضوع له إلا في الاسباب، وكل حزنه وفرحه وهمه وأمله في الأسباب، وتأثر مشاعره يعتمد ويتوقف على الأسباب لا على الله.

ـ فقد تكون كل تصرفات الانسان وكل ردود أفعاله وكل مشاعره وكل أقواله وكل كلامه ونقاشاته وكل أعمال جوارحه وكل همومه وتفكيره وكل انفعالاته وردود افعاله وسلوكه وفرحه وحزنه وأمانيه وطموحاته وتطلعاته تتعلق بشأن الرزق والحصول عليه ورغم ذلك يوقن بأن الرزق مضمون وبأن الله هو الوكيل والرزاق والنافع الضار، فهو عندئذ يقين كاذب ولسان حاله يقول بأن الأسباب هي التي تنفع وتضر وليس الله، وبأن الرزق يأتي بالأسباب وليس من الله، وهو عندئذ يتوكل على الأسباب وليس على الله رغم أنه على يقين تام بأنه يتوكل على الله تعالى!.

ـ اليقين الكاذب بأن الله هو الوكيل واليقين الكاذب بأنك تتوكل عليه:

ـ إنعام الله على العبد معناه أن الانسان عاجز عن أن ينفع نفسه، فلا يستطيع أن يعيش أو يتنفس إلا بعطاء الله له، والشعور بالاحتياج للغير هو شعور بالذل والخضوع له، وهو شعور بالاستسلام والانهزام ويشعر بأنه في حاجة إلى من يكفله ويقوم بأمره ويرعاه فيلجأ إلى الله ليستعين به ويحتمي به، فيكون كالطفل كلما احتاج إلى أمر لجأ إلى أبويه وهو يثق بأن أبويه لن يخذلانه؛ لأن القوي بحق لا يخذل الضعيف.

ـ بل إن الانسان لا يعرف ما ينفعه فقد يحسب أنه في احتياج لأمر معين وفيه ضرر له، لذلك فالإنسان يترك الأمر الى الله ليجلب له ما ينفعه ويدفع عنه ما يضره فيسلم أمره كله لله راضيا بما يقدره الله له لأنه يثق أن الله لا يُقَدّر له إلا خيرا، لذلك فالتوكل هو سكون القلب بين يدي الرب يقلبه كيف يشاء، وهو انْطِرَاحُ الْقَلْبِ بَيْنَ يَدَيِ الرَّبِّ كَانْطِرَاحِ الْمَيِّتِ بَيْنَ

يَدِي الْغَاسِلِ بِقَلْبِهِ كَيْفَ يَشَاءُ، وَهُوَ تَرْكُ الِاخْتِيَارِ وَالِاسْتِرْسَالِ مَعَ مَجَارِي الْأَقْدَارِ.

ـ فإذا لم يشعر الانسان بعجزه وضعفه وذل احتياجه للغير (لله تعالى) متوكلا على غيره ليمده بما هو عاجز عنه واغتر بالنعم فتعلق بها بدلا من أن يتعلق بصاحب النعم فيقينه بإنعام الله عليه كاذب.

ـ معنى الوكيل أي الذي يعتمد عليه في قضاء الحاجات، فتكون موقنا أنه لن يستطيع شيء أو أحد أن يقضي حاجات الخلق غير الله تعالى، فإذا أيقن الانسان بان الله وحده هو الذي يقضي له حاجته فإنه يستعين به في قضاء الحاجات من أمور الدنيا والدين.

ـ التوكل على الله هو عدم التوكل على الأسباب سواء كانت هذه الأسباب عبارة عن أعمال أو أشخاص أو خبرة في الأمر أو التفكير أو أي شيء غير الله، مع الأخذ بالأسباب.

ـ التعلق بالأسباب يكشف أنك في حقيقة أمرك تتوكل على الأسباب وليس على الله، ويكشف حقيقة أن يقينك بأن الله هو الوكيل هو يقين كاذب، رغم أنك تتكلم باقتناع بأنك متوكل على الله فهو يقين كاذب، وأنت بلسان حالك تقول بأن الأسباب هي التي تقضي الحاجات وبدونها لا تنقضي.

ـ اليقين الكاذب بالقضاء والقدر:

ـ الانسان يوقن بأن الخالق له أن يفعل في خلقه ما يشاء وبأنه العدل ولا يظلم أحدا وبأنه حكيم في أموره، ولكنه لا يرضى بقضاء الله وقدره، فلا يرضى بأن يعيش حياته بلا إنجاب وغيره ينعمون بالأولاد مثلا أو بأن يعيش حياته معوقا وغيره يجرى في الطرقات ويلعبون الكره أو يتنعمون بالصحة، فعدم الرضا هو اعتراض قلبي على الله تعالى.

ـ فقد يحدث للإنسان مصيبة فيقول الحمد لله ولكن قلبه ساخط غير راضٍ وإن قال: أنا راضٍ، وتجده يقول (الحمد لله) لكنه من باب الروتين والتعود في الكلام، وفي الحقيقة قلبه ساخط، ونحن قد ندعي الصبر، فما ورد في القرآن هو الصبر الجميل وهو حبس القلب عن التسخط وحبس اللسان عن الشكوى، وهو أن تتجرع المر وأنت مبتسم في منتهى الأريحية

والانبساط، فيتقبل الإنسان المصيبة برضا، وهو سكون القلب تحت مدار الأحكام وشعور بالاستسلام والانقياد واطمئنان للعاقبة وانتظار للفرج واحتساب للأجر.

ـ قد ينظر الإنسان إلى أي فعل من أفعال الله كابتلاء مثلًا نظرة اعتراض، أو يرى إنسانًا لا حيلة له ورزقه عظيم فينظر إلى الله نظرة اعتراض، فهذا معناه أنه غير راضٍ بقضاء الله وقدره، فالله لا يسأل لماذا يفعل كذا أو كذا؟

ـ فقد يوقن الانسان بأن الله لا يظلم أحدا لكن إذا ابتلاه الله نظر الى الله نظرة غضب وسخط فقلبه متسخط غير راض وربما يعترض بلسانه أيضا.

ـ فهو يوقن بالقضاء والقدر لكن يتناسى أن ما يحدث له من خير أو شر هو قضاء الله، فاذا أصابه شر أو خير يتعامل معه على أنه صدفة أو حظ أو بسبب كذا أو كذا.

ـ قد يكون الانسان دائم التسخط والتألم الشديد والحزن الشديد ودائم الشكوى، وإذا خسر في تجارة أو أصابه مصاب قد يصاب بسكتة قلبية أو اكتئاب شديد جدًا فهو بذلك يقول بلسان حاله أنه غير راض بقضاء الله وقدره.

ـ إذا رضي الانسان بقضاء الله وقدره لم يحزن على شيء فاته فهو دائما هادئ وسعيد وراض ولا يحمل هم ما حدث أو ما سيحدث.

ـ عندما يشعر الإنسان أن كل شيء بقدر الله ومشيئته، وأن الخالق من حقه أن يفعل بمخلوقه ما يشاء، فإنه يرضى بما يفعله الله ويسلم نفسه لله يفعل بها ما يشاء، فيعيش في حالة من الارتياح والسعادة النفسية، فهو لا يقلق بشأن ما حدث أو ما سيحدث فكله بقدر الله، فيعمل وهو هادئ مطمئن قد أسلم أمره لله وتوكل عليه سبحانه، فالإنسان يشعر بالسعادة والراحة ولو كان في أشد الأزمات والمحن لأنه أصلا لم يكن مالكا لأي شيء افتقده، فالرضا بالقضاء والقدر هو شعور نفسي بالراحة والطمأنينة.

ـ اليقين الكاذب بخضوع الانسان للشيخوخة وتعرضه للأمراض والمحن:

ـ إن كل إنسان عنده اقتناع تام وبلا أدنى شك أنه قد يصل إلى سن الشيخوخة وتضعف قواه أو أنه قد يتعرض لأمراض أو محنة، لكن بلسان المشاعر فكأنما يقول : لن أمرض أو أضعف أو أصل إلى الشيخوخة أو لا أريد أن أمرض أو أضعف أو أصل إلى الشيخوخة ، فهذا في لغة المشاعر هراء ولا يمكن أن يحدث أبدا ! : ((وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ))[١]، إن الإنسان لو انتبه فعلا لأنه قد يتعرض للمرض والمحن لشعر بالخوف والقلق وشعر بمدي ضعف الإنسان وشعر بأن هناك قوة أعلي من الإنسان تفعل به ما تشاء، وشعر بالخضوع لهذه القوة ، ولتغير حاله تماما، ولذلك من الناس من إذا وصل إلى سن الشيخوخة ، أو من النساء من إذا وصلت إلى سن اليأس، أو إذا تعرض لمرض أو محنة فإنه يستنكر ذلك ولا يسلم به ويحدث له اكتئاب شديد لأنه لا يريد لنفسه أن يمرض ولا يريد أن يموت رغم أن الناس من حوله يمرضون ويموتون ، فهو بمشاعره يعترض أولا على إمكانية حدوث المرض أو المحنة، وينشأ عن ذلك أنه يعترض أيضا بمشاعره على الله وأن ذلك مقدر أو بأن هذا ظلم وتعدي من الله عليه بدون وجه حق، ونفس الشعور قد يحدث له عند خروج الروح لأنه يُسلب منه كل شيء.

ـ اليقين الحقيقي بمراقبة الله ومراقبة الملكين لنا:

ـ لو علمت أن هناك كاميرات سرية موضوعة لك في كل مكان وأنت يتم رصدك وتسجيل كل تصرفاتك وحركاتك وسكناتك فهذا يؤدي إلى الخوف الشديد من مهابة الأمر وخطورته، ولو علمت أن هناك بث مباشر الآن لك على شاشة التلفاز فإنك تشعر بالرهبة وقد تتلعثم وترتبك من الرهبة وتتأكد أن مظهرك لائق وأفعالك وأقوالك لائقة، أمَّا لو علمت أن

---

(١) البقرة : ٩٦

الخالق نفسه يراك الآن وفي كل وقت وفي كل مكان طوال حياتك فلا تشعر بالرهبة والحياء فهذا معناه أن الخالق ليس له وجود في مشاعرك.

ـ لو قيل لك أن هناك اثنين من الكائنات الفضائية العملاقة يسيران معك في كل لحظة وهما في حالة اختفاء فلا تستطيع رؤيتهما ويحملان كاميرات مراقبة خفية ويسجلان عليك كل حركة وسكنه وكل كلمة حيث تحاسب على كل شيء، إنك عندئذ تشعر بخطورة الأمر، فأنت تعيش وصورة هذه الكاميرات وهي ترصدك لا تكاد تفارق ذهنك في كل أعمالك، أما لو قيل أن هناك ملكين يسجلان عليك كل شيء فقد تنظر إلى ذلك كما تنظر إلى أمر لا قيمة له أو كأنه أمر لا يخصك فلا تشعر بأي قيمة أو خطورة لهذا الأمر ولا تشعر بالدهشة والتعجب والرهبة من ذلك فهذا يدل على أنك غافل تمامًا عن وجود الملكين معك الآن وفي كل وقت وأن الرقيب والعتيد غير موجودين في مشاعرك.

ـ إن كل إنسان على اقتناع تام بأن هناك رقيبًا وعتيدًا يسيران معه في كل لحظة لا يفارقانه، فهل عنده شعور بأنه مراقب وأن ما قاله وفعله منذ قليل تم تسجيله؟ وهل يشعر بما سيكتبوه في صحيفته الآن وبعد قليل؟ فإذا لم يشعر بشيء من ذلك في حياته فهذا يعني أن الرقيب والعتيد غير موجودين في مشاعره، فالإنسان عندما يتصور أنه مراقب في كل لحظة وأن هناك من يعدون عليه كلماته وكل حركاته يأخذه الشعور بالمهابة، كما أنه عندما يتصور أن اثنين يسيران معه ليسوا من البشر بل أقوى بكثير، وفوق ذلك أنهما لهما القدرة على إخفاء نفسيهما بحيث لا يراهما أحد، ولهما قدرة هائلة أعظم من كل قدرات البشر فهذا يؤدي إلى الشعور بالمهابة من الملكين الرقيب والعتيد بسبب مدى قدرتهما وبسبب خطورة أمر تسجيلهما لكل شيء.

ـ اليقين الحقيقي بوجود الخالق معنا بقدرته وبرؤيته لنا وسمعه لنا في كل لحظة:

ـ لو افترضنا أن هناك رجل مسلح بكافة أنواع الأسلحة وكان في غاية القوة وهو يسير معك في كل لحظة فأنت تحت مراقبته الدائمة وتحت قدرته فيفعل بك ما يريد فبماذا تشعر؟، إنك تشعر بالرهبة والخوف دائما.

ـ ولكن إذا ابتعد عنك هذا الرجل فإنه لا يستطيع أن تصل رؤيته لك ولا أن تصل قدرته عليك.

ـ الله سبحانه يراك مهما كان مكانك على الأرض كأنه معك حتى لو كنت داخل الحجرات وفي الظلام ويسمعك حتى لو تكلمت في سرك كأنه معك، فلا تستطيع أن تهرب من علمه بك: ((وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ))(١)، والله يسمع ويرى ويعلم كل ما يحدث وكل ما يعمله ملايين الخلائق والأشياء في آن واحد، ويعلم دَبِيب النملة السَّوْدَاء على الصَّخْرَة الصماء فِي اللَّيْلَة الظلماء، فهذه قدرة هائلة جدًا: ((وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ))(٢).

ـ فالله سبحانه تصل رؤيته إليك وإلى كل الناس وتصل قدرته عليك وعل كل الناس كأنه مع كل الناس بذاته، فلا تستطيع أن تهرب من علمه بك وقدرته عليك: ((وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ))(٣)، فلابد أن تشعر تجاه الخالق بنفس الشعور تجاه الرجل المسلح الذي يسير معك في كل لحظة بل أكثر بكثير.

ـ هل يستطيع العلم الحديث أن يرصد تحركات أحد الناس من خلال كاميرا تسير معه في ليله ونهاره طوال أيام عمره كلها؟، وهل يستطيع عمل ذلك مع كل البشرية منذ خلق آدم وإلى قيام الساعة؟، وهل يستطيع أن يصنع ذاكرة بحيث يستطيع أن يحدد في اللحظة المعينة منذ ستين عامًا ماذا عمل فلان وأين سقطت ورقة الشجرة التي كانت في مكان ما؟، الله يستطيع ما هو أعظم من ذلك، فالله يعلم ما يفكر فيه الإنسان في هذه اللحظة وما يدور في أذهان البشرية منذ خلق آدم وإلى قيام الساعة، والله يعلم ماذا سيحدث في المستقبل ولا تسأل كيف؟ فهي قدرة الله

(١) الحديد: ٤
(٢) الانعام:٥٩
(٣) الحديد: ٤

سبحانه، والله يسجل كل ما يحدث وبمنتهى الدقة: ((هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ))(١).

ـ علم الخالق بكل ما يحدث في الأرض والسماء ورؤيته وسمعه لكل شيء هي قدرة خارقة وهائلة يقف الإنسان أمامها عاجزًا متحيرًا، فإذا لم ينتبه الإنسان لذلك ويشعر بالمهابة من هول هذه القدرة الهائلة ويتأثر بها بقلبه وجوارحه فهو لا يزال جاهلًا بالله تعالى.

ـ والشعور بالمراقبة يقوي ويضعف حسب الشعور بقوة الرقيب، فلو افترضنا أن الإنسان يراقبه طفل من الأطفال، فلن يعبأ بأوامره وبكلامه ولن يوقره ويحترمه؛ لأنه طفل قوته ضعيفة رغم أنه يعلم أن الطفل يسير معه ويرقب كل ما يفعله، أما إذا افترضنا أن الإنسان يسير معه قوة مسلحة من الجيش بالدبابات من حوله والطائرات الحربية من فوقه والألغام والمتفجرات موضوعة في كل مكان يذهب فيه، فلا يمكن أن ينشغل ذهنه عن هذه الرقابة الهائلة، فقوة الله سبحانه أعظم من كل الجيوش في العالم مجتمعة وهي معك في كل لحظة.

ـ إن قدرة الله فوق مستوى الخيال وأشد رعبًا من قدرة أي شيء مرعب يمكن أن تتصوره، لكن قدرة الله في مشاعر البعض هي شيء عادي جدًا لا خطورة منها ولا مشكلة فيها، فمثلًا الإنسان إذا علم أن المخابرات الأمريكية تهتم بأمره وترسل له قوة مسلحة تتخفى وترصده في كل مكان فإنه قد لا ينام عدة أيام أو قد لا ينام مطلقًا، فما بالك بقدرة الله عليك التي ترصدك في كل مكان وتعد عليك أنفاسك، فالعاقل يكون في حياته قلقًا متوترًا خائفًا منزعجًا وصورة قدرة الله لا تفارق عينه ولا يستطيع أن ينساها، فقدرة الله أشد في خطورتها من قدرة أي شيء مخيف يمكن أن تتصوره.

ـ من الناس مَنْ ليس عنده أي هم بقدرة الله رغم أنها تحيط به لدرجة أنك قد تجد المرء يستغرب ولماذا الهم بمدى قدرة الله ومراقبته؟!، وكأنه لا يوجد أي شيء يدعو للانزعاج!

(١) الجاثية: ٢٩

ـ عدم رؤيتنا للخالق لن يغير من حقيقة الامر شيئا؛ فالله معنا في كل مكان وفي كل لحظة برؤيته لنا وسمعه ما نقول وبقدرته المحيطة بنا ومراقبته لنا حتى ما نفكر فيه: ((وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ))(١)، ((يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بعيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ))(٢)، وهذا أمر مخيف لمن يتصور خطورته ولكن لا يزال البعض يعيش في غيبوبة أو في حالة سكر لم يفق بعد إلى حجم هذا الخطر.

ـ وفي أيسر التفاسير: (({وهو معكم أينما كنتم} أي بعلمه بكم وقدرته عليكم أينما كنتم))(٣)، وفي تفسير مراح لبيد: (({وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ} أي ونحن أقرب إلى الإنسان من العرق الذي يجري فيه الدم، ويصل إلى كل جزء من أجزاء البدن بعلمنا بحاله وبنفوذ قدرتنا فيه، يجري فيه أمرنا كما يجري الدم في عروقه))(٤)، وفي تفسير القرطبي: (({وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ} أَيْ بِالْقُدْرَةِ وَالْعِلْمِ وَالرُّؤْيَةِ، قَالَ عَامِرُ بْنُ عَبْدِ الْقَيْسِ: مَا نَظَرْتُ إلى شيء إِلَّا رَأَيْتُ اللَّهَ تَعَالى أَقْرَبَ إِلَيَّ مِنْهُ))(٥).

ـ قدرة الله تعالى مسيطرة على الإنسان وكل شيء وتجعل الإنسان خاضعًا لها، فمن مدى قدرة الله أنها محيطة بالإنسان ولا يستطيع الإنسان الهروب منها، فالله يقدر عليه في أي مكان وأي وقت ويقدر أن يفعل به أي شيء، كما أن سمع الله وبصره يصله في أي مكان وأي وقت، والله لا يغفل ولا ينام ففي جميع الأوقات يقدر عليك ويسمعك ويراك.

ـ فالإنسان ضعيف لا حول له ولا قوة لا يستطيع أن يهرب من هيمنة الله وسيطرته عليه ومراقبته له ورؤيته له وعلمه به في كل وقت ولا يجد حيلة ليفلت من قدرة الله المحاصرة له فيشعر بالاستسلام والذل

---

(١) البقرة : ٢٣٥
(٢) آل عمران: ٣٠
(٣) أيسر التفاسير للجزائري (٥/ ٢٥٩)
(٤) مراح لبيد لكشف معنى القرآن المجيد (٢/ ٤٤٦)
(٥) تفسير القرطبي (١٧/ ٢٣١)

والخضوع تعظيما لقدرة الله وعلمه الذي بلغ كل شيء وكل حساباته في الحياة سوف تختلف تمامًا.

ـ اليقين الحقيقي بأن الخالق تكلم إلى البشر (اليقين الحقيقي بآيات الله):

ـ ما هو أخطر وأهم حدث في تاريخ البشر؟ هو أن بعض البشر سمعوا كلاما من الخالق نفسه وجاءوا الى الناس فأخبروهم بأن الله تكلم إليهم، وهؤلاء هم الرسل كلفهم الله بتوصيل كلامه إلى البشر جميعا.

ـ لا يمكن أن يخلق الله الناس ويتركهم دون أن يخبرهم بأنه خالقهم وبالهدف من خلقهم، فما الطريقة التي تتوقعها لكي يخبرهم بذلك؟ هل يكلم الناس جميعا فيسمعونه جميعا، والجيل الذي سمع يخبر الجيل الذي بعده، أم يختار أحدا من الناس فيكلمه بصورة مباشرة أو من خلال وحي ويقوم هو بإبلاغ الناس؟، وأراد الله ان يصل كلامه من خلال الرسل.

ـ قد يوقن الانسان بأن الخالق تكلم الى البشر وأن كلامه وصل إلينا من خلال الرسل لكنه إذا لم يتأثر ذهنه وهمه ومشاعره وجوارحه بهذا الحدث الرهيب الذي هو سماع كلام خالق الكون للبشر فهو يقول بلسان حاله بأن الخالق لم يتكلم بشيء للبشر.

ـ كلام الله يسمى بـ (ذكر الله) والانسان يتناسى أنه سمع كلام الله فيقول تعالى: ((اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنْسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ))[١]، ((فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّى أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي))[٢]، ((وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنْتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ (١٧) قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا))[٣]، ((قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا

---

(١) المجادلة: ١٩
(٢) المؤمنون: ١١٠
(٣) الفرقان: ١٧، ١٨

فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى))[١]، ((الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا))[٢].

ـ ونوضح مفهوم التعلق بسماع البشر لكلام الخالق من خلال الرسل كالتالي:

ـ إذا ألقى أحد الرؤساء أو الزعماء أو القادة خطبة فإنك تجد اهتمام الناس والإعلام بكلام وتصريحات الرؤساء والزعماء وتحليل أقوالهم، وذلك لأنه طالما أن الكلام صادر عن مسئول كبير أو عن عظيم فكلامه مهم وعظيم يهتم به الناس، وإذا أهمل الناس وتجاهلوا كلام زعيم من الزعماء فهذا يعني أن ذلك الزعيم ليس ذو أهمية في نظرهم، إذن عظمة الكلام تأتي من عظمة قائلها، فالقرآن هو خطاب الله إلى البشر، فإذا كنت لا تشعر بقدر وعظمة القرآن، فإن القرآن في مشاعرك هو كلام عادي مثل كلام أي شخص عادي، وإن كان في الاقتناع هو كلام الله العظيم وهو القرآن العظيم.

ـ وجود كلام ليس من البشر هو أمر مثير، ونزول كلام من الخالق لأهل الأرض هو أمر في غاية الأهمية والإثارة، ولو علم الناس أن هناك كلامًا سوف ينزل من الخالق في وقت ما لكان العالم كله في ترقب وانتظار لمعرفة هذا الكلام، لكن كل هذا لا يثير دهشة وانتباه الإنسان الغافل الجاهل؛ لأنه غير منتبه لخطورة معنى كلام الله للبشر فهو جاهل بكلام الله رغم يقينه التام بنزول كلام الله للبشر!

ـ فتصور أننا لا نعرف الطريقة التي يصل بها كلام الله إلينا ولم يصلنا شيئًا من كلامه ثم فجأة سمعنا أن أحد الناس قال أنَّه نزل إليه ملك مرسل من عند الله وأبلغه بكلام الله وكلفه تبليغ كلامه ماذا يكون موقفك ورد فعلك؟ إنك سوف تندهش وتنبهر من هول المفاجئة وخطورة الحدث وستشتاق إلى معرفة ماذا يقوله ربنا وماذا يريده منا وستعيش حياتك كلها بناءً على هذا الحدث، فهذا ما كنت تنتظره وتتوقعه.

---

(١) طه: ١٢٦

(٢) الكهف: ١٠١

ـ لو كان القرآن الذي بين أيدينا الآن هو كلام لرجل في عالم الآخرة ينصحنا فيه ويعرفنا بما يكون من أمر الآخرة لكان له شأن عظيم، فما بالك وهو كلام الخالق وهو يخبرنا بما يكون من أمر المستقبل في الآخرة.

ـ تصور رسالة نزلت إلينا من السماء مكتوب فيها: "مِن الله تعالى إلى الناس..." مثلًا فكيف تشعر بكلام الله وكيف تتعامل مع كلام الله من العظمة؟، فإن نزول القرآن من عند الله ليس أمرًا عاديًا وإنما يدعو إلى الشعور بالانبهار والوجل والتعظيم.

ـ ولكنك تجد أن القرآن نزل على الإنسان فلم يتأثر به في حين لو نزل القرآن على جبل لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ: ((لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ))(١)، وما أكثر ما ورد عن الصحابة والتابعين عن تأثرهم بالقرآن لمجرد أنهم شعروا أنه كلام الخالق العظيم سبحانه إلى العبيد من البشر.

ـ إن الذي يحمل مصحفًا ولا ينتبه لخطورة ما يحمل وبالتالي لا يتأثر به ولا يعمل به فهو كمثل الحمار يحمل أسفارا: ((مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا))(٢).

ـ أنت إذا وقفت أمام ملك من الملوك تستمع إليه وهو يكلمك فقد ترتعد فرائصك ويقشعر بدنك ويقف شعر رأسك وانت مطأطئ الرأس، وإذا طلب منك شيئا فقد تتلعثم وترتبك في الرد وذلك من هول وعظمة المتكلم، فما بالك وملك الملوك يتحدث إليك، ففي تفسير البحر المديد: (({إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ}(٢٧٠) خافت واقشعرت لذكره استعظامًا له وهيبة من جلاله))(٣)، ((قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجدًا (١٠٧) وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا (١٠٨) وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا))(٤)، ((لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا

---

(١) الحشر: ٢١
(٢) الجمعة: ٥
(٣) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد (٢/ ٣٠٤)
(٤) الاسراء: ١٠٩

مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ))[١]، ((إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا))[٢].

(١) الحشر: ٢١
(٢) مريم: ٥٨

الخاتمة

ـ لا يمكن لإنسان أن يعيش بغير قضية أساسية تكون هي هدفه التي يحيا بها ويعيش لها ويتجه إليها بمشاعره وهمومه وجوارحه، فهذه القضية هي أكبر ما يدهشه من عظمتها (يراها أعظم ما يكون) وتكون أكبر ما يحبه ويخافه ويرجوه ويتمناه ويتطلع اليه ويحلم به وأكبر ما يشغل همه، وأكبر ما يرتبط به من خلال سلوكه وتصرفاته وردود أفعاله وكلامه وعمله وعلامات فرحه وحزنه، قد تكون تلك القضية التي يتعلق بها ويعيش لها هي المال أو المظاهر أو الشهوات، فإذا لم يكن الخالق والآخرة هي القضية التي يتعلق بها ويعيش لها فهذا معناه عدم وجود أصل العبادة وهو الخضوع (التعلق بغير النفس ورغباتها).

ـ فالإنسان إما أن يتعلق بنفسه أو يتعلق بالغير، والتعلق بالغير هو الخضوع، فالتعلق بالله هو الخضوع، ولا إله بغير خضوع، ووجود الخضوع معناه وجود إله ووجود عبد ووجود دين، وبغير الخضوع فلا معنى لأن يقول الإنسان أنه عبد وأنّ له إله، فإذا رفعنا الخضوع من كلمة " عبد " أصبحت كلمة مفرغة من المعنى، فالعبد هو الخاضع، والذي لا يشعر بأنه خاضع هو لا يريد أن يكون عبدا وهو مستكبر.

ـ كما أن المعنى اللغوي لكمة العبادة وكلمة الدين وكلمة الإسلام هو الخضوع والاستسلام، فأصل الدين التعلق بالله (الخضوع) وظاهر الدين الانتساب للدين والقيام ببعض أعمال الدين، فإذا تم استبدال أصل الدين من التعلق بالله الى التعلق بالدنيا وبقي الظاهر أصبح الدين كأنه لعب ولهو.

ـ لا يكفي الانتساب للإسلام ووجود اليقين والصلاة والصيام حتى يتحقق أصل العبادة، وأصل العبادة الخضوع لله، والخضوع هو التعلق بغير النفس ورغباتها، ويشمل أربعة عناصر هي شدة التأله وتعلق المشاعر والهم والجوارح بالغير.

ـ والمشكلة أن الانسان قد يحسب أنه يعرف الله ويحبه ويخافه ويرجوه ويحسب أن هدفه رضا الله والجنة والحقيقة أنه لا يعرف غير الدنيا ولا يحب ولا يخاف ولا يرجو غيرها ولا هدف له غيرها، كما يحسب أنه يعبد الله وهو لم يحقق أصل العبادة وهو الخضوع لله، وتبقى بعض أعمال ظاهرة مفتعلة أو عادة أو تقليدا أو مجرد مظاهر روتينية، أو ناشئة من تأثره الضعيف الذي لا يصل الى التعلق بالخالق والآخرة، فاحذر وانتبه قبل ألا ينفع الندم.

ـ الهدف من وجود اليقين هو وجود أثره، وأثر اليقين هو أصل العبادة (التعلق بالله – الخضوع)، ولا يمكن تحقيق أصل العبادة إلا من خلال تحقيق اليقين الحقيقي.

ـ الآخرة ولقاء الله تعالى من أخطر ما يمكن ولكن لماذا لا يؤثر فينا ونتأثر به؟ ذلك لأننا نعيش في غيبوبة وهروب وتجاهل للموت وهروب وتجاهل للآخرة وهروب وتجاهل وتغافل عن الله، وهذا الهروب وهذا التجاهل والتغافل لن يغير من حقائق الأمور شيئًا؛ فالخطر قائم ونحن مقبلون عليه رضينا أم أبينا، والأمر خطير وعظيم: ((قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ، أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ))(٢٧٩)، إنك مهما حاولت التغافل والهروب عن الحقيقة والمصير القادم، فإنها أيام قصيرة وغدًا اللقاء رضيت أم لم ترضَ، شعرت بذلك أم لم تشعر، وقد سبقك الكثير إلى هناك، فالقضية حاسمة وخطيرة ولا تحتمل التراخي ولكننا في غفلة، وغدًا تنتهي الحياة فماذا أنت صانع؟!

المحتويات